إ. م. فورستر
المنزل الريفي
رواية

إ. م. فورستر

# المنزل الريفي

(هواردز إند)

«ما عليك إلا أن تربط بين الأشياء»

ترجمها عن الإنجليزية
محمد مفيد الشوباشي

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: Howards End

إ. م. فورستر، ١٩١٠

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة © محمد مفيد الشوباشي

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.

نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

إ. م. فورستر ١٨٧٩-١٩٧٠

المنزل الريفي: رواية / إ. م. فورستر؛ ترجمها من الإنجليزية محمد مفيد الشوباشي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢١.

٤٥٦ ص؛ ٢٢ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٧٤٣٥٥٧

١- القصص الإنجليزية.

أ- الشوباشي، محمد مفيد (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٩٥٣ / ٢٠٢١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

صورة الغلاف: «بورتريه ليدي أجنيو أوف لوكنو» (١٨٩٢) للفنان جون سينجر سارجنت

# المحتويات


الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل السادس عشر
الفصل السابع عشر
الفصل الثامن عشر
الفصل التاسع عشر
الفصل العشرون
الفصل الحادي والعشرون
الفصل الثاني والعشرون
الفصل الثالث والعشرون
الفصل الرابع والعشرون
الفصل الخامس والعشرون
الفصل السادس والعشرون
الفصل السابع والعشرون
الفصل الثامن والعشرون
الفصل التاسع والعشرون
الفصل الثلاثون
الفصل الحادي والثلاثون
الفصل الثاني والثلاثون
الفصل الثالث والثلاثون
الفصل الرابع والثلاثون
الفصل الخامس والثلاثون
الفصل السادس والثلاثون
الفصل السابع والثلاثون
الفصل الثامن والثلاثون
الفصل التاسع والثلاثون
الفصل الأربعون
الفصل الحادي والأربعون
الفصل الثاني والأربعون
الفصل الثالث والأربعون

الفصل الرابع والأربعون
الكاتب
المترجم
ترجمات الكرمة
هوامش

# الفصل الأول

يحسن أن نبدأ بخطاب «هيلين» إلى أختها «مارجريت»:

«هواردز إند»

الثلاثاء

عزيزتي المحبوبة،

لن يكون المنزل هو ما توقعناه. إنه منزل قديم صغير، مبهج في جملته، مبنيٌّ بالطوب الأحمر. فنحن نستطيع بشقِّ النفس أن نحشر أنفسنا فيه الآن. ويعلم الله ماذا نصنع عندما يصل «بول» (الابن الأصغر) غدًا. إنك إذا سرت من الردهة يمينًا أو شمالًا اتجهت إلى غرفة الطعام أو غرفة الاستقبال. والردهة نفسها تستخدم غرفة في واقع الأمر. وإذا فتحت بابًا آخر بها وجدت سلمًا أشبه بسرداب يصعد بك إلى الدور العلوي حيث توجد ثلاث غرف متراصة للنوم. وكذلك توجد ثلاث غرف متراصة على السطح. والمنزل في الحقيقة لا يقتصر على هذا. ولكن ذلك هو كل ما يلاحظه الإنسان: تسع نوافذ إذا ما نظرت من الحديقة الأمامية.

ثم هناك شجرة غرغار جبلي ضخمة جدًّا إذا تطلعت رأيتها إلى يسارك ـ مائلة فوق المنزل ميلًا خفيفًا، وقائمة على الحد الفاصل بين الحديقة والمرج. لقد أحببت هذه الشجرة حبًّا جمًّا. وهناك أيضًا أشجار غرغار عادية، وأشجار بلوط ـ ولا شيء أقبح من أشجار البلوط العادية ـ وأشجار كمثرى، وتفاح، وكرمة. ولكن الحديقة خلت من أشجار التامول الفضية. والآن لا بد لي من أن أنتقل إلى الحديث عن مضيفي ومضيفتي. وأنا لم أرد بحديثي عن المنزل إلا أن أظهر لك أنه ليس كما توقعنا بحال. لماذا استقر في عقولنا أنه يزخر بالأسقف الهرمية والمنحنيات، وأن حديقته ملأى بالمماشي الصفراء؟ أعتقد أن ذلك لا يرجع إلا إلى أننا نقرن بين آل «ويلكوكس» وبين الفنادق باهظة النفقات: السيدة «ويلكوكس» تجر أذيال أثوابها الجميلة في الممرات الطويلة، والسيد «ويلكوكس» ينهر الحمالين، وما إلى ذلك. نحن النساء لسنا منصفات.

سأعود يوم السبت، وسأخبرك عن ميعاد القطار فيما بعد. إنهم مستاؤون مثلي لأنكِ لم تحضري أيضًا. الحق أن «تيبي» متعب جدًّا، فهو يصاب كل شهر بمرض شنيع جديد. كيف أمكن أن يصاب بحمى القش في لندن؟ وحتى

إذا كان قد فعل فيبدو أنه غير هين عليكِ أن تضحي بزيارة كهذه لتستمعي إلى تلميذ يعطس. أخبريه أن «تشارلز ويلكوكس» (ولدهم المقيم هنا) مصاب بحمى القش أيضًا، ولكنه شجاع، ويغضبه كل الغضب أن نسأل عن مرضه. إن رجالًا كرجال أسرة «ويلكوكس» يمكن أن يفيدوا «تيبي» أكبر فائدة. ولكنكِ لن توافقي، وخير لي أن أغير الموضوع.

هذا الخطاب قد طال لأني أكتبه قبل الإفطار. آه، يا لأوراق شجر الكرمة الجميلة! إن المنزل مكسو بكرمة متسلقة. لقد تطلعت إلى خارج الدار في الصباح الباكر. وكانت السيدة «ويلكوكس» قد نزلت إلى الحديقة. وواضح أنها مغرمة بها، فلا عجب أن تبدو متعبة في بعض الأحيان. كانت ترقب أزهار الخشخاش الكبيرة الحُمْرَ وهي تنبثق من أكمامها. ثم اجتازت المخضرة إلى المرج الذي أستطيع أن ألمح ركنه الأيمن. وراحت تجرر ذيلها فوق الحشائش المبتلة، ثم عادت ممتلئة اليدين بدريس تم قطعه أمس. ويبدو لي أنه للأرانب أو ما إليها لأنها لم تكُف عن شمه. إن الهواء هنا مستطاب. وقد صكت أذنيَّ بعد ذلك قرقعةُ الكرات في لعبة الكروكيت وتطلعت ثانية فرأيت «تشارلز ويلكوكس» يتدرب على اللعبة. إنهم مغرمون هنا بجميع الألعاب الرياضية. وسرعان ما بدأ «تشارلز» يعطس، فاضطر إلى التوقف عن اللعب. ثم إذا أنا أسمع قعقعة من جديد، إنه السيد «ويلكوكس» يتدرب. ثم أسمع «أتشو، أتشو»، ويضطر هو أيضًا إلى التوقف. ثم تخرج «إيفي» أيضًا إلى الحديقة، وتؤدي بعض الألعاب الرياضية الخفيفة على آلة معلقة بشجرة برقوق ـ إنهم يفيدون من كل شيء ـ ثم تعطس «أتشو» وتدخل الدار. وأخيرًا تظهر السيدة «ويلكوكس» من جديد، تُجرر ذيلها، وتواصل استنشاق الدريس، والنظر إلى الأزهار. إني أثقل عليكِ بهذا كله لأنكِ قلتِ يومًا «إن الحياة حياة في بعض الأحيان، وهي ليست في أحيان أخرى إلا مسرحية، وعلى المرء أن يتعلم كيف يفرق بين هذه وتلك». وقد كنت إلى الآن أرى في هذا القول دائمًا «هراء «ميج» الذكي». ولكن الحياة هذا الصباح لا تبدو في الحقيقة حياة، بل مسرحية. وقد وجدت تسلية كبرى في رصد حركات أسرة «ويلكوكس»... الآن دخلت السيدة «ويلكوكس» الدار.

سأرتدي [جزء ناقص] وقد ارتدت السيدة «ويلكوكس» ثوبًا من نوع [جزء ناقص] أما «إيفي» فارتدت [جزء ناقص] وهكذا ترين أن البيت ليس بالضبط مكانًا يفعل الإنسان فيه ما يشاء، وهو ما زال يبدو لي ـ إذا أغمضت عينيَّ ـ الفندق كثير الأركان الذي توقعنا. ولكنه ليس كذلك إذا فتحتهما. فالورد البري بديع جدًّا. ويوجد على المخضرة سياج كبير منه، رائع الطول إلى حدٍّ أنه يتهدل منه في أكاليل، ويدق ويلطف في أسفله. وبذلك تستطيعين أن ترَي من خلال ثغراته بطًّا وبقرة. وهذه الحيوانات خاصة بالمزرعة التي لا

توجد دار قريبة منا غير دارها. ها هو ذا الناقوس يدق معلنًا ميعاد الإفطار. لكِ حبي الشديد. ولـ«تيبي» حبي بمقدار. وحبي لخالتي «جولي»؛ ما أكرمها إذ جاءت لتؤنسكِ بصحبتها، ولكن شد ما أضجرتكِ بهذا كله! وبما حررته في هذا الخطاب. سأكتب لكِ ثانية يوم الخميس.

«هيلين»

***

«هواردز إند»

الجمعة

عزيزتي المحبوبة «ميج»،

إني أقضي وقتًا ممتعًا. إني أعجب بهم جميعًا. وإذا كانت السيدة «ويلكوكس» أكثر سكونًا مما كانت عليه في ألمانيا، فإنها ألطف منها في أي وقت مضى، ولم أرَ في حياتي شيئًا مثل إيثارها المستمر، وأجمل ما في الأمر أن أحدًا من الأسرة لا يحاول أن يستغل ذلك. إنهم أسعد وأمرح أسرة يمكن أن تتصوريها. وأنا في الحق أحس أني أوثِّق أواصر الصداقة معهم. والذي يُضحك أنهم يظنونني بلهاء، ويقولون ذلك صراحة ـ أو يقوله السيد «ويلكوكس» على الأقل ـ وعندما يحدث هذا، ولا يهتم المرء به، يكون اختبارًا حسنًا لخلق المرء، أليس كذلك؟ إنه يقول أشنع الأشياء عن حق المرأة في الانتخاب، ويقوله في لطف جم. وعندما قلت إنني أؤمن بالمساواة لم يكن منه إلا أن ضم ذراعيه وصدني صدة لم أتعرض لمثلها من قبل يا «ميج». ألن نتعلم أبدًا أن نكون أقل كلامًا؟ أنا لم أشعر في حياتي بمثل الخجل الشديد الذي شعرت به من نفسي. فقد عجزت عن أن أذكر له زمنًا مضى كان الناس فيه سواسية، بل حتى زمنًا جعلتهم فيه الرغبة في المساواة أكثر سعادة على نحو آخر. لم أستطع أن أنبس بكلمة. إن كل ما فعلته هو أني استخلصت أن فكرة المساواة شيء طيب في كتاب ـ كتاب شعر على الأرجح ـ أو فيما تقولينه أنتِ. بيد أنه حطم الفكرة تحطيمًا على أي حال. وقد فعل السيد «ويلكوكس» ذلك من دون أن يجرح شعوري، كما يفعل كل الأقوياء في الواقع. وأنا من ناحية أخرى أضحك منهم لإصابتهم بحمى القش. إننا نعيش كالديكة المقاتلة. نخرج كل يوم مع «تشارلز» ـ راكبين سيارته ـ إلى قبر تحيط به الأشجار، أو إلى دار ناسك، أو شارع بديع مهَّده ملوك ميرسيا، نلعب التنس، أو مباراة كريكيت، أو البريدج، وفي المساء نُحشر في هذا المنزل البديع. إن العشيرة مجتمعة بأكملها هنا الآن.

والبيت أشبه بِوكر الأرانب. «إيفي» لطيفة جدًّا. هم يريدونني أن أبقى إلى يوم الأحد، وأحسب ألا ضير إذا بقيت. الجو بديع، وكذلك المناظر الطبيعية: المناظر الممتدة غربًا صوب المرتفعات. أشكركِ على رسالتك. احرقي هذه.

المُحبة

«هيلين»

***

«هواردز إند»

يوم الأحد

عزيزتي المحبوبة «ميج»،

لست أدري ماذا ستقولين. «بول» وأنا يحب أحدنا الآخر ـ وهو الابن الأصغر الذي لم يحضر هنا إلا يوم الأربعاء.

## الفصل الثاني

نظرت «مارجريت» إلى رسالة أختها الموجزة على عجل، ودفعتها فوق المائدة إلى خالتها. ومرت لحظة سادها الصمت، ثم تفتحت المسالك وبدأ الحديث يتدفق:

ـ لا أستطيع إنباءكِ بشيء يا خالتي «جولي»، فأنا لا أعلم من الأمر أكثر مما تعلمين. لقد تقابلنا، لم نقابل إلا الأب والأم خارج القُطر خلال الربيع الماضي. وأنا لا أعلم عنهما إلا القليل إلى حد أني كنت أجهل حتى اسم ابنهما. إن الأمر كله...

ولوحت بيدها، وأطلقت ضحكة خفيفة.

ـ في هذه الحالة يكون الأمر مباغتًا كل المباغتة.

ـ من يعلم يا خالتي «جولي»؟ من يعلم؟

ـ ولكني أعني يا عزيزتي «مارجريت» أنه لا يجوز أن نصبح غير عمليين ونحن أمام الوقائع. لا شك أن الأمر مباغت كل المباغتة.

وقالت «مارجريت»:

ـ سأذهب لإحضار رسائلها الأخرى ـ ولكن لا ـ سأتم إفطاري. والواقع أنها ليست معي. إننا قابلنا أسرة «ويلكوكس» خلال رحلة شنيعة قمنا بها من هايدلبرج إلى سباير. كان قد وقر في ذهن «هيلين» وذهني أن في سباير كاتدرائية قديمة عظيمة. ومطران سباير كان أحد ناخبي الإمبراطور السبعة. وأنتِ تعلمين أن «سباير، وماينتز، وكولن»... هذه الأسقفيات الثلاث حكمت في يوم من الأيام وادي «الراين»، وأكسبته اسم «بريست ستريت».

ـ إني لا أزال أشعر بالقلق الشديد من جراء هذه المسألة يا «مارجريت».

ـ اجتاز القطار النهر بجوار مراكب متراصة كالجسر. وبدا لنا كل شيء لأول نظرة بديعًا جدًّا. ولكن أوه، فلم تمر خمس دقائق حتى رأينا كل ما هناك. لقد أتلف الترميم الكاتدرائية، أتلفها كل التلف، ولم يبقَ فيها قيراط واحد من البناء الأصلي. وأضعنا يومًا بطوله هباءً. والتقينا مصادفة بأسرة «ويلكوكس» بينما كنا نأكل الشطائر في الحدائق العامة. وكان أولئك المساكين قد وقعوا هم أيضًا فيما وقعنا فيه، وتوقفوا في سباير بالفعل،

وأعجبهم من «هيلين» إلحاحها عليهم أن يعودوا معنا سريعًا إلى هايدلبرج. والواقع أنهم وافونا في الغد. وقمنا جميعًا ببعض الجولات ركوبًا. وتوثقت معرفتهم بنا إلى حدٍّ سمح لهم بدعوة «هيلين» إلى الذهاب لزيارتهم في بيتهم. على أي حال دعيت أنا أيضًا، ولكن مرض «تيبي» حال دون تلبيتي للدعوة، وعلى ذلك ذهبت إليهم «هيلين» وحدها يوم الاثنين الماضي. هذا كل ما في الأمر. وأنتِ تعرفين الآن كل ما أعرف. إنه شاب طلع علينا من المجهول. وكان المفروض أن تعود يوم السبت، ولكنها أجَّلت عودتها إلى الاثنين، ولعل ذلك يرجع إلى... لست أدري.

وتوقفتْ عن الكلام، وأنصتت إلى أصداء صباح من أصباح لندن. وكان منزلهم يقع في ويكهام بليس، ويسوده الهدوء لأن سدًّا عاليًا من الأبنية كان يفصله عن الشارع العمومي. وهدوء الحي كان يوحي للمرء بما توحيه مياه غدير هادئ. أو على الأرجح مياه خليج تتدفق فيه من بحر غير منظور، وتنحسر عنه في صمت عميق، بينما تهدر أمواج البحر في الخارج. وبرغم أن هذا السد يتألف من عمارات سكنية... غالية الإيجار، تشتمل على مداخل كأنها السراديب تزخر بالبوابين والنخيل، فقد أدى الغرض منه، ووفر للمنازل القديمة المواجهة له قدرًا محدودًا من الهدوء. ولكن هذه المنازل ستُكتسح بدورها حين يحل الأوان، وسيقوم في مكانها سد آخر، إذ يكدِّس الناس أنفسهم طبقات فوق طبقات على تربة لندن الثمينة.

كانت للسيدة «منت» طريقتها في فهم أولاد أختها. وقد حكمت بأن «مارجريت» هستيرية الطبع بعض الشيء، وتحاول بهذا الفيض من الكلام أن تكتسب وقتًا. ورأت من اللباقة أن تأسف على مصير سباير، وقالت إنه لن يغرر بها أحد أبدًا فتزور تلك المدينة. وتطوعت بالقول بأن قواعد ترميم الآثار لا تُفهم فهمًا صحيحًا في ألمانيا. وقالت:

ـ إن الألمان في غاية الدقة، وهذه الدقة لا بأس بها في بعض الأحيان، ولكنها لا تُجدي في أحيانٍ أخرى.

وقالت «مارجريت»:

ـ بالضبط. إن الألمان في غاية الدقة.

وأخذت عيناها تلمعان.

وأسرعت السيدة «منت» إلى القول:

ـ إني بالطبع أعدُّكم يا آل «شليجل» إنجليزًا... إنجليزًا لحمًا ودمًا.

ومالت «مارجريت» إلى أمامٍ وربتت يدها.

ـ وهذا يذكرني بخطاب «هيلين».

ـ آه نعم يا خالتي. أنا أفكر بالفعل في خطاب «هيلين»، أنا أعلم أن عليَّ الذهاب لرؤيتها. أنا أفكر فيها بالفعل، وأعني الذهاب إليها.

وقالت السيدة «منت» وقد سمحت لنبرة ضِيق أن تتخلل صوتها العطوف:

ـ ولكن اذهبي بخطة مرسومة. إن نصيحتي لكِ يا «مارجريت» ـ إذا جاز لي أن أتدخل ـ ألا تدَعي للمفاجأة سبيلًا إليكِ. فما رأيكِ في أفراد أسرة «ويلكوكس»؟ أهُم على شاكلتنا؟ أهُم يناسبوننا؟ أيمكن أن يُقدِّروا «هيلين» وهي فيما أرى فتاة من نوع غير عادي؟ أيهتمون بـالأدب والفن؟ هذا مهم للغاية إذا ما فكرت في الأمر... الأدب والفن. إنهما مهمان للغاية. وكم يكون عمر هذا الابن؟ إنها تقول «الابن الأصغر». أهو في حالة تسمح له بالزواج؟ أيرجى أن يسعد «هيلين»؟ هل فهمتِ من خطابها؟

ـ أنا لم أفهم شيئًا.

وأخذتا تتكلمان في نفَس واحد:

ـ إذن في هذه الحالة...

ـ في هذه الحالة لا أستطيع أن أرسم خططًا. ألا ترين؟

ـ بالعكس...

ـ أنا أمقت الخطط. أمقت رسم خطوط العمل. و«هيلين» ليست طفلة.

ـ لماذا تذهبين إليها إذن في هذه الحالة يا عزيزتي؟

ولاذت «مارجريت» بالصمت. فإذا كانت خالتها تعجز عن أن ترى السبب الذي يحتم عليها الذهاب فهي لن تشرحه لها. لن تقول: «أنا أحب أختي العزيزة، ولا بد أن أكون قريبة منها وهي تجاوز أزمة حياتها»، إن عواطف المحبة والحنان أشد تكتمًا من الانفعالات الجامحة، وأسلوب التعبير عنها ألطف وأدق. فلو أنها هي نفسها وقعت في حب رجل لحَذَت حذو «هيلين»،

وبادرت إلى إعلانه من فوق أسطح المنازل. أما وقد أحبت أختها وحسب، فإنها استعملت لغة العطف الصامتة.

وواصلت السيدة «منت» قولها:

ـ أنا أعدُّكما فتاتين غريبتَي الأطوار، ومدهشتين جدًّا. ثم إنكما تبدوان من نواحٍ عديدة أكبر سنًّا من الحقيقة. ولكني صراحة ـ وأرجو ألا يسوءَكِ قولي ـ أشعر بأنكِ لا تصلحين لهذه المهمة، فهي تحتاج إلى من يكبركِ سنًّا. ليس هناك يا عزيزتي ما يدعوني إلى الرجوع لبلدة سوانيج...

وبسطت ذراعيها المكتنزتين:

ـ وأنا بجملتي رهن تصرفك. دعيني أذهب بدلًا عنكِ إلى ذلك المنزل الذي نسيت اسمه.

فقفزت إليها وقبلتها:

ـ يا خالتي «جولي»... لا بد... لا بد أن أذهب إلى «هواردز إند» بنفسي. أنتِ لا تدركين الأمر بالضبط برغم أنني لا أستطيع أن أوفيك الشكر الواجب على ما عرضته.

وأجابت السيدة «منت» في ثقة كبيرة:

ـ أنا أدرك الأمر تمامًا. ولن أذهب بروح التطفل، ولكن لأستفسر، فالاستفسار ضروري. والآن أصارحكِ بما قد يكون فيه إساءة مني. سيجانبكِ الصواب فيما تقولينه هناك. هذا لا شك فيه. فإنكِ وأنتِ مأخوذة بالقلق على سعادة «هيلين»، ستُسيئين إلى جميع أفراد أسرة «ويلكوكس» هذه بتوجيه سؤال من أسئلتكِ المتهورة ـ ولا أقول ذلك لأني أتحرج من الإساءة إليهم.

ـ أنا لن أوجه أي أسئلة، فلديَّ رسالة بخط «هيلين» تقول إنها هامت برجل. فلا مجال لتوجيه أي أسئلة ما دامت متعلقة به. أما كل ما عدا ذلك فلا يساوي قلامة ظفر. فلتكن خِطبة طويلة الأمد إذا شئتِ. أما الاستفسارات، والأسئلة، والخطط، وخطوط العمل فلا. لا يا خالتي «جولي».

وكانت تهرول في حديثها، لا جميلة، ولا لامعة الذكاء، ولكن فياضة بشيء قام مقام هاتين الصفتين: شيء خير ما يوصف به أنه حيوية عميقة، واستجابة صادقة مستمرة لكل ما صادفته وهي تسلك طريقها في الحياة.

ـ لو أن «هيلين» كتبت إليَّ هذا الكلام نفسه عن بائع في دكان، أو كاتب حسابات مفلس...

ـ يا عزيزتي «مارجريت»، تعالَي معي إلى المكتبة وأغلقي بابها، فإن خادماتك الطيبات ينظفن حاجز السلم.

ـ أو لو أنها أرادت أن تتزوج بالرجل الذي يصيح مناديًا على «كارتر بيترسون» للإعلان عنه لما قلت غير ما قلت.

ثم أضافت، باستدراك من هذه الاستدراكات التي كانت تقنع خالتها بأنها غير مختلة العقل حقًّا، وتقنع من يرقبونها من غير طراز خالتها بأنها ليست فتاة نظرية عقيمة التفكير:

ـ وإن كنت أريدها في الحق خِطبة طويلة جدًّا إذا كان الخطيب هو المنادي على «كارتر بيترسون».

قالت السيدة «منت»:

ـ أظن ذلك. والواقع أنني أكاد لا أتتبعكِ. والآن تَصوري أنكِ قلتِ شيئًا من هذا القبيل لأسرة «ويلكوكس». أنا أفهم ما قلتِه، ولكن أغلب الناس الطيبين سيظنونكِ مختلة العقل. وتَصوري كم يزعج هذا «هيلين»! إن المطلوب في هذه المسألة شخص يسلك طريقه فيها بطيئًا، بطيئًا، ويرى الموقف الراهن، وإلى أي غاية يحتمل أن ينتهي.

وانقضَّت «مارجريت» على هذه العبارة الأخيرة:

ـ ولكن كلامكِ الآن يُفهم منه ضمنًا أنه لا بد من فسخ الخِطبة.

ـ أغلب الظن أنْ لا بُد من ذلك، ولكن ببطء.

ـ أتستطيعين أن تفسخي خِطبةً ما ببطء؟

وأومضت عيناها.

ـ من أي مادة تظنين الخِطبة؟ أحسب أنها من مادة صلبة قد تنقصف، ولكنها يمكن أن تتكسر تدريجًا. إنها تختلف عن روابط الحياة الأخرى. فهذه الروابط تتمدد أو تلتوي، وهي قابلة للزيادة والنقصان. إنها مختلفة عن الخِطبة.

ـ تمامًا. ولكن ألا تدعينني أذهب مسرعة إلى «هواردز إند» وأوفر عليكِ كل هذه المشقة؟ إني لن أتدخل حقًّا. ولكني أدرك بالضبط نوع الشيء الذي تريدونه يا آل «شليجل»، حتى لتكفيني نظرة واحدة هادئة حولي.

وشكرتها «مارجريت» ثانية، وقبَّلتها مرة أخرى، ثم صعدتْ ركضًا إلى الطابق العلوي لترى أخاها.

لم يكن في حالة جيدة جدًّا.

لقد أرهقته حمى القش كثيرًا طوال الليل، وأصاب رأسه الصداع، وابتلت عيناه. وأخبر أخته أن غشاءه المخاطي في حالة سيئة للغاية. والشيء الوحيد الذي جعل الحياة جديرة بأن يحياها هو تفكيره في الكاتب «وولتر سافيدج لاندور» الذي وعدته أخته أن تقرأ له من كتابه «محادثات خيالية» خلال فترات متكررة من النهار.

كان في الأمر بعض الصعوبة. فلا بد من القيام بعمل ما في شأن «هيلين». لا بد من التأكيد لها بأن الحب من أول نظرة ليس جريمة. ولكن برقية ترسل لها بهذا المعنى ستكون جامدة غامضة. أما قيام «مارجريت» بزيارة شخصية لأختها فقد بدأ يزداد استحالة في كل لحظة. فقد حضر الطبيب الآن، وقال إن «تيبي» في حالة سيئة جدًّا. أيكون خيرًا لها حقيقة قبول عرض الخالة «جولي» الكريم، وإرسالها رسالة قصيرة إلى «هواردز إند»؟

لا شك أن «مارجريت» كانت مندفعة بالعاطفة. فقد تذبذبت في سرعةٍ من قرارٍ إلى قرار. وصاحت وهي تركض هابطة إلى غرفة المكتبة:

ـ نعم، لقد رجعت في رأيي. ليتكِ حقًّا تذهبين.

كان هناك قطار يغادر «كينجز كروس» في الحادية عشرة. وفي الساعة العاشرة والنصف نام «تيبي» مستسلمًا لإنكار نادر لذاته. واستطاعت «مارجريت» أن توصل خالتها بالسيارة إلى المحطة.

ـ تذكَّري يا خالتي «جولي» أن تتحاشَي الانسياق إلى مناقشة مسألة الخِطبة. أعطي خطابي لـ«هيلين»، وأفضي إليها بما تحسين أيًّا كان، ولكن تحاشَي أقرباءه، فنحن نكاد لا نعرف أسماءهم بالضبط بعد. ثم إن شيئًا كهذا يجانب التمدين والصواب كل المجانبة.

وتساءلت السيدة «منت» متوجسة أن يكون قد فاتها فهم القصد من ملحوظة ذكية بارعة:

ـ يجانب التمدين كل المجانبة؟

ـ أوه، لقد استعملت عبارة متكلفة. أنا لم أقصد إلا التوسل إليكِ أن تبحثي الأمر مع «هيلين» وحدها.

ـ مع «هيلين» وحدها؟

ـ لأن...

ولكن الوقت لم يكن مناسبًا لشرح طبيعة الحب الشخصية. فأحجمت حتى «مارجريت» عن ذلك، وقنعت بالربت على يد خالتها الطيبة، وبتأمل الرحلة التي أوشكت أن تبدأ من «كينجز كروس» تأملًا كان بعضه واعيًا، وبعضه الآخر شاعريًّا.

كانت كغيرها ممن عاشوا مدة طويلة في عاصمة كبيرة، شديدة الوعي بالمحطات النهائية لمختلف الخطوط الحديدية. فهذه المحطات هي منافذنا إلى العظيم وإلى المجهول. ومن خلالها نخرج إلى المغامرة وإلى ضوء الشمس، وإليها ـ وا أسفاه ـ نعود! ففي محطة «بادنجتون» تكمن كورنوول كلها وما يليها في أقصى الغرب؛ وعلى منحدرات «شارع ليفربول» تكمن فنلاندز وأراضي برودز غير المحدودة؛ وتبدو اسكتلندا من بوابة محطة «يوستون»؛ وتبدو ويسيكس وراء فوضى محطة «ووترلو» المعلقة. والإيطاليون يدركون هذا، وهو طبيعي؛ فالذين اضطرهم سوء الطالع إلى أن يعملوا خدمًا في برلين، يطلقون على محطة «أنهالت بانهوف» اسم «ستاسيوني ديطاليا» لأنهم منها يعودون إلى بلادهم. وإنه لَلَندنيٌّ بارد العاطفة ذلك الذي لا يخلع على محطات عاصمته شيئًا من الشخصية، ولا يشعر حيالها ـ ولو على استحياء ـ بعواطف الرهبة والمحبة.

أما «مارجريت» فإن محطة «كينجز كروس» كانت توحي إليها دائمًا بفكرة اللانهائية ـ وأرجو ألا يكون هذا سببًا في إثارة القارئ عليها. وموقع المحطة ذاته، وهو يتراجع قليلًا وراء مفاتن محطة «سانت بانكراس» الواضحة، يتضمن تعليقًا على مادية الحياة. فهذان القوسان الكبيران اللذان ينتصبان بغير مبالاة وبغير لون، ويحملان بينهما ساعة كبيرة عاطلة من كل جمال، بوابتان صالحتان للخروج إلى مغامرة أبدية، قد تكون نهايتها موفقة، ولكن لا شك أن التعبير عنها لا يكون بالعبارات المألوفة عن التوفيق والفلاح. فإذا

رأيت أيها القارئ هذا القول مضحكًا، فتذكر أن «مارجريت» ليست هي قائلته؛ ودعني أسرع فأضيف أنهما كان لديهما متسع من الوقت قبل قدوم القطار. وأن السيدة «منت» وجدت لنفسها مقعدًا مريحًا يواجه القاطرة، ولكنه غير قريب جدًّا منها. وأن «مارجريت» لدى عودتها إلى «ويكهام بليس» وجدت نفسها أمام البرقية التالية:

انتهى كل شيء. وددت لو أني لم أكتب لك قَطُّ. ولا تُخبري أحدًا. «هيلين»

ولكن الخالة «جولي» كانت قد رحلت: رحلت رحيلًا لا سبيل للعدول عنه، ولم تكن على وجه الأرض قوة يمكن أن توقفها.

## الفصل الثالث

كانت السيدة «منت» تتمرن على أداء مهمتها وهي في غاية الرضا عن نفسها. فابنتا أختها كانتا شابتين مستقلتَي الرأي، وقلما أتيح لها أن تقدم لهما يد العون. إن ابنتَي أختها «إميلي» لم تكونا قَطُّ كغيرهما من الفتيات. لقد فقدتا أمهما عند مولد «تيبي»، وكانت «هيلين» حينذاك في الخامسة، ولم تتجاوز «مارجريت» نفسها الثالثة عشرة. كان هذا قبل أن يصدر القانون الخاص بأخت الزوجة المتوفاة، وعلى ذلك استطاعت السيدة «منت»، من دون المساس بأصول اللياقة، أن تعرض الذهاب إلى «ويكهام بليس» لإدارة شؤونه. ولكن زوج أختها الذي كان ألمانيًّا غريب الأطوار أحال المسألة على «مارجريت» لتبتَّ فيها. وقد أجابت بفجاجة الصبا:

ـ لا، فإننا أقدر على تدبير شؤوننا بأنفسنا.

ولم تمر خمس سنوات حتى مات السيد «شليجل» أيضًا، وكررت السيدة «منت» عرضها السابق وقدرت «مارجريت» لخالتها هذا الجميل، إذ لم تَعُد فجة كما كانت، وتلطفت معها كل التلطف. ولكن جوهر ردها ظل على ما هو عليه. وقالت السيدة «منت» لنفسها: «ينبغي ألا أتدخل مرة ثالثة». بيد أنها تدخلت بالطبع. فقد هالها أن تعلم أن «مارجريت» بعد أن بلغت الآن رشدها، تسحب أموالها من الاستثمارات القديمة المأمونة، وتوظفها في مشروعات أجنبية مآلها الدمار دائمًا. ورأت أن السكوت على ذلك جريمة. إنها تستثمر ثروتها هي في السكك الحديدية الإنجليزية، وقد ألحت على ابنة أختها في حرارة أن تحذو حذوها:

ـ وبذلك نكون معًا، يا عزيزتي.

وأقدمت «مارجريت»، بدافع المجاملة، على استثمار بضعة آلاف من الجنيهات في شركة «سكة حديد نوتنجهام وداربي»، وبرغم أن أسهم المشروعات الأجنبية وُفقت توفيقًا باهرًا، وأن أسهم «نوتنجهام وداربي» أخذت تتطاول قيمتها في وقار مطرد لا تستطيعه إلا «السكة الحديدية الإنجليزية»، فإن السيدة «منت» لم تكف قَطُّ عن الاغتباط، وعن القول: «إني أفلحت في هذا على أي حال. وستجد المسكينة «مارجريت» نواة تستند إليها عندما يحل الدمار». وبلغت «هيلين» أيضًا رشدها هذا العام. وحدث نفس الشيء بالضبط في حالتها أيضًا. فقد رأت أن تسحب مالها المستثمَر في «كونسولز»، ولكنها هي أيضًا خصصت جزءًا منه لشراء أسهم «سكة حديد نوتنجهام وداربي» من دون إلحاح من أحد تقريبًا. كل هذا

جميل، ولكن خالتهما لم تؤدِّ لهما أي خدمة اجتماعية. فالفتاتان مقبلتان، سواء أطال الوقت أم قصر، على تلك العملية التي يسمونها «ارتماء الفتاة في أحضان المجتمع». وإذا كانتا قد تأخرتا عن ذلك حتى الآن فما ذلك إلا لترتميا في الغالب على نحوٍ أعنف في المستقبل. لقد كانتا تستقبلان أناسًا كثيرين جدًّا في منزلهما «ويكهام بليس»؛ موسيقيين مطلقي اللحى، بل إحدى الممثلات، وأولاد عمومتهما الألمان (وهي أدرى بالأجانب)، ومعارف صادفتاهم في فنادق أوروبا (وهي أدرى بهؤلاء أيضًا). كان ذلك طريفًا، ولم يكن في سوانيج من هو أكثر تقديرًا للثقافة من السيدة «منت». ولكنها حالٌ تنذر بالخطر، والكارثة آتية لا ريب فيها. لكَم كانت على صواب! ويا له من توفيق أن تكون في الميدان عند حلول الكارثة!

أسرع القطار صوب الشمال مخترقًا عددًا لا يحصى من الأنفاق. ولم تكن الرحلة إلا رحلة ساعة، ولكن السيدة «منت» اضطرت مرة بعد أخرى إلى فتح النافذة وإغلاقها، لقد اخترقت نفق «ساوث ويلوين»، واجتلت نور النهار لحظة ثم دخلت نفق «نورث ويلوين» ذا الشهرة الفاجعة. وعبرت الجسر الكبير الذي تمتد عقوده عبر المروج الهادئة، ومجرى مياه نهر «تيوين» الحالمة. ودارت حول متنزهات السياسيين. وكان طريق «جريت نورث» يرافقها أحيانًا. وهو يوحي بفكرة اللانهائية أكثر من أي سكة حديد. فقد صحا بعد غفوة طالت مائة عام على حياةٍ جادت بها رائحة السيارات الكريهة، وعلى ثقافة تضمنتها الإعلانات عن «الحبوب المضادة للصفراء». ولكن السيدة «منت» ظلت طوال رحلتها غير مبالية لا بالتاريخ، ولا بالمأساة، ولا بالماضي، ولا بالمستقبل. فقد انحصر همها في بلوغ نهاية رحلتها، وفي انتشال «هيلين» المسكينة من تلك الورطة الرهيبة.

كانت «هيلتون» هي المحطة التي ينزل فيها من يقصد الذهاب إلى «هواردز إند». وهي إحدى القرى الواسعة التي تنتشر على طول طريق «جريت نورث» والتي يرجع الفضل في اتساعها إلى حركة السفر أيام المركبات وما قبل المركبات. وبلدة هيلتون لم تشارك بلدان الريف فيما أصابها من اضمحلال نظرًا إلى قربها من لندن. وقد تفرعت من شارعها الرئيسي الطويل ضِياع مسكونة قامت على جانبيه. وامتدت لمسافة ميل منازلُ مكسوة بالآجر والبلاط، ومرت أمام عينَي السيدة «منت» غير المنتبهة. وقطعت هذه السلسلة ست مقابر كومية دنماركية قامت على جانب الشارع الرئيسي كتفًا إلى كتف، وكانت مدافن للجنود. ثم تكاثفت المنازل وراء هذه المقابر. وتوقف القطار عند زحمة من المنازل المختلطة بدت أقرب الأشياء إلى المدينة.

وكان للمحطة طابع التردد والحيرة، شأنها في هذا شأن المنظر الطبيعي، وشأن خطابات «هيلين»، فإلى أي بلاد تؤدي؟ أتؤدي إلى الضواحي أم إلى المدن؟ كانت محطة حديثة. كانت لها أرصفة كجزائر البحر، ونفق. وتتوفر فيها أسباب الراحة السطحية التي يفرضها رجال الأعمال. ولكن كانت فيها مع ذلك كله إثارة مبعثها الحياة القروية، والاتصالات الشخصية. كما تبيَّن ذلك للسيدة «منت».

وأسرَّت لعامل الباب تقول:

ـ إني أسأل عن دارٍ اسمها «هواردز لودج»، أتعرف مكانها؟

وهتف العامل مناديًا:

ـ يا سيد «ويلكوكس»!

واستدار شاب كان يقف أمامهما:

ـ إنها تسأل عن «هواردز إند».

لم يكن سبيل أمامها إلا أن تمضي قدمًا، وإن بلغ منها الانفعال مبلغًا يمنعها حتى من التطلع إلى ذلك الغريب. ولكنها حين تذكرت أن هناك أخوين أسعفها من الفطنة ما جعلها تسأله:

ـ ولكن اسمح لي أن أسألك، أأنت السيد «ويلكوكس» الأصغر أم الأكبر؟

ـ الأصغر. هل من خدمة يمكن أن أؤديها لكِ؟

وتمالكت جأشها بصعوبة:

ـ أوه، حسنًا. أأنت هو حقًّا؟

وابتعدت عن عامل التذاكر، وخفضت صوتها:

ـ أنا خالة الآنسة «شليجل». يجدر بي أن أعَرفك بنفسي، أليس كذلك؟ اسمي السيدة «منت».

ولم يفُت وعيها أنه رفع قبعته، وأجابها بفتور شديد:

ـ أوه، طبعًا الآنسة «شليجل» تنزل عندنا. أأردتِ أن تزوريها؟

ـ قد يكون ذلك...

ـ سأنادي لكِ حوذيًّا.

وفكر في الأمر:

ـ لا، انتظري لحظة. إن سيارتنا هنا سأوصلكِ بها.

ـ هذا لطف بالغ منك...

ـ عفوًا. إنما تفضلي بالانتظار قليلًا حتى يُحضروا طردًا من المكتب. تعالَي من هنا.

ـ ألم تحضر ابنة أختي معك مصادفة؟

ـ لا. إني حضرت مع أبي. وقد استقل القطار الذي كنت فيه إلى الشَّمال. وسترين الآنسة «شليجل» وقت الغداء. آمل أن تتناولي معنا الغداء.

وقالت السيدة «منت» وهي لا تريد الارتباط بوعد لتغذية جسدها قبل أن تفحص حبيب «هيلين» أكثر مما فحصته:

ـ أود أن أحضره.

كان يبدو سيدًا ومهذبًا، ولكنه هز أعصابها حتى تخدرت قوى ملاحظتها. وأخذت تسترق إليه النظر... ولم تكن عين الأنثى تجد أي شائبة في الفجوتين الحادتين عند ركنَي فمه، ولا في شكل جبهته الذي يكاد يشبه الصندوق. كان أسود الشعر، حليقًا، متعودًا الأمر والنهي فيما بدا لها.

ـ أتجلسين في المقعد الأمامي أم الخلفي؟ أيهما تُفضلين؟ قد يكون المقعد الأمامي معرضًا للريح.

ـ في المقعد الأمامي إذا أمكن، فنحن نستطيع إذ ذاك التحدث.

ـ ولكن، أستأذنكِ في التغيب دقيقة واحدة. لست أدري ماذا يصنعون بذلك الطرد!

وأوسع في خطاه إلى مكتب صرف التذاكر، ونادى بصوت يختلف عن صوته السابق:

ـ هيه، هيه، أنت هناك! أتريدني أن أنتظر طوال النهار؟ طردٌ باسم «ويلكوكس»، «هواردز إند». انتبه!

وقال وهو يخرج من المكتب بنبرات أهدأ:

ـ هذه المحطة شنيعة التنظيم. ولو أن الأمر بيدي لطردتهم من العمل جميعًا. أأستطيع أن أعينكِ على ركوب السيارة؟

وقالت السيدة «منت» وهي تستقر في ركن مترف مكسو بالجلد الأحمر، وتسمح له أن يضع على جسدها الأغطية والمطارف:

ـ هذا كرم كثير منك.

وزاد تلطفها عن الحد الذي انتوته. ولكن هذا الشاب كان في الحقيقة كريمًا جدًّا. ثم إنها كانت تخشاه بعض الشيء، فرباطة جأشه لم تكن عادية. وكررت قولها:

ـ هذا كرم كبير في الواقع.

ثم أضافت:

ـ هذا ما كنت أتمناه تمامًا.

وأجاب الفتى بنظرة دهشة خفيفة فاتت السيدة «منت» كما كانت تفوتها أغلب النظرات الخفيفة:

ـ كرم كثير منكِ أن تقولي هذا. كنت أنقل أبي بالسيارة ليلحق القطار النازل.

ـ انظر، إننا تلقينا خطابًا من «هيلين» هذا الصباح.

كان الفتى «ويلكوكس» يملأ مخزن سيارته بنزينًا، ويحاول تسيير محركها، ويؤدي أعمالًا أخرى لا علاقة لهذه الحكاية بها. وبدأت السيارة الكبيرة تهتز، وهيكل السيدة «منت» يتهدهد برفق بين الوسائد الحمر وهي تحاول شرح المسألة.

وتمتم الفتى:

ـ ستُسَر الأم سرورًا كبيرًا بلقياكِ.

هيه! اسمع. الطرد... طرد «هواردز إند». أحضِره هنا. هيه!

وخرج حمال ملتحٍ يحمل الطرد بإحدى يديه، ويحمل بالأخرى سجل الطرود. واختلطت الصيحات التالية بأزيز المحرك المتعالي:

ـ أوقِّع. أهذا ضروري؟ بالله، ألا بد أن أوقِّع بعد كل هذا الإزعاج؟ وليس معك قلم أيضًا؟ تذكَّر أني سأشكوك في المرة القادمة إلى ناظر المحطة. إن وقتي ثمين، وإن لم يكن وقتك كذلك. خذ هذه...

وكانت «هذه» قطعة نقود.

ـ آسف كل الأسف يا سيدة «منت».

ـ لا بأس يا سيد «ويلكوكس».

ـ أتمانعين في أن نخترق البلدة؟ سيكون الطريق أطول قليلًا، ولكن لديَّ مهمة أو مهمتين أقضيهما.

ـ يطيب لي اختراق البلدة. وأنا تواقة بالطبع إلى مناقشة المسألة معك.

وما قالت ذلك حتى شعرت بالخجل، فهي تخالف بذلك تعليمات «مارجريت». ولكنها لم تخالفها إلا حرفيًّا بالطبع. فـ«مارجريت» لم تحذرها إلا من مناقشة الواقعة مع من لا يخصهم الأمر. ولا شك أنه ليس من «المجافاة للمدنية» أو من «الخطأ» مناقشتها مع الشاب نفسه ما دام الحظ قد ألقى بكل منهما في طريق الآخر.

ولكنه وهو الفتى المتحفظ لم يُجِر جوابًا. ولبس بعد ركوبه إلى جانبها قفازه وعويناته. وانطلقت بهما السيارة بينما الحمال الملتحي ينظر خلفهما بإعجاب. إن الحياة شيء غامض!

وكانت الريح تواجههما وهما يجتازان شارع المحطة، وتنفث الغبارَ في عينَي السيدة «منت». ولكنهما ما عرَّجا على طريق «جريت نورث» حتى بدأت السيدة «منت» إطلاق النار. قالت:

ـ تستطيع أن تتصور أن وقع النبأ كان صدمة شديدة لنا.

ـ أي نبأ؟

فقالت بصراحة:

ـ يا سيد «ويلكوكس»، لقد صارحتني «مارجريت» بكل شيء: كل شيء وأنا اطلعت على خطاب «هيلين».

لم يستطع أن يواجهها، فقد كانت عيناه معلقتين بعمله. كان ينطلق بالسيارة في شارع «هاي» بأسرع ما تسمح به جرأته. ولكنه مال برأسه إلى ناحيتها وقال:

ـ أستميحك عذرًا، أنا لم أدرِ قصدكِ.

ـ أنا أتحدث عن «هيلين». «هيلين» بالطبع. «هيلين» فتاة غير عادية ـ ولست أشك أنك تسمح لي بأن أقول هذا ما دمت تشعر حيالها بالعاطفة التي تشعر بها ـ بل الواقع أن أفراد أسرة «شليجل» جميعهم غير عاديين. وأنا لم أحضر بروح التطفل. ولكن الأمر كان صدمة كبيرة.

وعرجا ووقفا تجاه متجر أقمشة. ودار في مقعده من دون أن يجيب، وتأمل سحابة الغبار التي أثاراها بمرورهما خلال البلدة. وأخذ الغبار يستقر ثانية. ولكنه لم يرتد جميعه إلى المكان الذي أثير منه. فقد تسرب بعضه من النوافذ المفتوحة. وكسا بعضه الآخر بلونه الأبيض الورود وأزهار عنب الثعلب في الحدائق الواقعة على جانبَي الطريق. ومرق قدر منه إلى رئات أهل البلدة.

وعلق الفتى بقوله:

ـ لست أدري متى يتعلمون الحكمة، ويرشون الشوارع بالقطران.

ثم أسرع من المتجر رجل يحمل لفافة كبيرة من القماش المشمع، وانطلقت بهما السيارة ثانية.

ـ لم تستطع «مارجريت» الحضور بنفسها بسبب «تيبي» المسكين. وعلى ذلك جئت لأنوب عنها وأناقش معك الأمر في تفصيل.

وقال الفتى وقد عرج ثانية على دكان آخر:

ـ يؤسفني أن أكون على هذا القدر من بلادة الفهم. ولكني لم أفهم قصدكِ إلى الآن تمامًا.

ـ «هيلين»، يا سيد «ويلكوكس»؛ ابنة أختي وأنت.

ورفع عويناته الملونة، وحدق فيها حائرًا كل الحيرة. وأصاب الرعب قلبها في الصميم، لأنها حتى هي بدأ يدور بخاطرها أن بين أهدافهما تعارضًا، وأنها بدأت مهمتها بارتكاب خطأ فظيع.

وسألها وهو يزم شفتيه:

ـ أنا والآنسة «شليجل»؟

وارتجفت السيدة «منت»:

ـ أرجو ألا أكون أسأت الفهم. فخطاب «هيلين» لا يُفهم بالتأكيد إلا على هذا النحو.

ـ أي نحو؟

ـ أنكَ أنتَ وإياها...

وتوقفت عن القول، ثم أرخت أهدابها وقالت في بطء:

ـ أظن أني أدركت قصدك. يا لها من غلطة هائلة!

وتعثرت في القول، واصطبغ وجهها بلون الدم، وودت لو أنها لم تولد قَطُّ:

ـ إذن فلم يحدث قَطُّ؟

ـ قَطُّ. فأنا خطبت فعلًا سيدة أخرى.

وساد الصمت دقيقة. ثم التقط أنفاسه، وانفجر قائلًا:

ـ أوه، يا الله! ألا تكون هذه إحدى حماقات «بول»؟

ـ ولكنك أنتَ «بول».

ـ لا، لست «بول».

ـ لماذا إذن قلت لي ذلك في المحطة؟

ـ أنا لم أقُل شيئًا من هذا القبيل.

ـ عفوًا، فإنك قلت ذلك.

ـ عفوًا، فأنا لم أقُله. إن اسمي «تشارلز».

وكلمة «الأصغر» قد تعني الابن بالنسبة إلى الأب. أو الأخ الثاني بالنسبة للأخ الأول. ولكل من الرأيين مبرراته وقد ذكراها فيما بعد. ولكن مسائل أخرى كانت أمامهما الآن.

ـ أتريدين أن تقولي لي إن «بول»...

ولكن صوته لم يعجبها. كانت لهجته توحي بأنه يخاطب حمالًا. وإذ كانت واثقة من أنه خدعها في المحطة فإنها هي أيضًا بدأت تغضب.

ـ أتعنين أن تقولي لي إن «بول» وابنة أختكِ...

واعتزمت السيدة «منت» أن تدافع عن العاشقين ـ وهذه هي الطبيعة البشرية. فهي لن تسمح لشاب فظ أن يروعها بتهديداته... قالت:

ـ إن كلًّا منهما يحب صاحبه أشد الحب فعلًا، ولعلهما سيفضيان إليك بالأمر حالًا. وقد سمعنا بالنبأ صباح اليوم.

وضم «تشارلز» قبضته وصاح:

ـ الأبله. الأبله، المغفل الصغير!

وحاولت السيدة «منت» أن تتخلص من أغطيتها:

ـ ما دام هذا هو موقفك يا سيد «ويلكوكس»، فأنا أفضل أن أسير على قدميَّ.

ـ أرجو ألا تُقدِمي على شيء من هذا القبيل. سأوصلكِ إلى المنزل في هذه اللحظة. ودَعيني أخبركِ أن المسألة مستحيلة، ويجب وضع حدٍّ لها.

ولم يكن من عادة السيدة «منت» أن تثور. فإذا فعلت فإنما لحماية من تحبهم. ففي هذه الظروف انفجرت قائلة:

ـ أوافقك يا سيدي تمامًا. إن المسألة مستحيلة. وسأذهب وأوقفها عند حدها. إن ابنة أختي فتاة غير عادية. وأنا لا أميل إلى الجلوس بلا حراك بينما تلقي بنفسها بين أحضان من لا يقدرونها.

وضغط «تشارلز» على فكيه.

ـ وإذا أخذنا في اعتبارنا أنها لم تعرف أخاك إلا منذ يوم الأربعاء، ولم تلتقِ بأبيك وأمك إلا في فندق في عرض الطريق.

ـ أيمكن أن تخفضي صوتكِ؟ إن صاحب المتجر سيسمعنا.

كانت «الروح الطبقية» ـ إذا جاز للمرء نحت هذه العبارة ـ قوية في السيدة «منت». فجلست ترتجف بينما راح فرد من أفراد الطبقات الدنيا يضع بالقرب من لفافة القماش المشمع قمعًا معدنيًّا، ووعاء، ورشاشة للحديقة.

ـ أوضعتها في الخلف تمامًا؟

ـ نعم يا سيدي.

وتوارت الطبقات الدنيا خلف سحابة من الغبار.

ـ أنا أحذركم... «بول» لا يمتلك فلسًا... إنه مشروع فاشل.

ـ أؤكد لك يا سيد «ويلكوكس» أنْ لا حاجة بك إلى تحذيرنا، فالتحذير يجب أن يتجه إلى الناحية الأخرى. إن ابنة أختي ارتكبت حماقة كبرى، وسأشتد في تعنيفها، ثم أعود بها ثانية إلى لندن.

ـ عليه أن يشق لنفسه طريقًا في نيجيريا، ولن يستطيع التفكير في الزواج مدة سنين طويلة. وإذا ما فكر في الزواج فلا بد أن تستطيع زوجته تحَمل مناخ تلك البلاد، وأن تكون من نواحٍ أخرى... لماذا لم يكاشفنا بالأمر؟ لقد استحى بالطبع. فهو يعلم أنه مغفل. ولذلك فقد... إنه مغفل ملعون.

واحتدمت غيظًا.

ـ بينما أذاعت الآنسة «شليجل» النبأ من دون أن تضيع وقتًا.

ـ لو أنني رجل يا سيد «ويلكوكس» لصفعتك بسبب ملاحظتك الأخيرة. أنت غير جدير بتنظيف حذاء ابنة أختي، وبالجلوس معها تحت سقف واحد. ومع ذلك تجرؤ... تجرؤ بالفعل... أنا أرفض مجادلة امرئ مثلك.

ـ كل ما أعرفه أنها أذاعت النبأ بينما لم يفعل هو ذلك. وأبي الآن مسافر وأنا...

ـ وكل ما أعرفه هو...

ـ أأستطيع أن أتم عبارتي... إذا سمحت؟

ـ لا.

وعض على نواجذه، وأدار السيارة على الدرب في سرعة خاطفة.

وصرخت السيدة.

وهكذا شرعا يلعبان لعبة «الأُسر المتنافسة»، التي يلعب الناس دائمًا جولة من جولاتها عندما يجمع الحب بين اثنين من جنسنا. ولكنهما لعباها بعنف غير عادي، وقررا بعبارات كثيرة أن آل «شليجل» خير من آل «ويلكوكس»، وأن آل «ويلكوكس» خير من آل «شليجل». وضربا باللياقة عرض الحائط. كان الفتى في عنفوان الشباب، والمرأة منفعلة أعمق الانفعال. وكان عرق من الخشونة يكمن في كل منهما. ولم يكن شجارهما أغرب من أغلب المشاجرات التي لا يمكن تفاديها وقت حصولها، ولا يمكن تصديقها بعد حصولها. بيد أن عقم هذا الشجار فاق المعتاد. فلم تمر دقائق حتى استنارا. ودنت السيارة من «هواردز إند». وخرجت «هيلين» راكضة لاستقبال خالتها، وقد بدا عليها شحوب شديد.

ـ خالتي «جولي»، إني تلقيت الآن برقية من «مارجريت»، وقد... وقد قصدت أن أحول دون حضوركِ. إن المسألة ليست... إنها انتهت.

كانت هذه النهاية فوق ما تحتمله السيدة «منت»، فأجهشت بالبكاء.

ـ خالتي «جولي» العزيزة! كُفي عن هذا. لا تدعيهم يدركون كم كنتِ سخيفة. لم تكن المسألة شيئًا مذكورًا. تجلَّدي إكرامًا لخاطري.

وصاح «تشارلز ويلكوكس» وهو ينزع قفازه:

ـ «بول»!

ـ لا تدَعيهم يعلمون. يجب ألا يعلموا شيئًا.

ـ أوه، يا حبيبتي «هيلين»...

ـ «بول»! «بول»!

وخرج شاب صغير السن جدًّا من المنزل.

ـ «بول»، أفي هذا النبأ شيء من الحقيقة؟

ـ أنا لم... أنا لا...

ـ أجِب بلا أو نعم يا رجل. جواب واضح عن سؤال واضح. أكانت الآنسة «شليجل» أم لم تكن...؟

وترامى صوت من الحديقة يقول:

ـ يا عزيزي «تشارلز»، «تشارلز»، يا عزيزي «تشارلز». إن الناس لا يسألون أسئلة واضحة... ليس هناك شيء كهذا.

وشمل الصمت الجميع. لقد كانت المتكلمة هي السيدة «ويلكوكس».

وتقدمت تجر ذيلها فوق الخضرة في هدوءٍ كما وصفتها «هيلين» تمامًا. وكانت تحمل بين يديها قبضة من الدريس فعلًا. وبدا عليها أنها لا تنتمي إلى الشباب وسيارتهم، ولكن إلى المنزل والشجرة التي تظلله. ولم يخفَ على الناظر إليها أنها تقدس الماضي، وأن الحكمة الغريزية التي لا يهبها إلا الماضي، هبطت عليها ـ تلك الحكمة التي تطلق عليها تلك التسمية العرجاء: «الأرستقراطية». وقد لا تكون ذات حسب ونسب، ولكنها كانت تهتم من دون شك بأجدادها، وتستعين بهم. وعندما رأت «تشارلز» غاضبًا، و«بول» خائفًا، والسيدة «منت» دامعة العينين، سمعت هاتفًا من أجدادها يقول: «افصلي بين هؤلاء الناس الذين سيؤذي بعضهم بعضًا أذى شديدًا. أما ما عدا ذلك فيمكن تأجيله». وعلى ذلك لم توجه أي أسئلة، ولا تظاهرت بأن شيئًا لم يحدث، متبعة في ذلك ما تتبعه المضيفة المحنكة، فقالت:

ـ يا آنسة «شليجل» هلا تفضلتِ بأن تصحبي خالتكِ إلى غرفتكِ أو غرفتي حسبما ترين؟ وأنتِ يا «بول»، ابحث عن «إيفي» وأخبرها أن تُعد الغداء

لستة أشخاص. بيد أني لست على يقين من أننا سننزل جميعًا لتناوله.

فلما أطاعوا أمرها التفتت إلى ابنها الأكبر الذي ظل ساكنًا في السيارة المرتجة كريهة الرائحة، وابتسمت له في حنان، ثم دارت بوجهها عنه إلى أزهارها من دون أن تنبس بكلمة... ونادى الفتى:

ـ أمي، أعلمتِ أن «بول» عاد إلى تمثيل دور الأحمق مرة أخرى؟

ـ لا بأس يا عزيزي. فقد فصما الخِطبة.

ـ الخِطبة!

وقالت السيدة «ويلكوكس» وهي تميل لتشم وردة:

ـ لم يَعُد كل منهما يحب الآخر، إذا كنت تفضل صياغة العبارة على هذا النحو.

## الفصل الرابع

عادت «هيلين» وخالتها إلى «ويكهام بليس» واهنتين منهارتين. وقضت «مارجريت» بعض الوقت ترعى ثلاثة مرضى. وشفيت السيدة «منت» سريعًا، فقد كانت تملك قدرة ملحوظة على تشويه الماضي. وبعد أيام نسيت الدور الذي لعبته حماقتها في الكارثة. وحتى في أثناء الأزمة هتفت قائلة:

ـ حمدًا لله. فقد وفرت هذا على المسكينة «مارجريت»!

ثم تحولت عبارتها هذه أثناء العودة للندن إلى قولها:

ـ كان لا بد أن يخوض شخص ما هذه المعركة.

ثم نضجت تلك العبارة واتخذت هذا الشكل الثابت المستقر:

ـ المرة الوحيدة التي قدمت فيها يد العون حقًّا إلى ابنة أختي «إميلي» كانت يوم اضطلاعي بإنهاء علاقة «هيلين» بـ«بول ويلكوكس».

ولكن «هيلين» كانت مريضةً أصعب مراسًا. لقد دهمتها أفكار جديدة دوت في ذهنها دوي الرعد فأذهلتها هي ورجع صداها.

أما الحقيقة فهي أنها وقعت في حبائل الحب، ولكنها لم تحب فردًا، بل أسرة بأكملها.

لقد تهيأ قلبها للانسجام مع «بول» قبل وصوله. فإن نشاط آل «ويلكوكس» فتنها، وبعث صورًا من الجمال في ذهنها المتجاوب، وخيل إليها أن قضاء اليوم بطوله معهم في الهواء الطلق، والنوم تحت سقفهم، سعادة الحياة الكبرى. وأدى هذا كله إلى ذلك التنازل عن الشخصية التي قد تكون مدخلًا للحب. كان يروق لها أن تسلم في الأمر للسيد «ويلكوكس»، أو لـ«إيفي»، أو لـ«تشارلز». ويعجبها كذلك أن يقال لها إن آراءها عن الحياة نظرية أو بعيدة عن واقع الحياة، وإن المساواة هراء، وحق المرأة في الانتخاب هراء، والاشتراكية هراء، والأدب والفن هراء كذلك إلا حين يعينان على دعم الشخصية. لقد قُلبت أصنام أسرة «شليجل» الواحد بعد الآخر، واغتبطت لذلك برغم تظاهرها بالدفاع عنها. وعندما قال لها السيد «ويلكوكس» إن رجلًا واحدًا رصينًا من رجال الأعمال يفيد العالم أكثر مما يفيده عشرة من

مصلحيك الاجتماعيين، ابتلعت هذا التأكيد العجيب من دون أي شهقة، واتكأت إلى الخلف في ترف بين حشايا سيارته. وعندما قال «تشارلز»:

ـ لماذا نعامل الخدم بأدب جم؟ إنهم لا يدركون ذلك.

لم تعِبه برد آل «شليجل» المفحم: «إذا كانوا لا يدركون ذلك فأنا أدركه»، لا، بل لقد قدرت في نفسها أن تكون أقل أدبًا مع الخدم في المستقبل. وفكرت قائلة: «إنني مقيدة بأغلال من الأضاليل، ومن الخير لي أن أتخلص الآن منها». كان كل ما تفكر فيه أو تفعله أو تستنشقه إعدادًا هادئًا لـ«بول». لم يكن محيص عن «بول»، فـ«تشارلز» متعلق بفتاة أخرى، والسيد «ويلكوكس» متقدم في السن، و«إيفي» صغيرة جدًّا، والسيدة «ويلكوكس» تختلف عنها كل الاختلاف. وهكذا أخذت تحيط الأخ الغائب بهالة من الخيال الشعري، وتضيئه بكل بهاء تلك الأيام السعيدة وتحس أنها تزداد فيه قربًا من المثل الأعلى المكين. وقد قالت «إيفي» إن سنيهما متقاربتان، وأكثر الناس يرون «بول» أجمل من أخيه. والذي لا شك فيه أنه يَفضُل أخاه في الرماية وإن لم يُجِد مثله لعبة الجولف. وحين جاء «بول» وقد انتشى بالفوز في امتحان أداه، وتهيأ لمغازلة أي فتاة حسناء. التقت به «هيلين» في منتصف الطريق، أو أكثر من منتصف الطريق، ثم أقبلت عليه في سهرة الأحد.

كان يتحدث عن اقتراب موعد منفاه إلى نيجيريا، وكان جديرًا به أن يواصل الحديث في هذا الموضوع، ويتيح لضيفتهم أن تفيق، ولكن ارتفاع صدرها وهبوطه أطربه. إن الهيام ممكن إذن... لذلك هام بها. وسمع همسًا في أعماقه يقول: «هذه الفتاة ستسمح لك أن تقبلها، وقد لا تتاح لك هذه الفرصة مرة أخرى».

ذلك بيان «كيفية حدوث ما حدث»، أو هكذا وصفت «هيلين» لأختها ما حدث، في كلمات لعلها أقل تعاطفًا من كلماتي. ولكن شاعرية تلك القبلة وروعتها، والسحر الذي تخلل الحياة ساعات بعدها، من ذا الذي يستطيع وصف هذا؟ من السهل جدًّا على الإنجليزي أن يستهزئ بهذه الاصطكاكات العارضة بين البشر. وهي تتيح للكلبي ضيق الأفق، وللأخلاقي ضيق الأفق فرصة متكافئة للتهكم. ومن السهل جدًّا أن نتحدث عن «الانفعال العابر»، وأن ننسى كم كان الانفعال يزخر بالحيوية قبل أن يعبر. ودافعنا إلى الاستهزاء والنسيان دافع طيب في أساسه. فنحن نسلم بأن الانفعال وحده لا يكفي، وأن الرجال والنساء شخصيات قادرة على الارتباط بروابط متصلة دائمة، لا مجرد فرص لتفريغ شحنات كهربائية. على أننا نغالي في تقدير هذا الدافع، ولا نسلم بأنه بفضل اصطكاكات من هذا النوع الطفيف قد تهتز

أبواب السماء وتنفتح. على أي حال لم يقدر لـ«هيلين» أن تتيح لها حياتها ما هو أقوى وأرهف من عناق ذلك الفتى الذي لم يكن له فيه يد. لقد استدرج الفتاة إلى خارج المنزل الذي يخشى فيه من المفاجأة ومن الضوء الفاضح؛ وقادها خلال ممر يعرفه، حتى وقفا عند جذع شجرة الغرغار الجبلي الكبيرة. لقد همس، كما يهمس رجل تحت جنح الظلام، في أذنها حين كانت متعطشة إلى الحب، يقول:

ـ أحبك.

وتبددت شخصيته الضئيلة مع مرور الزمن، ولكن المشهد الذي ابتعثه ظل باقيًا لا يتبدد. وهي فيما أعقب ذلك من سني حياتها المتقلبة لم تشهد له مثيلًا.

قالت لها «مارجريت»:

ـ أنا فاهمة. أو على الأقل، أنا فاهمة، بقدر ما يمكن إطلاقًا أن يُفهم من مثل هذه الأمور. والآن خبريني عما حدث صباح الاثنين.

ـ انتهى الأمر على الفور.

ـ كيف يا «هيلين»؟

ـ كنت لا أزال سعيدة وأنا أرتدي ملابسي، ولكني اضطربت وأنا أهبط إلى الدور الأرضي، وما دخلت غرفة الطعام حتى أدركت أن لا خير في الأمر. كانت «إيفي» هناك ـ لا أستطيع أن أشرح لك ـ مشغولة بإبريق الشاي، والسيد «ويلكوكس» يقرأ صحيفة «التايمز».

ـ أكان «بول» هناك؟

ـ نعم. وكان «تشارلز» يحادثه عن الأسهم والسندات بينما هو يبدو مرتعبًا.

واستطاعت الأُختان من أمارات طفيفة في هذا المشهد أن تنقل كل منهما لذهن الأخرى أشياء كثيرة. فرأت «مارجريت» الفزع كامنًا في المشهد حتى إن ملاحظة «هيلين» التالية لم تدهشها.

ـ يخيل إليَّ على نحو ما أنه، إذا بدا الخوف على رجل من هذا النوع، كان ذلك غاية في الشناعة. فلا ضير أن نخاف نحن، أو يخاف رجال من نوع آخر،

كأبي مثلًا. ولكن خوف رجال كهؤلاء! وعندما رأيت سائر أفراد الأسرة هادئين جدًّا، و«بول» يكاد يجن خوفًا من أن أزل بكلمة، شعرت هنيهة بأن أسرة «ويلكوكس» جميعها ليست إلا خدعة، ليست إلا مجرد حائط من الصحف والسيارات ونوادي الجولف. وإذا انهار هذا الحائط فإني لن أجد وراءه شيئًا غير الهلع والخواء.

ـ لا أخال ذلك. فالأثر الذي أحدثه أفراد الأسرة في نفسي أنهم أناس حقيقيون، لا سيما الزوجة.

ـ لا، لا أظن ذلك حقيقة. ولكن «بول» كان عريض الكتفين جدًّا، وقد تحالفت مختلف الأشياء الخارقة للعادة فزادت الأمر سوءًا. وعلمت أن التوفيق لن يكتب لهذه العلاقة أبدًا... أبدًا. وقلت له بعد الإفطار بينما كان الآخرون يتمرنون على لعبة الكريكيت: «إننا فقدنا صوابنا بعض الشيء». فبدا أحسن حالًا على الفور وإن كان قد خجل خجلًا مفزعًا. وبدأ يتحدث عن افتقاره إلى مال يسنده إذا تزوج، ولكن هذا الحديث آلمه، فأوقفته. وقال بعد ذلك: «لا بد أن ألتمس صفحكِ عما بدر مني يا آنسة «شليجل»، فلست أدري ما جرى لي الليلة الماضية». وقلت له: «وأنا أيضًا لست أدري ما جرى لي، لا عليك». ثم افترقنا، على الأقل إلى أن ذكرت أني في الليلة السابقة كتبت على الفور أبلغكم النبأ، فأفزعه ذلك من جديد. وطلبت إليه أن يرسل من أجلي برقية، فقد كان يعلم أنكِ ستحضرين أو سيحدث شيء من هذا القبيل. وحاول أن يأخذ السيارة، ولكن «تشارلز» والسيد «ويلكوكس» كانا يريدان التوجه بها إلى المحطة، وعرض عليَّ «تشارلز» أن يتولى إرسال البرقية، واضطررت عندئذٍ أن أزعم أن البرقية ليست ذات بال، لأن «بول» قال إن «تشارلز» قد يقرأها، وبرغم أني أعدت كتابتها عدة مرات فقد ظل «بول» يقول إنها قد تثير شكوك الناس. وذهب بها هو نفسه أخيرًا، مدعيًا أنه مضطر إلى الذهاب لاستحضار خراطيش لبندقيته. والنتيجة أنه لم يتم تسليمها لمكتب البريد إلا في ساعة متأخرة. وكان أهول صباح. وكرهني «بول» أكثر فأكثر. وراحت «إيفي» تتحدث عن نقط الكريكيت حتى كدت أصرخ، ولست أدري كيف احتملتها طوال الأيام السابقة. وانطلق «تشارلز» وأبوه أخيرًا إلى المحطة. ثم وردت برقيتك التي تخطرني أن خالتي «جولي» ستحضر في ذلك القطار، و«بول» ـ أوه، يا للفظاعة ـ قال إني زدت الطين بلة. ولكن السيدة «ويلكوكس» عرفت.

ـ ماذا عرفت؟

ـ كل شيء؛ برغم أن أحدًا منا لم يقُل لها كلمة واحدة. وأظن أنها كانت تعلم طوال الوقت.

ـ أوه، لا بد أنها سمعتكما عرضًا.

ـ يخيل إليَّ ذلك. ولكن بدا الأمر مدهشًا. فعندما حضر «تشارلز» وخالتي «جولي» بالسيارة وهما يتبادلان الشتائم تقدمت إليهما السيدة «ويلكوكس» من الحديقة وخففت من بشاعة المشهد! ولكنها كانت واقعة تقزز النفس. فمن كان يظن أن...

وتنهدت، فأردفت «مارجريت»:

ـ من كان يظن أنه، لأنكِ التقيتِ لحظة بشاب، لا بد من كل هذه البرقيات وكل هذا الغضب؟

وأومأت «هيلين».

ـ كثيرًا ما فكرت في هذا الأمر يا «هيلين»، إنه من أطرف الأمور في الحياة. وفي الحق إن هناك غير الحياة الباطنية حياة ظاهرة ضخمة لم نلمسها نحن قَطّ: حياة للبرقيات والغضب فيها وزن. والعلاقات الشخصية التي نظنها أهم الأشياء ليست أهمها هناك. فالحب هناك يعني هبات الزواج، والموت يعني ضريبة التركات. وإلى هنا كل شيء أمامي واضح لا لبس فيه، ولكن مشكلتي هي أن تلك الحياة الظاهرة، على شناعتها الواضحة، غالبًا ما يبدو أنها هي الحياة الحقيقية، فإن فيها جرأة وجلدًا، وهي تنمي الشخصية فعلًا. فهل تؤدي العلاقات الشخصية في نهاية الأمر إلى الرخاوة؟

ـ أوه يا «ميج»، ذلك ما شعرت به، ولكن بغير هذا الوضوح، عندما رأيت آل «ويلكوكس» غاية في الكفاية، وخيل إليَّ أنهم يقبضون على الأزمة كلها.

ـ ألا تشعرين بذلك الآن؟

فقالت «هيلين» في هدوء:

ـ إني أذكر «بول» ونحن على مائدة الإفطار. لن أنساه أبدًا. لم يَعُد له سند يستند إليه. وأنا موقنة أن العلاقات الشخصية هي الحياة الحقيقية، إلى أبد الآبدين.

ـ آمين!

وهكذا ارتد حادث «ويلكوكس» إلى الظل مخلفًا وراءه ذكريات العذوبة والشناعة ممتزجتين، وواصلت الأختان الحياة التي امتدحتها «هيلين». وتبادلتا الأحاديث وبادلتاها أناسًا آخرين. وملأتا منزلهما الطويل النحيل في «ويكهام بليس» بأولئك الذين يعجبونهما، أو الذين يمكن أن توثِّقا معهم أواصر الصداقة. بل إنهما كانتا تحضران الاجتماعات العامة. وكانتا مهتمتين بالسياسة ـ على طريقتهما ـ أعمق اهتمام، وإن لم يكن، على نحو ما يريده السياسيون منهما. كانتا تودان أن تعكس الحياة العامة خير ما تشتمل عليه الحياة الخاصة. وكان الزهد في الشراب، والتسامح مع الناس، والمساواة بين الجنسين، صيحات مفهومة لهما؛ بينما لم تتتبعا سياستنا الخارجية الجريئة في التبت بالاهتمام الشديد الذي تستحقه، وكانتا أحيانًا تكفان عن التفكير في الإمبراطورية البريطانية كلها بآهة حائرة، وإن شابها التوقير. إن مشاهد التاريخ لا تُصنع من أمثالهما، والعالم يصبح بقعة شهباء لا تلوثها الدماء لو أنه تألف جميعه من أناس مثل ابنتَي «شليجل». أما والعالم على ما هو عليه، فلعلهما تسطعان في سمائه كما تسطع النجوم.

كلمة نسوقها عن نشأتهما. إنهما لم تكونا «إنجليزيتين لحمًا ودمًا»، كما أكدت خالتهما في تقوى وورع. ولكنهما من الناحية الأخرى لم تكونا «ألمانيتين من النوع المريع»، فأبوهما ينتمي إلى طراز كان منذ خمسين عامًا أكثر ظهورًا مما هو الآن في ألمانيا. فالرجل لم يكن من طراز الألماني المتحرش المحبب للصحفي الإنجليزي أو من الطراز الألماني الأليف المحبب للإنجليزي الساخر، ولو شئت أن تسلكه في طبقة من الطبقات إطلاقًا لقلت إنه مواطن «هيجل» و«كنط»، أو إنه الرجل المثالي الذي يجنح إلى الأحلام، وإمبرياليته هي إمبريالية الهواء. وليس معنى هذا أن حياته خلت من النضال، فقد أبلى بلاء حسنًا في الحرب ضد كل من الدنمارك والنمسا وفرنسا، ولكنه حارب من دون أن يكون على بينة من نتائج الانتصار. وقد استبانت له لمحة من الحقيقة بعد معركة سيدان إذ رأى شارب «نابليون» المصبوغ يبيضُّ. واستبانت لمحة أخرى عندما دخل باريس، ورأى نوافذ «التويلري» المهشمة. لقد حل السلام، وكان كل شيء عظيمًا جدًّا، وتحول وطنه إلى إمبراطورية، ولكنه أدرك أنه قد زالت صفة طيبة لا تستطيع الألزاس-لورين كلها أن تعوضه عنها. فألمانيا الدولة التجارية، وألمانيا الدولة البحرية، وألمانيا ذات المستعمرات هنا، والسياسة الجريئة هناك، والمطامح المشروعة في نواحٍ أخرى... ألمانيا هذه قد تستهوي الآخرين وتحملهم على خدمتها بحق. أما هو فقد زهد في ثمار النصر، وتجنس في إنجلترا بالجنسية الإنجليزية. ولم يغفر له ذلك قَطُّ أفراد أسرته الأشد غيرة وتحمسًا، وأيقنوا أن أولاده لن

يكونوا أبدًا ألمانًا لحمًا ودمًا، ولو أنهم لن يصبحوا من الطراز الإنجليزي الشنيع. وقد التحق بوظيفة في إحدى جامعاتنا الإقليمية، وتزوج هناك بـ«إميلي» المسكينة، (أو بـ«الإنجليزية» حسب الحالة). ولما كان لديها مال فقد قدِما إلى لندن، وعقدا أواصر المعرفة بأناس كثيرين. ولكن نظرته ظلت دائمًا شاخصة إلى ما وراء البحر. وكان أمله أن تنقشع سحب المادية التي تخيم على وطنه الأول في الوقت المناسب، وأن ينبثق نور الفكر الهادئ من جديد. وذات مرة صاح ابن أخت له، وهو فتى متعالٍ فخم المظهر:

ـ أتعني يا خالي «إرنست» أننا نحن الألمان أغبياء؟

فأجاب الخال «إرنست»:

ـ يبدو لي هذا. فأنتم ترون العقل، ولكنكم لم تعودوا تهتمون به. وهذا في رأيي غباوة.

ولما لم يفهم ابن الأخت المتعالي قصده، واصل الخال حديثه قائلًا:

ـ أنتم لا تهتمون إلا بالأشياء التي تستطيعون الإفادة منها، ولذلك تضعونها وفق الترتيب التالي: المال، مفيد جدًّا؛ والفكر، مفيد نوعًا؛ والخيال، غير مفيد بالمرة.

ثم قال إذ رأى الفتى يعترض:

ـ لا. إن جامعتكم الجرمانية في افتقارها إلى الخيال كإمبرياليتنا هنا سواء بسواء... فآفة الذهن السوقي أن تستهويه الضخامة، فيظن أن ألف ميل مربع أروع ألف مرة من ميل مربع واحد، وأن مليون ميل مربع تكاد تكون كجنة الخلد نفسها. هذا ليس خيالًا، لا، بل إنه يقتل الخيال. إن شعراء الإمبراطورية البريطانية، عندما يحاولون الإشارة إلى الضخامة، يموتون في الحال، وهذا أمر طبيعي. وشعراؤكم أيضًا يموتون، وكذلك فلاسفتكم وموسيقيوكم الذين أنصتت إليهم أوروبا زهاء مائتَي عام. قد ذهبوا. ذهبوا مع قصور الأمراء الصغار الذين كانوا يرعونهم. ذهبوا مع «إسترهاتز» و«فايمار». ماذا؟ ماذا تقول؟ جامعاتكم؟ أوه نعم، إن لديكم علماء يجمعون من الحقائق عددًا أكبر مما يجمعه علماء إنجلترا. إنهم يجمعون الحقائق، والحقائق، وإمبراطوريات من الحقائق. ولكن من منهم سيشعل من جديد ذلك النور الباطني الذي خبا؟

واستمعت «مارجريت» إلى هذا كله وهي جالسة على ركبة ابن عمتها المتعاظم.

وكان تعليمًا فريدًا للفتاتين الصغيرتين. كان ابن العمة المتعاظم يأتي إلى «ويكهام بليس» يومًا مصطحبًا زوجة أشد تعاظمًا منه. وكان كلاهما مقتنعين بأن الله نَصَّب ألمانيا لحكم العالم. ثم تحضر خالتهما «جولي» في اليوم التالي مقتنعة بأن بريطانيا العظمى نصبت لتلك الوظيفة من لدن السلطة نفسها... أكان هذان الفريقان عاليا الصوت على صواب؟ لقد جمعت المصادفة بينهما مرة، وتوسلت إليهما «مارجريت»، ويداها متشابكتان، أن يناقشا الموضوع في حضورها. وهنا اصطبغا حياء، وبدآ يتحدثان عن الجو. فصاحت، وكانت صبية شديدة الهجوم:

ـ أبي، لماذا يأبيان مناقشة هذه المسألة شديدة الوضوح؟

وأجاب أبوها وهو يستعرض الفريقين عابسًا، بأنه لا يدري لذلك سببًا. عقبت «مارجريت» وقد مالت برأسها إلى جانبها:

ـ أحد أمرين يبدو لي واضحًا كل الوضوح فإما أن الله لا يعرف رأيه هو نفسه في إنجلترا وألمانيا، وإما أن هذين الفريقين لا يعرفان رأيه فيهما.

لقد كانت صبية صغيرة لعينة، ولكنها أدركت في سن الثالثة عشرة معضلة يقطع أغلب الناس رحلة حياتهم كلها من دون أن يتبينوها. كان عقلها يندفع صاعدًا هابطًا، وازداد مرونة وقوة. وكانت النتيجة التي توصلت إليها هي أن أي كائن بشري أقرب إلى الحقيقة المحجوبة من أي منظمة، ولم تتحول عن رأيها ذلك قَطُّ.

وسارت «هيلين» على نفس المبادئ برغم أن خطاها كانت أكثر استخفافًا بالمسؤولية. لقد أشبهت أختها في أخلاقها، ولكنها كانت جميلة، فصارت لذلك ميالة لقضاء أوقات أمتع. وكان الناس يتجمعون حولها بإقبال أشد، لا سيما إذا كانوا من المعارف الجدد. وكانت فعلًا تغتبط اغتباطًا شديدًا بقليل من الثناء. وعندما مات أبوهما، وانفردتا بالأمر في «ويكهام بليس»، كانت تستأثر غالبًا بجميع الزوار بينما لم تكن «مارجريت» تحدث أثرًا يذكر، برغم أنهما كلتيهما محدثتان بارعتان. ولكن واحدة من الأختين لم تضِق بذلك. ولم تكن «هيلين» تعتذر قَطُّ بعد الاجتماع، ولم تحمل «مارجريت» لها أقل ضغينة. بيد أن للجمال تأثيره في الشخصية. كانت الأختان تتشابهان في حداثتهما. ولكنهما بدأتا تختلفان في وسائلهما في الوقت الذي وقع فيه حادثهما الصغير مع آل «ويلكوكس»، فالصغرى كانت تميل لإغراء الناسِ،

وكانت إذ تغريهم على استعداد هي نفسها للوقوع في حبائل الإغراء. أما الكبرى فكانت تمضي إلى هدفها رأسًا، وتقبل الهزيمة بين الحين والحين على أنها جزء من اللعبة.

ولا حاجة بنا للإفاضة في تقديم «تيبي». فهو الآن رجل ذكي في السادسة عشرة، ولكنه مختل الهضم وصعب الإرضاء.

## الفصل الخامس

من المسلم به عمومًا أن السيمفونية الخامسة لـ«بيتهوفن» هي أسمى ضوضاء تغلغلت في أذن الإنسان، فهي تبعث الرضا في مختلف ألوان الناس وتناسب جميع الحالات. وسواء أكنت تشبه السيدة «منت» وتنقِّر خلسة كلما توالى النغم ـ من دون أن يكون النقر بالقوة التي تزعج الآخرين بالطبع ـ أو كنت مثل «هيلين» التي تستطيع أن ترى أبطالًا أو سفنًا غارقة في تدفق الموسيقى، أو مثل «مارجريت» التي لا تستطيع أن ترى غير الموسيقى، أو «تيبي» المتضلع في المقارنة بين الأنغام، والذي يضع النوتة الموسيقية بأكملها أثناء العزف مفتوحة فوق ركبته، أو مثل ابنة عمهم الآنسة «موزباخ» التي لا يغيب عنها طوال الوقت أن «بيتهوفن» ألماني، أو صديق الآنسة «موزباخ» الذي لا يستطيع أن يتذكر شيئًا غير الآنسة «موزباخ»، سواء هذا أو ذاك، فإن حرارة الحياة فيك تنتعش على أي حال ولا بد لك من التسليم بأن مثل هذه الضوضاء رخيصة بشلنين. هي رخيصة حتى حين تسمعها في «كوينز هول»، وهي أكأب قاعة موسيقية في لندن ـ ولو أنها ليست في مثل كآبة «تريد هول» في مانشستر ـ وحتى إذا جلست في أقصى يسار القاعة حيث تصدمك رنات الآلات النحاسية قبل أن تصل إليك سائر نغمات الأوركسترا، فإن تلك الموسيقى مع ذلك رخيصة.

وفي نهاية الحركة الأولى من السيمفونية قالت السيدة «منت»، وكانت قد عادت إلى لندن في زيارة لـ«ويكهام بليس»:

ـ من ذا الذي تتحدث «مارجريت» عنه؟

وجالت «هيلين» بنظرها في صف الحاضرين الطويل، وقالت إنها لا تدري.

ـ أيكون شابًّا من الشبان الذين تهتم بهم؟

فأجابت «هيلين»:

ـ أظن ذلك.

وكانت الموسيقى قد أسَرَتها فلم تتمكن من أن تناقش الفارق المميز بين الشبان الذين «يهتم» بهم المرء، والشبان الذين «يعرفهم»:

ـ إنكما أيتها الفتاتان مدهشتان في أنكما دائمًا... يا الله! ولكن ينبغي للمرء ألا يتكلم.

ذلك لأن عزف «الأندانتي» قد بدأ. وهي بديعة حقًّا، ولكنها تتسم بشبه مشترك بينها وبين جميع قريباتها من مقطوعات «الأندانتي» الجميلة التي ألفها «بيتهوفن»، وتفصل بعض الشيء ـ كما خيل لـ«هيلين» ـ بين أبطال الحركة الأولى وغرق سفنها، وبين أبطال الحركة الثالثة وشياطينها. وقد أنصتت إلى اللحن مرة من أوله لآخره، ثم شرد ذهنها، وشخصت إلى المستمعين، أو إلى الأرغن، أو إلى أسلوب القاعة المعماري. وانتقدت كثيرًا تماثيل «كيوبيد» النحيلة التي تحيط بسقف «كوينز هول»، مائلة بعضها نحو بعض في إيماءة لا معنى لها، ومرتدية سراويل صفراء فاقعة تضربها شمس أكتوبر. وقالت «هيلين» في نفسها: «ما أبشع التزوج برجل يشبه تماثيل «كيوبيد» هذه!». وهنا بدأ «بيتهوفن» يزخرف لحنه، وعلى ذلك أخذت تنصت إلى اللحن كله من جديد، ثم ابتسمت لابنة عمها «فريدا»، ولكن «فريدا» لم تستطع أن تستجيب وهي تنصت للموسيقى الكلاسيكية. وبدا أيضًا على السيد «ليزيكي» كأن شيئًا لا يستطيع منعه من الإنصات ولو كان جيادًا وحشية، وظهرت خطوط على جبينه، وافترقت شفتاه، واستوت عويناته الزمبركية على أنفه في زاوية قائمة، ووضع يدًا سمينة بضة بيضاء على كل من ركبتيه. وإلى جوار «هيلين» جلست خالتها «جولي» بريطانية قحة تتلهف على أن تُنَقِّر. ما كان أطرف هذا الصف من القوم وما أشد تباين المؤثرات التي خلقتهم! وهنا قال «بيتهوفن» بعد همهمة وغمغمة غاية في العذوبة: «هايهو»، واختتم بذلك «الأندانتي». وانطلقت صيحات الاستحسان باللغة الألمانية: «بديع!» و«فخم!»، من الفرقة الألمانية. وبدأت «مارجريت» تحادث فتاها الجديد، وقالت «هيلين» لخالتها:

ـ الآن تأتي الحركة الرائعة، فهناك أولًا الشياطين، ثم رقص الفيلة الثلاثة.

وتوسل «تيبي» إلى الجماعة عمومًا أن ينصتوا إلى الفقرة الانتقالية على الطبل.

ـ على ماذا يا عزيزي؟

ـ على الطبل يا خالتي «جولي».

وهمست «هيلين»:

ـ لا، بل أنصتوا إلى الجزء الذي تظنون فيه أنكم فرغتم من الشياطين فإذا هي تعود من جديد.

وكانت الموسيقى حينذاك قد بدأت بشيطان يسير في هدوء من أحد أطراف العالم إلى الطرف الآخر، ويتبعه آخرون. ولم تكن مخلوقات معتدية، وهذا هو الذي جعلها تبدو لـ«هيلين» مخيفة جدًّا. إن كل ما فعلته أنها لاحظت أثناء مرورها أن الدنيا خالية من الجلال أو البطولة. ثم عادت من جديد بعد فاصل من رقص الفيلة، وأبدت نفس الملاحظة ثانية. ولم تستطع «هيلين» تكذيبها، لأنها شعرت بمثل هذا مرة على الأفق، ورأت جدران الشباب المكينة تنهار. رأت الفزع والفراغ! الفزع والفراغ! كأن الشياطين على صواب.

ورفع أخوها إصبعه؛ لقد كانت فقرة الانتقال على الطبل.

ذلك أنه لما بدا أن الأمر تجاوز حده قبض «بيتهوفن» على الشياطين، وحملها على فعل ما يريد. وظهر بشخصه، ودفعها دفعة هينة، فبدأت تسير على المقام الموسيقي الكبير بدل الصغير. ثم نفخ بفمه فتشتتت! نفحات من الجلال، آلهة وأنصاف آلهة يصطرعون بسيوف هائلة، وألوان وروائح زكية منشورة على ميدان القتال. انتصار رائع! وموت رائع! أوه، لقد تفجر هذا كله أمام الفتاة حتى إنها مدت إليه يديها المكتسيتين بالقفاز كأنما يمكنها لمسه. إن الموت جليل أيًّا كان، والنضال مستحب أيًّا كان، والغالب والمغلوب على السواء ينالان الاستحسان من ملائكة الأنجم العليا.

والجان، إنها لم تكن في حقيقة الأمر هناك قَطُّ؟ أكانت مجرد أشباح للجبن والكفر؟ وهل دفعة واحدة إنسانية سليمة تبددها؟ إن رجالًا مثل رجال أسرة «ويلكوكس»، أو مثل الرئيس «روزفلت»، يجيبون عن هذه الأسئلة بالإيجاب. ولكن «بيتهوفن» كان أدرى، فالجان موجودة حقيقة وفعلًا. وقد تعود، وها هي ذي عادت. وبدا كأن جلال الحياة قد يفور، ويتحول إلى بخار ويذهب جفاءً، وفي أثناء تحلله ارتفعت النغمة الرهيبة المشؤومة، وبدا جنيٌّ يمشي فوق الكون في هدوء، وفي خبث متزايد، متنقلًا من أحد طرفيه إلى الطرف الآخر. الفزع والفراغ! الفزع والفراغ! وحتى حصون العالم الساطعة يمكن أن تتهاوى.

وقد شاء «بيتهوفن» أن يصحح كل شيء في النهاية، فأقام الصروح المنهارة، ونفخ بفمه مرة ثانية فتبددت الجان من جديد، وأعاد نفحات الجلال والبطولة والشباب، وبهاء الحياة والموت، واختتم سيمفونيته الخامسة وسط هدير هائل من الطرب الأسمى. ولكن الجان كانت هناك، وكان في مقدورها

أن تعود أدراجها. لقد قال ذلك في شجاعة، ولذلك يستطيع المرء أن يثق في «بيتهوفن» عندما يقول أشياء أخرى.

وشقت «هيلين» طريقها إلى الخارج أثناء التصفيق، فقد رغبت في أن تخلو بنفسها. وكانت الموسيقى قد لخصت لها كل ما حدث، أو كل ما يمكن أن يحدث، في حياتها. إنها قرأت ذلك كأنه بيان واضح ملموس، لا يمكن تبديله أبدًا. فالنغمات كانت تعني في نظرها هذا وذاك، ولم يكن واردًا أن يكون لها معنى آخر، والحياة نفسها لم يكن واردًا أن يكون لها معنى آخر. وشقت طريقها إلى خارج البناء لا تلوي على شيء، ونزلت مبطئة درجات السلم الخارجي مستنشقة هواء الخريف، ثم تمشت إلى دارها.

وقالت السيدة «منت» منادية «مارجريت»:

ـ «مارجريت»! هل «هيلين» بخير؟

ـ أوه، نعم.

وقالت «تيبي»:

ـ إنها تنصرف دائمًا في منتصف البرنامج.

وقالت الآنسة «موزباخ»:

ـ من الواضح أن الموسيقى أثرت فيها أبلغ تأثير.

وقال فتى «مارجريت» الشاب الذي قضى بعض الوقت في إعداد العبارة التي يريد قولها:

ـ المعذرة، ولكن تلك السيدة أخذت مظلتي سهوًا.

ـ أوه، عجبًا! أنا آسفة كل الأسف. اركض وراء «هيلين» يا «تيبي».

ـ إذا فعلت ذلك فاتني سماع «الأغنيات الأربع الجادة».

ـ «تيبي»، حبيبي، لا بد من ذهابك.

وقال الشاب:

ـ ليست للمسألة أي أهمية.

وكان في الواقع يشعر ببعض القلق على مظلته.

ـ بل لها أهمية بالتأكيد. «تيبي»! «تيبي»!

وهب «تيبي» واقفًا على قدميه. وتعثر قصدًا بظهور المقاعد. وفات أوان اللحاق بـ«هيلين» بعد الوقت الذي قضاه في زحزحة مقعده، وعثوره على قبعته، ووضع نوتته الموسيقية كاملة في أمان. وبدأ عزف «الأغنيات الأربع الجادة»، واستحال عليه أن يتحرك في أثناء عزفها.

وهمست «مارجريت»:

ـ أختي مهملة جدًّا.

وأجاب الشاب:

ـ لا، أبدًا.

ولكن صوته كان باردًا لا حياة فيه.

ـ إذا تفضلتَ بإعطائي عنوانك.

ـ أوه، أبدًا، أبدًا.

ولف معطفه الكبير حول ركبتيه.

وهنا رنت «الأغنيات الأربع الجادة» رنينًا سطحيًّا في أذن «مارجريت». ذلك أن «برامز»، برغم كل عبوسه وهديره، لم يدُر بخلده قَطُّ كيف يشعر المرء حين يشتبه الناس في أنه سرق مظلة. فإن ذلك الشاب الأحمق ظن أنها هي وأختها «هيلين» و«تيبي» يلعبون معه لعبة الثقة، وأنه إذا ما دلهم على عنوانه فسيقتحمون مسكنه في منتصف إحدى الليالي ويسرقون عصاه أيضًا. ومثل هذا لو حدث لأغلب السيدات لضحكن، ولكن «مارجريت» اهتمت به حقيقةً لأنه أتاح لها لمحة إلى حياة الفقر والقذارة. إن الثقة بالناس ترف يستمتع به الأغنياء وحدهم، أما الفقراء فلا يقدرون عليه. وما إن فرغ «برامز» من هديره حتى أعطت «مارجريت» الفتى بطاقتها وقالت:

ـ ها هو ذا مكان إقامتنا، وأنت تستطيع أن تأتي معنا بعد الحفلة الموسيقية لتأخذ مظلتك إذا آثرت ذلك، ولكني لم أشأ أن أزعجك بينما الخطأ كله كان خطأنا.

وأشرق وجهه قليلًا عندما رأى أن «ويكهام بليس» يقع في غرب لندن. وكان من المحزن أن يراه المرء وسوء الظن ينهشه، وهو مع ذلك لا يستطيع أن يسيء أدبه إذ قد يكون أولئك القوم حسنو الهندام أمناء رغم كل ظنونه. ولما قال لها:

ـ إن برنامج هذا المساء رائع، أليس كذلك؟

رأت في هذا القول دلالة حسنة، لأن هذه الملحوظة هي التي كان قد بدأ بها حديثه معها قبل أن تطرأ مسألة المظلة.

وقالت «مارجريت» التي لم تكن أنشى من الطراز المشجع:

ـ إن موسيقى «بيتهوفن» جميلة، ولكنني لا أميل إلى موسيقى «برامز» ولا إلى «مندلسون» الذي عُزفت موسيقاه أولًا. و... أف! أنا لا أميل إلى «إلجار» هذا الذي ستعزف له المقطوعة التالية.

ونادى السيد «ليزيكي» الذي ترامى إليه قولها:

ـ ماذا؟ ماذا؟ ألن تكون معزوفة «الأبهة» جميلة؟

وصاحت خالتها:

ـ أوه «مارجريت»، أيتها الفتاة المتعبة! لقد ظللت أقنع السيد «ليزيكي» أن ينتظر حتى يسمع معزوفة «الأبهة» وها أنتِ ذي تفسدين سعيي بأكمله. فكم أنا متلهفة على أن يستمع إلى ما نبدعه نحن في عالم الموسيقى. أوه، يجب ألا تستخِفي بملحنينا الإنجليز يا «مارجريت».

وقالت الآنسة «موزباخ»:

ـ أنا من ناحيتي سمعت هذه المعزوفة في مدينة ستيتين مرتين في مناسبتين. إنها مسرحية بعض الشيء.

ـ إنكِ تزدرين الموسيقى الإنجليزية يا «فريدا»، وتعلمين ذلك. وتزدرين الفن الإنجليزي، والأدب الإنجليزي، باستثناءِ «شيكسبير»، و«شيكسبير» ألماني.

حسنًا جدًّا يا «فريدا»، في استطاعتكِ أن تنصرفي.

وضحك العاشقان وتبادلا النظرات، ونهضا واقفين على أقدامهما مدفوعين بدافع مشترك، وهربا من سماع «الأبهة».

وقال السيد «ليزيكي» إذ انسحب مارًّا بها، ووصل إلى الممشى في الوقت الذي بدأ فيه عزف الموسيقى:

ـ علينا أن نؤدي تلك الزيارة في «فينزبري سيركوس»، هذا حقيقي.

وهمست الخالة «جولي» بصوت مسموع:

ـ «مارجريت»! «مارجريت»، «مارجريت»! لقد تركت الآنسة «موزباخ» حقيبة يدها الصغيرة الجميلة وراءها على المقعد.

وكانت هناك بالتأكيد حقيبة «فريدا» محتوية على مفكرة عناوين الأصدقاء، وقاموس الجيب، وخريطة لندن، والنقود.

ـ أوه، شيء يضايق! يا لنا من أسرة! «فر... فريدا»!

وصاح جميع الذين خيل إليهم أن الموسيقى جميلة:

ـ صه.

ولكن في الحقيبة العنوان الذي يريدونه في «فينزبري سيركوس».

وقال الشاب الموسوس:

ـ أيمكنني أن... أأستطيع أن...؟

واحمر وجهه احمرارًا شديدًا.

ـ أوه، سأقَدر لك هذا الجميل تقديرًا كبيرًا.

وأخذ الحقيبة ـ وقِطع النقود ترن داخلها ـ وانسل مجتازًا الممشى وهو يحملها. ولحق بهما في آخر لحظة عند الباب الدائر الخارجي، وفاز من الفتاة الألمانية بابتسامة جميلة، ومن فارسها بانحناءة لطيفة. وعاد إلى مقعده وقد تعادل في هذه الجولة مع الدنيا. كانت الثقة التي أولوه إياها طفيفة، ولكنه

أحس أنها ألغت ارتيابه فيهم، وأنه ربما لن يخدع في أمر مظلته. لقد خدع هذا الشاب فيما مضى، على نحو شديد طاغٍ، فانصرفت أغلب جهوده إلى حماية نفسه من المجهول. ولكنه أدرك بعدَ ظُهر اليوم ـ ولعل ذلك كان بسبب الموسيقى ـ أن على المرء أن يتساهل أحيانًا، وإلا فأي خير في حياة الإنسان؟ وبرغم أن زيارة «ويكهام بليس»، غربًا، مخاطرة، فهي لا تقل أمانًا عن أغلب الأمور، وهو سيُقدِم عليها من دون شك.

لذلك عندما قالت «مارجريت» بعد انتهاء الحفلة الموسيقية:

ـ نحن نسكن قريبًا جدًّا من هنا، وأنا عائدة إلى الدار الآن، فهل تستطيع أن تتمشى معي، لنجد لك مظلتك؟

أجاب الفتى في وداعة:

ـ أشكركِ.

وتبعها إلى خارج «كوينز هول». وودت لو أنه كان أقل تلهفًا على مد يد المعاونة إلى سيدة وهي تنزل درجات السلم، أو على حمل برنامج الحفلة لها. لقد كانت طبقته قريبة من طبقتها قربًا يكفي لجعل سلوك تلك الطبقة يغيظها. ولكنها وجدته على العموم طريفًا ـ وكان كل شخص في هذه الآونة يبدو لأسرة «شليجل» طريفًا على العموم ـ بينما كانت شفتاها تتحدثان عن الثقافة أخذ قلبها يرسم الخطة لدعوته إلى تناول الشاي.

وأنشأت تقول:

ـ كم يشعر الإنسان بالتعب بعد سماع الموسيقى!

ـ هل تجدين جو «كوينز هول» مقبضًا؟

ـ نعم، بشكل مخيف.

ـ ولكن من المؤكد أن جوَّ «كوفينت جاردن» أبعث على الانقباض.

ـ أتكثر من الذهاب إلى هناك؟

ـ أنا أواظب على الذهاب إلى أعلى المسرح لأستمع إلى الأوبرا الملكية عندما يسمح عملي بذلك.

ولو كانت «هيلين» مكان أختها لصاحت: «وأنا مثلك... أنا أحب أعلى المسرح»، لتحبب نفسها إليه. إن «هيلين» تستطيع الإقدام على هذه الأشياء، ولكن «مارجريت» كانت تشعر برعب يوشك أن يكون مسقمًا من «دفع الناس إلى الكلام» ومن «مسايرتهم في الحديث». لقد جلست في أعلى مسرح «كوفينت جاردن»، ولكنها لم تواظب على ذلك، إذ كانت تفضل المقاعد الأغلى ثمنًا، بل إنها لم تحب أعلى المسرح. ولذلك لم تُحِر جوابًا.

ـ في هذا العام حضرت ثلاث مرات للاستماع إلى «فاوست» و«توسكا»، و... هل اسم الأوبرا الثالثة «تانهاوزر»، أو «تانهويزر»؟ خير للمرء ألا يجازف بنطق الكلمة.

ولم تكن «توسكا» و«فاوست» تروقان لـ«مارجريت»، فلاذ الاثنان بالصمت، لسبب أو لآخر، وهما يسيران معًا، ويرافقهما صوت السيدة «منت» التي كان ابن أختها قد ورطها في بعض المشكلات.

ـ أنا أتذكر إلى حد ما تلك الفقرة يا «تيبي»، ولكن عندما يبلغ عزف كل آلة موسيقية مثل هذا الجمال، فمن الصعب تمييز لحن عن الباقي. وأنا لا أشك في أنك أنت وأختك «هيلين» تصحباني إلى أبدع الحفلات الموسيقية. إنني لم أسمع خلال الحفلة نغمة مملة واحدة، ولكنني وددت فقط لو بقي أصدقاؤنا الألمان حتى نهاية الحفلة.

وجاء صوت «تيبي»:

ـ ولكنكِ يا خالتي «جولي» لم تنسَي ولا شك ضربات الطبل المتصلة تضرب على مقام «حـ» الواطئ؟ فلا يمكن لأحد أن ينساها أو يخطئها.

وجازفت السيدة «منت» بقولها:

ـ أهو الجزء عالي النغم عن الأجزاء الباقية؟

وأحست أنها أخطأت الرمية فأضافت:

ـ أنا من دون ريب لا أزعم أني موسيقية، وكل ما في الأمر أنني أحب الموسيقى وهذا أمر مختلف كل الاختلاف. بيد أني أستطيع مع ذلك أن أذكر فضيلة فيَّ، وهي أنني أعرف متى أعجب بشيء ومتى لا أعجب به. وهكذا بعض الناس أيضًا فيما يتعلق بتذوق الصور، فهم يستطيعون ـ وكذلك تستطيع الآنسة «كونديز» ـ أن يذهبوا إلى متحف للصور، ويُعبروا توًّا عن أثر

جميع الصور المعلقة بالحائط في أنفسهم. وهذا ما لم أستطعه أنا قَطّ. ولكن الموسيقى تختلف في رأيي عن الصور كل الاختلاف. وفي مجال الموسيقى أشعر بأمان وثقة. وأؤكد لك يا «تيبي» أني لا أستحسن كل ضروب الموسيقى بحال من الأحوال. كان هناك لحن ـ لحن عن معبود أسطوري بالفرنسية ـ افتتنت به «هيلين» كل الافتتان، ولكني رأيته شديد الرنين والسطحية، وقلت ذلك صراحة، وتمسكت برأيي أيضًا.

وسألت «مارجريت» رفيقها:

ـ أأنت موافق؟ أتظن أن الموسيقى تختلف عن الصور كل هذا الاختلاف؟

فقال:

ـ أنا أظن ذلك، أو شيئًا من هذا القبيل.

ـ وأنا كذلك. ولكن أختي تجاهر بأنهما لا تختلفان، وبيننا مجادلات عنيفة تدور حول ذلك. وهي تقول عني إني بليدة الفهم، وأنا أقول عنها إنها مهوَّشة.

وصاحت بعد أن حميت:

ـ ألا يبدو لك ذلك سخيفًا؟ فما الفائدة إذن من مختلف الفنون إذا كان التبادل بينها ممكنًا؟ ما فائدة الأذن إذا كانت تقول لك ما تقوله العين؟ إن هدف «هيلين» الأوحد هو أن تترجم النغمات إلى لغة التصوير، وتترجم الصور إلى لغة الموسيقى. هذه براعة فائقة، وهي تقول في هذا الصدد أشياء عديدة جميلة، ولكني أريد أن أعرف ما الفائدة؟ أوه، إن هذا كله سخيف، وباطل من أساسه. فإذا كان «مونيه» هو «ديبوسي» بعينه، وكان «ديبوسي» هو عين «مونيه»، فإن أيًّا من هذين السيدين لا يستحق عنايتنا. هذا هو رأيي.

من الواضح أن هاتين الأختين كانتا تتشاجران.

ـ والآن هذه السيمفونية التي استمعنا إليها توًّا، إنها لا تدعها وشأنها. إنها تخلع عليها المعاني من بدايتها حتى نهايتها، وتحولها إلى أدب. وإني لأتساءل: هل يعود اليوم الذي ينظر الناس فيه إلى الموسيقى على أنها موسيقى؟ وبرغم ذلك لست أدري، فها هو ذا أخي، خلفنا. إنه ينظر إلى الموسيقى على أنها موسيقى، ولعمري إنه ليغضبني بل يسخطني أكثر مما يسخطني أي امرئ آخر، وأنا لا أجرؤ حتى على مجادلته.

إنها لأسرة شقية وإن كانت موهوبة.

ـ ولكن الوغد الحقيقي هو «فاجنر» بالطبع. فقد عمل على خلط الفنون أكثر مما عمل أي رجل آخر خلال القرن التاسع عشر. وأنا أحس أن الموسيقى الآن في حالة خطيرة جدًّا برغم أنها مثيرة للاهتمام على نحو غير عادي. وفي مجرى التاريخ يظهر بين وقت وآخر أولئك العباقرة المرعبون من أمثال «فاجنر»، أولئك الذين يثيرون جميع ينابيع الفكر معًا. وهذا يبهرنا لفترة وجيزة، فهو اصطخاب لم يحدث مثله قَطُّ. ولكن في أعقابه وحلًا كثيرًا. ثم الينابيع، كأن بعضها أصبح يتصل ببعض في سهولة مفرطة، فلا يرضى أن يتدفق صافيًا كل الصفاء. وهذا هو ما فعله «فاجنر».

كانت أقوالها ترفرف كالطير مبتعدة عن الفتى. فلو أنه استطاع أن يتحدث هكذا لاسترعى انتباه العالم. أوه، ما أعظم اكتساب المرء للثقافة! أوه، ونطقه الأسماء الأجنبية نطقًا سليمًا! أوه، وسعة الاطلاع، والتحدث في سهولة عن أي موضوع تطرقه سيدة! ولكن هذا يستغرق منه سنوات. كيف يتأتى بإنفاق ساعة واحدة وقت الغداء، وساعات مهلهلة قليلة في المساء، أن يلحق بنساء يتمتعن بالفراغ، ويقرأن بانتظام منذ طفولتهن! قد يكون ذهنه مشحونًا بالأسماء، ولعله سمع حتى عن «مونيه» و«ديبوسي». ولكن مشكلته كانت في عجزه عن نظم هذه الأسماء في جملة، وعجزه عن جعلها «تحدث الأثر المطلوب»، وعجزه عن نسيان مظلته المسروقة كل النسيان. نعم، إن المظلة هي همه الحقيقي، فمن وراء «مونيه» و«ديبوسي» تلح عليه المظلة بمثل دقات الطبل المتصلة. كان يقول لنفسه: «أحسب أن مظلتي ستعود لي. أنا في الحقيقة غير مهتم بها، وسأفكر في الموسيقى بدلًا منها. أحسب أن مظلتي ستعود لي». وقد أقلقه أثناء العصر أمر المقاعد. أكان ينبغي أن يدفع قدرًا من النقود يبلغ الشلنين؟ وقد تساءل قبل ذلك أيضًا: «أأحاول أن أستغني عن شراء برنامج الحفلة؟». كان هناك دائمًا شيء يقلقه طوال حياته التي يتذكرها. كان شيء يصرف انتباهه من دون انقطاع أثناء سعيه وراء الجمال. فقد كان يسعى وراء الجمال فعلًا، ولذلك كانت أحاديث «مارجريت» ترفرف مبتعدة عنه كالطيور.

ومضت «مارجريت» في حديثها لا تلوي، وهي تقول من حين لحين: «ألا تظن ذلك؟»، «ألا تشعر بنفس الشعور؟» وتوقفت مرة وقالت:

ـ أوه، هلا أوقفتني!

وقد أرعبه هذا. إنها لم تفتنه وإن كانت ملأته إجلالًا. كانت عجفاء، وبدا وجهها كأنه كله أسنان وعيون، وكانت إشاراتها إلى أختها وأخيها غير كريمة. وبرغم براعتها وثقافتها كلها، فهي على الأرجح واحدة من أولئك النسوة الملحدات، المجردات من الروح، اللواتي تعرضهن الآنسة «كوريللي». وقد أدهش الفتى (وأزعجه) أن تقول فجأة: «أرجو أن تدخل وتتناول قدحًا من الشاي».

ـ أرجو أن تدخل وتتناول قدحًا من الشاي. وسيسرنا ذلك كل السرور. لقد أبعدتك كثيرًا عن طريقك.

وكانا قد وصلا إلى «ويكهام بليس» والشمس قد غربت، وكان الحي الهادئ المستتر في الظلام العميق يملأه غبش رقيق، وإلى اليمين كان صف عجيب من العمارات الملامسة للسماء يناطح بلونه الأسود ألوان المساء. وإلى اليسار قامت المنازل القديمة كالسور السميك غير المنسق على صفحة الجو الرمادي. وتحسست «مارجريت» مفتاح بابها. فوجدت أنها نسيته بالطبع. ولذلك أمسكت بمظلتها من مقبضها، ومالت بها إلى الأمام، ودقت بها نافذة غرفة الطعام.

ـ «هيلين»! دعينا ندخل!

وأجاب صوت:

ـ حسنًا.

ـ إنك أخذتِ مظلة هذا السيد.

وقالت «هيلين» وهي تفتح الباب:

ـ أخذت ماذا؟ أوه، ماذا؟ تفضل بالدخول! كيف حالك؟

ـ «هيلين»، ينبغي ألا تكون حالتكِ سيئة إلى هذا الحد. لقد أخذتِ معكِ مظلة هذا السيد من «كوينز هول»، فكلف نفسه مشقة المجيء إلى هنا لأخذها.

وصاحت «هيلين»:

ـ أوه، كم أنا متأسفة!

وتطاير شعرها كله، وكانت قد نزعت قبعتها على أثر عودتها، وارتمت على الكرسي الكبير في غرفة الطعام.

ـ أنا لا أفعل شيئًا غير سرقة المظلات. كم أنا آسفة كل الأسف! تعالَ واختَر لك واحدة من هذه المظلات. أمظلتك مقوسة المقبض أم كرويته؟ إن مظلتي كروية المقبض، أو أنا أحسبها كذلك على الأقل.

وأضاءوا النور، وبدأوا بحثهم في الردهة. وأخذت «هيلين» التي تركت السيمفونية الخامسة فجأة تعقب بصيحات صغيرة مجلجلة:

ـ لا تتكلمي أنتِ يا «ميج»! فإنكِ سرقتِ من رجل هرم قبعته الغالية الحريرية. نعم، إنها فعلت يا خالتي «جولي». هذه واقعة أكيدة. لقد ظنت القبعة فروًا لليدين. يا الله! إني أوقعت لافتة الباب التي تشير إلى وجودنا أو غيابنا عن المنزل. أين «فريدا». «تيبي»، لماذا لا... كلا، لا أستطيع أن أتذكر ما نويت قوله. إنه لا يتعلق بالشاي، ولكن قل للخادمات أن يسرعن به. وما رأيك في هذه المظلة؟

وفتحتها:

ـ لا. إنها بالية بطول الخياطة. إنها مظلة بشعة. لا بد أنها مظلتي أنا.

ولكنها لم تكن مظلتها.

وأخذها منها. وغمغم كلمات شكر قليلة، ثم أسرع في الخروج بخطوات كتبة الدواوين ذات الإيقاع. وصاحت «مارجريت»:

ـ ولكن، هلا تفضلت بالانتظار.

والآن، يا «هيلين»، لكَم كنت غبية!

ـ وأي شيء فعلت؟

ـ ألا ترين أنكِ حملتِه على الفرار فزعًا؟ وكنت أقصد أن أستبقيه لتناول الشاي. لم يكن يجمل بكِ أن تتحدثي عن السرقة، وعن ثقوب في مظلته. إني رأيت عينيه اللطيفتين تصيران تعستين جدًّا. كلا، لم تَعُد هناك أي جدوى الآن.

ذلك أن «هيلين» اندفعت إلى الشارع وهي تصيح:

ـ أوه، أرجو أن تقف!

وقالت السيدة «منت» معربة عن رأيها:

ـ لعل ما حدث هو الخير، فنحن لا نعرف شيئًا عن هذا الشاب يا «مارجريت»، وغرفة استقبالكِ مليئة بالأشياء الصغيرة المغرية.

ولكن «هيلين» صاحت:

ـ كيف تقولين هذا يا خالتي «جولي»؟ أنتِ تجعلينني أشد خزيًا. وأنا أفضل لو أنه كان لصًّا وسرق جميع ملاعقنا الفضية. أفضل هذا على... حسنًا، أحسب أنه يجب عليَّ إغلاق الباب الخارجي. إن هذا إخفاق جديد لـ«هيلين».

وقالت «مارجريت»:

ـ نعم، إن الملاعق الفضية يمكن أن تُعد «أجرة».

وإذ رأت أن خالتها لم تفهم قصدها أضافت قولها:

ـ أتذكرين كلمة «الأجرة»؟ إنها إحدى كلمات أبي: «أجر المثل الأعلى»، «أجر ثقته في الطبيعة البشرية». إنكِ تذكرين كيف كان يثق في الغرباء. وكان يقول إذا خدعوه: «خير للمرء أن يكون مخدوعًا من أن يكون مرتابًا»، وإن لعبة الثقة هي من صنع الإنسان، ولكن لعبة الشك وعدم الثقة من صنع الشيطان.

وقالت السيدة «منت»:

ـ أتذَكر الآن شيئًا من هذا القبيل.

قالت ذلك بلهجة تميل إلى الحدة لأنها تاقت إلى أن تضيف: «كان من حسن الحظ أن تزوج أبوك امرأة ذات مال». ولكنها لو قالت هذا لكانت ملاحظة جافة. لذلك اكتفت بأن تضيف هذه العبارة:

ـ لعمري كان يمكن لهذا الشاب أن يسرق صورة «ريكتس» الصغير كذلك.

فقالت «هيلين» بشدة:

ـ كان خيرًا لو فعل.

وقالت «مارجريت»:

ـ لا، أنا من رأي خالتي «جولي». فأولى بي أن أرتاب في الناس من أن أفقد صورة الصغير «ريكتس»... ولكل شيء حدود.

وانسل أخوها إذ رأى الحادث عاديًّا، وصعد إلى الطابق العلوي ليرى ما إذا كانت هناك فطائر متوفرة لتناولها مع الشاي، وأحمى إبريق الشاي ـ بمهارة تكاد تكون فائقة الحد ـ وترك علبة شاي الـ«أورانج بيكو» التي أعدتها الخادمة، ووضع في الإبريق ملء خمس ملاعق من مزيج ممتاز من الشاي، وملأه بماء يغلي غليانًا. وأهاب بالسيدات أن يسرعن قبل أن يفقد الشاي نكهته.

وصاحت «هيلين»:

ـ حسنًا يا «خالتي تيبي».

بينما عادت «مارجريت» تقول وهي تفكر:

ـ وددت، على نحو ما، لو كان عندنا في المنزل صبي بمعنى الكلمة ـ صبي من ذلك النوع الذي يحب الرجال. فهذا يُسهل علينا مهمة الترحيب بالضيوف.

وقالت أختها:

ـ وددت ذلك أنا أيضًا. و«تيبي» لا يحب إلا الإناث المثقفات اللواتي يغنين أغنيات «برامز».

وعندما اجتمعتا بأخيهما أردفت بشيء من الحدة:

ـ لماذا لم ترحب بذلك الشاب يا «تيبي»؟ لاحِظ أن عليك القيام بدور المضيف، ولو قليلًا. كان جديرًا بك أن تأخذ قبعته، وتغريه بالبقاء بدل تركه حتى تغرقه النساء بصراخهن.

وتنهد «تيبي»، ورفع فوق جبينه خصلة طويلة من شعره.

ـ أوه، لا خير في ظهورك بمظهر المتعالي. إني أعني ما قلت.

فقالت «مارجريت» التي لم تكن تحتمل أن ينهر أخاها أحدٌ.

ـ دعي «تيبي» وشأنه.

وقالت «هيلين» متذمرة:

ـ هذا المنزل لا يختلف عن عش الدجاج.

واحتجت السيدة «منت»:

ـ أوه، يا عزيزتي! كيف يمكنكِ أن تفوهي بمثل هذه الأقوال الشنيعة! إن عدد الرجال الذين تستقبلونهم كان يدهشني دائمًا. وإذا كان ثمة خطر فهو بعكس ما تقولين.

ـ نعم، ولكن «هيلين» تعني أن أولئك الرجال من الصنف الخطأ.

وصححت «هيلين» قول أختها:

ـ لا، أنا لا أعني ذلك، فنحن نستقبل صنف الرجل الصحيح، ولكننا لا نظفر منه إلا بالجانب الخطأ. وأنا أقرر أن هذا هو خطأ «تيبي». يجب أن يتوفر شيء ما في هذا المنزل، أن يتوفر... لست أدري ماذا.

ـ لعلكِ تقصدين مسحة من أسرة «و.»؟

وأخرجت «هيلين» لسانها. وسأل «تيبي»:

ـ ما هي أسرة «و.» هذه؟

ـ هذه أمور أعرفها أنا و«ميج» وخالتي «جولي»، بينما أنت لا تعرفها، حسبك هذا!

وقالت «مارجريت»:

ـ أحسب أن دارنا دار أنثوية، وعلى المرء أن يرضى بها كما هي. لا يا خالتي «جولي». أنا لا أعني أن هذه الدار ملأى بالنساء، بل أحاول أن أقول شيئًا أبرع من ذلك بكثير. إن ما أعنيه هو أنها كانت أنثوية قطعًا حتى أيام أبي. والآن أنا على ثقة من أنكِ تفهمين قصدي! حسنًا، سأضرب لكِ مثلًا آخر. إنه سيصدمكِ، ولكني لا أبالي. افترضي أن الملكة «فيكتوريا» أقامت حفلة غداء، وأن المدعوين إلى تلك الحفلة كانوا «ليتون» و«ميليه» و«سوينبورن» و«روسيتي» و«ميريديث» و«فيتزجرالد» ومن إليهم، فهل تحسبين أن جوَّ حفلة الغداء هذه يكون فنيًّا؟ لا، بحق السماء! وإن المقاعد التي جلسوا عليها ذاتها تحرص على ألا يكون كذلك. وعليهِ فإن دارنا يجب أن تكون أنثوية،

وليس بوسعنا أن نفعل شيئًا إلا أن نعنى بألا تكون مخنثة. وهذا لا يختلف أبدًا عن دار أخرى أستطيع أن أتمثل بها، ولكني لن أفعل. إن تلك الدار تبدو دار ذكور قطعًا. وكل ما يستطيعه قُطَّانها هو أن يعنوا بألا تكون وحشية.

قال «تيبي»:

ـ أظن أن هذه الدار هي دار «و.».

فصاحت «هيلين»:

ـ لن يقال لك شيء عن دار «و.» يا بني، ولذا اصرف النظر عن ذلك. ثم إنني من الناحية الأخرى لن أهتم أبدًا فيما إذا وقفت على جلية الأمر، ففي كلتا الحالتين لا يخيل إليك أنك قمت بعمل بارع. ناولني سيجارة.

وقالت «مارجريت»:

ـ أنتِ تبذلين كل ما تستطيعين لإفساد الدار، فغرفة الاستقبال معبأة بدخان السجائر.

ـ لو دخنتِ أنت أيضًا فقد تتحول دارنا فجأة إلى دار ذكور، فإن جو المكان هو على الأغلب شيء لا يستقر على حال واحدة. وحتى حفلة غداء الملكة «فيكتوريا» ـ لو أنها كانت مختلفة بعض الشيء ـ لو أن الملكة ارتدت خلالها ربما ثوبًا محبوكًا بسيطًا مما يُرتدى في حفلات الشاي بدلًا من ثوب حريري أحمر...

ـ وارتدت على كتفيها وشاحًا هنديًّا...

ـ وشبكته من ناحية الصدر بدبوس ذي ماسة صفراء اللون...

وقوبلت هذه الاقتراحات بضحكات منطلقة خالية من الولاء للعرش ـ عليك أن تذكر أن أبا هؤلاء الثلاثة ألماني أصلًا ـ وقالت «مارجريت» وهي تفكر:

ـ لا أتصور أن تهتم الأسرة المالكة بالفن!

وانساقت المناقشة بعيدًا بعيدًا وتحولت لفافة «هيلين» إلى بقعة مضيئة وسط الظلام. وبدت العمارات الشاهقة المقابلة مرشوقة بالنوافذ المضاءة التي كانت تنطفئ ثم تضاء من جديد ثم تعود فتتوارى من دون انقطاع. ومن

ورائها يضج الطريق الممتد ضجيجًا لطيفًا، فهو كمدٍّ البحر الذي لا يهدأ أبدًا، بينما أخذ القمر يطلع من الشرق متواريًا خلف الدخان المتصاعد من وابينج.

ـ هذا يذكرني بشيء، يا «مارجريت». كان جديرًا بنا، على أي حال، أن نقود هذا الفتى إلى غرفة الطعام. فلا خوف منه إلا على صحن «الماجوليكا» الثمين، بيد أنه مثبت في الحائط بإحكام. وقد أحزنني حقًّا أنه لم يتناول قدحًا من الشاي.

ذلك أن هذا الحادث الصغير أثر في نفوس النسوة الثلاث تأثيرًا أبعد مما يُظن. كان أشبه بخطوة جن، إشارة إلى أن الأمور على ما يرام في أكمل العوالم الممكنة، وأن تحت صروح الغنى والفن يهيم على وجهه غلام محروم من الغذاء الكافي؛ غلام استعاد مظلته حقًّا، ولكنه لم يترك وراءه عنوانًا أو اسمًا.

## الفصل السادس

لا شأن لنا بالفقراء فقرًا مدقعًا، فهم لا يخطرون على بال، ولا يجنح إليهم إلا القائمون بالإحصاء أو الشعراء. وقصتنا تتناول أفراد الأسر الكريمة، أو أولئك الذين يضطرون إلى الادعاء بأنهم من الأسر الكريمة.

والفتى «لينارد باست» يقف على حافة هذه الأسر الكريمة. إنه لم يتردَّ في الهاوية، ولكنه يستطيع أن يراها. وحدث أحيانًا أن أناسًا ممن يعرفهم سقطوا فيها، ولم يعودوا في الحسبان. وهو يعلم أنه فقير، ويعترف بذلك. بيد أنه يُؤثِر الموت على التسليم بأنه أقل شأنًا من الأغنياء. وقد يكون هذا رائعًا منه. ولكنه كان فعلًا أقل شأنًا من أغلب الأغنياء، ما في ذلك أدنى شك. فهو ليس مجاملًا كأوساط الأغنياء، وليس فطنًا أو موفور الصحة أو محبوبًا مثلهم. فقد كابد عقله مثلما كابد جسده سوء التغذية، ذلك لأنه كان فقيرًا، وتاق عقله كما تاق جسده إلى غذاء أفضل لأنه كان عصريًّا. ولو أنه عاش منذ قرون في ظل حضارات الماضي مشرقة الألوان، لكان له في المجتمع وضع محدد، ولكان بين طبقته ودخله تناسُب. ولكن ملاك الديمقراطية حلَّق في أيامه، مظلِّلًا الطبقات بجناحين من جلد، ومعلنًا على الملأ: «جميع الرجال سواسية، أي جميع الرجال الذين يملكون مظلات» ولذلك اضطر إلى تأكيد أرومته، وإلا انزلق إلى الهاوية التي لا يحسب لشيء فيها حسابًا، والتي لا تسمع فيها أقوال الديمقراطية.

وعندما غادر «ويكهام بليس» كان همه أولًا أن يثبت أنه لا يقِل في شيء عن آنستَي أسرة «شليجل». وقد شعر شعورًا غامضًا بأنه أصيب في كبريائه، فحاول أن يرد على ذلك بإصابة كبريائهما. إنهما ليستا من سيدات الطبقة الراقية على الأغلب، فهل يمكن لسيدات هذه الطبقة الأصيلات أن يسألنه تناوُل الشاي؟ إنهما من دون شك باردتا الطبع، غير مهذبتين. وأخذ شعوره بالتفوق يزداد بعد كل خطوة يخطوها. أيمكن لسيدة مجتمع حقيقية أن تتحدث عن سرقة مظلة؟ ولعلهما في الواقع لصتان. ولو أنه دخل منزلهما لكممتا وجهه بمنديل مبلل بالكلوروفورم وسار راضيًا عن نفسه حتى مجلسَي البرلمان. وهناك أكدت معدته الخالية وجودها، وأظهرت له أنه مغفل.

ـ مساء الخير يا سيد «باست».

ـ مساء الخير يا سيد «ديلتري».

ـ مساء لطيف.

ـ مساء الخير.

ومر السيد «ديلتري»، وهو موظف كتابي من زملائه، بينما وقف «لينارد» يفكر هل الأولى به أن يستقل الترام إلى آخر الشوط الذي تسمح به التذكرة ذات البنس، أم أن يسير على قدميه. وقرر أن يسير على قدميه، فلا خير في الاستسلام للرغبات، ثم إنه أنفق مبلغًا كافيًا في حفلة «كوينز هول». واجتاز جسر وستمنستر، ومر أمام مستشفى «سانت توماس» واخترق النفق الكبير الممتد تحت الخط الحديدي الرئيسي الجنوبي الغربي في فوكسهول. وتوقف هنيهة داخل النفق، وأنصت إلى ضجيج القطارات العابرة. وشعر بألم حاد يندفع في رأسه، وكان يدرك على وجه التحديد الشكل الذي اتخذه حجاجًا عينيه. وقطع مسافة ميل آخر، ولم يخفف من سرعته إلا حين وقف عند مدخل شارع يسمى شارع «كاميليا» الذي كان حينذاك مقرًّا لمنزله.

وهنا وقف مرة ثانية، ودار ببصره يمينًا وشمالًا في حذر كما يفعل الأرنب الذي يوشك أن يندفع إلى جحره. وارتفعت على الجانبين عمارة من مساكن بنيت بناء رخيصًا جدًّا. وعلى مسافة من نفس الشارع بنيت عمارتان أخريان من المساكن. وكذلك على مبعدة منهما كان منزل قديم يُهدم لإفساح المكان لبناء عمارتين أخريين. وكان هذا المشهد من نفس النوع الذي يُرى في كل ناحية من نواحي لندن أيًّا كان صنفها، فالآجر والملاط تظل ترتفع وتنهار في مثل تتابع ماء النافورة، ما دامت المدينة تستقبل فوق أديمها مزيدًا لا ينقطع من الناس. وسينتصب شارع «كاميليا» عما قريب كأنه القلعة، ويشرف ـ إلى أمد قصير ـ على مشهد رحيب. إلى أمد قصير فحسب. لقد أُعِدت التصميمات لإقامة مساكن في شارع «مانوليا» أيضًا. وفي بضع سنوات أخرى قد تزال مباني كلا الشارعين، وقد تقوم مكانها مبانٍ جديدة ضخمة إلى حدٍّ يستحيل تخيله في الوقت الحاضر.

ـ مساء الخير يا سيد «باست».

ـ مساء الخير يا سيد «كاننجهام».

ـ إن هذا الانخفاض في نسبة مواليد مانشستر أمر خطير جدًّا.

ـ عفوًا؟

وأعاد السيد «كاننجهام» قوله وهو يدق على صحيفة الأحد التي اطلع فيها على الكارثة موضع المناقشة:

ـ هذا الانخفاض في نسبة مواليد مانشستر أمر خطير جدًّا.

وقال «لينارد»، الذي لم يكن ليظهر أنه لم يشترِ صحيفة من صحف الأحد:

ـ أي، نعم.

ـ إذا استمرت هذه الحال فإن عدد سكان إنجلترا عام ١٩٦٠ سيظل ثابتًا من دون ازدياد.

ـ أصحيح ما تقول؟

ـ أنا أعدُّ ذلك أمرًا خطيرًا جدًّا. هيه؟

ـ مساء الخير يا سيد «كاننجهام».

ـ مساء الخير يا سيد «باست».

ودخل «لينارد» العمارة السكنية رقم «ب»، ودار لا ليصعد، بل ليهبط إلى ما يسميه سماسرة المساكن «نصف بدروم»، ويسميه غيرهم قبوًا. وفتح الباب، وصاح بلهجة اللندني التي يشوبها لطف مصطنع:

ـ «هالو».

ولم يتلقَّ ردًّا، فكرر صيحته:

ـ «هالو».

وكانت غرفة الجلوس خالية برغم أن نورها الكهربائي تُرك مضاء. وبدت على وجهه لمحة تنم عن الفرح. وارتمى على المقعد عَبِل الذراعين.

وبغرفة الجلوس، علاوة على المقعد المذكور، مقعدان آخران، وبيانو، ومائدة ذات ثلاث أرجل، وركن مريح. أما حوائط الغرفة فهناك نافذة تشغل إحداها، وعلى الأخرى رف مكسو بغطاء من القماش، ومزين بتماثيل لـ«كيوبيد» إله الحب، وتجاه النافذة يقوم الباب. وإلى جانب الباب خزانة للكتب، بينما امتدت على البيانو إحدى آيات «مود جودمان» الفنية. وهذه الغرفة تصبح

عش غرام صغيرًا لطيفًا حين تسدل الستائر، وتضاء الأنوار، ويطفأ الموقد الغازي! ولكن كانت تنبعث منه تلك النغمة الضحلة الوقتية التي تسمعها تتردد في المساكن الحديثة غالبًا، فهو يمكن الحصول عليه بسهولة كبيرة، ويمكن هجره بسهولة كبيرة.

وقد أصاب «لينارد» المائدة ذات الأرجل الثلاث بحذائه بينما كان يخلعه ويقذف به، فانزلق إطار صورة فوتوغرافية كان موضوعًا برعاية فوق تلك المائدة، وسقط من جانبها في الموقد وتحطم. وصب الفتى اللعنات في عبارات باهتة، والتقط الصورة الفوتوغرافية. وكانت تمثل سيدة في مقتبل العمر تدعى «جاكي». وقد التقطت خلال عهد درجت فيه الشابات اللاتي يُدعون «جاكي» على أن يفغرن أفواههن غالبًا لدى التقاط صورهن. كانت هناك ثنايا بيضاء متألقة تكسو فكَّي «جاكي»، وتزن ولا شك رأسها من كلا جانبيه، لأنها كانت كبيرة الحجم كثيرة العدد... وصدقني إن ابتسامتها كانت مذهلة ولا ريب، وما من متشدد غيري أنا وأنت في الحكم على جمال «جاكي»، معترضين بأن البهجة الحقيقية تبدأ من العينين، وأن عينَي «جاكي» لم تكونا متفقتين مع ابتسامتها، بل كانتا قلقتين جائعتين.

وحاول «لينارد» أن ينتزع قطع الزجاج المهشمة فجرح إصبعه وعاد يسب ويلعن. وسقطت قطرة من دمه على الإطار وتلتها أخرى، وسال الدم على الصورة المكشوفة، واشتدت لعناته، واندفع إلى المطبخ حيث غسل يديه. كان المطبخ في سعة غرفة الجلوس، ومن خلاله يمكن الوصول إلى غرفة النوم. وبهذه الغرفة يكتمل مسكن «لينارد». وقد استأجره مؤثثًا، فهو لا يملك من الأثاث الذي يزدحم به المسكن غير إطار الصورة الفوتوغرافية، وتماثيل «كيوبيد»، والكتب.

وطفق يغمغم:

ـ اللعنة! اللعنة! اللعنة!

وأضاف إلى ذلك كلمات تعلمها ممن يكبرون سنًّا. ثم رفع يده إلى جبينه وقال:

ـ أوه، اللعنة على كل شيء.

وهذه عبارة تعني شيئًا مختلفًا. ثم تماسك، ورشف قليلًا من الشاي الأسود الراكد الذي كان لا يزال موجودًا فوق رف عالٍ، وازدرد كسرًا مغبرة من

الكعك. ثم عاد إلى غرفة الجلوس، واتخذ له مقعدًا من جديد، وبدأ يقرأ في كتاب لـ«راسكن».

على بعد سبعة أميال شماليَّ البندقية...

ما أكمل مطلع هذا الفصل الشهير! وما أعظم تمكنه من الوعظ والشعر! إنه الرجل الموسر يخاطبنا من جندوله.

على بُعد سبعة أميال شماليَّ البندقية ترتفع الشواطئ الرملية شيئًا فشيئًا بعد أن كانت بالقرب من المدينة لا تعلو عن معيار الماء المنخفض إلا قليلًا، وتنفذ منها في النهاية سهول من المستنقعات الملحية التي ترتفع بها هنا وهناك هضاب غير منتظمة الشكل، وتتخللها ألسنة ضيقة من ماء البحر.

كان «لينارد» يحاول أن يشكِّل أسلوبه على غرار أسلوب «راسكن». وكان يراه أكبر أستاذ في ميدان النثر الإنجليزي. ومضى في القراءة قدمًا، وهو يدون الملاحظات من حين لحين.

لننظر قليلًا في كل من هذه الخصائص على التعاقب، فأولًا... (لأننا تحدثنا من قبل عن الأعمدة بما فيه الكفاية)... إن الشيء المتميز كل التميز في هذه الكنيسة هو سطوعها.

أهناك شيء يمكن تعلمه من هذه العبارة الرائعة؟ أيستطيع أن يُحورها لتلائم حاجات الحياة اليومية؟ أيستطيع بعد تعديلها أن يقتبسها عندما يكتب رسالته التالية إلى أخيه القارئ العادي؟ فيقول مثلًا: «لننظر قليلًا في كل من هذه الخصائص على التعاقب، فأولًا (لأننا تحدثنا من قبل عن انعدام التهوية بما فيه الكفاية) إن الشيء المتميز كل هذا التميز في هذا المسكن هو إظلامه».

وهتف له هاتف بأن هذا التعديل غير موفق، وأن هناك شيئًا آخر ـ ليته يعرفه ـ هو روح النثر الإنجليزي. «إن مسكني مظلم مكتوم الهواء»: هذه هي الألفاظ القمينة به.

وتوالى الصوت المنبعث من الجندول يتحدث حديثًا حلوًا عن الجهد والتضحية، مفعمًا بالغرض السامي وبالجمال، بل حتى بالعطف ومحبة الناس. وهو مع ذلك يتحاشى، على نحو ما، التعرض لكل ما هو واقع ومُلح في حياة «لينارد»، لأنه صوت من لم يكن في يوم من أيامه قذرًا أو جائعًا، ولم يحزر حقيقة القذارة والجوع حزرًا موفقًا.

وأنصت إليه «ليناردو» في إجلال، وشعر أنه قد أحسن إليه، وأنه إذا ثابر على «راسكن» وحفلات «كوينز هول» الموسيقية، وبعض لوحات «واتس»، فسيستطيع في يوم من الأيام أن يشرئب برأسه من الماء القذر ويرى العالم. كان يؤمن بالتغير المفاجئ، وهو إيمان قد يكون صائبًا، ولكنه يجذب على الأخص العقل الذي لم ينضج إلا بعض النضج. وهو أساس كثير من التدين الشائع. وفي ميدان الأعمال تراه يسود بورصة العقود، ويصبح ذلك «القليلَ من الحظ» الذي يفسر كل نجاح وإخفاق على أساسه. «لو أنه كان لي قليل من الحظ لتيسرت الأمور جميعها... إن له مسكنًا فخمًا في ستريتهام، وله سيارة فيات قوة ٢٠ حصانًا. ولكن لا يغِب عنك أنه محظوظ... أنا آسف لأن زوجتي تأخرت جدًّا، ولكنها عديمة الحظ في اللحاق بالقطارات قبل قيامها». بيد أن «ليناردو» كان أرقى من أولئك القوم. فقد كان يؤمن حقًّا ببذل الجهد، وبالمواظبة على الاستعداد لإحداث التغيير الذي يرغب فيه. ولكنه لم تكن لديه فكرة عن تراث ثقافي يتسع بالتدريج، وإنما كان يؤمل في الوصول إلى الثقافة في طفرة، كما يؤمل المؤمن بالبعث الروحي في الوصول إلى المسيح. لقد وصلت إليه فتاتا أسرة «شليجل». لقد وفقتا في لعبتهما، وأمسكت أيديهما بالزمام، وانتهى الأمر. ولكن مسكنه ما زال مظلمًا مكتوم الهواء.

وترددت الآن ضوضاء في بئر السلم، فطوى كتاب «راسكن» على بطاقة «مارجريت»، وفتح الباب، ودخلت امرأة أبسط ما يقال عنها إنها غير محترمة. كانت هيئتها مزعجة، وبدت كأنها كلها خيوط، وحبائل أجراس ـ فمن أشرطة وسلاسل إلى عقود من خرز تخشخش وتتشابك ـ وعلقت بعنقها لفاعة من الريش الأزرق طرفاها غير متكافئين وكان عنقها مكشوفًا يطوقه عقد ذو صفين من اللؤلؤ، وذراعاها عاريتان حتى المرفقين، بيد أنه لم يكن يتعذر كشف أعلاهما عند الكتفين من خلال «الدانتلا» الرخيصة التي تكسوهما. أما قبعتها المزينة بالورد فكانت تشبه تلك الأوعية، المكسوة بالفانلة، التي كنا نغرس فيها، أيام الطفولة، بذور الخردل والجرجير، فإذا تلك البذور تنبت هنا ولا تنبت هناك. وكانت تلبسها في مؤخر رأسها. أما شعرها، أو بالأحرى «شعورها»، فأعقد من أن يُوصف. ولكن خصلة منها تدلت فوق ظهرها وثوت هناك غزيرة الفرع، بينما كانت خصلة أخرى قُدر لها مصير أهون تتموج حول جبينها. أما الوجه... أما الوجه فلا يدل على شيء. إنه نفس الوجه البادي في الصورة الفوتوغرافية، ولكنه أكبر منه سنًّا، وأسنانه ليست غزيرة على نحو ما أراد المصور الفوتوغرافي أن يوهمنا. وليست كذلك في بياض أسنان الصورة بالتأكيد. نعم، لقد تجاوزت «جاكي» ريعان عمرها، أيًّا كان ذلك الريعان. وأخذت تنحدر إلى سنوات العمر الجرداء

في سرعة تفوق سرعة سائر النساء. وقد اعترفت النظرة البادية في عينها بذلك.

وقال «لينارد» وهو يحَيي القادمة في مرح شديد، ويعينها على خلع لفاع الفرو الذي تُدثر به عنقها:

ـ مرحبًا!

وأجابت «جاكي» بصوت خشن:

ـ مرحبًا!

وسألها:

ـ أخَرجتِ؟

ويبدو هذا السؤال كأنه لا داعي له، ولكن لا يمكن أن يكون بلا داعٍ لأن السيدة أجابت:

ـ لا.

ثم أضافت:

ـ آه، أنا مجهدة جدًّا.

ـ أأنت مجهدة؟

ـ ماذا؟

فقال وهو يعلق اللفاع:

ـ أنا متعب.

ـ آه يا «لين»! أنا متعبة جدًّا.

وقال «لينارد»:

ـ لقد ذهبت إلى حفلة الموسيقى الكلاسيكية التي حدثتكِ عنها.

ـ ما هذه الحفلة؟

ـ عدت منها على أثر انتهائها.

وسألته «جاكي»:

ـ هل طرق بابنا أحد؟

ـ لا، على قدر علمي. وقد قابلت السيد «كاننجهام» خارج الدار، وتبادلنا بعض الآراء.

ـ ماذا، أهو السيد «كاننجهام»؟

ـ نعم.

ـ آه، أتقصد السيد «كاننجهام»؟

ـ نعم. السيد «كاننجهام».

ـ أنا خرجت لاحتساء الشاي عند سيدة من صديقاتي.

وما أذاعت آخر الأمر سرها، مع إمساكها حتى عن الإشارة إلى اسم السيدة صديقتها، حتى كفت عن خوض مزيد من المحاولات في الحديث الشاق المتعب، وإنها لم تكن قَطُّ محَدثة عظيمة، بل كانت تعتمد، حتى أيام التقطت صورتها تلك، على ابتسامتها وسيمائها في اجتذاب محدثيها. أما الآن وقد أصبحت:

على الرف،

على الرف،

يا فتيان، يا فتيان، أنا على الرف

فلم يكن محتملًا أن تجد لسانًا طلقًا. كانت ما تزال تنطلق من بين شفتيها نفثات أغنيات عرضية (كالأغنية السابقة)، ولكن حديثها نادر.

وجلست على ركبة «ليناردـ»، وطفقت تدلـله. إنها اليوم امرأة بدينة في الثالثة والثلاثين، وثقلها يؤلمه، ولكنه لم يكن يستطيع قَطُّ أن ينبس بكلمة.

وقالت أخيرًا:

ـ أهذا كتاب تقرأه؟

فقال لها:

ـ هذا كتاب.

ونزعه من قبضتها التي لم تمانع، فسقطت منه بطاقة «مارجريت». سقطت على وجهها، فغمغم الفتى:

ـ هذه علامة لتمييز الصفحات.

ـ «لين»!

وسألها في شيء من الضيق لأنها لا تتحدث إلا في موضوع واحد حين تجلس فوق ركبته:

ـ ما الأمر؟

ـ أأنت تحبني حقًّا؟

ـ إنكِ تعلمين أني أحبك يا «جاكي»، فكيف يمكنكِ أن تسألي مثل هذه الأسئلة؟

ـ ولكنك تحبني حقًّا يا «لين»، أليس كذلك؟

ـ لا شك أني أحبكِ.

مرت فترة سكوت. وبقيت ملاحظة أخرى.

ـ «لين»...

ـ حسنًا؟ ماذا هناك؟

ـ «لين»، إنك ستصحح وضعنا، أليس كذلك؟

وقال الفتى وقد ثار ثائره فجأة:

ـ أنا وعدتكِ بالزواج يوم أبلغ سن الرشد، وهذا يكفي. إنني أحترم كلمتي. لقد وعدتكِ أن أتزوج بكِ يوم أبلغ الواحد والعشرين من عمري، ولست أستطيع أن أظل عرضة لهذا الإزعاج. إن لي من المزعجات ما يكفي. وبغض النظر عن كلمتي، فليس من المعقول أن أنبذكِ بعد أن أنفقت كل ذلك المال، يضاف إلى ذلك أني إنجليزي، ولا يمكن أن أحنث بكلمتي أبدًا. كوني عاقلة يا «جاكي». أنا سأتزوج بكِ من دون مراء. لكن كُفي عن إزعاجي.

ـ ومتى عيد ميلادك يا «لين»؟

ـ ذكرته لكِ مرارًا وتكرارًا. إنه يوم ١١ من نوفمبر المقبل، وعليكِ الآن أن تقومي عن ركبتي قليلًا، فإن واحدًا منا يجب أن يُعد العشاء.

وذهبت «جاكي» رأسًا إلى غرفة النوم وأخذت تُعنى بقبعتها، وكان هذا يعني أن تنفخ فيها نفخات سريعة حادة. وقام «لينارد» بترتيب غرفة الجلوس، وبدأ يُعد طعام العشاء. وأسقط بنسًا في عداد الغاز فلم يلبث المسكن أن امتلأ بأبخرة معدنية. ولم يستطع «لينارد»، على نحو ما، أن يستعيد هدوءه. وظل طوال مدة الطهي يشكو مُر الشكوى:

ـ في الحق إنه لمما يسوء جدًّا ألا يكون المرء موضع ثقة. فهذا يشعره بأنه همجي، بينما أنا أزعم للناس هنا بأنكِ زوجتي. حسنًا، حسنًا، ستكونين زوجتي فعلًا. وبعد أن اشتريت لكِ الدبلة لتلبسيها، واستأجرت هذا المسكن المؤثث الذي تزيد أجرته عما أطيق دفعه، أجدكِ مع ذلك غير راضية. وإني لم أصدُق كذلك حين كتبت لأهلي.

وخفض صوته وأردف:

ـ كان ليمنع زواجنا.

وكرر القول في نبرة فزع، ولكنها تنم عن شيء من التباهي:

ـ كان أخي ليمنع زواجنا. إني أجابِه العالم بأسره يا «جاكي».

هذه هي حقيقتي يا «جاكي». أنا لا أعير أي قول يقوله الناس اهتمامًا إنما أسير قدمًا. أسير قدمًا، وهذه كانت على الدوام طريقتي. فلست واحدًا من فتيانكِ الضعفاء المغلوبين على أمرهم. إني إذا وجدت امرأة في مأزق لا أتركها في الوحل. هذا ليس سبيلي. لا، شكرًا.

وسأذكر لكِ شيئًا آخر أيضًا. إني أهتم كثيرًا بشأن تهذيبي وتثقيفي عن طريق الأدب والفن، وبذلك أصبح أوسع نظرًا. مثال ذلك أني كنت أقرأ لدى مجيئكِ كتاب «راسكن» المسمى «أحجار مدينة البندقية» ولست أذكر ذلك على سبيل التفاخر، ولكني أذكره لأريكِ أي صنف من الرجال أنا. وفي استطاعتي أن أقول لكِ إني استمتعت بعد ظهر اليوم بتلك الحفلة الموسيقية الكلاسيكية.

وظلت «جاكي» غير مبالية بأطواره جميعها. وما تم إعداد العشاء ـ وليس قبل ذلك ـ حتى خرجت من غرفة النوم وهي تقول:

ـ ولكنك تحبني حقًّا، أليس كذلك؟

وبدآ العشاء بحساء من الدسم كان «لينارد» قد أذابه في ماء ساخن. وأعقب ذلك اللسان، وكان عبارة عن قطعة من اللحم أسطوانية الشكل مرقَّشة، في أعلاها قطعة هلامية من خلاصة المرق، وفي أسفلها دهن مصفرٌّ كثير. أما آخر العشاء فهلام آخر من الأناناس مذاب أيضًا في ماء ساخن كان «لينارد» قد أعده في ساعة مبكرة من ذلك اليوم. واستمرأت «جاكي» الطعام، وجعلت تنظر إلى رجلها من حين إلى حين بتينك العينين القلقتين اللتين لم يشاركهما في القلق شيء آخر من مظهر الفتاة. بيد أن تينك العينين كانتا مرآة تعكس نفسها... أما «لينارد» فقد حاول أن يوهم معدته بأنها حصلت على عشاء مغذٍّ.

ودخنا السجائر بعد العشاء وتبادلا بعض الأحاديث. قالت الفتاة إن «رسمها» قد كسر. وأتيح للفتى أن يذكر للمرة الثانية أنه عاد إلى الدار بعد انتهاء الحفلة الموسيقية مباشرة. ثم أقبلت عندئذٍ وجلست على ركبته. وكان سكان شارع «كاميليا» يجوبونه ذهابًا وإيابًا خارج شباك الفتى وفتاته، وفي مستوى رأسيهما. وكانت الأسرة التي تقطن المسكن السفلي قد بدأت ترنم ترنيمة:

أصغي يا نفسي، فإنه الرب

وقال «لينارد»:

ـ هذا اللحن يضايقني كل الضيق.

وتابعت «جاكي» ما قال، وعقبت بأنها، من ناحيتها، ترى لحن الترنيمة جميلًا.

ـ لا. سأعزف لكِ شيئًا جميلًا. انهضي لفترة وجيزة يا عزيزتي.

وقام إلى البيانو، صلصل قليلًا من ألحان الموسيقار «جريج». وكان عزفه سيئًا سوقيًّا ولكن أداءه لم يخلُ من تأثير، فقد قالت «جاكي» إنها ترى أن تأوي إلى الفراش. وعلى أثر انسحابها استولت على ذهن الفتى طائفة جديدة من الاهتمامات. وبدأ يفكر فيما كانت تلك الآنسة الغريبة «شليجل» تقوله عن الموسيقى ـ تلك الفتاة التي تلوي وجهها هكذا وهي تتكلم ـ ثم أخذ الحزن والحسد يغلبان على أفكاره. فهناك الفتاة المسماة «هيلين»، تلك التي نشلت مظلته، والفتاة الألمانية التي ابتسمت له في لطف، والسيد فلان، والخالة فلانة، والأخ... هؤلاء جميعًا، جميعًا، يملكون زمام الأمور. وقد صعدوا جميعًا درج منزل «ويكهام بليس» الضيق الفخم إلى غرفة فسيحة يستحيل عليه أن يتبعهم إليها حتى ولو قضى في القراءة والاطلاع عشر ساعات يوميًّا. أوه، لا فائدة من هذا الطموح المستمر. فثمة قوم ولدوا مثقفين. أما باقي الناس فخير لهم أن يلتمسوا العلم اليسير. إن رؤية الحياة في ثبات، ورؤيتها كلًّا متكاملًا أمر لا يحتاج لأمثاله.

وناداه صوت من الظلام المتراكم وراء المطبخ.

ـ يا «لين»!

وسألها وهو يقطب جبينه:

ـ أأويتِ إلى الفراش؟

ـ نعم.

ـ حسنًا.

ولم تلبث أن نادته من جديد فأجابها:

ـ لا بد من تنظيف حذائي لأجده معدًّا في الصباح.

وعادت على الفور فنادته... وأجابها:

ـ أُفضل أن أتم قراءة هذا الفصل.

ـ ماذا؟

وتصامم عن سماعها.

ـ ماذا قلت؟

ـ حسنًا يا «جاكي»، لا شيء. إني أقرأ كتابًا.

ـ ماذا؟

فأجاب وقد أصيب بعدوى صممها المستفحل:

ـ ماذا؟

ولم تلبث أن نادته من جديد.

وكان «راسكن» في هذه الأثناء قد زار تورشيللو، وأمر نوتيِّي الجندول أن يذهبوا إلى مورانو. وخطر له وهو ينساب فوق البحيرات الهامسة أن جهل أمثال «لينارد» لا يمكن أن يضعف من قوة الطبيعة، وأن شقاءهم لا ينتقص من جمالها.

## الفصل السابع

صاحت الخالة في اليوم التالي:

ـ أوه يا «مارجريت»، لقد وقع أمر مؤسف إلى أقصى حد، ولم أستطع أن أخلو بكِ.

بيد أن الأمر المؤسف إلى أقصى حد لم يكن شديد الخطورة. فقد استأجرت أسرة «ويلكوكس» مسكنًا مؤثثًا من مساكن العمارة المزخرفة المقابلة.

ـ ولا شك أن هذه الأسرة لم تحضر إلا بأمل الاختلاط بالمجتمع اللندني.

ولم يكن شيئًا عجيبًا أن تسبق السيدة «منت» غيرها إلى اكتشاف هذه الفاجعة، فقد كانت تهتم بهذه المساكن، وترقب كل تغير يطرأ عليها بحرص لا يعرف الكلل. إنها كانت تحتقرها من الناحية النظرية لأنها سلبت الناس منظر العالم القديم، وحجبت الشمس؛ إن هذه الشقق تضم طرازًا فارغًا من الناس. ولكن لو عرفت الحقيقة لرأيت أن السيدة «منت» كانت تجد في زيارتها لـ«ويكهام بليس» ضعف المتعة بعد تشييد «عمارات ويكهام» الجديدة، وكانت تود في غضون يومين أن تعرف ما لم تكن ابنتا أختها لتعرفاه في شهرين، أو يعرفه ابن أختها في سنتين. كانت تعبر الشارع على مهل وتعقد مع البوابين أواصر الصداقة، وتسألهم عن قيمة الإيجار، وتصيح قائلة مثلًا: «ماذا! مائة وعشرون لإيجار بدروم؟ إنكم لن تحصلوا على مثل هذا الإيجار أبدًا»، فيجيبونها: «ما على المرء إلا أن يحاول يا سيدتي». أما مصاعد السكان، ومصاعد العفش والبضاعة، وتوزيع كميات الفحم (وفي هذا التوزيع إغراء للبواب خرِب الذمة) فكانت أمورًا مألوفة لديها، بل لعل هذه الأمور كانت تُروح عنها الجو الجمالي الاقتصادي السياسي الذي يسود مسكن أسرة «شليجل».

استقبلت «مارجريت» النبأ في هدوء، ولم توافق على أنه سيلقي ظلًّا على حياة «هيلين» المسكينة. وقد صاحت:

ـ أوه. ولكن «هيلين» ليست بالفتاة الخالية من الاهتمامات، فإن لديها ما يشغلها في مختلف الأشياء والناس. لقد بدأت مع أسرة «ويلكوكس» بداية خاطئة، وهي لن تقلَّ عنا رغبة في عدم الاتصال بأفراد تلك الأسرة.

ـ كيف لفتاة ذكية مثلكِ أن تتحدث على هذا النحو الغريب جدًّا؟! إن «هيلين» مضطرة للاتصال بهم بعد أن أصبحوا يقطنون أمامكم. فقد تلتقي بذلك المدعو «بول» في الطريق، ولا تستطيع عندئذٍ أن تمتنع عن الانحناء له.

ـ إن عليها بالطبع أن تنحني له، ولكن اسمعي. دعينا ننسق هذه الزهور. كنت أريد أن أقول إن إرادة الاهتمام به قد ماتت في نفسها، فأي شيء يهم بعد ذلك؟ إني أنظر إلى ذلك الحادث الفاجع (الذي عالجتِه بالكثير من عطفكِ) على أنه قتل لعصب في «هيلين». لقد مات ذلك العصب، ولن يزعجها مرة أخرى. إن الأشياء الوحيدة التي يؤبه بها هي تلك التي تثير اهتمام المرء. فالانحناء، بل وتبادل الزيارات وترك البطاقات، بل والاشتراك في الولائم، إننا نستطيع أن نؤدي كل ذلك لأسرة «ويلكوكس» إذا ما رغبت فيه. أما الشيء الآخر، الشيء الوحيد المهم، فلن يقع ثانية. أأدركتِ الأمر؟

ولكن السيدة «منت» لم تدرك الأمر، فإن «مارجريت» أدلت بقضية مشكوك في صحتها كل الشك، وهي أن كل انفصال، وكل اهتمام يثاران مرة، يمكن أن يخمدا كل الخمود.

ـ ولي الشرف أن أخبركِ أيضًا أن أسرة «ويلكوكس» تضيق بنا. وأنا لم أخبركِ بالأمر في حينه خشية أن يغضبكِ، وكان عندكِ من المضايقات ما فيه الكفاية، لكني كتبت رسالة إلى السيدة «و.» اعتذرت فيها عن الإزعاج الذي سببته «هيلين» لهم. بيد أنها لم ترد على رسالتي.

ـ يا للوقاحة!

ـ لست أدري. أو لعل هذا كان فطنة منها؟

ـ لا يا «مارجريت»، إنها لوقاحة بالغة.

ـ على كلتا الحالتين يمكننا أن نَعُد هذا مُطَمئنًا.

وتنهدت السيدة «منت». وكانت تزمع أن تعود صبيحة اليوم التالي إلى سوانيج في نفس الوقت الذي كان أولاد أختها في أشد الحاجة إليها فيه. وتزاحمت عليها أسباب أخرى للأسف. ومن أمثلة ذلك أنها لو قابلت «تشارلز» وجهًا لوجه لتجاهلته بطريقة رائعة. وكانت قد رأته فعلًا وهو يصدر أمرًا للبواب، وبدا في قبعته المستطيلة، كالعوام. ولكنه لسوء الحظ كان يدير لها ظهره. وبرغم أنها تجاهلت ظهره هذا، فإنها لم تستطع أن ترى في ذلك تحقيرًا في الصميم.

قالت محذرة:

ـ ولكنكِ ستأخذين حذرك، أليس كذلك؟

ـ أوه، بالطبع. سأَحذر حذرًا شيطانيًّا.

ـ وعلى «هيلين» أن تكون حذرة أيضًا.

وصاحت «هيلين» التي دخلت الغرفة في هذه الآونة مع ابنة عمها:

ـ حذرة ممَّ؟

وقالت «مارجريت» وقد انتابها حرج مفاجئ:

ـ لا شيء.

ـ حذرة ممَّ يا خالتي «جولي»؟

واتخذت السيدة «منت» مظهرًا غامضًا:

ـ ليس في الأمر أن أسرة معينة نعرفها باسمها، ولكننا لا نذكره، كما قلتِ أنتِ نفسكِ الليلة البارحة بعد الحفلة الموسيقية. هذه الأسرة سكنت في الشقة المقابلة التي كانت تقطنها أسرة «ماثيسون» حيث تزدان شرفتها بالنباتات.

وبدأت «هيلين» بِرد ضاحك. ولكنها أقلقتهم بعد ذلك بحمرة خجل صبغت وجهها. وقد بلغ من شدة قلق السيدة «منت» أن قالت متعجبة:

ـ ماذا يا «هيلين»! إنكِ لا تعبئين بمجيئهم، أليس كذلك؟

فزادت بها حمرة الخجل، وأحالتها إلى لون قرمزي.

وقالت «هيلين» في شيء من الغضب:

ـ أنا لا أعبأ به طبعًا. ولكنكِ أنتِ و«ميج» كلتيكما مهمومتان همًّا سخيفًا من دون أن يوجد ما يستحق الهم.

واحتجت «مارجريت» في شيء من الغضب هي أيضًا:

ـ أنا غير مهمومة.

ـ حسنًا، ولكنكِ تبدين مهمومة. أليس كذلك يا «فريدا»؟

ـ لست أشعر بأني مهمومة. هذا كل ما أستطيع قوله. أنتِ تخطئين فهمي تمامًا.

ورجَّعت السيدة «منت» الصدى قائلة:

ـ لا، إنها ليست مهمومة، وأنا شاهدة على ذلك. إنها لا توافقني.

وقاطعتها الآنسة «فريدا موزباخ»:

ـ صه! إني أسمع خطوات «برونو» وهو مقبل إلى الردهة.

وكان منتظرًا حضور السيد «ليزيكي» إلى «ويكهام بليس» بقصد زيارة الفتاتين. ولم يكن مقبلًا على الردهة، وقد ظل في الواقع لخمس دقائق كاملة من دون أن يدخلها. ولكن «فريدا» لاحظت حرج الموقف فقالت إن من الأوفق أن تنزل هي و«هيلين» إلى أسفل الدار لاستقبال «برونو»، وتتركا «مارجريت» والسيدة «منت» حتى تتما تنسيق الزهور. وأذعنت «هيلين». ولكنها كأنما أرادت أن تدلل على أن الموقف غير حرِج فعلًا، فوقفت بالباب وقالت:

ـ أقلتِ مسكن «ماثيسون» يا خالتي «جولي»؟ كم أنتِ مدهشة! أنا لم أعلم بحالٍ أن تلك السيدة التي تبالغ في شد ثيابها على جسدها اسمها «ماثيسون».

وقالت ابنة عمها:

ـ تعالَي يا «هيلين».

وقالت خالتها:

ـ اذهبي معها يا «هيلين».

ثم واصلت الحديث مع «مارجريت» في ذات الوقت تقريبًا:

ـ لا تستطيع «هيلين» أن تخدعني، إنها مهتمة ولا شك.

وهمست «مارجريت»:

ـ أوه، صه. ستسمعكِ «فريدا»، وقد ترهقنا كثيرًا إذا علمت بالأمر.

ولم تكف السيدة «منت» عن القول وهي تنتقل مفكرة في أرجاء الغرفة، وتنتزع زهور الأقحوان الذابل من الزهريات:

ـ إنها مهتمة. وكنت أعلم أنها ستهتم. ومفروض في الفتاة أن تهتم ولا ريب! فيا لها من تجربة! يا للقوم الغلاظ البشعين! إني أعرف عن أولئك القوم فوق ما تعرفين، وهذا ما يغيب عن بالكِ. ولو كان «تشارلز» قد أركبكِ سيارته كما فعل معي، إذن لوصلتِ إلى الدار محطمة الأعصاب. أوه يا «مارجريت»، أنتِ لا تعرفين ما أنتِ مقبلة عليه من متاعب. إنهم جميعًا يتكأكأون على نافذة غرفة الاستقبال، فهناك السيدة «ويلكوكس» ـ قد رأيتها ـ وهناك «بول». وهناك «إيفي»، وهي فتاة خليعة. وهناك «تشارلز»، وكان أول من بدأت برؤيته. ومن يكون ذلك الكهل ذو الشارب والوجه نحاسي اللون؟

ـ لعله السيد «ويلكوكس».

ـ لقد أدركت ذلك. وهناك السيد «ويلكوكس».

واعترضت «مارجريت» قائلة:

ـ لا يصح أن تصفي وجهه بأنه نحاسي اللون، فإن لون بشرته مدهش بالنسبة لرجل في سنه.

ورضيت السيدة «منت» ـ المنتصرة في كل المواضع الأخرى ـ أن تسلم بلون بشرة السيد «ويلكوكس». وانتقلت من ذلك الموضوع إلى الحديث عن خطة الحملة الجديرة أن تتبعها ابنتا أختها في المستقبل. وحاولت «مارجريت» أن تسكتها:

ـ إن «هيلين» لم تقابل النبأ على النحو الذي توقعته تمامًا، ولكن عصبها الحساس لأسرة «ويلكوكس» قد مات فعلًا، فلا حاجة إذن لتدبير الخطط.

ـ من الخير أن يستعد المرء.

ـ لا. من الخير ألا يستعد.

ـ لماذا؟

ـ لأني...

كانت أفكارها تنبع من التخوم الغامضة. فهي لا تستطيع الإبانة بالقول، ولكنها شعرت بأن أولئك الذين يعدون العدة لجميع طوارئ الحياة التي تواجههم قد يحصنون أنفسهم على حساب ابتهاجهم. إنه لا مفر من أن يستعد المرء للامتحان، أو لحفلة غداء، أو لنزول متوقع في سعر أوراق البورصة، أما الذين يجربون العلاقات الإنسانية فعليهم أن يختاروا نهجًا آخر وإلا أخفقوا. وانتهت إلى هذه النتيجة العرجاء:

ـ لأني أُفضل أن أجازف.

وصاحت خالتها وهي تشير إلى «عمارات ويكهام» المقابلة بصنبور رشاشة الزهور:

ـ ولكن تصوري الأمسيات. أضيئي الأنوار الكهربائية هنا أو هناك تجدي نفسكِ كأنكِ معهم في غرفة واحدة. وقد ينسون ذات مساء أن يسدلوا ستائرهم فتتاح لكم رؤيتهم. وقد تنسون أنتم في المساء التالي أن تسدلوا ستائركم فتتاح لهم رؤيتكم. وسيستحيل الجلوس في الشرفات، وسيستحيل ري النباتات، بل حتى الكلام. تصوري خروجكِ من الباب الرئيسي بينما هم يخرجون تجاهكِ في نفس الوقت. ومع ذلك تزعمين أن الخطط غير ضرورية، وأنكِ تفضلين المجازفة.

ـ أنا آمل أن أجازف بالأشياء طوال حياتي.

ـ أوه يا «مارجريت»، هذا أمر بالغ الخطر.

وواصلت الفتاة قولها وعلى ثغرها ابتسامة:

ـ وعلى أيٍّ فلن تكون هناك مجازفة خطيرة ما دمتِ تملكين مالًا.

ـ أوه، يا للعار! يا له من كلام يخدش السمع!

واستطردت الآنسة «شليجل»:

ـ المال يمهد حروف الأشياء الناتئة. كان الله في عون من لا يملكونه.

فقالت السيدة «منت»، التي كانت تلتقط الآراء الجديدة كما يلتقط السنجاب ثمار البندق ويجذب منها على الأخص ما كان سهل الحمل:

ـ ولكن هذا قول جديد كل الجدة!

ـ هو جديد عليَّ؛ ولكن الفُطناء تبينوه منذ سنوات طوال. إني أنا وإياكِ وأفراد أسرة «ويلكوكس» نقف فوق دعامة المال كأنها الجزائر، وهي ثابتة تحت أقدامنا إلى حد أننا ننسى وجودها ذاته. ونحن لا ندرك كل ما يعنيه وجود دخل خاص إلا حينما نشاهد أحدًا يسير مترنحًا بالقرب منا. وبالأمس مساء، بينما كنا نتحدث هنا حول الموقد، بدأت أرى أن روح الدنيا الحقيقية هي الاقتصاد، وأن الهوة السحيقة ليست في افتقاد الحب ولكن في افتقاد النقود.

ـ هذا في رأيي أقرب إلى الكلبية.

ـ وفي رأيي أنا كذلك. ولكن عليَّ أن أذكر أنا و«هيلين»، حين يغرينا أن ننقد الآخرين، أننا نقف فوق تلك الجزائر بينما أغلب الآخرين تحت سطح الماء. إن الفقراء لا يستطيعون أن يصلوا دائمًا إلى من يريدون أن يحبوهم، ويكادون لا يستطيعون الهرب أبدًا من أولئك الذين لم يعودوا يحبونهم. أما نحن الأغنياء فنستطيع. تصوري الكارثة التي كادت تقع في يونيو الماضي لو أن «هيلين» و«بول ويلكوكس» كانا من الفقراء، وعجزا عن الاستعانة بالقطارات والسيارات للتفريق بينهما.

وقالت السيدة «منت» بارتياب:

ـ هذا أشبه بالاشتراكية.

ـ سميه ما تشائين. أما في نظري فاسمه خوض الإنسان الحياة ويده مبسوطة. لقد ضقت بأولئك الأغنياء الذين يدَّعون أنهم فقراء، ويحسبون من مظاهر الفطنة أن يتجاهلوا أكوام المال التي تحفظ أقدامهم عالية فوق منال الأمواج. إني أقف كل عام فوق إيرادٍ قدره ستمائة جنيه، وتقف «هيلين» فوق مثل هذا القدر، وسيقف «تيبي» على ثمانمائة، ولا تكاد هذه الجنيهات تتهاوى إلى البحر وتغرق حتى يتجدد غيرها نابعًا من البحر، نعم، من البحر. وأفكارنا كلها هي أفكار من يبلغ إيراده السنوي ستمائة جنيه، وكذلك أحاديثنا جميعها. ولأننا لا نحتاج إلى سرقة المظلات ننسى أن هناك تحت سطح البحر أناسًا يحتاجون إلى سرقتها، ويسرقونها أحيانًا. وأن ما يُعد هنا فوق البحر دعابة، يعد تحته هناك حقيقة واقعة...

ـ ها هم أولاء ينصرفون؛ ها هي ذي الآنسة «موزباخ» تنصرف. حقًّا إنها أنيقة الملبس بالقياس إلى الفتيات الألمانيات، أوه!

ـ ماذا؟

ـ كانت «هيلين» تتطلع إلى مسكن أسرة «ويلكوكس».

ـ ولماذا لا تتطلع إليه؟

ـ أستميحكِ عذرًا. لقد قاطعتكِ أثناء حديثكِ. ماذا كنتِ تقولين عن الحقيقة الواقعة؟

فأجابت «مارجريت» في نبرات تدل على اشتغال بال مفاجئ:

ـ لقد حولت الحديث لنفسي كالعادة.

ـ خبريني رأيكِ في هذا على أي حال، مع الأغنياء أنتِ أم الفقراء؟

ـ سؤال عويص جدًّا. اسألي غير هذا. اسأليني مع الفقر أنا أم مع الغنى؟ أنا مع الغنى. يحيا الغنى!

ورددت السيدة «منت» صدى القول كأنها حصلت في النهاية على ضالتها المنشودة:

ـ مع الغنى!

ـ نعم، مع الغنى. المال إلى الأبد.

ـ هذا هو رأيي، وأخشى أن يكون كذلك رأي أغلب معارفي في سوانيج، ولكن يدهشني أن تتفقي فيه معنا.

ـ أشكركِ جزيل الشكر يا خالتي «جولي»، فإنكِ نسقتِ الزهور بينما كنت أحدثكِ في نظريات مجردة.

ـ عفوًا يا عزيزتي. وبودي لو تدعينني أساعدكِ في أشياء أكثر أهمية.

ـ حسنًا، أتُسبغين عليَّ عطفكِ الكبير؟ أتسمحين بمرافقتي إلى مكتب قيد الخدم، فهناك خادمة لم تقبل بعدُ العمل عندنا، ولم ترفضه في الوقت

نفسه.

وفي طريقهما إلى هناك تطلعتا هما أيضًا إلى مسكن أسرة «ويلكوكس» وكانت «إيفي» في الشرفة، «تحدِّق بوقاحة» كما قالت السيدة «منت». أوه، نعم، إن هذه الجيرة مزعجة ما في ذلك شك... إن لـ«هيلين» مناعة تحصنها من خطر المقابلة العابرة، ولكن «مارجريت» بدأت تفقد الثقة... أيمكن أن يستيقظ العصب الميت إذا كانت الأسرة تسكن تحت مرمى بصرها؟ وستمكث «فريدا موزباخ» عندهم أسبوعين آخرين. و«فريدا» فتاة حادة الذكاء... حادة الذكاء إلى حدٍّ رهيب، وقادرة على ملاحظة الأمر. ولسوف تسأل: «أنتِ تعشقين أحد الشابين القاطنين تجاهكِ؟ أليس كذلك؟». وقد تكون ملاحظتها غير صادقة، ولكنها من النوع الذي قد ينقلب إلى حقيقة إذا تكرر الحديث عنه، فهي أشبه بتكرار عبارة «الحرب بين إنجلترا وألمانيا لا مفر منها» تلك العبارة التي كلما أُدليَ بها أصبحت الحرب أكثر احتمالًا. ولذلك تسرع الصحف القذرة في كلا البلدين إلى تكرارها. فهل هناك صحف قذرة كذلك في ميدان العواطف الخاصة؟ كانت «مارجريت» ترى ذلك، وتخشى أن تكون الخالة «جولي» الطيبة، و«فريدا»، خير نموذج لتلك الصحف. فقد تقودان «هيلين» بثرثرتهما المستمرة إلى تكرار رغبات شهر يونيو. إلى التكرار فقط؛ فهما لا تستطيعان أكثر من ذلك. لا تستطيعان أن تقوداها إلى حب دائم. لقد كانتا «صحافة» ـ وقد تبينت «مارجريت» ذلك جليًّا ـ أما أبوها فكان «أدبًا» لا «صحافة» برغم عيوبه وعناده. ولو أنه ظل حيًّا لاستطاع أن يوجه ابنته وجهة سليمة.

كان مكتب قيد الخدم مُفَتح الأبواب في فترة الاستقبال الصباحية. وملأ صفٌّ من العربات الشارع. وانتظرت الآنسة «شليجل» دورها. واضطرت آخر الأمر أن ترضى بخادمة «مؤقتة» خبيثة بعد أن رفضت الخادمات الأصيلات خدمتها نظرًا لعلو سلمها. وقد سبب لها إخفاقها غمًّا. وبرغم أنها نسيت سببه فقد ظل الغم على ما كان عليه. وتطلعت مرة أخرى إلى مسكن «ويلكوكس» وهي في طريق عودتها إلى دارها، وخطت خطوة حَرِية بربة الدار، وهي مخاطبة «هيلين» بشأن هذا الموضوع.

ـ «هيلين»! يجب أن تصارحيني: هل هذا الموضوع يزعجكِ؟

وقالت «هيلين» وهي تغسل يديها استعدادًا للغداء:

ـ ماذا؟

ـ مجيء أسرة «و.» إلى ذلك السكن.

ـ كلا، بالطبع كلا.

ـ حقًّا؟

ـ حقًّا.

ولكنها عادت فأقرت بأنها تحس شيئًا من الانزعاج بسبب السيدة «ويلكوكس»، وأشارت إلى أن هذه السيدة قد تعود بالذاكرة إلى مشاعر بعيدة الأغوار، وتتألم بسبب أشياء لا تؤلم أبدًا سائر أعضاء تلك العشيرة:

ـ فأنا لن أهتم إذا أشار «بول» إلى دارنا بإصبعه وقال: «هنا تقيم الفتاة التي حاولت اصطيادي». ولكن تلك السيدة قد تهتم.

ـ إذا كان حتى هذا يزعجك فإننا نستطيع أن ندبر أمرًا، فليس هناك من سبب يحملنا على الإقامة بالقرب من أناس يكدروننا، أو نكدرهم. فإننا نستطيع بفضل مالنا أن نرحل إلى الخارج بعض الوقت.

ـ حسنًا، إني راحلة. لقد سألتني «فريدا» توًّا أن أزورها في ستيتين. ولن أعود من هناك إلا بعد حلول العام الجديد، أفهذا يكفي أم لا بد لي من الرحيل عن بلدي كلية؟ حقًّا يا «ميج» ماذا دهاكِ لتثيري كل هذه الضجة؟

ـ أوه، أظن أني أوشكت أن أصبح عانسًا. لقد حسبت أني لا أضيق بشيء. ولكني... لكني سأتضايق إذا أحببت نفس الرجل مرة أخرى.

وتنحنحت ثم أردفت:

ـ أتعلمين أن وجهكِ قد اصطبغ بالحمرة عندما حملت عليكِ خالتنا «جولي» هذا الصباح؟ ولولا ذلك لما أشرت إلى الأمر.

ولكن ضحكة «هيلين» جلجلت في نبرات صادقة حين رفعت يدها المكسوة برغوة الصابون إلى السماء، وأقسمت إنها لن تحب أبدًا، وعلى أي نحو، وفي أي مكان، أي فرد من أسرة «ويلكوكس» إلى أبعد فروعها.

## الفصل الثامن

لعل الصداقة التي انعقدت بين «مارجريت» والسيدة «ويلكوكس»، وقدر لها أن تتطور بسرعة كبيرة وتسفر عن مثل تلك النتائج الغريبة، نشأت أول ما نشأت في بلدة سباير خلال الربيع. ولعل السيدة الأكبر سنًّا استطاعت وهي تنظر إلى الكاتدرائية الحمراء سوقية المظهر، وتنصت إلى حديث زوجها و«هيلين»، أن تشعر بميل أعمق إلى الأخت الأخرى الأقل فتنة، وأن تحكم عليها حكمًا أسلم. وقد كانت قادرة على تبَين مثل هذه الأمور. ولعلها هي التي أرادت أن تدعو الآنستين «شليجل» إلى «هواردز إند»، وكان حضور «مارجريت» على الأخص هو الذي ترغب فيه. إن هذا كله رجم بالغيب، فالسيدة «ويلكوكس» لم تترك وراءها من الدلائل الواضحة على ذلك إلا القليل. ولكن الأمر الأكيد أنها جاءت لتزور «ويكهام بليس» بعد أسبوعين، وذلك في نفس اليوم الذي كانت «هيلين» تزمع فيه الرحيل مع ابنة عمها إلى ستيتين.

وصاحت الآنسة «فريدا موزباخ» بنبرات مذعورة (وقد أصبحت الآن موضع سر ابنة عمها):

ـ «هيلين»! لقد صفحت أمه عنكِ.

ثم تذكرت أن العادة في إنجلترا تفرض على الساكن الجديد ألا يزور إلا بعد أن يزار، فغيرت صوتها من لهجة الذعر إلى لهجة الاستهجان، وقالت بالألمانية إن السيدة «ويلكوكس» «ليست سيدة مجتمع».

وانفجرت «مارجريت» صائحة:

ـ يا للأسرة كلها من أسرة مزعجة! كُفي يا «هيلين» عن هذا الضحك والدوران حول نفسكِ، واذهبي وأتمي إعداد حقائبكِ. لماذا لا تتركنا هذه السيدة لحالنا؟

وأجابت «هيلين» وقد سقطت على الدرج:

ـ لست أدري ماذا أصنع بـ«ميج». إن بالها مشغول بـ«ويلكوكس» و«بوكس». «ميج»! «ميج»! أنا لا أحب ذلك الشاب. أنا لا أحب ذلك الشاب. «ميج»، «ميج»! أيستطيع المرء أن يفصح على نحو أوضح؟

وأكدت الآنسة «موزباخ» ذلك قائلة:

ـ ليس هناك أدنى شك في أن حبها قد مات.

ـ ليس في ذلك أدنى شك يا «فريدا»، ولكن هذا لا يحول دون شعوري بالضيق من أسرة «ويلكوكس» فيما إذا رددت لهم الزيارة.

ثم تظاهرت «هيلين» بالبكاء، ووجدت الآنسة «موزباخ» ذلك شديد التسلية فحذت حذوها.

ـ أوه، «بو هو»! «بو هو هو»! سترد «ميج» الزيارة، ولكني لا أستطيع ذلك. لماذا؟ لأني راحلة إلى ألمانيا.

ـ إذا كنتِ تزمعين الرحيل إلى ألمانيا فاذهبي وأعدي حقائبكِ، وإلا فتوجهي إلى أسرة «ويلكوكس» لزيارتها بدلًا مني.

ـ ولكن، «ميج»! «ميج»! أنا لا أحب السيد الشاب. أنا لا أحب الشاب. رباه! من ذا الهابط من السلم؟ أقسم إنه أخي. أوه المجرم!

إن وجود ذكر ـ حتى ولو كان هذا الذكر غلامًا مثل «تيبي» ـ كان يكفي لوضع حد لذلك العبث. إن حاجز الجنس لا يزال عاليًا برغم أنه آخذ في الانخفاض بين المتحضرين، وهو أشد علوًّا في ناحية النساء. فـ«هيلين» تستطيع أن تحكي لأختها عن «بول» كل شيء، وتحكي لابنة عمها الكثير. ولكنها لم تقُل شيئًا لأخيها. ولم يكن ذلك تحشمًا منها، فهي تتحدث الآن في تهكم بل في ضراوة متزايدة عن «مَثل أسرة «ويلكوكس» الأعلى». ولم يكن كذلك تحوطًا لأن «تيبي» نادرًا ما يردد أي خبر لا يعنيه. ولكنه كان على الأرجح شعورًا بأنها تفشي سرًّا بين معسكر الرجال، وأن هذا السر مهما بدا تافهًا في هذا الجانب من الحاجز، قد يصبح هامًّا في الجانب الآخر منه. لذلك توقفت عن الكلام، أو بدأت المعابثة في موضوعات أخرى إلى أن ساقها أقرباؤها الصبورون إلى فوق. وتبعتها الآنسة «موزباخ»، ولكنها تلكأت لتقول في بطء لـ«مارجريت» وهي تصعد:

ـ الحال بخير. إنها لا تحب الفتى، فهو لم يكن جديرًا بها.

ـ نعم، أنا أعلم ذلك. شكرًا جزيلًا.

ـ حسبت أني أحسن عملًا بالإفضاء إليكِ بذلك.

ـ شكرًا جزيلًا جدًّا.

وسأل «تيبي»:

ـ ما الأمر؟

ولم ينبئه أحد بشيء، فتقدم إلى غرفة الطعام ليأكل شيئًا من برقوق الفا.

واتخذت «مارجريت» في ذلك المساء خطوة حاسمة. كان البيت هادئًا كل الهدوء، والضباب يجثم على نوافذه كأنه شبح مطرود ـ فنحن في نوفمبر الآن ـ وكانت «فريدا» و«هيلين» قد غادرتاه مع أمتعتهما. وتمدد «تيبي» على مقعد مستطيل بالقرب من الموقد إذ كان يشعر بوعكة، وجلست «مارجريت» إلى جانبه تفكر. وانطلق ذهنها من خاطر إلى خاطر، ثم ساق تلك الخواطر كلها في عرض واحد أمامها. والرجل العملي الذي يعرف على الفور ما يريد، ولا يعرف على الأغلب شيئًا غيره. مثل هذا الرجل قد يتهمها بالتردد ولكن هكذا كانت طريقة تفكيرها، بيد أنها كانت إذا أقدمت على عمل لا يستطيع أحد أن يتهمها بالتردد، فهي تضرب عندئذٍ بقوة حتى لكأنها لم تفكر في الأمر إطلاقًا. وقد توجت الرسالة التي كتبتها إلى السيدة «ويلكوكس» بلون التصميم الأصيل. إن التفكير الشاحب كان عندها غشاوة رقيقة لا لطخة قاتمة، غشاوة تزيد الألوان طلاوة ورواء بعد أن تزال عنها.

عزيزتي السيدة «ويلكوكس»،

لست أجد بدًّا من أن أكتب إليكِ شيئًا خارجًا عن أصول المجاملة. فخير لنا ألا نلتقي. لقد أقدمت كل من أختي وخالتي على ما أسخط أسرتكم. وأسباب السخط قد تتكرر مرة أخرى، فيما يختص بأختي. فهي لم تَعُد تشغل بالها ـ على قدر علمي ـ بابنكم. ولكنه لا يجمل بها وبابنكم أن يلتقي كلاهما ثانية. وعلى ذلك يكون من الأسلم أن تنفصم عرى علاقتنا التي بدأت تلك البداية السارة جدًّا.

وأخشى ألا تتفقي معي في هذا. نعم، أنا أعلم أنكِ لن توافقيني ما دمتِ قد تكرمتِ علينا بالزيارة. ولا يعدو الأمر أن يكون شعورًا غريزيًّا يتملكني، وهذا الشعور خطأ ولا شك. وستقول أختي عنه بلا ريب إنه خطأ. وقد كتبت هذه الرسالة على غير علمها، فأرجو ألا تشركيها معي في مسؤولية خروجي عن أصول المجاملة.

المخلصة

«م. ج. شليجل»

وأرسلت «مارجريت» هذا الخطاب بطريق البريد. وفي الصباح التالي تلقت الرد التالي يدًا بيد:

عزيزتي الآنسة «شليجل»،

لم يكن هناك ما يدعو إلى كتابة مثل ذلك الخطاب، فأنا لم أرِد زيارتكم إلا لأخبركم بأن «بول» سافر إلى الخارج.

«روث ويلكوكس»

والتهبت وجنتا «مارجريت»، ولم تستطع إتمام تناول إفطارها. كانت تتقلب على جمر الحياء. وقد سبق لـ«هيلين» أن أخبرتها أن الفتى سيرحل عن إنجلترا، ولكن أمورًا أخرى بدت لها أكثر أهمية، فنسيت المسألة. لقد سقطت جميع أسباب قلقها السخيفة إلى الأرض، وقامت في مكانها حقيقة مؤكدة هي أنها كانت وقحة مع السيدة «ويلكوكس». وكانت الوقاحة تشعرها بالمرارة في فمها. كانت تسمم الحياة. إن الضرورة تقتضيها أحيانًا، ولكن الويل لمن يضعها في غير موضعها الملائم. وألقت على رأسها وكتفيها قبعة وشالًا كما تفعل المرأة الفقيرة، وخاضت في الضباب الذي كان لا يزال متراكمًا. وكانت شفتاها مطبقتين، والرسالة لا تزال في يدها. وعبرت الشارع عرضًا وهي في هذه الحالة، ودخلت رواق العمارة الرخامي، ومرقت من البوابين، وصعدت السلم ركضًا حتى وصلت إلى الطابق الثاني.

وأعلنت عن حضورها، ولشدة دهشتها اقتيدت رأسًا إلى مخدع السيدة «ويلكوكس».

ـ أوه يا سيدة «ويلكوكس»، لقد اقترفت أقبح خطأ. أنا خجلى جدًّا جدًّا، وآسفة إلى حدٍّ أعجزُ عن التعبير عنه.

وحنت السيدة «ويلكوكس» رأسها مهمومة. كانت مستاءة، ولم تحاول أن تتظاهر بعكس ذلك. كانت جالسة في سريرها تكتب بعض الرسائل على مائدة للمرضى تمتد فوق ركبتيها. وبدت صينية الإفطار إلى جوارها على مائدة أخرى. وتضافر نور الموقد، ونور النافذة، ونور الشمعدان الذي كان ينشر هالة مرتجفة حول يديها؛ تضافرت هذه الأنوار لتخلق جوًّا غريبًا من الانحلال.

ـ كنت أعلم أنه سيبحر إلى الهند في نوفمبر، ولكني نسيت.

ـ لقد أبحر يوم ١٧ من الشهر الحالي إلى نيجيريا بأفريقيا.

ـ علمت بذلك... أنا أعلم. وكم كنت سخيفة من أول الأمر إلى آخره. كم أنا خجلانة!

وصمتت السيدة «ويلكوكس» فلم تُجِب.

ـ أنا آسفة إلى حدٍّ أعجزُ عن التعبير عنه، وآمل أن تصفحي عني.

ـ لا أهمية للأمر أيتها الآنسة «شليجل». وكان طيبًا منكِ أن تحضري بمثل هذه السرعة.

وقالت «مارجريت» وهي تبكي:

ـ بل للأمر أهمية. لقد أغلظت في معاملتكِ، بل إن أختي لا تقيم الآن في الدار، فلم يكن لي حتى هذا العذر.

ـ أهذا صحيح؟

ـ لقد سافرت الساعة إلى ألمانيا.

وغمغمت المرأة الأخرى:

ـ لقد رحلت هي أيضًا. نعم، هناك أمان بالتأكيد، أمان مطلق الآن.

وقالت «مارجريت» وقد ازدادت انفعالًا، وجلست في مقعد من دون دعوة:

ـ أكنتِ مشغولة البال بالأمر أنتِ أيضًا؟ ما أشد غرابة هذا! أرى أنكِ كنتِ مشغولة به. إنكِ شعرتِ بمثل ما شعرت أنا به. يجب ألا تقابله «هيلين» ثانية.

ـ هذا ما ظننته أفضل.

ـ خبريني الآن ماذا؟

وقالت السيدة «ويلكوكس» وهي تبتسم، وقد أخذ وجهها يفقد شيئًا قليلًا من تعبير المضايقة.

ـ هذا سؤال عويص جدًّا. وأظن أنكِ أوضحتِ السبب على أحسن وجه في رسالتكِ، فهو شعور غريزي قد يكون خاطئًا.

ـ المسألة ليست إذن أن ابنك لا يزال...

ـ أوه، لا... إنه غالبًا... إن ابني صغير السن جدًّا كما ترين.

ـ ما السبب إذن؟

فكررت قولها:

ـ هو شعور غريزي قد يكون خاطئًا.

ـ إنهما، بتعبير آخر، ينتميان إلى طرازين قد يتحابان ولكنهما لا يستطيعان الحياة معًا. هذا مرجح إلى حدٍّ مخيف. وأخشى أن الطبيعة في كل تسع حالات من عشر تعمل في ناحية بينما الطبيعة البشرية تعمل في الناحية المضادة.

وقالت السيدة «ويلكوكس»:

ـ هذا حقًّا «تعبير آخر». ولم يخطر ببالي شيء مترابط إلى هذا الحد، وكل ما في الأمر أني ذعرت عندما علمت بأن ولدي يحب أختكِ.

ـ آه، إني وددت دائمًا أن أسألكِ، كيف علمتِ بالأمر؟ لقد دُهشت «هيلين» كثيرًا عندما رأت خالتها تقبل في السيارة، وأنتِ تتقدمين على الفور وتضعين الأمر في نصابه... أأخبركِ «بول» بالأمر؟

وقالت السيدة «ويلكوكس» بعد هنيهة صمت:

ـ ليس هناك خير يرجى من وراء مناقشة هذه المسألة.

ـ أكنتِ شديدة الحنق علينا في يونيو الماضي يا سيدة «ويلكوكس»؟ لقد أرسلت إليكِ خطابًا ولكنكِ لم تجيبيني عليه.

ـ كنت أعارض بالفعل استئجار شقة السيدة «ماثيسون» لأني لم أكن أجهل أنها تواجه منزلكم.

ـ ولكن لا ضير في ذلك الآن؟

ـ أظن ذلك.

ـ «تظنين» فحسب؟ أنتِ لستِ متأكدة إذن؟ إني أتمنى أن تصحَّح هذه الأخطاء الصغيرة.

وقالت السيدة «ويلكوكس» وهي تتململ تحت غطائها:

ـ أوه، نعم، أنا متأكدة. إني أبدو للناس مترددة دائمًا. هذه هي طريقتي في الحديث.

ـ جميل، وأنا متأكدة أيضًا.

وهنا دخلت الخادمة لتأخذ صينية الإفطار، فقطعت عليها الحديث. وعندما استأنفتاه سار على نهج أكثر طبيعية.

ـ لا بد أن أحييكِ لأنصرف. فقد آن أن تغادري الفراش.

ـ لا، أرجو أن تبقَي قليلًا. إني سأقضي يومي في الفراش، وإني أفعل ذلك بين حين وحين.

ـ كنت أظنكِ ممن يبكرون في مغادرة الفراش.

ـ هذا صحيح في «هواردز إند». ولكن ليس في لندن ما يستدعي التبكير في القيام صباحًا.

وصاحت «مارجريت» وقد صدمها ما سمعت:

ـ ليس هناك ما يستدعي التبكير في القيام صباحًا؟ أتقولين ذلك وهناك معارض الخريف كلها، و«أوجين إيساييه» يعزف في المساء، فضلًا عن مجتمعات الناس؟!

ـ الحق أني متعبة قليلًا. لقد أتعبني الزفاف أولًا، ثم أعقبه رحيل «بول». وقد قمت أمس ببعض الزيارات بدلًا من أخذ قسط من الراحة.

ـ أي زفاف؟

ـ نعم. لقد تزوج «تشارلز»، ولدي الأكبر.

ـ حقًّا!

ـ لقد حللنا في هذه الشقة لذلك السبب أولًا، ولتزويد «بول» بما تحتاج إليه رحلته الأفريقية. والشقة لإحدى بنات عم زوجي. وقد تعطفت كل العطف فجادت علينا بها. وهكذا تمكنا قبل حلول يوم الزواج من التعرف بأسرة «دوللي» التي لم نكن قد عرفناها بعد.

وسألت «مارجريت» عمن تكون أسرة «دوللي».

ـ اسمها «فاسل». وأبو العروس ضابط في الجيش الهندي، وقد ترك الخدمة الآن. والأخ يخدم في الجيش. والأم توفيت.

لعل هؤلاء يكونون إذن الرجال ذوي الذقون الضامرة، والوجوه التي لوحتها الشمس، أولئك الذين لمحتهم «هيلين» من النافذة بعد ظهر أحد الأيام. وشعرت «مارجريت» في اهتمام معتدل بحظوظ أسرة «ويلكوكس». وقد اكتسبت هذه العادة بسبب «هيلين»، وظلت متمسكة بها. وسألت عن معلومات أخرى خاصة بالآنسة «دوللي فاسل» ومن تكون. وأجيبت إلى ما طلبت بصوت هادئ خالٍ من النبرات العاطفية. وصوت السيدة «ويلكوكس» محدود التعبير، برغم ما فيه من عذوبة وتمكن من السامع. وهو يوحي بأن اللوحات، والحفلات الموسيقية، والأشخاص لها قيم صغيرة ومتساوية. وقد نشط هذا الصوت مرة واحدة فقط، حين تكلمت صاحبته عن «هواردز إند».

ـ لقد تعَرف «تشارلز» و«ألبرت فاسل»، كل منهما بالآخر منذ بعض الوقت. وهما عضوان في نادٍ واحد، ومغرمان بلعب الجولف. وتلعب «دوللي» الجولف أيضًا، ولو أني أحسب أنها لا تجيد هذه اللعبة كل الإجادة. وقد تقابلا لأول مرة في شوط رباعي ضم شابين وفتاتين. ونحن جميعًا نستلطفها، ومسرورون غاية السرور. وقد تم عقد قرانهما يوم ١١ من الشهر الجاري، وذلك قبل رحيل «بول» ببضعة أيام. وكان «تشارلز» يتوق إلى جعل «بول» إشبينه في حفل الزواج، ولذا أصر على إقامة الحفل يوم ١١ من هذا الشهر. وكانت أسرة «فاسل» تُؤثِر إقامته بعد عيد الميلاد، ولكنها تصرفت في الأمر تصرفًا وديًّا للغاية. وهذه هي صورة «دوللي» الفوتوغرافية، الصورة الماثلة في هذا الإطار المزدوج.

ـ أأنتِ واثقة يا سيدة «ويلكوكس» من أن وجودي لا يعطلك عن شيء؟

ـ نعم، كل الوثوق.

ـ سأمكث إذن، فإن هذا يمتعني.

وجرى الآن اختبار الصورة الفوتوغرافية. وكانت مذيلة بهذه العبارة:

إلى عزيزتي «ميمز»

وفسرت السيدة «ويلكوكس» اسم «ميمز» بقولها:

ـ إنه الاسم الذي اختارت هي و«تشارلز» أن يطلقاه عليَّ.

وبدت «دوللي» بلهاء، لها وجه من تلك الوجوه مثلثة الشكل التي كثيرًا ما يثبت أنها تجذب الرجل قوي الجسم. وكانت جميلة جدًّا. وانتقلت «مارجريت» من صورتها إلى صورة «تشارلز» الذي دلت ملامحه على أنه نقيضها. وأخذت تفكر في القوى التي جمعت بينهما حتى لا يفرقهما الله. ووجدت فسحة من الوقت لترجو لهما أن يعيشا سعيدين.

ـ لقد سافرا إلى نابولي لقضاء شهر العسل.

ـ زوجان سعيدان!

ـ أكاد لا أتصور أن «تشارلز» في إيطاليا.

ـ ألا يحب السفر؟

ـ إنه يميل إلى السفر، ولكنه جد عليم بخفايا نفوس الأجانب. وإن متعته الكبرى جولة في أرجاء إنجلترا يقوم بها في سيارة. وأظن هذه الفكرة كانت ستنتصر لولا أن الجو كان رديئًا للغاية. وقد قدم له أبوه سيارة من سياراته هدية بمناسبة زواجه، وهي الآن مخزونة في «هواردز إند».

ـ أظن أن لديكم جراجًا هناك؟

ـ نعم. لقد بنى زوجي جراجًا صغيرًا في الشهر الماضي فقط غربيَّ المنزل على مسافة غير بعيدة من شجرة الغرغار الجبلي. وكان مكانه في الأصل حظيرة للمهر الصغير.

وكان لهذه الكلمات الأخيرة رنين يتعذر وصفه. وسألت «مارجريت» بعد فترة من الصمت:

ـ أين ذهب المهر؟

ـ المهر؟ أوه، لقد مات، منذ زمن بعيد جدًّا.

ـ أنا أذكر شجرة الغرغار الجبلي. وقد قالت «هيلين» عنها إنها شجرة رائعة حقًّا.

ـ إنها أبدع شجرة غرغار جبلي في هرتفوردشير. وهل حدثتكِ أختكِ عن الأسنان؟

ـ كلا.

ـ أوه. قد يشوقكِ ذلك. هناك أسنان خنازير مغروزة في جذعها على ارتفاع أربعة أقدام من الأرض. وكان الريفيون قد أنشبوها في ذلك الجذع منذ زمن بعيد، وهم يعتقدون أنهم إذا ما مضغوا قطعة من لحاء تلك الشجرة زال ألم أسنانهم. ولكن الأسنان كادت تغطَّى الآن، ولم يَعُد أحد يحج إلى الشجرة.

ـ وددت أنا أن أحج إليها. إني أحب الفولكلور والخرافات البالية.

ـ أتظنين أن الشجرة تشفي ألم الأسنان حقًّا إذا اعتقد الإنسان بصدق ذلك؟

ـ لا شك أنها تشفيه. إنها تشفي أي شيء، دفعة واحدة.

ـ أنا أذكر بالتأكيد بعض الحالات. إني عشت في «هواردز إند»، قبل أن يعرفها السيد «ويلكوكس» بأمد طويل جدًّا. إني ولدت هناك.

وتحول مجرى الحديث ثانية. وبدا الآن أنه يكاد يكون ثرثرة لا هدف له. فقد اهتمت «مارجريت» عندما أوضحت لها مضيفتها أنها هي المالكة لـ«هواردز إند». وكانت منذ دقيقتين قد ضاقت ذرعًا بما روي لها من قصة أسرة «فاسل»، ومشغوليات بال «تشارلز» بشأن نابولي، وتنقلات السيد «ويلكوكس» و«إيفي» اللذين كانا يقومان برحلة في السيارة خلال مقاطعة يوركشير. ولم تكن «مارجريت» تحتمل أن يضايقها أحد، فأخذت تنصرف عن الحديث. وتناولت إطار الصورة الفوتوغرافية وتلهت به، فوقع من يدها، وتحطم زجاج الصورة، واعتذرت، وقُبل اعتذارها. وجرح حطام الزجاج

إصبعها، وأشفقت السيدة عليها. وقالت في النهاية إنه لا بد لها من الانصراف؛ فوراءها أعمال المنزل جميعها، ولا بد لها أن تقابل مدرب «تيبي» على ركوب الخيل.

ثم ظهر رنين النبرة الغريبة من جديد.

ـ مع السلامة يا آنسة «شليجل»، مع السلامة. شكرًا على مجيئك. لقد أنعشتِني.

ـ هذا يسرني جدًّا.

ـ إني... إني لأتساءل: ألا تفكرين أبدًا في نفسكِ؟!

وقالت «مارجريت» وقد احمرت خجلًا، ولكنها تركت يدها في يد المريضة:

ـ أنا لا أفكر إلا فيها.

ـ إني أتساءل، وقد تساءلت في هايدلبرج.

ـ لا شك عندي!

ـ أنا أكاد أعتقد...

وسألت «مارجريت»:

ـ نعم؟

سألت سؤالها إذ طرأت فترة صمت طويلة؛ صمت يكاد يشبه وميض النار، وارتعاش النور المترامي على أيديهما من مصباح القراءة، والعتمة البيضاء من النافذة؛ صمت الأطياف المتحركة الأزلية.

ـ أكاد أعتقد أنكِ نسيتِ أنكِ صبية.

وجفلت «مارجريت» في شيء من المضايقة. وأبدت هذه الملاحظة:

ـ إني في التاسعة والعشرين. وهذه ليست سن الصبا الفائر.

وابتسمت السيدة «ويلكوكس»، واستطردت «مارجريت»:

ـ ماذا دفعكِ إلى هذا القول؟ أتقصدين أني كنت فظة وغير لبقة؟

وهزت السيدة «ويلكوكس» رأسها:

ـ أنا لم أقصد إلا أني في الحادية والخمسين، وأنكِ أنتِ وأختكِ كلتيكما... اقرئي ذلك كله في الكتب؛ فأنا عاجزة عن التعبير الواضح.

ـ أوه، لقد فهمت: قلة التجربة. أنتِ تقصدين أني لا أُفضل «هيلين»، وأزعم مع ذلك أني أنصحها.

ـ نعم، إنكِ فهمتِ. «قلة التجربة» هي الكلمة المقصودة.

وكررت «مارجريت» في لهجة جدية، ولكنها مرحة مع ذلك:

ـ قلة التجربة. لا شك أني في حاجة إلى تعلم كل شيء، كل شيء إطلاقًا. شأني في ذلك لا يقل عن شأن «هيلين». إن الحياة شاقة ومفعمة بالمفاجآت. وعلى أي حال فقد بلغت في الفهم إلى هذا الحد. أن يكون الإنسان متواضعًا عطوفًا، وأن يسير إلى هدفه قدمًا، وأن يحب الناس أكثر مما يشفق عليهم، وأن يذكر المغمورين؛ حسنًا، إن الإنسان لا يستطيع تحقيق هذه الأمور كلها دفعة واحدة، وذلك من سوء الطالع، لأنها شديدة التناقض. وهنا تفيد مراعاة التناسب بين الأشياء: الحياة في تناسب. يجب ألا تبدئي بالتناسب، فالمغرورون وحدهم هم الذين يفعلون ذلك، إنما دعي التناسب يأتي بوصفه الملاذ الأخير بعد إخفاق الحلول التي هي خير منه والوقوع في ورطة. ولكن رباه، لقد بدأت أعظ!

وقالت السيدة «ويلكوكس» وقد سحبت يدها إلى الظلال المظلمة:

ـ حقًّا لقد شرحت مشكلات الحياة شرحًا رائعًا، وما قلته هو بالضبط ما كنت أود أن أقوله أنا عن هذه المشكلات.

## الفصل التاسع

لا يمكن أن تُتهم السيدة «ويلكوكس» بأنها أمدت «مارجريت» بمعلومات كثيرة عن الحياة. أما «مارجريت» فقد أظهرت قدرًا لا بأس به من التواضع. وادعت من عدم الخبرة ما لم تحسه بالتأكيد. فقد أدارت شؤون المنزل مدة تزيد على عشر سنوات؛ وضافت الناس على نحو يكاد لا يفوقها فيه أحد؛ وقامت على تنشئة أخت جذابة، وهي في سبيل تنشئة أخ كذلك. فإذا كانت التجربة قابلة للاكتساب، فقد اكتسبتها ولا ريب.

وبرغم ذلك فإن حفلة الغداء التي أقامتها تكريمًا للسيدة «ويلكوكس» لم تحرز نجاحًا. فهذه الصديقة الجديدة لم تأتلف مع «المدعو أو المدعوَّين الظريفَين» اللذين استضيفا للقائها. وساد الحفلة جوٌّ من الارتباك المؤدب. لقد كانت ميولها بسيطة، ومعرفتها بالثقافة ضئيلة، ولم تكن تهتم بـ«نادي الفن الإنجليزي الجديد»، ولا بالفارق بين الصحافة والأدب، هذا الموضوع الذي طرقوه فتحًا لباب الحديث كأنه أرنب بري يطاردونه. واندفع القوم الظرفاء وراءه وهم يطلقون صيحات الطرب، وتولت «مارجريت» قيادهم، ولم يتبينوا أن المدعوة الرئيسية لم تشترك في المطاردة إلا بعد أن بلغوا منتصف غدائهم. لم يكن هناك موضوع مشترك بين الفريقين. فالسيدة «ويلكوكس» التي أنفقت حياتها في خدمة زوجها وأولادها لم يكن لديها إلا القليل من القول لتتحدث به إلى غرباء لم يشاركوها في حياتها قَطُّ، ولم تتجاوز أعمارهم نصف عمرها. كان الحديث البارع يزعجها ويذبل تصوراتها الرقيقة. فهو في الناحية الاجتماعية من الحياة صنو للسيارة، كله رجٌّ واهتزاز، بينما هي أشبه بحزمة من القش، أو زهرة. لقد شكت من الجو مرتين، وانتقدت الخدمة في قطارات «سكة حديد الشمال الكبرى» مرتين أيضًا. ووافقها الحاضرون بقوة، ثم اندفعوا في حديثهم. وعندما سألت عما إذا كانت هناك أخبار ما عن «هيلين»، كانت مضيفتها في شغل عن الإجابة بإيجاد مكانٍ لجلوس الفنان والناقد «روثنستين». وكررت السؤال بقولها:

ـ أرجو أن تكون أختكِ في أمان الآن في ألمانيا.

وكبحت «مارجريت» جماح نفسها وقالت:

ـ نعم، أشكركِ. وقد تلقيت خطابًا منها يوم الثلاثاء.

ولكن شيطان الصياح كان يتقمصها، فانطلقت بعد لحظة تثرثر ثانية:

ـ لم أتسلم منها خطابًا إلا يوم الثلاثاء فقط، لأنهم يقيمون بعيدًا في ستيتين. أعرفت يومًا أحدًا ممن يقيمون في ستيتين؟

وقالت السيدة «ويلكوكس» في رزانة:

ـ لا.

وفي هذه الأثناء بدأ الجالس إلى جوارها ـ وهو شاب يافع يشغل وظيفة صغيرة في وزارة التربية ـ يتحدث عما يجب أن يكون عليه سكان ستيتين من مظهر، وهل هناك شيء يمكن أن يسمى «ستيتينية». واقتحمت «مارجريت» الحديث:

ـ سكان ستيتين يشتغلون بنقل البضائع من مخازنها المعلقة إلى السفن، أو على الأقل أولاد عمومتي يشتغلون بذلك، ولكنهم ليسوا أغنياء جدًّا. والبلدة غير شائقة إلا إذا استثنينا ساعة كبيرة تحرك عينيها، ومنظر نهر «الأودر» الذي هو في الواقع منظر غير عادي. أوه يا سيدة «ويلكوكس»، إنكِ لتحبين «الأودر» لو رأيتِه! إن ذلك النهر، أو بالأحرى تلك الأنهر ـ إذ يبدو أن هناك عشرات منها ـ لها زرقة داكنة، وللسهل الذي تنساب خلاله زرقة داكنة جدًّا.

ـ حقيقة! يبدو من قولكِ يا آنسة «شليجل» أن المنظر أجمل ما يكون.

ـ هذا رأيي. ولكن لـ«هيلين» التي تخلط الأمور رأيًا مخالفًا. فهي تقول إنه أشبه بالموسيقى. فهي تريد من مجرى «الأودر» أن يكون شبيهًا بالموسيقى، وعليه أن يُذكرها بلحن سيمفوني. وإذا كانت الذاكرة لا تخونني فمجراه الأعلى من مقام «ب الصغير». ولكن النغمات تختلط في المجرى الأدنى اختلاطًا شديدًا، فهناك لحن رئيسي بطيء تجتمع فيه مقامات عدة في وقت واحد، وهو يعني الضفتين الطينيتين، ولحن آخر لقناة الملاحة. أما مخرج النهر إلى بحر البلطيق فهو من مقام «ج الكبير» الرقيق.

وسأل الرجل وهو يضحك:

ـ وماذا تفهم مخازن البضائع المعلقة من ذلك؟

وأجابت «مارجريت»:

ـ تفهم منه الشيء الكثير.

واندفعت اندفاعًا غير متوقع إلى اتجاه آخر:

ـ أنا أرى تشبيه نهر «الأودر» بالموسيقى متكلفًا. وكذلك تراه أنت. ولكن مخازن ستيتين المعلقة تأخذ الجمال مأخذ الجد، وهذا ما لا نفعله نحن، وكذلك لا يفعله الرجل الإنجليزي العادي، بل إنه ليحتقر كل من يفعله. والآن لا تقل لي: «إن الألمان مجردون من الذوق»، وإلا صرخت. إنهم مجردون منه، ولكن... ولكن... ويا لها من «لكن» ضخمة! لكنهم يأخذون الشعر مأخذ الجد. إنهم ليأخذون الشعر مأخذ الجد حقًّا.

ـ وهل هناك شيء يُجنى من وراء ذلك؟

ـ نعم، نعم. إن الألماني في بحث دائم عن الجمال، وقد يخطئه بسبب الغباء، وقد يسيء تفسيره، ولكنه يسأل الجمال دائمًا أن يدخل حياته، ولا شك عندي أنه سيدخلها آخِر الأمر. وقد قابلت في هايدلبرج طبيبًا بيطريًّا بدينًا كان صوته يتهدج بالزفرات وهو ينشد شعرًا عاطفيًّا غثًّا. وكان من السهل عليَّ جدًّا أن أضحك، أنا التي لا تتلو الشعر أبدًا، سواء غثه أو طيبه، ولا تذكر مقطوعة صغيرة واحدة منه تستثير شعورها بإنشادها. إن دمي ليغلي غليانًا، ولا عجب فأنا نصف ألمانية، ففسروا ذلك بالوطنية. إن دمي ليغلي عندما أنصت إلى ما يعبر عنه الرجل الإنجليزي المتوسط من ازدراء مُشرب بسلامة الذوق للأشياء التيوتونية، سواء كانت «بوكلين» أو طبيبي البيطري. إنهم يقولون: «أوه، «بوكلين»! إنه يجاهد وراء الجمال، ويملأ الطبيعة بالآلهة عن وعي زائد». ولا شك أن «بوكلين» يجاهد، لأنه يريد شيئًا: يريد الجمال وجميع الهبات غير الملموسة التي تحوم في أجواء العالم. ولذلك يخفق في خلق الصور الطبيعية، في حين ينجح «ليدر» في خلقها.

وقال الرجل وهو يدور ببصره إلى السيدة «ويلكوكس»:

ـ لست واثقًا من أني متفق معكِ في الرأي. أتوافقين عليه أنتِ؟

وأجابت السيدة «ويلكوكس»:

ـ أرى أن الآنسة «شليجل» تعبر عن كل شيء تعبيرًا رائعًا.

وهبط برد قارس على الحديث.

ـ أوه، يا سيدة «ويلكوكس». قولي شيئًا ألطف من هذا. فإن في قولكِ عن إنسان إنه يعبر عن الأشياء تعبيرًا رائعًا، تقريعًا شديدًا له.

ـ أنا لا أقصد بعبارتي التقريع. ولقد أمتعني كثيرًا حديثك الأخير فيبدو أن الناس عمومًا لا يحبون ألمانيا. وكنت أرغب منذ زمن في أن أسمع ما يقال من الجانب الآخر.

ـ الجانب الآخر؟ إذن أنتِ غير موافقة على ما قيل. أوه، حسنًا! هاتي رأي الجانب الذي تنحازين إليه.

ـ أنا لا أنحاز لجانب. ولكن زوجي...

وهنا رق صوتها. وازداد البرد الذي أصاب المحادثة:

ـ ولكن زوجي قليل الثقة جدًّا بالقارة الأوروبية. وتبعه أولادنا كلهم في ذلك.

ـ ولكن على أي أساس؟ أيرون القارة في حالة سيئة؟

ولم يكن للسيدة «ويلكوكس» أي فكرة عن ذلك، ولم تكن تأبه بالأسس. إنها لم تكن من أهل الفكر، ولا حتى يقظة، والغريب مع ذلك أنها توحي إليك بأنها عظيمة. وكانت «مارجريت»، وهي تحاور أصدقاءها في موضوعات الفكر والفن، تشعر بشخصيتها التي فاقت شخصيتهم وبدا نشاطهم بالقياس إليها قزمًا ضئيلًا. ولم تعبر السيدة «ويلكوكس» عن أي مرارة، بل حتى أي نقد، كانت توحي بالمحبة، ولم تفلت من شفتيها كلمة خشنة أو مسيئة. ومع ذلك كانت هي والحياة اليومية مختلفتَي البؤرة ولا بد أن تبدو أيٌّ منهما مطموسة. وقد بدت أثناء الغداء أبعد عن البؤرة من عادتها، وأقرب إلى الحظ الذي يفصل الحياة اليومية عن حياة قد تكون أعظم منها أهمية.

ـ إنكِ مع ذلك تسلمين بأن القارة... وإطلاق عبارة «القارة» عليها يبدو سخيفًا، ولكن الواقع أن بعضها يشبه بعضًا أكثر من شبه أي جزء منها لإنجلترا، فإنجلترا فريدة في بابها. خذي أولًا قدرًا من الهلام. كنت أريد أن أقول إن القارة تهتم بالأفكار، سواء كان هذا الاهتمام خيرًا أو شرًّا. إن لآدابها وفنونها ما يمكن أن يسميه المرء اتجاه اللامنظور، وهذا الاتجاه متصل حتى في عصور التدهور والتكلف. وإن في إنجلترا حرية أكبر في مجال العمل، ولكنكِ إذا نشدتِ حرية الفكر فاذهبي إلى بروسيا البيروقراطية. فالناس هناك يناقشون في تواضع مسائل هامة نظن نحن هنا أنها أقدس من أن نمسها.

فقالت السيدة «ويلكوكس»:

ـ أنا لا أريد أن أذهب إلى بروسيا، ولو لأرى ما وصفته لنا من مشهد طريف. أما عن المناقشة في تواضع فإن سني أكبر من أن تسمح بذلك. إننا لا نناقش شيئًا أبدًا في «هواردز إند».

فقالت «مارجريت»:

ـ جدير بكم إذن أن تتناقشوا! فالمناقشة تحفظ للمنزل حيويته. وهو لا يمكن أن يقوم على الآجر والملاط وحدهما.

وقالت السيدة «ويلكوكس» وقد التقفت الفكرة على غير توقع، وأحيت للمرة الأولى والأخيرة أملًا ضعيفًا في صدور القوم المبتهجين:

ـ وهو كذلك لا يمكن أن يقوم من دونهما. إنه لا يمكن أن يقوم من دونهما. ويخطر لي أحيانًا... ولكني لن أتوقع من جيلكم أن يوافقني، فحتى ابنتي تخالفني في ذلك الرأي.

ـ لا عليكِ منها ومنا. وأفضي برأيكِ!

ـ يخطر لي أحيانًا أن ترك العمل والمناقشة للرجال أكثر حكمة.

وساد صمت قصير.

وقالت فتاة تجلس في الناحية المقابِلة، وقد مالت إلى أمام، وفتَّتت خبزها:

ـ إن الإنسان ليعترف بأن الحجج القائمة ضد مَنْح حق الانتخاب للمرأة قوية للغاية.

ـ أهي كذلك؟ أنا لا أتتبع أي حجج، إنما أحمد الله كل الحمد على أنْ ليس لي صوت في الانتخاب.

وأضافت «مارجريت»:

ـ إننا مع ذلك لم نقصد حق المرأة في الانتخاب في ذاته، أليس كذلك؟ ألم نختلف على ما هو أوسع مدى بكثير يا سيدة «ويلكوكس»؟ فهل المرأة تظل في المكان الذي شغلته منذ فجر التاريخ، أم تتقدم قليلًا ما دام الرجل قد قطع شوطًا بعيدًا في التقدم؟ أنا أزعم أنه يمكنها التقدم، بل أنا حتى أقر بأن تغيرًا بيولوجيًّا طرأ عليها.

ـ لست أدري. لست أدري.

وقال الرجل:

ـ لا بد لي من العودة إلى مخزني المعلق. فإن أصحاب العمل أصبحوا شديدي التدقيق في المواعيد إلى حد مشين.

ونهضت السيدة «ويلكوكس» أيضًا.

ـ أوه. ولكن اصعدي إلى الدور العلوي قليلًا، فالآنسة «كويستد» خبيرة بالعزف. أتميلين إلى ألحان «ماكدويل»؟ أتمانعين في سماع لحن له من نغمتين فقط؟ إذا كان لا بد من انصرافكِ حقًّا فسأشيعك إلى الباب. ألا ترغبين حتى في قدح من القهوة؟

وغادرتا غرفة الطعام، وأغلقتا الباب وراءهما. وقالت السيدة «ويلكوكس» وهي توثق عرى سترتها:

ـ ما أظرف الحياة التي تحيونها جميعكم في لندن!

وقالت «مارجريت» مأخوذة بانقلاب مفاجئ في الشعور:

ـ لا. نحن لا نحيا حياة طريفة، بل نقضي حياة أشبه بحياة القردة المثرثرة. يا سيدة «ويلكوكس». إن لنا في قرارة أنفسنا شيئًا راكزًا هادئًا. إن لنا هذا الشيء حقًّا. وكل أصدقائي لهم نفس الشيء. لا تزعمي أنكِ استمتعتِ بهذا الغداء فإنكِ تقززتِ منه. ولكن اسمحي لي بأن تزوريني ثانية وأنا بمفردي، أو بأن ترسلي إليَّ لأزوركِ.

وقالت السيدة «ويلكوكس» وقد أخذت معالم الأشياء المنظورة تظلم بعد كل كلمة تقولها:

ـ إني تعودت مجالس الشباب. وقد درجنا في دارنا على أن نكثر من الثرثرة، ونحن نستضيف أناسًا كثيرين مثلكم. بيد أن معظم حديثنا يتناول الرياضة البدنية والسياسة. وقد استمتعت بالغداء كثيرًا، يا عزيزتي الآنسة «شليجل»، وليس قولي هذا ادعاء، وأتمنى لو أنني استطعت المشاركة بقدر أكبر. ولكني لم أستطع أولًا لأني لست على ما يرام اليوم، ثم إن حركتكم يا معشر الشباب سريعة إلى حد أنها تدير رأسي. و«تشارلز» لا يختلف عنكم،

وكذلك «دوللي». بيد أننا، صغارًا وكبارًا، نستقل نفس القارب، ولا يغرب ذلك عن بالي أبدًا.

وصمتتا هنيهة. ثم تصافحتا وقد تملكتهما عاطفة جديدة. وتوقف الحديث فجأة عندما عادت «مارجريت» إلى غرفة الطعام. ذلك أن أصحابها كانوا يتحدثون عن صديقتها الجديدة، وحكموا عليها بأنها غير مثيرة للاهتمام.

## الفصل العاشر

مضت أيام.

هل السيدة «ويلكوكس» من ذلك الطراز غير المرضي من الناس ـ ويوجد منه كثيرون ـ الذين يرخون حبل الألفة للإغراء به ثم يجذبونه ثانية؟ إنهم يثيرون اهتمامنا ومحبتنا، ويُبقون حياة الروح مرفرفة حولهم، ثم إذا هم ينسحبون. وإذا كانت هذه العلاقة تنطوي على العاطفة الجسدية كان الاسم الصريح لمثل ذلك السلوك هو التلهي بالغزل، فإذا غولي فيه وقع تحت طائلة العقاب. ولكن، ليس هناك قانون ـ بل ولا رأي عام ـ يعاقب أولئك الذين يتلهون بالصداقة، برغم أن ما يسببونه من وجع بطيء، وجع الشعور بالتعب والجهد الضائع قد لا يقل ثقلًا على النفس. فهل كانت السيدة «ويلكوكس» من بين هؤلاء؟

لقد خشيت «مارجريت» ذلك في بادئ الأمر، لأنها في صبر اللندنيين النافد، كانت تريد الأمور كلها أن تسوَّى فورًا. كانت تسيء الظن بفترات السكون التي هي ضرورية للنماء الحقيقي. وإذ كانت تريد ضم السيدة «ويلكوكس» إلى قائمة أصدقائها، فقد تعجلت الدعوة، وازدادت تعجلًا لأن سائر أفراد أسرتها متغيبون، والفرصة بدت متاحة. ولكن كبرى المرأتين أبت أن يتعجلها أحد، وأن تحتل مكانها المقرر لها بين جماعة زوار «ويكهام بليس»، أو تعيد مناقشة حكاية «هيلين» و«بول» التي كانت «مارجريت» تود لو اتخذتها طريقًا قصيرًا للوصول إلى هدفها. وتريثت السيدة «ويلكوكس» زمنًا كافيًا، أو لعلها تركت الأمر للزمن، فلما حلت الأزمة كان كل شيء متهيئًا.

وبدأت هذه الأزمة برسالة ترجو فيها الآنسة «شليجل» مصاحبتها لتتسوقا. كان عيد الميلاد يقترب، وشعرت السيدة «ويلكوكس» بأنها تأخرت في شراء الهدايا، فقد قضت أيامًا أخرى طريحة الفراش، ولا بد من تعويض الوقت الضائع. وأجابتها «مارجريت» إلى ما طلبت. وفي الحادية عشرة من يوم مكفهر خرجتا معًا في عربة مقفلة.

وبدأت «مارجريت» القول:

ـ يجب أولًا أن نعد قائمة بأسماء الناس ونضع علامة أمام ما فرغنا منه، فخالتي تقوم بذلك دائمًا. وهذا الضباب قد يزداد كثافة في أي لحظة. هل استقر رأيكِ على شيء؟

وقالت السيدة «ويلكوكس» في شيء من القنوط:

ـ كنت أرى أن نذهب إلى «هارودز» أو إلى «هاي ماركت ستورز»، فكل طلباتنا هناك قطعًا. إني غير ماهرة في الشراء، والجلبة هناك مربكة حقًّا، فخالتكِ محقة تمامًا فيما تصنع. إن على المرء أن يعد قائمة. خذي مفكرتي إذن وقيدي اسمكِ في رأس الصحيفة.

وقالت «مارجريت» وهي تقيد اسمها:

ـ مرحى، مرحى! كم هو لطيف منكِ أن تبدئي باسمي!

ولكنها لم تكن تود أن تتلقى هدية باهظة الثمن. فالعلاقة بينهما كانت أقرب إلى الغرابة منها إلى الألفة. وقد حزرت أن جماعة «ويلكوكس» سيستاءون من بذل أي مال للأغراب عن أسرتهم، وهو شأن أغلب الأسر المتكتلة. ولم تشأ «مارجريت» أن يُظن أنها «هيلين» أخرى تختطف الهدايا ما دامت لا تستطيع اختطاف الفتيان. ولم تشأ كذلك أن تتعرض لإهانات «تشارلز» كخالتها «جولي». فرأت من الأفضل أن تتخذ نوعًا من سيماء التقشف. وأضافت:

ـ ولو أني لا أريد في الحق هدية ميلادية. أنا أُفضل في الواقع ألا أتلقاها.

ـ لماذا؟

ـ لأن لي في عيد الميلاد رأيًا غريبًا. ولأن لديَّ كل ما يمكن أن يشترى بالمال. وأنا أريد مزيدًا من الناس لا مزيدًا من الأشياء.

ـ أنا أريد أن أعطيكِ شيئًا مكافئًا لمعرفتي بكِ يا آنسة «شليجل»، تذكارًا لشعورِكِ اللطيف نحوي في وحدتي خلال الأسبوعين الماضيين. فقد حدث أني تُركت هكذا وحيدة، ومنعتِني أنتِ من اجترار همومي، فإني شديدة الميل إلى هذا الاجترار.

وقالت «مارجريت»:

ـ إذا كان الأمر كذلك. وحدث مصادفة أني كنت ذات فائدة لكِ، وهو ما كنت أجهله، فأنتِ لا تستطيعين رد هذا بإعطائي هدية مادية.

ـ أظنني لا أستطيع، ولكني أتمنى لو استطعت. ولعلي أثناء تجوالنا أهتدي إلى رأي فيما أهديه إليكِ.

وظل اسمها في رأس القائمة، ولكن اسم الهدية لم يكتب تجاهه. وتنقلتا من دكان إلى دكان. وكان الهواء أبيض اللون، وعندما نزلتا من العربة صارت له رائحة العملة المعدنية الباردة. وكانتا أحيانًا تمران خلال قطعة ضباب رمادية متكتلة. وكانت السيدة «ويلكوكس» في هذا الصباح ضعيفة الحيوية، فاضطلعت «مارجريت» بالبت في شراء لعبة حصان لهذه الفتاة، ودمية سوداء لتلك، وصينية منقوشة من النحاس لزوجة القس.

ـ إننا نمنح الخدم في هذه المناسبة نقودًا دائمًا.

وأجابت «مارجريت»:

ـ أتمنحونهم نقودًا؟ نعم، هذا أيسر.

ولكنها أحست ما كان لغير المنظور على المنظور من تأثير غريب، ورأت هذا السيل من النقود واللعَب يتدفق من مذود في بيت لحم وقد عفا عليه النسيان. لقد كان الطابع الغالب على المشهد هو الابتذال والسوقية. فالحانات ـ فضلًا عن تحريضها المألوف على عدم الزهد في الخمر ـ راحت تدعو الناس لحضور «حفلة نادي الإوز في عيد الميلاد»، أو لشرب زجاجة أو زجاجتين من الجن، إلخ، حسب قيمة الاشتراك. وظهرت لافتة بها صورة امرأة في ملابس ضيقة تنبئ بابتداء تمثيلية عيد الميلاد الإيمائية الصامتة. وانتشرت بطاقات البريد متضمنة صور الشياطين الحمر الصغار الذين ظهروا هذا العام أيضًا من جديد. ولم تكن مثالية «مارجريت» من النوع المريض. فهي لم تشأ صد هذا السيل من الرواج والإعلان عن النفس. ولكن المناسبة فقط هي التي تصيبها بالدهشة كل عام. فكم بين أولئك المشترين المترددين، وبيَّاعي الحوانيت المرهقين، من يدركون أن واقعة قدسية هي التي جمعت بينهم؟ ولكن «مارجريت» أدركت ذلك وهي واقفة خارج المشهد. إنها لم تكن مسيحية بالمعنى المسلم به عادة، ولم تؤمن بالله إيمان المسيحيين. ولكن أولئك القوم أو أغلبهم كانوا يؤمنون به، وإذا شددت عليهم السؤال أكدوا لك إيمانهم بالقول. ولكن دلائل إيمانهم المنظورة كانت تتمثل في شارعَي «ريجنت» و«دروري لين»، في قليل من الوحل يُزال، وقليل من النقود يُنفق، وقليل من الطعام يُطهى ويؤكل ثم يُنسى. هذا تعبير غير وافٍ. ولكن من يستطيع ـ في الحياة العامة ـ أن يعبر عن غير المنظور تعبيرًا وافيًا؟ إن الحياة الخاصة هي التي تعكس الأبدية على مرآتها؛ والاتصال

الشخصي ـ ولا شيء غيره ـ هو الذي يشير إلى شخصية بعيدة عن نطاق بصرنا اليومي.

وقالت:

ـ أجل، أنا لا أحب عيد الميلاد على العموم، حقًّا إنه بطريقته الفجة يقترب بنا من السلام والمحبة، ولكن أوه، إنه يزداد فجاجة عامًا بعد عام.

ـ أهو كذلك؟ أنا لم أتعود إلا على أعياد الميلاد الريفية.

ـ إننا نقضيه عادة في لندن، ونلعب لعبته في قوة. أناشيد عيد الميلاد في كنيسة الدير، وغداء فج، وعشاء فج للخادمات، ثم شجرة عيد الميلاد، ورقص يؤديه الأطفال على نغم أغنيات «هيلين». وغرفة الاستقبال تصلح لذلك تمامًا. فنحن نضع الشجرة في غرفة التزيين، ونسدل ستارًا بعد إضاءة الشموع، ويبدو المنظر بديعًا جدًّا والمرآة خلفه. ليت مسكننا القادم يشتمل على غرفة للتزيين. ولا بد بالطبع أن تكون الشجرة صغيرة، وألا تعلَّق بها الهدايا. أجل، فالهدايا تخبأ في منظر طبيعي صخري نصنعه من ورق بني مكرمش.

ـ لقد تحدثت يا آنسة «شليجل» عن مسكنكم القادم، فهل تنوون ترك «ويكهام بليس»؟

ـ نعم، سنتركه بعد عامين أو ثلاثة أعوام، أي عند انتهاء عقد الإيجار. ولا بد لنا من ذلك.

ـ أقضيتم في مسكنكم مدة طويلة؟

ـ قضينا فيه عمرنا بأكمله.

ـ أستأسفون لتركه؟

ـ أظن ذلك. ولكننا نكاد لا نتبين الأمر بعد. إن أبي...

وتوقفت عن القول لأنهما كانتا قد وصلتا إلى قسم بيع الأدوات الكتابية في محلات «هاي ماركت». وكانت السيدة «ويلكوكس» تريد شراء بطاقات تهنئة خاصة.

ـ أريد نوعًا ممتازًا إن أمكن.

وتنهدت. وصادفت صديقة لها عند خزانة دفع النقود، معتزمة نفس المهمة، فجاذبتها أطراف حديث تافه، وبددت قدرًا كبيرًا من الوقت.

ـ إن زوجي وابنتنا يقومان برحلة في سيارة.

ـ وكذلك «بيرتا»؟ أوه، تصوري. يا لها من مصادفة!

وبرغم أن «مارجريت» لم تكن عملية، فإنها استطاعت أن تتجلى في صحبة كهذه. وقد استعرضت مجموعة من عينات البطاقات بينما كانتا تتحدثان، وعرضت إحداها على السيدة «ويلكوكس» لتفحصها. وسرت السيدة، فالبطاقة كانت فريدة النوع جدًّا، وعباراتها غاية في العذوبة، وقالت إنها تود طلب مائة منها، ولن تستطيع أن تفي «مارجريت» حقها من الشكر. ولكنها قالت بينما كان البائع يقيد طلبها:

ـ اسمعي، سأنتظر. لقد رأيت بعد التفكير أن أنتظر. فهناك متسع من الوقت، أليس كذلك، وسأستطيع الاستئناس برأي «إيفي».

وعادتا إلى العربة سالكتين ممرات غير منتظمة. وبعد أن اتخذتا مقعديهما منها قالت السيدة «ويلكوكس»:

ـ ولكن ألا يمكن تجديده؟

ـ أستميحكِ عذرًا؟

ـ أقصد عقد الإيجار.

ـ أوه، عقد الإيجار! أكنتِ تفكرين فيه طوال هذه المدة؟ ما ألطف ذلك منكِ!

ـ لا شك أنه يمكن معالجة الأمر على نحو ما.

ـ لا، فقد ارتفعت أثمان الأراضي ارتفاعًا ضخمًا. وهم ينوون هدم «ويكهام بليس» وإقامة عمارة سكنية مكانه مثل عمارتكم.

ـ ولكن ما أشنع ذلك!

ـ إن المُلاك شنيعون.

ثم قالت في حماسة:

ـ هذا فظيع يا آنسة «شليجل»، وغير عادل. لم يخطر ببالي أن هذا الهم مسلط فوق رؤوسكم. إني أرثي لكم من صميم قلبي. فلا يجوز إكراهكم على أن تفارقوا داركم، دار أبيكم. إن ذلك أسوأ من الموت. وأنا أؤثر أن أموت على أن... أوه، أيتها الفتاتان المسكينتان! أيمكن أن يكون ما يسمونه حضارة صوابًا إذا كان الناس لا يستطيعون أن يموتوا في نفس الغرفة التي ولدوا فيها؟ يا عزيزتي، أنا آسفة جدًّا.

ولم تدرِ «مارجريت» ماذا تقول. لقد كانت السيدة «ويلكوكس» مرهقة إرهاقًا فوق طاقتها بعد جولتها في السوق، ومنساقة إلى نوبة هستيرية.

ـ «هواردز إند» أيضًا تعرَّض للهدم مرة، ولو حدث هذا لقُضي عليَّ.

ـ لا بد أن يكون «هواردز إند» مختلفًا كل الاختلاف عن منزلنا. إننا مغرمون بمنزلنا ولكن ليس فيه شيء يميزه عن غيره. فهو كما رأيته منزل من منازل لندن العادية، وسنجد غيره في سهولة.

ـ هذا ما تتوهمينه.

وقالت «مارجريت» متملصة من الموضوع.

ـ أحسب أنها قلة خبرتي مرة أخرى! إنني أعجز عن أي قول عندما تتجهين هذا الاتجاه في الكلام يا سيدة «ويلكوكس». وبودي لو أرى نفسي كما ترينني. أقصر حتى أنقلب إلى صبية صغيرة غريرة، وأغدو الفتاة الساذجة حقًّا. فتاة ظريفة جدًّا، واسعة الاطلاع بالنسبة لسني، ولكني عاجزة عن...

ولكن السيدة «ويلكوكس» أبت التريث، فقالت وقد بلغت حماستها أقصاها:

ـ تعالَي معي الآن إلى «هواردز إند». إني أريدكِ أن تريه فأنتِ لم تريه قَطُّ. وأريد أن أسمع ما ستقولينه عنه، لأنكِ تعبرين عن الأشياء بأسلوب مدهش حقًّا.

ونظرت «مارجريت» إلى الهواء القارس، ثم إلى وجه صاحبتها، وقالت:

ـ أرحب بهذه الزيارة بعد حين.

ثم أردفت:

ـ ولكن الجو ليس مناسبًا الآن لمثل هذه الرحلة. وعلينا أن نقوم بها ونحن منتعشتان. ثم أليس المنزل مغلقًا أيضًا؟

ولم تتلقَّ جوابًا، وبدا على السيدة «ويلكوكس» أنها تضايقت.

ـ أأستطيع الذهاب في يوم آخر؟

ومالت السيدة «ويلكوكس» على نافذة العربة ونقرت على زجاجها. وأمرت الحوذي قائلة:

ـ عد بنا إلى «ويكهام بليس» من فضلك.

وكان ذلك توبيخًا لـ«مارجريت».

ـ ألف شكر على معاونتكِ لي يا آنسة «شليجل».

ـ عفوًا فأنا لم أصنع شيئًا.

ـ إنها لراحة أي راحة في أنكِ رفعتِ عن ذهني عبء مسألة الهدايا. لا سيما بطاقات عيد الميلاد. وإني لمعجبة حقًّا بحسن اختياركِ.

وجاء دورها في عدم تلقي الرد. فقد تضايقت «مارجريت» بدورها.

ـ سيعود زوجي و«إيفي» بعد غدٍ، ولذلك جررتكِ معي اليوم إلى الحوانيت. وقد بقيت في المدينة على الأخص لأتسوق، ولكني لم أصنع شيئًا. وكتب لي زوجي الآن يقول إنه لا بد من قطع رحلتهما، فالجو رديء جدًّا، ومكامن شرطة المرور تضايقهم جدًّا، وتكاد تبلغ في ذلك مثيلاتها في مقاطعة سارِّي. وسائق سيارتنا حريص جدًّا. ويشعر زوجي بأن من القسوة أن يعامَلوا معاملة الخنازير السائبة.

ـ لماذا؟

ـ لأنه بالطبع ليس واحدًا من تلك الخنازير.

ـ إني أستخلص أنه تجاوز السرعة المسموح بها للسيارات، ولا بد أن يتوقع معاناة ما تعانيه الحيوانات الدنيا.

وأسكتَ هذا الجواب السيدة «ويلكوكس» وازداد ضيقهما والعربة تعود بهما إلى المنزل. وبدت المدينة شيطانية، وأطبقت عليهما الشوارع الأكثر ضيقًا كأنها دهاليز منجم. ولم يلحق الضباب ضررًا بحركة التجارة، فقد تكدست البضائع، وازدحم الناس وراء نوافذ الحوانيت المضاءة. إنما كان الإظلام إظلام الروح الذي ارتد إلى نفسه ليجد في الباطن مزيدًا من الظلمة المشقية. وحاولت «مارجريت» أن تطرق الحديث المرة بعد المرة، ولكن شيئًا ما كان يخنقها. وشعرت بالضآلة والحرج، وازدادت تأملاتها لعيد الميلاد ميلًا إلى الكلبية. السلام؟ إن عيد الميلاد قد يقدم غير هذا من هدايا، ولكن أهناك لندني واحد جلب له عيد الميلاد السلام؟ إن التحرق إلى الإثارة والصنعة دمر هذه النعمة. المحبة؟ أرأت «مارجريت» أي مثال منها في زرافات المشترين؟ أو في نفسها؟ إنها لم تستطع الاستجابة لهذه الدعوة لزيارة «هواردز إند» لأن فيها شيئًا من الغرابة والخيال. هي التي كان في طبيعتها الموروثة أن تغذي الخيال. وكان قبولها للدعوة، وتحملهما معًا شيئًا من مشقة الرحلة إلى «هواردز إند»، أفضل من أن تجيب في فتور: «أيمكن أن أحضر في يوم آخر؟» وبارحتها كلبيتها، فلن يكون هناك يوم آخر. إن هذه المرأة الغامضة لن تدعوها ثانية.

وافترقتا عند «عمارات ويكهام». ودخلت السيدة «ويلكوكس» عمارة سكنها بعد التحيات الواجبة. وراقبت «مارجريت» هذا الهيكل الفارع الوحيد وهو يخترق الردهة إلى المصعد. وعندما أغلق مصراعا الباب الزجاجي وراء السيدة أحست كأن السجن أطبق عليها. وغاب أول الأمر رأسها الجميل الذي كان لا يزال غارقًا في الفرو. وتبعه ثوبها طويل الذيل. إنها لسيدة نادرة المثال كل الندرة، تصعد صوب السماء وكأنها في المصعد الزجاجي. «عينة» في زجاجة. وأي سماء! قبة كأنها من جهنم، سوداء معتمة، يتساقط منها السناج.

ولدى الغداء أصر أخوها على الكلام إذ رآها تميل إلى الصمت. لم يكن «تيبي» سيئ الطبع، ولكن دافعًا كان يدفعه منذ طفولته إلى فعل غير المرغوب فيه وغير المتوقع. وقدم لها الآن وصفًا مفصلًا عن المدرسة النهارية التي كان يهتم بها أحيانًا، وكان الوصف يثير الاهتمام. وكم كانت تستحثه قبل ذاك على التحدث، ولكنها لم تستطع اليوم أن تصغي إليه لأن ذهنها كان مُركزًا على اللامنظور. لقد أدركت أن السيدة «ويلكوكس» لم تكن لها إلا شهوة واحدة في الوجود، هي منزلها «هواردز إند»، برغم أنها زوجة وأم بارة. واللحظة التي تدعو فيها صديقة إلى مشاركتها في ذلك الولع هي لحظة مقدسة. والرد عليها بعبارة «يوم آخر» هو أشبه برد إنسان معتوه. عبارة «يوم آخر» تصلح للبِن والملاط، ولكنها لا تصلح لقدس

الأقداس الذي استحال إليه «هواردز إند». كان فضول «مارجريت» طفيفًا، فقد سمعت عنه فوق الكفاية في الصيف. ولم توحِ لها النوافذ التسع، والكرم، وشجرة الغرغار الجبلي، بارتباطات لذيذة. وكانت تؤثر قضاء عصر ذلك اليوم في حضور حفلة موسيقية. ولكن الخيال انتصر. وإذ كان أخوها يواصل كلامه عقدت هي العزم على الذهاب أيًّا كان الثمن، وإرغام السيدة «ويلكوكس» على الذهاب أيضًا. وما أتمت تناول غدائها حتى اتجهت إلى عمارة مسكن جارتها.

وهناك أنبئت أن السيدة «ويلكوكس» قد غادرت منزلها توًّا لقضاء ليلتها خارجه.

وقالت «مارجريت» إن ذلك ليس بذي بال. وهبطت درج السلم مسرعة، واستقلت عربة لتصل بها إلى محطة «كينجز كروس». وكانت مقتنعة بأن نزوتها هذه ذات أهمية برغم أنها لو سئلت لحارت في تعليل هذا الاقتناع. كانت المسألة تتصل بالحبس والهروب. وبرغم أنها لم تكن تعرف ميعاد قيام القطار فإنها تطلعت بعينيها نحو ساعة «سانت بانكراس».

ثم لاحت ساعة «كينجز كروس» لمرمى النظر، وكانت كبدر آخر في كبد هذه السماء الجهنمية. ودلفت عربتها إلى المحطة. وكان باقيًا على قيام قطار هيلتون خمس دقائق. وطلبت في اضطرابها تذكرة ذهاب. وإذ كانت تقوم بذلك سمعت صوتًا رزينًا سعيدًا يحييها ويشكرها.

وقالت «مارجريت» وهي تضحك في عصبية:

ـ سأحضر معكِ إذا كان ذلك ما زال ممكنًا.

ـ ستحضرين وتبقين للمبيت أيضًا يا عزيزتي، ففي الصباح يبدو منزلي في أجمل صورة. إنكِ ستحضرين للبقاء الليلة لأني لا أستطيع أن أريكِ المرح كما يجب إلا وقت الشروق. وهذا الضباب...

وأشارت إلى سطح المحطة واستطردت:

ـ هذا الضباب لا ينتشر بعيدًا من هنا. ولعلهم يجلسون هناك في هرتفوردشير تحت أشعة الشمس، وإنكِ لن تندمي أبدًا على مرافقتهم.

ـ أنا لن أندم أبدًا على مرافقتكِ.

ـ إن المعنى واحد.

وأخذتا تقطعان في مسيرهما إفريز المحطة الطويل، وفي آخره البعيد وقف القطار يواجه الظلام المتراكم خارج المحطة. ولكنهما لم تصلا إليه قَطُّ. فقبل أن يتاح للخيال أن ينتصر، تعالى نداء يردد:

ـ أمي! أمي!

واندفعت فتاة ذات حاجبين كثيفين من قاعة الاستراحة، وأمسكت السيدة «ويلكوكس» من ذراعها.

وقالت السيدة «ويلكوكس» مبهورة الأنفاس:

ـ «إيفي»! «إيفي» يا حبيبتي.

ونادت الفتاة:

ـ أبي! اسمع! انظر من هنا.

ـ «إيفي»، يا بنيتي الغالية لمَ لستم في يوركشير؟

ـ لا، فقد اصطدمت السيارة، فغيَّرنا خططنا. هو ذا أبي قادم.

وصاح السيد «ويلكوكس» وهو يلحق بهم:

ـ عجبًا! «روث»! بربكِ ماذا تصنعين هنا يا «روث»؟

وكانت السيدة «ويلكوكس» قد استعادت هدوءها.

ـ أوه يا عزيزي «هنري». ها هي ذي مفاجأة جميلة. ولكن دعني أقدم لك... لكني أظن أنك تعرف الآنسة «شليجل».

وأجاب من دون أن يهتم اهتمامًا كبيرًا:

ـ أوه، نعم. ولكن كيف حالكِ أنتِ يا «روث»؟

وأجابت في مرح:

ـ على ما يرام.

ـ ونحن أيضًا. وكذلك كانت سيارتنا التي انطلقت على أحسن حال حتى ريبون. ولكن كان هناك حصان تعس وعربة نقل. كان حوذي مأفونًا...

ـ لا بد من إرجاء نزهتنا الصغيرة إلى يوم آخر يا آنسة «شليجل».

ـ كنت أقول لك إن ذلك الحوذي المأفون، كما يُقر الشرطي نفسه...

ـ في يوم آخر بالطبع يا سيدة «ويلكوكس».

ـ لكنه بما أننا أمَّنا على السيارة ضد إصابات الغير، فالمسألة لن تهم كثيرًا.

ـ كانت السيارة والعربة تقريبًا على شكل زاوية قائمة...

وتعالت أصوات الأسرة المرحة. وتركت «مارجريت» وحدها، فلم يكن من أحد يريدها. وخرجت السيدة «ويلكوكس» من محطة «كينجز كروس» بين زوجها وابنتها وهي تنصت إليهما.

## الفصل الحادي عشر

انتهت مراسم الجنازة. وابتعدت العربات متدحرجة فوق الطين اللين، ولم يتخلف غير الفقراء الذين اقتربوا من القبر المحفور حديثًا، وألقوا نظرتهم الأخيرة على التابوت الذي كاد يتوارى الآن تحت التراب المنهال عليه من المعاول. وكانت هذه لحظتهم. أغلبهم كانوا نساء من قاطنات حي الفقيدة اللواتي أمر السيد «ويلكوكس» أن توزع عليهن حُلل سود. وجاء الفضول الخالص بآخرين وقد أرجفهم الانفعال الذي أثاره الموت؛ الموت السريع. ووقفوا جماعات أو انتشروا بين القبور كأنهم نقط حبر أسود. وكان ابن إحدى أولئك النساء حطَّابًا، وقد تعلق فوق رؤوسهم بشجرة غرغار من أشجار المقبرة، وأخذ يشذبها. وكان يستطيع أن يرى من مكانه بلدة هيلتون ينتظمها طريق الشمال، وأن يرى ضواحيها مطردة النماء؛ وبدا له الغروب وراء الأفق في لونيه الأحمر والبرتقالي، يومض نحوه من تحت حاجبين أشهبين. وظهرت الكنيسة والمزارع. وامتد خلفه الريف من حقول وعزب لم يدب إليها الفساد. ولكنه هو أيضًا كان يلوك قصة ذلك الحدث في لذة. وحاول أن يحكي لأمه الماثلة تحته كل ما شعر به عندما رأى التابوت يقترب، وكيف أنه لم يستطع التوقف عن عمله، ولم يرغب مع ذلك في مواصلته. وكيف أنه كاد يسقط من الشجرة لفرط اضطرابه. وقد نعقت الغربان، ولا عجب، فقد بدا كأن الغربان علمت بالفاجعة أيضًا. وادعت أمه نفسها القدرة على التنبؤ، فقد لاحظت على السيدة «ويلكوكس» أن نظرتها كانت غريبة في غضون المدة الأخيرة. وقال آخرون إن لندن هي سبب الفاجعة. لقد كانت سيدة كريمة، وجدتها كانت كريمة أيضًا. وامرأة أقل حظًّا في جمال الصورة، ولكنها كريمة جدًّا. آه إن هذا الطراز من الناس ينقرض! والسيد «ويلكوكس» كان رجلًا مهذبًا كريمًا. وعادوا مرة بعد أخرى يواصلون طَرق الموضوع في غباء، ولكن في تسام. كانت جنازة إنسان موسر عندهم بمثابة جنازة «ألسيستس» أو «أوفيليا» عند المتعلمين. كانت فنًّا؛ وهي برغم ابتعادها عن الحياة ترفع قيم الحياة. وقد شاهدوها في شغف.

أما حفارو القبور الذين ظل يسري بينهم تيار خفي من الاستنكار فكانوا يكرهون «تشارلز». ولم يكن ذلك وقت التحدث عن مثل هذه الأمور، ولكنهم كرهوا «تشارلز ويلكوكس». وأتم حفارو القبور عملهم، وأهالوا فوق الضريح الصلبان وأكاليل الزهور. وغربت الشمس عن هيلتون. وتوردت جبهة المساء الرمادية قليلًا، وشقتها عبسة حمراء واحدة. واجتاز المعزون الكنيسة المسقوفة وهم يثرثرون في أسى، واخترقوا الطرق المحوَّطة بشجر الكستناء، المنحدرة إلى البلدة. وتخلف الفتى الحطاب قليلًا وهو في مكانه

فوق المشهد الساكن يتأرجح في رتابة، ثم سقط الغصن تحت وطأة منشاره. ونزل من الشجرة وهو ينفخ، ولم تعُد خواطره ترتبط بالموت، ولكن بالحب. فقد اتخذ له رفيقة، ووقف وهو يمر بالقبر الجديد. واستوقفت بصره باقة من الأقحوان البني. وقال لنفسه: «لم يكن يجدر بهم أن يحضروا يوم الدفن زهورًا ملونة». ولم يخطُ إلا بضع خطوات حتى توقف ثانية، واختلس النظر إلى تربة القبر، وعاد إليه، واقتطف زهرة من باقة الأقحوان وأخفاها في جيبه.

وخيم الصمت المطلق بعد انصرافه. وكان الكوخ الذي يحف فناء الكنيسة خاليًا، ولم يقُم هناك منزل آخر عن قرب. وظل منظر المدفن ساعة بعد ساعة من دون أن تشاهده عين إنسان، وتهادت فوقه سحب مقبلة من الغرب. وبدت الكنيسة كأنها سفينة عالية المقدمة تتجه بكل رُكابها إلى الأبدية. واشتد البرد قرب الصباح، وازدادت السماء صفاء، وجمد أديم الأرض والتَمع فوق الموتى المدفونين. وعاد الحطاب بعد قضاء ليلة مبهجة، وناجى نفسه قائلًا: «إنها زهور السوسن والأقحوان؛ من الأسف أني لم آخذها جميعها».

وأما في «هواردز إند» فكان القوم يحاولون تناول الإفطار. وجلس «تشارلز» و«إيفي» في غرفة الطعام ومعهما زوجة الأول. وتناول أبوهما إفطاره في الدور الأعلى إذ لم يكن يطيق رؤية أحد. فقد برَّح به الألم، وكان يعاوده في نوبات حتى لكأنه ألم جسماني. وكانت عيناه حتى وهو يهم بالأكل، تمتلئان بالدموع، فيضع لقمة العيش أمامه من دون أن يذوقها.

وتذكر طيبة قلب زوجته في جميع الظروف خلال ثلاثين عامًا. إنه لم يذكر شيئًا بتفصيله. لم يذكر أيام حبهما الأولى، ولا النشوات الأولى، وإنما فضيلتها التي لا تتغير، والتي كان يراها أشرف صفات المرأة. فكم هناك من نساء ذوات نزوات تصيبهن في صورة العاطفة والطيش، ولكن زوجته لم تكن كذلك. لقد ظلت على ما هي عليه، زوجة وأُمًّا، عامًا بعد عام، صيفًا وشتاء. وكان يثق فيها دائمًا. فيا لرقتها! ويا لبراءتها! إن هذه البراءة العجيبة التي تحلت بها كانت هبة من الله. فـ«روث» لم تكن تعلم من شرور الدنيا وحكمتها أكثر مما تعلمه زهور حديقتها أو حشائش حقلها. ففكرتها عن حياة المال والأعمال هي: ««هنري»، لماذا يسعى الذين يملكون القدر الكافي من المال، إلى المزيد منه؟». وفكرتها عن السياسة: «لا شك عندي أنه إذا ما تمكنت الأمهات في البلاد المختلفة من الاجتماع استحال وقوع الحرب». وفكرتها عن الدين... آه، لقد كان ذلك سحابة، ولكنها سحابة انقشعت. لقد ولدت من أسرة «كويكرية»، وهي وأفراد أسرتها اليوم أعضاء في كنيسة

إنجلترا بعد أن كانوا من المخالفين لها. كانت مواعظ القس بادئ الأمر تصد نفسها، وجاهرت برغبتها في «مزيد من النور الباطني»، وأضافت أنها لا تطلبه لنفسها بقدر ما تطلبه لطفلها «تشارلز». ولا بد أنها أجيبت إلى ما طلبت من ذلك «النور الباطني» لأن زوجها لم يسمع منها شكاوى أخرى في السنوات التالية. وقاما على تنشئة أطفالهما الثلاثة من دون أن يقع بينهما شجار. إنهما لم يتشاجرا قَطّ.

وهي ترقد الآن تحت الثرى. لقد ذهبت، وشاب ذهابَها شيء من الغموض الذي لا يشبه طبيعتها بحال، وكأنما وقع ذلك ليزيد ذهابها مرارة. كان قد سألها متوجعًا:

ـ لماذا لم تخبريني بأنكِ كنتِ تعرفين ما بكِ؟

وأجابه صوتها الموهن:

ـ لم أرِد ذلك يا «هنري». وقد أكون مخطئة. إن كل إنسان يكره سيرة الأمراض.

كان النبأ الفاجع قد وصل إلى علمه عن طريق طبيب غريب التجأت إليه لاستشارته أثناء غياب الزوج عن لندن. أكانت منصفة كل الإنصاف في هذا؟ لقد ماتت من دون أن تشرح الأمر شرحًا كافيًا. كان ذلك خطأ من جانبها. ويا له من خطأ صغير. واندفعت الدموع إلى مقلتيه! كانت هذه هي أول مرة تخدعه فيها خلال تلك الأعوام الثلاثين.

هب واقفًا على قدميه، وأخذ يطل من النافذة، ذلك لأن «إيفي» دخلت تحمل رسائل البريد وهو لم يكن يقوى على مجابهة نظرة أحد. آه، نعم. كانت امرأة طيبة. كانت ثابتة. لقد اختار هذه الكلمة الأخيرة بعد تدبر. فالثبات يتضمن عنده كل ألوان المديح.

كان هو ذاته، وهو شاخص إلى الحديقة الشتوية، رجلًا ثابت المظهر. لم يكن وجهه مربعًا تمامًا كوجه ابنه. بل إن في ذقنه نكوصًا قليلًا برغم أنه مكين في رسمه، وانسدل شارب على شفتيه المبهمتين. ولكن لم يبدُ هناك أي دليل خارجي على الضعف. وإذا كانت عيناه قادرتين على إبداء العطف وحسن الزمالة، وإذا كانتا محمرتين الآن بفعل الدموع، فهما عينا رجل لا يمكن إكراهه على شيء. ولم يختلف جبينه أيضًا عن جبين «تشارلز». كان جبينًا عاليًا مستقيمًا أسمر مصقولًا ينثني فجأة إلى الفودين والجمجمة، ويُحدث في الناظر إليه أثر حصن يحمي رأس صاحبه من العلم. وكان له في بعض

الأحيان أثر سور أصم سكن صاحبه وراءه سعيدًا بعيدًا عن متناول الأحداث خلال خمسين عامًا.

وقالت «إيفي» في تعثر:

ـ وصل البريد يا أبي.

ـ شكرًا. ضعيه عندكِ.

ـ أكان طعام الإفطار جيدًا؟

ـ نعم. شكرًا.

ونظرت الفتاة إليه وإلى الطعام وهي تتمالك جأشها. ولم تدرِ ما تفعل.

ـ يسأل «تشارلز» عما إذا كنت تريد صحيفة «التايمز»؟

ـ لا. سأقرأها فيما بعد.

ـ ستقرع الجرس إذا احتجت إلى أي شيء، أليس كذلك يا أبي؟

ـ لديَّ كل ما أحتاج إليه.

وعادت إلى غرفة الطعام بعد أن فصلت الرسائل عن الصحف. قالت وهي تجلس مقطبة الحاجبين وراء إناء الشاي:

ـ لم يأكل أبي شيئًا.

ولم يحر «تشارلز» جوابًا. ولكنه بعد لحظة جرى إلى علو الدار، وفتح الباب وقال:

ـ اسمع يا أبي، لا بد أن تأكل أليس كذلك؟

وبعد أن انتظر الرد الذي لم يتلقَّه، انسحب عائدًا إلى سفل الدار، وقال متململًا:

ـ أظنه سيقرأ رسائله أولًا، ولعله متناول إفطاره بعد ذلك.

والتقط بعد ذلك صحيفة «التايمز». وانقضى بعض الوقت لم تسمع خلاله إلا رنة قدح يوضع في إناء، أو سكين توضع في صحن.

وجلست زوجة «تشارلز» المسكينة بين رفقائها الصامتين، مرتاعة من مجرى الأحداث، وشاعرة ببعض الضجر. كانت مخلوقة صغيرة لا أهمية لها، وهي لم تجهل ذلك. لقد جرجرتها برقية من نابولي إلى فراش امرأة محتضرة لم تعرفها إلا لمامًا. وبكلمة من زوجها لبست ثياب الحِداد، وكانت تريد أن تحزن بقلبها كذلك. ولكنها تمنت ـ وقد كُتب الموت على السيدة «ويلكوكس» ـ لو أن تلك السيدة ماتت قبل زواجها بـ«تشارلز»، ففي هذه الحالة كان يُنتظر منها أقل مما ينتظر الآن. وكسرت قطعة خبزها المجمرة، وظلت بلا حراك وقد بلغ انفعالها مبلغًا حال دون طلبها بعض الزبد. وشكرت الظروف على شيء واحد هو أن حماها تناول إفطاره في الطابق العلوي.

وأخيرًا تكلم «تشارلز» فقال لأخته:

ـ ما كان لهم أمس أن يشذبوا أشجار الغرغار تلك أثناء الدفن.

ـ لم يكن لهم ذلك فعلًا.

واستطرد «تشارلز»:

ـ لا بد أن أنبههم إلى هذا. ويدهشني أن يكون القس قد سمح به.

ـ ربما لم يكن للقس شأن بهذا الأمر.

ـ ومن يكون له به شأن إذن؟

ـ مالك الأرض.

ـ مستحيل.

ـ أتريدين زبدًا يا «دوللي»؟

ـ أشكركِ يا «إيفي» العزيزة.

«تشارلز»...

ـ نعم يا عزيزتي.

ـ لم أكن أعلم أنه يمكن تشذيب شجر الغرغار، فقد ظننت أن شجر الصفصاف هو الذي يشذَّب وحده.

ـ أوه لا، من الممكن تشذيب الغرغار.

ـ لماذا إذن لم يكن ينبغي تشذيب شجر الغرغار أمس في المقبرة؟

وقطب «تشارلز» قليلًا، ثم دار إلى أخته ثانية:

ـ وهناك نقطة أخرى. لا بد من محادثة «تشوكلي» في الأمر.

ـ نعم، بالتأكيد. لا بد أن تشكو الأمر إلى «تشوكلي».

ـ لن يستساغ زعمه أنه غير مسؤول عن أولئك الرجال، فهو مسؤول عنهم.

ـ نعم، هو كذلك بالتأكيد.

لم يكن الأخ وأخته متحجري الشعور. وقد تحدثا على هذا النحو لأنهما أرادا من ناحيةٍ أن يحتفظا لـ«تشوكلي» بأهميته ـ وهي رغبة سليمة في ذاتها ـ ولأنهما، من ناحية أخرى، كانا يتجنبان الضرب على الوتر الشخصي في الحياة. وأفراد أسرة «ويلكوكس» يتجنبونه جميعًا، فهو لم يكن يبدو لهم ذا أهمية كبرى، أو لعلهم كانوا يدركون أهميته، كما ظنت «هيلين»، ولكنهم كانوا يخشونه. ولو استطاع الإنسان أن يلمح ما وراء ذلك لرأى الذعر والخواء. لم يكونا متحجري الشعور، وقد غادرا مائدة الإفطار بقلبين موجعين. على أن أمهما لم تكن تحضر إلى غرفة الطعام قَطُّ لتناول إفطارها. أما الغرف الأخرى، ولا سيما في الحديقة، فهي التي شعرا فيها بفقدها على نحو أفدح. وفي كل خطوة خطاها «تشارلز» لدى توجهه إلى الجراج كانت أشياء تُذكره بالمرأة التي أحبته، والتي يستحيل أن يعوضها. فأي معارك كان يحمل فيها على نزعتها المحافظة اللطيفة! وكم كانت تكره التحسينات، ومع ذلك كم كانت تقبلها في ولاء بعد إجرائها! وأي مشقة عاناها هو وأبوه لإقامة هذا الجراج بالذات! وأي صعوبة تجشماها لإقناعها بالنزول لهما عن الحظيرة التي أقاماه عليها، الحظيرة التي شغفت بها أكثر من شغفها بالحديقة نفسها! والكرمة، لقد فرضت رأيها فيما يتعلق بالكرمة التي لا تزال تثقل الحائط الجنوبي بأغصانها غير المثمرة. وهكذا كان شعور «إيفي» وهي واقفة تحادث الطاهي. فهي تشعر بأن شيئًا فريدًا فُقد من حياتها برغم أنها تستطيع الاضطلاع بعمل أمها داخل المنزل كما يستطيع

الرجل الاضطلاع بالعمل خارجه. إن حزن الأخ وأخته، برغم أنه أقل حدة من حزن أبيهما، نابع من جذور أعمق، فالزوجة يمكن استبدالها، أما الأم فلا.

وكان «تشارلز» يريد أن يعود إلى مقر عمله، فلم يكَد يبقى عمل يؤديه في «هواردز إند». وكانت بنود وصية أمه معلومة للجميع منذ زمن طويل، فهي لم تخصص للغير جزءًا من التركة، أو راتبًا سنويًّا. ولم تشتمل وصيتها على شيء من هذا الضجيج الذي يمد به بعض الموتى نشاطهم بعد موتهم. ولما كانت المتوفاة تثق في زوجها فقد تركت له كل ما تملك من دون تحفظ. إنها كانت سيدة فقيرة جدًّا. فالمنزل كان «بائنتها» أولًا عن آخِر، وستؤول ملكيته إلى «تشارلز» في الوقت المناسب. وانتوى السيد «ويلكوكس» أن يحتفظ بلوحاتها المائية لابنه «بول»، بينما تحصل «إيفي» على مجوهراتها ومنسوجاتها الزخرفية. ففي أي سهولة انسلت من الحياة! كان «تشارلز» يرى طريقة أمه مشكورة برغم أن نيته لم تتجه إلى اتباعها، أما «مارجريت» فلعلها كانت ترى فيها إهمالًا للسمعة الدنيوية تستحق عليه اللوم. كانت النغمة الغالبة على وصية السيدة «ويلكوكس» هي الكلبية، ولكنها ليست من ذلك النوع الصارخ الهازئ، بل من النوع الذي لا يتعارض مع المجاملة واللطف. إنها لم تُرِد غيظ الناس، ومتى تحقق ذلك، فلتتجمد الأرض فوق جدثها إلى الأبد.

أجل، لم يَعُد هناك شيء لـ«تشارلز» يدعوه إلى الانتظار. فهو لا يستطيع مواصلة التمتع بشهر العسل، ولذا أراد أن يذهب إلى لندن ويعمل. كان يشعر بالتعاسة وهو يتسكع بلا عمل، سيقيم هو و«دوللي» في الشقة المؤثثة بلندن بينما يسكن أبوه هادئًا في الريف مع «إيفي». ويستطيع أيضًا أن يلاحظ بيته الصغير الذي يملكه في ضاحية من ضواحي سارِّي، والذي كان يجري دهانه وتجميله، إذ كان يأمل الانتقال إليه والإقامة به عقب عيد الميلاد مباشرة. نعم، سينتقل «تشارلز» إلى لندن في سيارته الجديدة بعد الغداء، بينما الخدم الذين جاءوا من المدينة بسبب الجنازة يستقلون القطار.

ووجد سائقَ سيارة أبيه في الجراج، وحياه من دون أن يتطلع إلى وجهه، واستطرد وهو ينحني على سيارته:

ـ «هالو»! لقد ساق بعضهم سيارتي الجديدة!

ـ أحَدث ذلك يا سيدي؟

وقال «تشارلز» وقد احمر وجهه:

ـ نعم، والذي ساق السيارة، أيًّا كان هو، لم ينظفها بعد ركوبها كما يجب، لأن حاملها الأمامي ملوث بالطين. أزِل عنه ذلك الطين.

وذهب الرجل ليُحضر خرقة من دون أن ينبس بكلمة. وكان قبيحًا قبح الخطيئة. بيد أن هذا القبح لم ينتقص من قدره في عين «تشارلز» الذي يرى الجمال في الرجل شيئًا لا يُستحب. وقد تخلص من الحيوان الإيطالي الصغير الذي بدأ عندهم الخدمة سائقًا.

وصاحت عروسه:

ـ «تشارلز»!

وكانت تخطف الخطى وراءه فوق الجليد الأبيض، وكأنها عمود أسود لطيف، تاجه وجهها الصغير وقبعة الحِداد الأنيقة.

ـ انتظري دقيقة، فأنا مشغول. نعم، يا «كرين»، من ذا الذي تظنه ركب سيارتي؟

ـ لست أدري حقًّا يا سيدي. لم يسُقها أحد منذ عودتي. ولكن هناك بالطبع أسبوعين كنت غائبًا خلالهما في الرحلة إلى يوركشير بالسيارة الأخرى.

وأزيل الطين بسهولة.

ـ «تشارلز»! أبوك في سفل الدار. لقد حدث أمر. وهو يطلب حضورك إلى الدار في الحال. أوه، يا «تشارلز»!

ـ انتظري، يا عزيزتي، انتظري دقيقة. من كان يحتفظ بمفتاح الجراج أثناء غيابك يا «كرين»؟

ـ البستاني يا سيدي.

ـ أتقصد أن تقول لي إن «بيني» الهرِم يستطيع قيادة سيارة؟

ـ كلا يا سيدي. لم يخرج أحد بسيارتك يا سيدي.

ـ وبماذا تعلل إذن تلوث حاملها الأمامي بالطين؟

ـ أنا لا أستطيع بالطبع تعليل ذلك فيما يتصل بفترة غيابي في يوركشير. لم يَعُد أثر للطين الآن يا سيدي.

وتمَلك الغيظ «تشارلز»، فقد عامله الرجل كما لو كان معتوهًا. ولولا أن قلبه كان مثقلًا جدًّا هذا الصباح لشكاه إلى والده. ولكن هذا الصباح لم يكن يحتمل شكاوى. وبعد أن أمر بإحضار سيارته أمام الباب بعد الغداء لحق بزوجته التي لم تكفَّ في تلك الأثناء عن ترديد حكاية غير مترابطة عن خطاب، وعن آنسة تُدعى «شليجل».

ـ الآن أستطيع يا «دوللي» أن أصغي إليكِ. الآنسة «شليجل»؟ ماذا تطلب؟

وكان «تشارلز» يسأل دائمًا عما يطلبه الناس كلما بعثوا برسائل. فالطلب عنده هو وحده سبب العمل. بيد أن سؤاله كان هذه المرة في محله، فقد أجابته زوجته:

ـ تطلب «هواردز إند».

ـ «هواردز إند»؟

والآن لا تنسَ يا «كرين» أن تضع العجلة الاحتياطية في السيارة.

ـ لن أنسى ذلك يا سيدي.

ـ والآن، إياكَ أن تنسى، لأني...

تعالَي أيتها المرأة الصغيرة.

وما غابا عن بصر السائق حتى أحاط خصرها بذراعه وضمها إليه. عاطفته كلها، ونصف انتباهه، كان هذا ما يمنحه لها خلال كل حياتهما الزوجية السعيدة.

ـ ولكنك لم تنصت إليَّ يا «تشارلز».

ـ ما خطبك؟

ـ أنا لم أكُف عن إخبارك بأمر «هواردز إند». لقد حصلت الآنسة «شليجل» عليه.

وقال «تشارلز» وقد رفع يده عن خصرها:

ـ حصلت على ماذا؟ بحق الشياطين خبريني عمَّ تتحدثين!

ـ وبعد يا «تشارلز»! إنك وعدتني ألا تردد مثل هذه...

ـ انظري. أنا لست في حالة تسمح بالهذر. وهذا الصباح لا يسمح به أيضًا.

ـ أقول لك، وقد ظللت أردد قولي هذا، إن الآنسة «شليجل» حصلت على المنزل، فقد أوصت أمكَ لها به. وعليكم جميعًا أن ترحلوا عنه.

ـ «هواردز إند»؟

وزعقت محاكية زعيقه:

ـ «هواردز إند»!

وعند ذلك أقبلت «إيفي» مندفعة من الخميلة الصغيرة:

ـ «دوللي»، عودي على الفور. إن أبي متضايق منك جدًّا يا «تشارلز».

ودقت صدرها بعنف وأردفت:

ـ «تشارلز»، اذهب لأبي في الحال. لقد تسلَّم رسالة شنيعة جدًّا.

وشرع «تشارلز» يعدو، ولكنه كبح جماحه، وسار فوق الممر المدكوك بخطى ثقيلة، وتجاهه قام المنزل بنوافذه التسع، وكَرْمته غير المثمرة. وصاح:

ـ آل «شليجل» مرة أخرى!

وقالت «دوللي» وكأنها تُتم الفوضى الناشبة:

ـ أوه، لا. إن مديرة المستشفى هي التي كتبت الرسالة نيابة عنها.

وصاح أبوه، وقد خرج عن سكونه:

ـ ادخلوا الدار أنتم الثلاثة! لماذا لم تطيعيني يا «دوللي»؟

ـ أوه، يا سيد «ويلكوكس»...

ـ لقد حظرت عليك الخروج إلى الجراج، وسمعتكم تصيحون جميعًا في الحديقة. أنا لا أسمح بذلك. ادخلوا الدار.

كان يقف تحت تعريشة الباب ممسكًا الرسائل بيده، وقد تغيرت حاله:

ـ إلى غرفة الطعام جميعكم. إننا لا نستطيع أن نناقش مسائلنا الخاصة وسط كل الخدم. هاك يا «تشارلز»، ها هي ذي اقرأها وانظر ماذا تستطيع استخلاصه منها.

وتناول «تشارلز» رسالتين، وأخذ يتلو ما بهما وهو يتبع الموكب. كانت الأولى رسالة قصيرة تفسيرية من مديرة المستشفى تقول فيها إن السيدة «ويلكوكس» طلبت إليها تقديم الرسالة المرفقة بعد الانتهاء من مراسم الجنازة. والرسالة المرفقة كانت من أمه نفسها. وقد كتبت فيها:

إلى زوجي: أود أن تحصل الآنسة «شليجل» («مارجريت») على «هواردز إند».

وعقَّب وهو هادئ هدوءًا مخيفًا:

ـ أحسب أننا سنناقش هذا الأمر.

ـ بالتأكيد، كنت سأحضر إليك، ولكن «دوللي»...

ـ حسنًا، لنجلس.

ـ تعالَي يا «إيفي». لا تضيعي الوقت. اجلسي.

واقتربوا من مائدة الإفطار في هدوء. ونكصت أحداث أمس فجأة ـ بل أحداث هذا الصباح ـ وارتدت إلى ماضٍ سحيق جدًّا إلى حدٍّ أنه بدا كأنهم يكادون لم يعيشوا في معمعانها. وسمعتُ الآذان أنفاسًا ثقيلة. كانوا يحاولون تهدئة أنفسهم. وقرأ «تشارلز» فحوى الرسالة بصوت عالٍ ليزيدهم تمكنًا من الهدوء:

ـ إنها رسالة قصيرة بخط أمي موضوعة في مظروف مختوم ومُوَجه إلى أبي. وقد جاء بها: «أود أن تحصل الآنسة «شليجل» («مارجريت») على

«هواردز إند»». وهي خالية من التاريخ، ومن التوقيع. وقد قدمتها إلينا مديرة المستشفى. والآن تتحصل المسألة في أن...

وقاطعته «دوللي» بقولها:

ـ ولكني أرى أن هذه الرسالة غير قانونية، فالتصرف في المنازل يجب ولا شك أن يتم بوساطة محامٍ يا «تشارلز».

وضغط زوجها على فكه بعنف، وتورمت بضعة من اللحم أمام كل أذن من أذنيه، وهذه علامة لم تتعلم الزوجة بعدُ أن تحترمها. وسألت عما إذا كانت تستطيع الاطلاع على الرسالة. ونظر «تشارلز» إلى والده مستأذنًا، فقال هذا الأخير شارد الذهن:

ـ أعطِها إياها.

وتناولتها «دوللي»، وصاحت على الفور:

ـ ماذا؟! إنها لم تكتب إلا بالقلم الرصاص! هذا ما ظننت. إن الكتابة بالقلم الرصاص لا يؤخذ بها أبدًا.

وقال السيد «ويلكوكس» متحدثًا من قلعته:

ـ نحن نعلم يا «دوللي» أنها لا تقيِّدنا قانونيًّا. نحن على بينة من ذلك. ويحق لي من الناحية القانونية أن أمزقها وألقي بها في النار. ونحن يا عزيزتي نعدُّك بالطبع واحدة من أفراد أسرتنا، ولكنه يحسن ألا تتدخلي فيما لا تعرفينه.

وإذ اغتاظ «تشارلز» من أبيه وزوجته على حدٍّ سواء، أخذ يردد:

ـ المسألة هي...

وكان قد أزاح الأطباق والسكاكين عن جانب من مائدة الإفطار ليتمكن من رسم نماذج فوق غطائها.

ـ المسألة هي ما إذا كانت الآنسة «شليجل»، أثناء الأسبوعين اللذين غبناهما، من دون وجه حق...

وتوقف عن الكلام. فقال أبوه الذي كان أشرف سجية من ابنه:

ـ لا أظن ذلك.

ـ لا تظن ماذا؟

ـ أن تكون قد... إنها مسألة تأثير غير أمين على المريضة. إن المسألة في رأيي هي حالة المريضة أثناء كتابة تلك الكلمة.

ـ يا والدي العزيز، استشِر خبيرًا إذا أردت، ولكني لا أقر أن الخط خط أمي.

وصاحت «دوللي»:

ـ عجبًا، ولكنك أقررت توًّا بأنه خطها!

وانفجر زوجها صائحًا:

ـ لا بأس إذا كنت قد قلت ذلك. وأمسكي أنتِ لسانكِ.

وتغير لون الزوجة المسكينة عند ذاك، وأخرجت منديلها من جيبها وأسبلت قطرات من الدموع، ولم ينتبه إليها أحد. كانت «إيفي» متجهمة كأنها فتى ساخط. واتخذ الرجلان شيئًا فشيئًا مظهر المجتمعين في غرفة اللجان. فهما يكونان في أحسن حالاتهما لدى العمل في اللجان، وهما لم يقعا في خطأ معالجة المسائل الإنسانية بالجملة، ولكنهما عالجاها فقرة فقرة في وضوح، وكانت الفقرة المعروضة عليهما الآن هي خط الرسالة فسلطا عليها ذهنيهما المدربين، وأقر «تشارلز» بعد قليل من التلكؤ أن الخط خط أمه. وانتقلا بعد ذلك إلى النقطة التالية. وهذه هي خير طريقة ـ ولعلها الوحيدة ـ للهروب من العاطفة الفائرة. لقد كانا من أفراد الناس المتوسطين، ولو أنهما نظرا في تلك الرسالة جملة لأدى ذلك بهما إلى الشقاء أو الجنون. ولكن امتحانَها بندًا بندًا قلَّل من أثر فحواها المثير إلى أدنى حد، وسارت الأمور جميعها في يسر. دقت الساعة، وارتفع لهب الفحم المتقد مشتبكًا مع النور الأبيض المتدفق من النافذة. لقد احتلت الشمس السماء غير ملحوظة، وتساقطت ظلال سيقان الشجر، ثابتة أشد ما يكون الثبات، كأنها أخاديد أرجوانية على الأرض المكسوة بالجليد. كان يومًا رائعًا من أيام الشتاء. وكلب «إيفي» «الفوكستريير» الصغير، الذي كان يُحسب في عداد الكلاب البيض، بدا الآن كلبًا رماديًّا قذر اللون وسط الصفاء الناصع المحيط به. لقد نقص قدره، ولكن العصافير السود التي كان يطاردها كانت تلمع بسمرة غريبة، لأن تغيرًا طرأ على جميع الألوان المألوفة في الحياة. ودقت الساعة داخل المنزل

عشر دقات في صوت غني واثق بنفسه، وأيدتها ساعات أخرى. وأوشكت المناقشة على نهايتها.

ولا حاجة بنا إلى تتبعها. فهي لحظة أجدر بالمعقب لا بالراوي أن يخطو ليتناولها. أكان واجبًا على أسرة «ويلكوكس» أن تسلِّم دارها لـ«مارجريت»؟ لا أظن ذلك. إن الطلب واهي الأساس جدًّا. إنه غير قانوني. وقد كتب خلال المرض، وتحت تأثير صداقة فجائية. وهو يناقض نيات المتوفاة الماضية. ويناقض طبيعة المتوفاة ذاتها. على قدر ما يفهم أفراد أسرتها تلك الطبيعة. إن «هواردز إند» في نظرهم منزل كبقية المنازل، ولذلك لم يستطيعوا أن يدركوا أنه كان عندها روحًا تحاول أن تجد له وريثًا روحانيًّا. ثم ـ إذا خطونا خطوة أخرى وسط هذا الضباب ـ أليس من الجائز أن القرار الذي وصلوا إليه أصوب مما يظنون؟ فهل من المعقول أن ما تملكه الروح يمكن توريثه بحال من الأحوال؟ أللروح ذرية؟ شجرة غرغار جبلي، وكرمة، وحزمة من القش عليها قطرات من ندى. أيمكن انتقال حب هذه الأشياء بين أناس لا تربطهم رابطة دم؟ أجل، إن أسرة «ويلكوكس» لا يمكن أن تلام. إن المشكلة مفزعة جدًّا، وأفراد هذه الأسرة لا يستطيعون أن يتبينوا حتى وجود مشكلة. أجل، إن من الطبيعي، ومن الملائم، أن يمزقوا الرسالة بعد المداولة الواجبة، ويلقوا بها في موقد غرفة الطعام. والأخلاقي العملي يستطيع أن يبرئ ساحتهم تبرئة كاملة. أما ذلك الذي يحاول أن يتعمق أكثر في نظرته فقد يبرئهم إلا قليلًا. ذلك لأن هناك واقعة ملموسة ما زالت باقية، وهي أنهم أهملوا رجاء شخصيًّا، ما في ذلك ريب، فالمرأة المتوفاة قالت لهم: «افعلوا هذا»، وأجابوها قائلين: «لن نفعله».

أحدثت هذه الواقعة أثرًا مؤلمًا أشد الألم في أنفسهم. وصعد الشجن إلى رؤوسهم وفعل هناك فعله المزعج. بالأمس كانوا يرثونها قائلين: «كانت أمًّا محبة، وزوجة صادقة. وقد أهملت صحتها أثناء غيابنا وماتت». أما الذي يخطر ببالهم اليوم فهو «أنها لم تكن صادقة ومحبة كما ظننا». لقد وجدت الرغبة في مزيد من «النور الباطني» تعبيرًا آخر الأمر، وأطبق غير المنظور على المنظور. وكل الذي استطاعوا أن يفوهوا به هو كلمة «خيانة». لقد خانت السيدة «ويلكوكس» الأسرة، وخانت قوانين الملكية، وخانت كلمتها هي المكتوبة. كيف توقعت انتقال «هواردز إند» إلى حيازة الآنسة «شليجل»؟ أعلى زوجها، وهو المالك للمنزل قانونًا، أن يتنازل عنه للآنسة «شليجل» هبة خالصة؟ وهل تنتفع به الآنسة المذكورة مدى حياتها، أم تتملكه نهائيًّا؟ ثم أليس هناك تعويض عن الجراح والتحسينات الأخرى التي أقاموها على زعم أن هذا كله سيؤول إليهم في يوم من الأيام؟ خائنة! خائنة وسخيفة! وإذا نحن ظننا أن الذين ماتوا خائنون وسخفاء فقد قطعنا شوطًا

بعيدًا صوب توطين النفس على فراقهم. كانت هذه الرسالة المكتوبة بالقلم الرصاص في غير عناية، والتي أرسلت إليهم عن طريق مديرة المستشفى غير عملية وقاسية كذلك وقد أنقصت على الفور من قدر المرأة التي سطرتها.

وقال السيد «ويلكوكس» وهو ينهض من مقعد المائدة:

ـ أجل! ما كنت أظن ذلك ممكنًا.

وقالت «إيفي» وهي لا تزال مقطبة:

ـ لا يمكن أن تعني أمي ما كتبت.

ـ نعم يا بنيتي. إنها لا تعنيه بالطبع.

ـ ثم إن أمي كانت تؤمن الإيمان كله بالسلف، فليس من طبيعتها أن توصي بشيء لغريب لا يقدر أبدًا ما توصي له به.

قال الرجل:

ـ إن الأمر كله لا يمت إليها بصلة شَبه، فلو كانت الآنسة «شليجل» فقيرة، وفي حاجة إلى منزل خاص بها، لاستطعت أن أفهم بعض الفهم. ولكن لها منزلًا خاصًّا بها، ففيمَ تريد منزلًا آخر؟ إنها لن تستطيع أن تجني أي فائدة من «هواردز إند».

وغمغم «تشارلز»:

ـ لعل الزمن هو الذي يثبت هذا.

وسألته أخته:

ـ كيف؟

ـ أغلب الظن أنها على علم بالأمر، فأمي لا بد أخبرتها به. وقد ذهبت مرتين أو ثلاثًا إلى المستشفى، وأغلب الظن أنها تنتظر تطور الأمور.

وصاحت «دوللي» التي أفاقت وقتئذٍ:

ـ يا لها من امرأة بشعة! وهي قد تكون في طريقها إلينا الآن لتطردنا!

وصحح «تشارلز» خطأها فقال متوعدًا:

ـ كم أود لو تحضر، فإني أستطيع عندئذٍ أن أتصرف معها.

وردد الأب الذي كان يشعر بشيء من الفتور نحو ولده:

ـ كذلك أستطيع أنا.

فإن ابنه «تشارلز» قد تلطف فاضطلع بأعباء إجراءات الجنازة، وحثه على تناول إفطاره، ولكن الفتى أصبح على شيء من الدكتاتورية مع تقدم سنه، وعجَّل باحتلاله مركز الرياسة. وقال الأب:

ـ إني أستطيع التصرف معها لو أنها حضرت. ولكنها لم تحضر. إنكم تقسون بعض الشيء على الآنسة «شليجل».

ـ إن مسألة «بول» مع ذلك فاضحة جدًّا.

ـ يا «تشارلز»، أنا لا أريد أن أسمع كلمة أخرى عن مسألة «بول»، كما قلت لك في وقتها. وهي فوق ذلك غير مرتبطة أبدًا بهذه المسألة الجديدة. صحيح أن «مارجريت شليجل» كانت خلال هذا الأسبوع المفزع فضولية متعبة، وقد عانينا منها نحن جميعًا، ولكني أقسم إنها شريفة، وإنها لم تتواطأ مع مديرة المستشفى. أنا على يقين تام من هذا. وهي لم تتواطأ مع الطبيب أيضًا. وأنا على يقين من هذا كذلك. إنها لم تُخفِ عنا شيئًا، وكانت تجهل الأمر مثلنا حتى بعد ظهر ذلك اليوم. كانت مغفلة مثلنا...

وتوقف عن الكلام هنيهة ثم أردف:

ـ إن أمك المسكينة يا «تشارلز»، وهي تعاني آلامها المبرحة، قد وضعتنا جميعًا في مواضع غير طبيعية. ولو أننا علمنا حقيقة مرضها لما بارح «بول» إنجلترا، ولما رحلت أنت إلى إيطاليا، ولما ذهبت أنا و«إيفي» إلى يوركشير. نعم، إن وضع الآنسة «شليجل» غير طبيعي كذلك الأمر في جملته، فهي لم تتصرف تصرفًا سيئًا.

وقالت «إيفي»:

ـ ولكن زهور الأقحوان تلك التي أرسلتها...

وتبعتها «دوللي» في القول:

ـ أو حضورها الجنازة إطلاقًا...

ـ ولماذا لا تحضرها؟ هذا من حقها. وقد وقفت من الخلف بعيدًا مع نساء هيلتون. أما الزهور الملونة فلا شك أننا لم نكن لنرسل مثلها. ولكن ربما بدا لها، يا «إيفي»، أن إرسال تلك الزهور هو التصرف السليم. ومن يدري، فلعل هذه أن تكون العادة في ألمانيا.

وصاحت «إيفي»:

ـ أوه، لقد نسيت أنها ليست إنجليزية خالصة. وهذا يفسر الكثير.

وقال «تشارلز» وهو ينظر في ساعته:

ـ إنها عالمية الوطن. وأنا أقر بأني متحامل بعض الشيء على «العالميين». وهذا لا شك خطئي. أنا لا أستطيع أن أحتمل أولئك القوم، والعالمي الألماني هو أسوأهم جميعًا. أظننا انتهينا الآن، أليس كذلك؟ أنا أريد أن أنطلق الآن لأقابل «تشوكلي»، والدراجة تكفي لهذا. وبالمناسبة، أريدك يا أبي أن تتحدث إلى «كرين» فيما بعد، فأنا واثق من أنه خرج بسيارتي الجديدة.

ـ أألحق بها أي ضرر؟

ـ لا.

ـ سأتغاضى عن الأمر في هذه الحالة، فهو لا يستحق أن نثير ضجة بسببه.

كان «تشارلز» وأبوه يختلفان أحيانًا، ولكنهما لم يفترقا قَطُّ من دون أن يتبادلا تقديرًا متزايدًا، ولم يكن كل منهما يرغب في رفيق أكثر شجاعة عندما يضطر إلى أن يجتاز بسفينته صخور العواطف قليلًا. وهكذا اجتاز ملاحو «أوليسيوس» عرائس البحر بسفينتهم بعد أن سد كل منهم أذن زميله بقطعة من الصوف.

## الفصل الثاني عشر

لم يكن هناك ما يدعو «تشارلز» إلى القلق، فالآنسة «شليجل» لم تسمع قَطُّ بطلب أمه العجيب. لقد قدر لها أن تسمع به في السنوات التالية عندما بنت حياتها على أساس مختلف، وأصبح وضع هذا الطلب ملائمًا كحجر الزاوية في البناء. أما الآن فذهنها عاكف على مسائل أخرى، وهي كذلك كانت سترفض تلك الوصية على أساس أنها نزوة إنسان مريض.

كانت تفترق للمرة الثانية عن أسرة «ويلكوكس». إن «بول» وأمه، والأول كالتموج البسيط، والثانية كالموجة الهائلة، قد فاضا على حياتها كمد البحر، ثم انحسرا عنها كجزره دونما رجعة. أما التموج فلم يترك وراءه أثرًا، وأما الموجة فقد نثرت عند قدميها شظايا مقتطعة من المجهول. إن هذه الباحثة المتطلعة إلى المعرفة قد وقفت حينًا على حافة البحر الذي لا يفصح إلا عن قليل جدًّا، ولكنه يفصح مع ذلك عن شيء، وأخذت ترقب انحسار ذلك المد الهائل. لقد توارت صديقتها في ألم لا في هوان. ذلك رأيها. إن انسحابها من الحياة يشير إلى أشياء أخرى فضلًا عن المرض والألم. إن بعض الناس يودعون حياتنا بالدموع، وبعضهم يودعونها بجمود مجنون. بيد أن السيدة «ويلكوكس» قد سلكت الطريق الوسط الذي لا يستطيع أن يسلكه إلا ذوو الطبيعة النادرة. لقد احتفظت بالتناسب، فكشفت لأصدقائها عن جانب من سرها الرهيب، ولكنها لم تطلعهم على أكثر من اللازم. وقد أغلقت قلبها تقريبًا، ولكنها لم تغلقه كلية. هكذا ينبغي أن نموت ـ إذا كانت هناك أي قاعدة للموت ـ لا كما تموت الضحية أو كما يموت المتعصب، ولكن كما يموت الملاح الذي يستطيع أن يلقي بالنظرة نفسها إلى البحر الذي سيخوض عبابه، والشاطئ الذي لا بد من مغادرته.

إن الكلمة الأخيرة ـ أيًّا كانت ـ لم تُقَل بالتأكيد في مقبرة هيلتون. فالسيدة «ويلكوكس» لم تمُت هناك. إن الجنازة ليست هي الموت، إلا إذا كان العماد هو الميلاد والزواج هو الرباط. وهذه الثلاثة هي ترتيبات فجة يأتي بعضها متقدمًا عما يجب وبعضها متأخرًا، يتخذها المجتمع وسيلة يسجل بها حركات الإنسان السريعة. والسيدة «ويلكوكس» أفلتت من ذلك التسجيل في نظر «مارجريت»، فقد خرجت من الحياة خروجًا حيًّا، على طريقتها الخاصة، وليس هناك تراب هو تراب حقًّا مثل الذي حواه التابوت الثقيل الذي تدلى في وقار حتى رقد على تراب الأرض، وليست هناك زهور تبددت هباء مثل زهور الأقحوان التي لا بد أن الصقيع أذبلها قبل حلول الصباح. لقد قالت «مارجريت» مرة إنها «تحب الخرافة»، ولكن ذلك ليس صحيحًا، فقليل من

النساء مَن حاولن في جدٍّ يفوق جدها أن يخترقن الأكفان التي تلف الجسم والروح. وقد ساعدها موت السيدة «ويلكوكس» في مسعاها هذا. فقد رأت في وضوح أكثر قليلًا مما رأت حتى الآن. رأت ما هو المخلوق البشري، وإلى أي مدى يستطيع أن يطمح. ولاح وميض علاقات أصدق، ولعل الكلمة الأخيرة التي تقال هي «الرجاء». الرجاء حتى على هذا الجانب من القبر.

على أنها استطاعت، في هذه الأثناء، أن تهتم بمن هم على قيد الحياة. وبرغم واجبات عيد الميلاد الملقاة عليها، وبرغم أخيها، فإن أسرة «ويلكوكس» ظلت تلعب دورًا ملحوظًا في مدار أفكارها. فقد رأت أفرادها كثيرًا في هذا الأسبوع الأخير. إنهم ليسوا «على شاكلتها»، فهم على الأغلب متشككون أغبياء، عاجزون حيث هي متفوقة. ولكن الاحتكاك بهم حفزها، وأحست اهتمامًا بهم قارب الإعجاب حتى بـ«تشارلز». ورغبت في أن تحميهم، وشعرت أحيانًا بأنهم يستطيعون حمايتها حيثما هم متفوقون وهي عاجزة. فهم إذا اجتازوا صخور العواطف يعرفون حق المعرفة ما يقدمون على عمله، ومن يرسلون في طلبه، وتمسك أيديهم بالأزمة جميعها. ولديهم الجرأة كما أن لديهم الصلابة، وهي تقدر الجرأة تقديرًا كبيرًا. إنهم يحيون حياة لا تستطيع هي أن تبلغها، الحياة الظاهرة، حياة «البرقيات والغضب» التي تفجرت يوم تماس «بول» و«هيلين» في يونيو، وتفجرت مرة أخرى في الأسبوع الماضي. وفي رأي «مارجريت» أن هذه الحياة يجب أن تظل قوة حقيقية. وهي لا تستطيع أن تزدريها على نحو ما تتصنعه «هيلين» و«تيبي». إن هذه الحياة تشجع الفضائل كالأناقة والحسم في الأمور والطاعة، وهي فضائل من الدرجة الثانية ولا شك، ولكنها شكلت حضارتنا. وهي تشكل الشخصية أيضًا. و«مارجريت» لا تستطيع أن تشك في ذلك. وهي، أي تلك الفضائل، تصون الروح من الرخاوة والضعف. فكيف تجرؤ أسرة «شليجل» على احتقار أسرة «ويلكوكس» ما دام بناء عالم يقتضي أن يسهم فيه ناس من مختلف الأنواع؟

وكتبت «مارجريت» إلى «هيلين»:

لا تكثري من التفكير في سمو غير المنظور على المنظور، إنه صحيح، ولكن إطالة التفكير فيه خليقة بالقرون الوسطى. ومن واجبنا أن نوفق بين الاثنين لا أن نبرز تناقضهما.

وأجابت «هيلين» بأن نيتها لم تتجه قَطُّ إلى التفكير في موضوع سخيف كهذا. فأي طراز من الناس تظنها أختها؟! كان الجو رائعًا، وقد راحت مع أسرة «موزباخ» لتنزلق على الجليد فوق التل الوحيد الذي تفخر به

بوميرانيا. وكان المكان ممتعًا، ولكنه مزدحم لأن باقي أهالي بوميرانيا قصدوه أيضًا. وكانت «هيلين» تحب الريف، فشعت رسالتها بروح الشعر والرياضة البدنية. وتحدثت عن المنظر الطبيعي الجبار برغم هدوئه، تحدثت عن الحقول المكسوة بالثلج وقطعان غزلانها تمرح فيها، وعن النهر ومصبه العجيب في البحر البلطي، وعن قمم أودربرجي التي لا يزيد ارتفاعها على ثلاثمائة قدم، والتي كان المرء ينحدر منها في سرعة إلى سهول بوميرانيا. ومع ذلك فإن أودربرجي هذه جبال حقيقية تكسوها غابات الصنوبر، والجداول والمناظر الكاملة.

إن الضخامة لا تهم كالطريقة التي تم بها تنسيق الأشياء.

وفي فقرة أخرى من خطابها ذكرت السيدة «ويلكوكس» في عطف، ولكن الخبر لم يفجعها. فهي لم تفطن إلى حواشي الموت التي هي على نحو ما أبقى ذكرى من الموت نفسه. جو التحوطات، وتبادل الاتهامات، ووسط ذلك يزداد جسد إنسان نصوعًا لأنه يكابد الألم. ومصير ذلك الجسد ينتهي في مقبرة هيلتون؛ ثم بقاء شيء حي بعد الموت يوحي بالرجاء، شيء ناصع يشرق بدوره وسط ما في الحياة من مباهج عادية. كل هذا غاب عن «هيلين» التي لم تشعر إلا بأن سيدة ظريفة لا تستطيع الآن أن تصبح ظريفة. وعادت إلى «ويكهام بليس» مكتظة الذهن بشؤونها الخاصة ـ فقد عرض عليها عرض جديد للزواج ـ وبعد هنيهة تردد، رضيت «مارجريت» بهذه الحال.

لم يكن عرض الزواج مسألة جدية، وإنما كان من صنع الآنسة «موزباخ» التي ابتدعت فكرة وطنية كبرى، وهي فكرة كسب ابنتَي خالها بإرجاعهما إلى حظيرة الوطن عن طريق الزواج بالألمان. وقد قدمت إنجلترا لاعبًا هو «بول ويلكوكس» ولكنها أخفقت. وقدمت ألمانيا لاعبًا هو السيد «فلان فورستمايستر»، فإن «هيلين» لم تستطع تذكر اسمه الكامل.

كان السيد «فورستمايستر» يقطن في غابة، وقد أشار إلى منزله لـ«هيلين» وهو يقف في أعلى قمة أودربرجي، أو بالأحرى أشار إلى أشجار الصنوبر المتلاصقة التي يقع المنزل وسطها. وصاحت «هيلين»:

ـ أوه، ما أحلاه! هذا هو المكان الذي يلائمني!

وظهرت لها «فريدا» في غرفة نومها مساء وقالت:

ـ لديَّ رسالة إليكِ يا عزيزتِي «هيلين»...

وقد كانت لديها رسالة فعلًا، ولكن عندما ضحكت «هيلين» قابلت «فريدا» ذلك بلطف شديد: متفهمة للغاية ـ غابة رطبة منعزلة كل الانعزال ـ متفقة تمامًا، ولكن السيد «فورستمايستر» كان يعتقد أن لديه تأكيدًا بالعكس. وخسرت ألمانيا اللعبة ولكنها قابلت الإخفاق بروح طيبة. وقد شعرت بأنها لا بد منتصرة ما دامت تملك «رجولة» العالم بأسره. وختمت «هيلين» الموضوع بقولها:

ـ وستكون هناك حتى فتاة لـ«تيبي». والآن فكِّر في ذلك يا «تيبي». إن «فريدا» توفر لك فتاة صغيرة ذات ضفائر، وجوربين من صوف أبيض، ولكن قدمَي الجورب قرنفليتان كأنما صاحبتهما خاضت في كومة من الشليك. لقد أكثرت من الكلام، ورأسي يؤلمني. فتحدث أنت الآن.

ورضي «تيبي» أن يتكلم. وكان هو أيضًا في شغل بشؤونه الخاصة. فقد عاد لتوِّه في محاولة للحصول على منحة دراسية من جامعة «أكسفورد». ونزل رجال الجامعة، ووضع الطلاب في كلياتهم المختلفة، وتناولوا الغداء في قاعتها. وكان «تيبي» شديد الحساسية للجمال، وكانت التجربة جديدة عليه، وقد أدلى لأخته بوصف لزيارته كاد ينبض بالحياة. إن هذه الجامعة المهيبة الناضجة، الغارقة في غنى بلاد الغرب التي خدمتها ألف عام، استهوت على الفور ذوق الغلام. كانت من تلك الأشياء التي يمكنه فهمها، وقد فهمها على نحو أفضل لأنها كانت خالية الأرجاء. إن «أكسفورد» هي «أكسفورد»: لا مجرد وعاء للشباب مثل «كمبريدج». ولعلها تريد من النازلين بها أن يحبوها أكثر مما يحب بعضهم بعضًا. وكان هذا على أي حال هو التأثير الذي قدر لها أن تحدثه في نفس «تيبي». وقد أرسلته أخته إليها ليتمكن من اكتساب أصدقاء بها، لأنهما تعلمان أن تعليمه كان مهزوزًا، وأنه باعد بينه وبين غيره من الغلمان والرجال. بيد أنه لم يكتسب أصدقاء. وظلت «أكسفورد» بالنسبة له هي «أكسفورد» خالية الأرجاء، ولم يحمل عنها في الحياة ذكرى نور ساطع ولكن ذكرى توزيع للألوان.

وسر «مارجريت» أن تستمع إلى أخيها وأختها وهما يتحدثان، وكانا لا يتفاهمان التفاهم كله على العموم. استمعت إليهما لحظات وهي تحس إحساس الأخت الكبرى العطوف. ثم عنَّ لها ما جعلها تقاطعهما:

ـ ألم أحدثكِ يا «هيلين» عن السيدة «ويلكوكس» المسكينة، عن ذلك الحادث المحزن؟

ـ نعم.

ـ لقد راسلني ابنها، وكان يقوم بجولة في أرجاء المقاطعة، كتب يسألني عما إذا كانت أمه قد أرادت أن توصي لي بشيء. ورأيت ذلك تلطفًا منه إذا روعي أنني لم أعرفها إلا لمدة قصيرة. وأجبته بأنها حدثتني يومًا عن تقديم هدية لي بمناسبة عيد الميلاد، ولكن كلًّا منا نسي الأمر فيما بعد.

ـ أرجو أن يكون «تشارلز» قد أدرك ما أومأت إليه.

ـ نعم. أقصد أن زوجها كتب إليَّ فيما بعد يشكرني على ما حطتها به من رفق، وأعطاني بالفعل زجاجة عطرها. ألا ترين ذلك كرمًا غير معهود؟ إن ذلك حملني على الإعجاب به كثيرًا. وهو يرجو ألا تنتهي صلة تعارفنا عند هذا الحد، وأن نزور «إيفي» أنا وأنت، ونُمضي معها بعض الوقت في الأيام المقبلة. يعجبني السيد «ويلكوكس». لقد عاد إلى مزاولة عمله. في تجارة المطاط. وهي تجارة ضخمة. والذي أستخلصه أن أعماله تتسع و«تشارلز» يزاولها أيضًا. وقد تزوج بمخلوقة صغيرة جميلة، ولكنها ليست حكيمة على ما يبدو. لقد تسلموا المسكن، ولكنهم انتقلوا منه الآن إلى دار يملكونها.

واستأنفت «هيلين» شرحها لرحلة ستيتين بعد أن صمتت فترة معقولة. كيف تتبدل المواقف في سرعة! فقد وقعت في أزمة خلال شهر يونيو، وحتى في شهر نوفمبر كان وجهها أحيانًا يصطبغ خجلًا وتصبح غير طبيعية، أما الآن وقد حل شهر يناير فإن المسألة كلها أصبحت نسيًا منسيًّا. وفطنت «مارجريت»، وهي تعيد النظر في أحداث الأشهر الستة الماضية إلى ما في حياتنا اليومية من فوضى طبيعية، وإلى اختلافها عن مجرى الأمور المرتب الذي يصطنعه المؤرخون. فالحياة الواقعية ملأى بالإشارات واللافتات الكاذبة التي تضللنا. ونحن نحفز أعصابنا في جهد هائل توقعًا لأزمة لا تقع أبدًا. إن أنجح سبل الحياة على الأغلب يستغرق من الجهد الضائع ما قد يزحزح الجبال، وأشدها إخفاقًا ليس السبيل الذي يسلكه رجل يؤخذ على غرة، ولكنه سبيل من استعد ولكنه لا يؤخذ أبدًا. وأخلاقياتنا القومية تقف ـ بحق ـ صامتة إزاء فاجعة من هذا النوع. فهي تفترض أن الاستعداد للخطر خير في حد ذاته، وأن الأفراد كالدول يكونون أقدر على شق طريقهم في معترك الحياة وهم مدججون بالسلاح. وفاجعة التأهب والاستعداد لم يكَد يبحثها أحد إلا إذا استثنينا الإغريق. إن الحياة خطرة حقًّا، ولكن على غير النحو الذي تريدنا الأخلاقيات أن نعتقده. إنها متعذرة القياد حقًّا، ولكن جوهرها ليس معركة. هي متعذرة القياد لأنها خيال، وجوهرها هو الجمال الشاعري.

ورجت «مارجريت» أن تكون في المستقبل أقل تحوطًا، لا أكثر تحوطًا مما كانت عليه في الماضي.

## الفصل الثالث عشر

مر ما ينوف على عامين وأسرة «شليجل» تواصل حياة الدعة المثقفة لا الدعة الحقيرة، وأفرادها يسبحون برشاقة فوق عباب لندن الرمادي. ومرت بهم الحفلات الموسيقية والمسرحيات سراعًا، وانساب المال من بين الأيدي وتجدد، واكتُسبت السمعة الطيبة وافتقدت، والمدينة نفسها التي هي رمز لحياتهم، علت وهبطت في تدفق مستمر بينما ماؤها الضحضاح المزبد يضرب سفوح تلال سارِّي ويغطي حقول هرتفوردشير، وقامت بناية شهيرة، وحُكم على أخرى بالفناء وتغير وجه وايتهول اليوم، وقد يحل الدور غدًا على شارع «ريجنت». واشتدت رائحة البنزين في الشوارع شهرًا بعد شهر، وازدادت صعوبة اجتيازها. وسمع الناس حديث بعضهم لبعض بصعوبة شديدة، واستنشقوا مقدارًا أقل من الهواء، وقلت رؤيتهم للسماء، وتراجعت الطبيعة، وتساقطت أوراق الشجر في منتصف الصيف وأضاءت الشمس من خلال الأكدار في اكفهرار يعجب به الناس.

إن ذمَّ لندن لم يَعُد حديثًا من آخر طراز. وعبادة الأرض ـ بوصفها مذهبًا فنيًّا ـ انقضى عهدها، وأغلب الظن أن الأدب سيغفل الريف في المستقبل القريب، ويلتمس الوحي من المدينة، وفي مقدور الإنسان أن يفهم رد الفعل هذا. فقد سمع الجمهور عن الإله «بان»، وعن قوى الطبيعة أكثر مما يطيق، وموضوعهما يبدو من الموضوعات «الفيكتورية»، بينما لندن الآن من الموضوعات «الجورجية». وقد ينتظر الذين يتعلقون بالأرض في إخلاص طويلًا قبل أن يرتد بندول الساعة إليها ثانية. إن لندن فاتنة ولا شك. إن المرء ليتصورها مساحة من اللون الأشهب المرتعش، ذكية بلا غاية، حساسة بلا حب؛ كروح تغيرت قبل أن يمكن تدوين خبرها، كقلب يخفق من دون ريب ولكنه لا ينبض بالإنسانية. إنها بعيدة عن كل شيء. والطبيعة رغم كل ما حوت من قسوة، أقرب إلينا من هذه الحشود من الناس. إن الصديق يفسر نفسه، والأرض يمكن تفسيرها، فمنها أتينا، وإليها لا محالة نعود. ولكن من ذا يستطيع تفسير طريق جسر وستمنستر، أو شارع ليفربول، في الصباح، والمدينة تستنشق أنفاسها، أو خلال المساء والمدينة تُخرج هواءها الفاسد؟ إننا نحاول جاهدين الوصول إلى ما وراء الضباب الكثيف، بل إلى ما وراء النجوم نفسها. وننقب في البقاع الخاوية من الكون تبريرًا لوجود الجبار، ونختمها بوجه إنسان. إن لندن هي فرصة الدين المواتية، ولا نقصد دين اللاهوتيين، ولكن دين الفطرة. دين الأرباب البشر. نعم إن المد الذي لا ينقطع يصبح محتملًا إذا كان إنسان على شاكلتنا ـ لا أي إنسان مستكبر أو باكٍ ـ يحبنا في عليائه.

إن اللندني نادرًا ما يفهم مدينته حتى تجرفه، فيمن تجرف، بعيدًا عن مرساته. وعينا «مارجريت» لم تتفتحا حتى انتهت مدة عقد إيجار «ويكهام بليس». وهي لم تجهل قَطُّ أن مدته ستنتهي حتمًا، ولكن علمها لم يصبح قويًّا حيًّا إلا قبل نهاية المدة بتسعة أشهر، وعندما حيط المنزل فجأة بالحنان والعطف. لقد شاهد قدرًا كبيرًا من السعادة، فلماذا يتحتم أن يطاح بها؟ ولاحظت «مارجريت» لأول مرة في شوارع المدينة معمار العجلة، وسمعت لغة العجلة تخرج من أفواه سكانها: كلمات مقطعة، وعبارات مفككة، وتعبيرات جاهزة عن الاستحسان أو الاستهجان. وتتحرك الأشياء بحيوية أقوى شهرًا بعد شهر، ولكن، إلى أي غاية؟ ويزداد عدد السكان، ولكن ما نوع الرجال الذين يولدون؟ والمليونير الفذ الذي يملك «ويكهام بليس»، ويريد أن ينشئ مكانه عمارة شامخة، أي حق له في قلقلة قطعة كبيرة من الهلام المرتعش؟ إنه ليس مغفلًا، فقد سمعته «مارجريت» وهو يندد بالاشتراكية. ولكن النظر الصادق إلى بواطن الأمور يبدأ من حيث ينتهي حد ذكائه. ويستخلص المرء أن هذا هو شأن أغلب أصحاب الملايين. أيُّ حق لأولئك الرجال... ولكن «مارجريت» كبحت جماحها، فهذا الطريق من التفكير ينتهي إلى الجنون، إنها هي أيضًا ولله الحمد تملك بعض المال وتستطيع شراء منزل جديد.

لقد حضر «تيبي» ـ وهو الآن في عامه الثاني في «أكسفورد» ـ لقضاء عطلة عيد القيامة. وانتهزت «مارجريت» الفرصة لتتحدث معه حديثًا جديًّا. أهو على أي علم بالمكان الذي يريد أن يعيش فيه؟ إنه لا يعلم أنه على علم بذلك. أهو على أي علم بالعمل الذي يريد الاضطلاع به في حياته؟ إنه على غير يقين من ذلك أيضًا. ولكنه حين ضيقت عليه السؤال أبدى رأيه بقوله إنه يؤثر ألا يتقيد بأي مهنة. ولم تُصدم «مارجريت» لذلك. وظلت تشتغل بإبرتها بضع دقائق قبل أن تجيب:

ـ كنت أفكر في السيد «فايز». لا يلوح لي أبدًا أنه سعيد جدًّا.

وقال «تيبي»:

ـ نعـــم.

وفغر فاه الذي عرته رجفة عجيبة، وكأنما فكر هو أيضًا في السيد «فايز»، ومحص السيد «فايز» من مختلف النواحي، وسبر غور السيد «فايز»، وألمَّ به من كل نواحيه، ووزنه، وسلكه في طبقته، ثم استبعده في النهاية لأنه لا يمت إلى موضوعهما بسبب. وكان ثغاء «تيبي» هذا يثير ثورة «هيلين».

ولكنها كانت الآن في غرفة الطعام في الدور السفلي تعد خطابًا في الاقتصاد السياسي. وكان صوتها يسمع أحيانًا من أسفل وهي تتمرن على الخطابة.

ـ ولكني أرجح أن السيد «فايز» رجل شقي ضعيف ألا ترى ذلك؟ ثم هناك السيد «جاي»، إن حالته يرثى لها. يضاف إلى ذلك...

وانتقلت إلى التعميم:

ـ إن كل إنسان يفيده أن يقوم بعمل منتظم.

تردد أنينه. واستطردت أخته مبتسمة:

ـ سأتمسك بقولي، ولست أقصد به أن أعلمك. ولكنه هو ما أعتقد حقًّا. إني أعتقد أن الرجال في القرن الماضي تعلموا الرغبة في العمل، وعليهم ألا يخنقوها. إنها رغبة جديدة، وقد تختلط بأشياء كثيرة طالحة، ولكنها صالحة في حد ذاتها. وإني أرجو للنساء أيضًا أن يصبح «عدم العمل» عما قريب مشينًا كما كان «عدم زواج الفتاة» منذ قرن مضى.

ونطق «تيبي» قائلًا:

ـ أنا لم أجرب هذه الرغبة العميقة التي تتحدثين عنها.

ـ لندع هذا الموضوع إذن حتى تجربها، وأنا لن أتعجلك. فخذ ما شئت من وقت. ولكن فكر فقط في حياة الرجال الذين تؤثرهم على غيرهم، وانظر كيف رتبوها.

وقال «تيبي» في صوت خافت:

ـ أنا أعجب بـ«جاي» والسيد «فايز» أكثر منهم جميعًا.

واضطجع إلى الوراء في مقعده حتى امتد في وضع أفقي من أول ركبتيه إلى حلقه.

ـ ولا تحسبني غير جادة لأني لم ألجأ إلى الحجج المتوارثة: كسب المال، والمجال الذي ينتظرك، وما إلى ذلك. هذه الجمل التي هي جميعها، لأسباب مختلفة، جوفاء.

وواصلت الحياكة بإبرتها:

ـ أنا لست إلا أختك. وليس لي عليك سلطان، ولا أحب أن يكون لي عليك أي نوع منه. وكل ما هناك أني أضع أمام عينيك ما أعتقد أنه الحق.

ورفعت العوينات الزمبركية التي تعودت أن تستعملها أخيرًا:

ـ واعلم أننا سنكون في غضون سنوات، من الناحية العملية، في سن واحدة، وسأكون في حاجة إلى معونتك. إن الرجال أشد رفقًا من النساء بكثير.

ـ ما دمتِ تعانين من هذا الوهم، فلماذا لا تتزوجين؟

ـ إني في بعض الأحيان أفكر جادة في الإقدام على ذلك إذا واتاني الحظ.

ـ ألم يعرض عليكِ ذلك أحد؟

ـ التافهون لا غير.

ـ أتقدمَ أناس بمثل هذا الطلب إلى «هيلين»؟

ـ كثيرون.

ـ حدثيني عنهم.

ـ لا.

ـ حدثيني إذن عن تافهيكِ.

وقالت أخته وقد شعرت بأن من حقها أن تكسب هذه النقطة:

ـ كانوا رجالًا ليس لهم عمل يؤدونه خيرًا من الزواج، فاعتبر إذن بهم. لا بد لك أن تعمل، أو أن تتظاهر بأنك تعمل، وهذا ما أفعله أنا. اعمل، اعمل، اعمل إذا أردت أن تنقذ روحك وبدنك. أقول لك بإخلاص إن العمل ضرورة أيها الغلام العزيز. انظر إلى رجال أسرة «ويلكوكس». انظر إلى السيد «بيمبروك». إن أمثال هؤلاء الرجال، برغم ما يشوه طبعهم وفهمهم من عيوب، يبهجونني أكثر مما يبهجني كثيرون غيرهم ممن يفوقونهم مواهب. وأحسب ذلك يرجع إلى أنهم عملوا بانتظام وأمانة.

وتأوه قائلًا:

ـ أعفيني من ذكر أسرة «ويلكوكس».

ـ لن أعفيك، لأنهم الطراز الصائب من الناس.

وقال محتجًّا، وقد اعتدل فجأة في توثب وغضب:

ـ أوه، عجبًا يا «ميج»!

وكانت لـ«تيبي»، برغم مثالبه كلها، شخصية أصيلة.

ـ حسنًا. إنهم قريبون، على قدر ما تتصور، إلى الطراز الصائب من الناس.

ـ لا، لا. أوه، لا.

ـ لقد اتجه ذهني إلى الابن الأصغر الذي سلكته يومًا في عداد الحمقى، ولكنه عاد من نيجيريا مريضًا جدًّا. وقد عاد إليها ثانية. وقالت لي «إيفي»: «لقد عاد للاضطلاع بواجبه!».

وكلمة «الواجب» كانت تبتعث منه الأنين دائمًا.

ـ إنه لا يريد المال، بل العمل، برغم أنه عمل وحشي. البلد كئيب، والأهالي غير أمناء، والقلق على الطعام والماء النقي لا ينقطع. إن أمة تنجب هذا الطراز من الرجال جديرة أن تباهي بهم. ولا عجب إذا كانت إنجلترا قد أصبحت إمبراطورية.

ـ إمبراطورية!

وقالت «مارجريت» في شيء من الحزن:

ـ أنا لا أستطيع أن أشغل بالي بالنتائج، فهي صعبة الإدراك على فهمي، وكل ما أستطيع النظر إليه هم الرجال. إن أي إمبراطورية في ذاتها تضجرني، ولكني أقَدر البطولة التي شيدتها. ولندن تضجرني، ولكن كم من آلاف الرجال المدهشين يعملون ليجعلوا لندن...

وقال هازئًا:

ـ ليجعلوها كما هي عليه.

ـ ليجعلوها كما هي عليه؟ لسوء الحظ. إني أريد النشاط الإنساني من دون الحضارة. يا له من تناقض! ومع ذلك أحسب أن هذا ما سوف نجده في جنة الخلد.

وقال «تيبي»:

ـ وأنا أريد حضارة من دون بذل نشاط، وهذا ما أتوقع أن نجده في المكان الآخر.

ـ إذا أردت ذلك فإنك لست في حاجة إلى الذهاب حتى إلى ذلك المكان يا «تيبيكنز»، ففي إمكانك أن تجده في أكسفورد.

ـ سخيفة.

ـ إذا كنت سخيفة، فعُد بي إلى موضوع البحث عن منزل نسكنه. إني على استعداد للسكنى حتى في أكسفورد إذا ما أعجبك ذلك، في شمالي أكسفورد. بل مستعدة للسكنى في أي مكان ما عدا بورنموث وتوركي وتشلتنهام. أوه، نعم، أو إلفراكومب وسوانيج وتونبريدج ولز وسوربيتون وبيدفورد، لن أسكن هناك بحال.

ـ تسكنين في لندن إذن؟

ـ أنا أوافق على ذلك، ولكن «هيلين» تفضل أن تبتعد عن لندن. وعلى أي حال ليس ثمة ما يمنع من تأجير منزل في الريف، ومسكن في المدينة، بشرط أن نتضافر جميعًا ونتعاون، وإن كنا بالطبع... أوه، كيف يسرح الإنسان، وفي حين... في حين أن هناك من الناس من هم فقراء حقًّا. كيف يعيشون؟ إن عدم تنقلي في أرجاء الأرض يقتلني.

وانفتح الباب بعنف بينما كانت تتكلم، واندفعت «هيلين» داخل الغرفة في حالة انفعال بالغ الشدة:

ـ أوه يا عزيزيَّ، ما رأيكما؟ إنكما لن تحزرا أبدًا ما حدث. حضرت امرأة تسألني عن زوجها. عمن؟ (كانت «هيلين» مغرمة بالجواب عن أسئلتها المفاجئة) نعم، عن زوجها. وقد حدث هذا فعلًا.

وصاحت «مارجريت»:

ـ ألا علاقة لزوجها بالمدعو «براكنيل»؟

وكانت قد استخدمت أخيرًا عاملًا عاطلًا بهذا الاسم وكلفته تنظيف السكاكين والأحذية.

ـ ذكرت لها «براكنيل» فقالت: «لا». وذكرت «تيبي» فرُفض أيضًا. (لا تبتئس يا «تيبي»!) إن زوجها ليس من بين من نعرفهم. وقلت لها: «تصيديه يا سيدتي الطيبة. انظري حولكِ مليًّا. تصيديه تحت الموائد، تحسسي داخل مدخنة الموقد، انفضي كسوة المقاعد. أيها الزوج؟ أيها الزوج!». أوه، ثم ما أشد بريق ثيابها، إنها ترن رنين النجف.

ـ والآن يا «هيلين»، خبرينا عما حدث فعلًا.

ـ حدث ما ذكرته. كنت أتمرن على إلقاء خطابي، وإذا «آني» تفتح الباب في بلاهة، وتدخل عليَّ امرأة رأسًا بينما فمي مفتوح. ثم بدأنا الحديث، بأدب جم. قالت: «أريد زوجي، التي أعتقد أنه هنا». لا، ما أشد ظلمي لها! لقد قالت «الذي» ولم تقل «التي» كما ادعيت. كانت عبارتها سليمة. وعلى ذلك قلت لها: «اسمه، من فضلك؟». وأجابت: ««لان»، يا آنسة». وهذا ما جرى.

ـ «لان»؟

ـ «لان» أو «لين» إننا لم نحرص على صحة نطق حروفنا المتحركة. «لانولاين».

ـ ولكن ما أعجب...

ـ قلت لها: «يا سيدتي «لانولاين» الطيبة. هناك سوء فهم جسيم. إنني، وإن كنت جميلة، إلا إنني تواضعي أكثر من جمالي، والسيد «لانولاين» لم يصوب عينيه إلى عينيَّ قَطُّ... قَطُّ».

وقال «تيبي»:

ـ أرجو أن يكون ذلك قد سركِ؟

وصاحت «هيلين» صيحة قصيرة رنانة:

ـ بالطبع. فهذه تجربة سارة للغاية. أوه، إن السيدة «لانولاين» لطيفة، ولقد جاءت تسأل عن زوجها كما لو جاءت تسأل عن مظلة. وكانت افتقدته منذ يوم السبت بعد الظهر، ولم تشعر بأي قلق لمدة طويلة، ولكن هواجسها أخذت تتزايد طوال هذا الصباح وليلة أمس. ولم يبدُ لها الإفطار كما تعودت. لا، ولم يبدُ لها الغداء كذلك، فجاءت تدلف إلى رقم ٢ في ويكهام بليس على أساس أنه أرجح مكان تجد فيه البضاعة المفقودة.

ـ ولكن كيف بالله...

ـ لا تبدئي استحلافي بالله. لقد ظلت تكرر قولها: «أنا أعلم ما أعلمه». ولم تخرج فيما كررته عن حدِّ الأدب، ولكنها قالته في كآبة شديدة. وعبثًا سألتها عما كانت تعلم. وبعض الناس يعلمون ما يعلمه غيرهم، وبعضهم لا يعلمونه. وإذا كانوا لا يعلمونه فيحسن إذن بالآخرين أيضًا أن يكونوا حذرين. أوه يا للمسكينة، لقد كانت عاجزة! إن لها وجهًا كأنه دودة القز، وقد عبأت غرفة الطعام برائحة عِرْق الطيب. وثرثرنا قليلًا في ائتناس عن الأزواج، وعجبت أين يكون زوجها أيضًا، ونصحتها أن تقصد مركز الشرطة، وشكرتني. واتفقنا في الرأي على أن السيد «لانولاين» رجل ملتوٍ جدًّا، وأنه لم يكن له أن يجنح إلى الطريق المعوج. ولكني أحسب أنها ظلت تشك فيَّ إلى النهاية. وإني أحتفظ بحق الكتابة إلى خالتي «جولي» عن ذلك. والآن، لا تنسَي يا «ميج» أن هذا من حقي أنا.

وغمغمت «مارجريت» وهي تضع شغل إبرتها جانبًا:

ـ لكِ أن تحتفظي به ما شئتِ، فأنا لست واثقة من أن هذه المسألة مضحكة إلى هذا الحد يا «هيلين»، فهي تعني أن أحد البراكين الرهيبة بدأ في مكان ما يرسل دخانه، أليس كذلك؟

ـ لا أظن ذلك. فهي في الواقع لا تهتم بالأمر. إن هذه المخلوقة المعجبة عاجزة عن إدراك المأساة.

وقالت «مارجريت» متجهة صوب النافذة:

ـ ولكن قد يكون زوجها غير عاجز.

ـ أوه، لا. هذا غير مرجح. فما من أحد قادر على إدراك المأساة يستطيع أن يتزوج بامرأة كالسيدة «لانولاين».

ـ أكانت جميلة؟

ـ لعل وجهها كان حسنًا في يوم مضى.

كانت عمارات السكنى، وهي المنظر الوحيد الذي يشرف عليه بيتهم، تنسدل كستار زخرفي بين «مارجريت» وحركة لندن المضطربة. وارتدت خواطرها في حزن إلى مسألة البحث عن مسكن. لقد كان مسكن «ويكهام بليس» موئل أمان لأهله. وأثار الوهم مخاوفها على قطيعها الصغير من أن ينتقل إلى الضجيج والحياة القذرة، ويكون أقرب اتصالًا بمشاهد كهذا المشهد. وقالت في النهاية:

ـ لقد عدنا نتساءل أنا و«تيبي» عن مكان سكنانا في سبتمبر المقبل.

وعارضتها «هيلين» بقولها:

ـ أولى بـ«تيبي» أن يتساءل عن العمل الذي سيختاره.

واستأنفت طَرْق هذا الموضوع، ولكن بحدة. ثم قُدم لهم الشاي. واستأنفت «هيلين» إعداد خطابها بعد تناوله. وأعدت «مارجريت» خطابًا لتلقيه هي الأخرى، فقد كانتا ستحضران في اليوم التالي جمعية للمناقشة. ولكن أفكارها كانت مسممة. فقد صعدت السيدة «لانولاين» من الهاوية كأنها رائحة خفيفة، كأنها وقع خطوات شيطان، منبئة بحياة فسد فيها الحب والكراهية على السواء.

## الفصل الرابع عشر

وفُسر السر، شأن كثير من الأسرار. ففي اليوم التالي، وعلى وجه التحديد ساعة أتموا ارتداء ملابسهم لتناول الغداء خارج منزلهم، زارهم شاب يدعى السيد «باست». وكان يشغل وظيفة كتابية في شركة «بورفيريون» للتأمين ضد الحريق. وهذا ما دلت عليه بطاقته. وقد جاء «بشأن سيدة أمس» وهذا ما قالته الخادمة «آني» التي أدخلته غرفة الطعام.

وصاحت «هيلين»:

ـ مرحى يا أولاد! إنها السيدة «لانولاين».

واهتم «تيبي» بالأمر. وأسرع ثلاثتهم إلى سفل الدار، لا ليجدوا الكلب المرح الذي توقعوا، ولكن ليجدوا شابًّا عديم اللون والنبرة، وحتى في هذه السن المبكرة ظهرت عيناه الحزينتان اللتان تعلوان شاربًا متهدلًا، واللتان تشيع أمثالهما كثيرًا في لندن وتحوم في بعض شوارع المدينة كأنها أرواح متَّهمة. ويحسبه الإنسان من الطبقة الثالثة في سلسلة الذرية، حفيدًا لراعي الغنم، أو فالح الأرض ممن جذبتهم الحضارة إلى المدن، واحدًا من آلاف الناس الذين فقدوا حياة الجسد، وأخفقوا في الوصول إلى حياة الروح. وبقيت به دلائل على قوة الجسم وأكثر من دليل على الحسن الفطري. وإذ لاحظت «مارجريت» عموده الفقري الذي كان يمكن أن يكون معتدلًا، وصدره الذي كان يمكن أن يكون عريضًا، تساءلت عما إذا كانت سترة ذات ذيل، وبضعة أفكار، تستحق أن تكون ثمنًا مجزيًا لقاء التنازل عن عظمة الحيوان وفخاره! إن الثقافة كانت ذات أثر فعال في حالتها هي، ولكنها أخذت تشك خلال الأسابيع القليلة الماضية فيما إذا كانت الثقافة تهذب أغلبية الناس. فما أوسع الهوة التي تمتد بين الرجل الطبيعي والفيلسوف، وما أسرعها في توالي الاتساع! وكم من فتيان طيبين تحطموا وهم يحاولون اجتيازها. إنها كانت تعرف هذا الطراز من الناس جيدًا؛ المطامح الغامضة، وعدم الأمانة العقلية، والإلمام بقشور الكتب. وكانت تعرف حتى النبرات التي سيخاطبها بها. ولكن الذي لم تكن تنتظره هو أن يقدم لها بطاقة زيارة من بطاقاتها.

وقال وهو يرفع الكلفة في ارتباك:

ـ ألا تذكرين أنكِ أعطيتِني هذه، يا آنسة «شليجل»؟

ـ لا. لا أستطيع أن أقول إني أذكر ذلك.

ـ هذا هو ما حدث كما ترين.

ـ أين تقابلنا يا سيد «باست»؟ إني لا أذكر ذلك في الوقت الحاضر.

ـ كان ذلك خلال حفلة موسيقية في «كوينز هول».

وأضاف في تفاخر:

ـ أظنكِ ستتذكرينني إذا قلت لكِ إن الحفلة تضمنت عزف السيمفونية الخامسة لـ«بيتهوفن».

ـ نحن في الواقع نسمع السيمفونية الخامسة كلما عزفت، ولذلك تراني غير مستوثقة. أتذكرين أنتِ يا «هيلين»؟

ـ أكان ذلك يوم مشت القطة صفراء اللون فوق حاجز المسرح؟

وقال إنه لا يظن ذلك.

ـ إذن فأنا لا أتذكر، لأن هذا اليوم هو الوحيد الذي أذكر فيه على الأخص عزف «بيتهوفن».

ـ وأنت أخذت مظلتي، إذا جاز لي أن أقول ذلك. أخذتها عن غير عمد بالطبع.

وضحكت «هيلين»:

ـ هذا ممكن جدًّا، لأني أسرق المظلات أكثر حتى من سماع «بيتهوفن». هل استرددتها؟

ـ نعم، وأشكركِ يا آنسة «شليجل».

وقاطعتهما «مارجريت» قائلة:

ـ والخطأ نشأ من بطاقتي، أليس كذلك؟

ـ نعم، نشأ الخطأ منها. لقد كانت غلطة.

واستطردت «مارجريت» وهي تدفعه إلى الكلام، فقد بدا أنه عاجز عن إيضاح ما حدث برغم وعده أن يوضحه:

ـ ظنت السيدة التي زارتنا أمسِ أنك تزورنا أيضًا، وأنها تستطيع أن تجدك عندنا.

ـ هذا هو الأمر. «أني أزوركم أيضًا» هي غلطة.

وبدأت «هيلين» تقول:

ـ لماذا إذن...؟

ولكن «مارجريت» وضعت يدها على ذراعها. وواصل الفتى قوله في سرعة أشد:

ـ قلت لزوجتي... قلت للسيدة «باست»: «عليَّ أن أزور بعض الأصدقاء» وأجابتني السيدة «باست»: «اذهب». ومع ذلك احتاجت إليَّ، بعد ذهابي، لأمر هام. وخطر لها أني حضرت إلى هنا، وذلك بسبب البطاقة، وجاءت لذلك ورائي. وإني أرجو أن أقدم اعتذاري، واعتذارها كذلك، عن أي مضايقة نكون قد سببناها لكم عن غير قصد.

وقالت «هيلين»:

ـ ليست هناك مضايقة، ولكني ما زلت غير فاهمة.

وبدت على السيد «باست» دلائل التملص. وشرح الأمر من جديد. ولم يخفَ أنه كان يكذب. ولم ترَ «هيلين» سببًا يدعو إلى إعتاقه. وكانت قسوة الشباب تتملكها. وأهملت ضغط أختها عليها وقالت:

ـ أنا ما زلت غير فاهمة. متى قلت إنك قمت بتلك الزيارة؟

وقال وهو يحملق كأنما كان سؤالها سخيفًا، وهذه حيلة محببة إلى الذين يقفون وسط التيار:

ـ زيارة؟ أي زيارة؟

ـ زيارة ذلك المساء.

وأجاب:

ـ قمت بها في المساء بالطبع.

ونظر إلى «تيبي» ليرى وقع سرعة بديهته. ولكن «تيبي»، وهو ذاته سريع البديهة، لم يترفق به. وقال:

ـ مساء السبت أو الأحد؟

ـ السـ...ـبت.

وقالت «هيلين»:

ـ حقًّا! وظللت في تلك الزيارة حتى يوم الأحد عندما حضرت زوجتك هنا. إنها لزيارة طويلة.

وقال السيد «باست» وقد اصطبغ بحمرة قانية وأصبح جميلًا، وبدت سورة الصراع في عينيه:

ـ أنا لا أعدُّ ذلك إنصافًا، ولست أجهل ما تعنين، ولكن الحقيقة ليست كذلك.

وقالت «مارجريت»، وقد اغتمت ثانية لروائح أخذت تتصاعد من الهاوية:

ـ أوه، لا تحملنا على الاهتمام بالأمر.

وأخذ يؤكد، وقد انهار أسلوبه المصقول:

ـ كان شيئًا آخر. كنت في مكان غير ما تظنون، وهاكم الأمر!

وقالت:

ـ لقد أحسنت إذ جئت تفسر الأمر، وما عدا ما ذكرت لا يهمنا بالطبع.

ـ نعم. لكني أريد... لكني أردت... هل قرأت قَطُّ كتاب «محنة ريتشارد فيفيريل»؟

وأومأت «مارجريت».

ـ إنه كتاب جميل. لقد أردت، كما ترين، أن أعود إلى الأرض، كما فعل «ريتشارد» في نهاية الكتاب. وهل قرأت يومًا قصة «الأمير أوتو» للكاتب «ستيفنسن»؟

وتأوه «تيبي» و«هيلين» في رفق، وتشدق الفتى متصنعًا:

ـ هذا كتاب جميل آخر. وفيه تعودين إلى الأرض أيضًا. لقد أردت...

ثم انبثقت واقعة صلبة من خلال ضباب ثقافته. واقعة صلبة كالحصاة، قال «لينارد»:

ـ ظللت أمشي طوال ليلة السبت. ظللت أمشي.

وسرت هزة استحسان في أوصال الأختين. ولكن ثقافة الفتى أطبقت من جديد. وسأل عما إذا كانوا قرأوا كتاب «الطريق المفتوح» للكاتب «إ. ف. لوكاس». فقالت «هيلين»:

ـ لا شك أنه كتاب آخر جميل، ولكني أؤثر أن أسمع عن طريقك.

ـ أوه، مشيت.

ـ إلى أي مدى؟

ـ لا أدري. كذلك لا أدري المدة التي استغرقتها في المشي، فالظلام احلولك إلى حدٍّ حال دون رؤية ساعتي.

ـ أأستطيع أن أسألك عما إذا كنت قد مشيت وحدك؟

واعتدل وقال:

ـ نعم، ولكننا تحدثنا عن هذه الأمور أخيرًا في مكتب عملنا، وقال زملائي هناك إن المرء يستطيع أن يسترشد بالنجم القطبي. وقد بحثت عنه في الخريطة الفلكية، ولكن كل شيء يختلط إلى درجة كبيرة بمجرد الخروج من المنزل...

وقاطعته «هيلين»، وقد بدأت تهتم:

ـ لا تحدثني عن النجم القطبي، فأنا أعرف حيله، فهو يدور ويدور، وأنت تتبعه في دورانه.

ـ لقد فقدته تمامًا. وحالت دونه مصابيح الشوارع أولًا، ثم الأشجار، وقبيل الصباح كثرت السحب.

وانسل «تيبي» من الغرفة، وقد آثر أن تظل ملهاته غير مخففة. وأدرك أن هذا الفتى لن يسمو إلى مرتبة الشعر، فأبى أن يسمعه وهو يحاول ذلك. وبقيت «مارجريت» و«هيلين». وكان لأخيهما تأثير عليهما يفوق ما تصورتاه، فكانتا في غيابه تنفعلان حماسة في سهولة أكثر. وصاحت «مارجريت»:

ـ من أين بدأت خط سيرك؟ أرجو أن تزيدنا شرحًا.

ـ ركبت قطارًا تحت الأرض إلى ويمبلدن. وقلت لنفسي عندما خرجت من محل عملي: «لا بد أن أتمشى بين الحين والحين، وإذا لم أقُم بذلك الآن، فأنا لن أقوم به». وتناولت لقمة من طعام الغداء في ويمبلدن، ثم...

ـ ولكنها ليست بالريف الجميل الطيب، أليس كذلك؟

ـ كانت مصابيح الغاز موقدة منذ ساعات، بيد أنه كان أمامي الليل بطوله، وكان خروجي للمشي هو أهم شيء في نظري. ولم ألبث أن دخلت بالفعل الغابات أيضًا.

وقالت «هيلين»:

ـ حسنًا، استمِر.

ـ ليست لديك فكرة عن صعوبة المشي في الظلام فوق أرض غير مستوية.

ـ أَسِرت بالفعل خارج الطرقات؟

ـ أوه، نعم. وكنت أقصد دائمًا أن أخرج عن الطريق. ولكن أرذل ما في الأمر أن اهتداء المرء إلى طريقه يصبح في هذه الحالة أشد صعوبة.

وضحكت «مارجريت»:

ـ إنك مغامر بالفطرة يا سيد «باست». ولا يمكن لرياضي محترف واحد أن يحاول القيام بما قمت أنت به. ومن العجيب أن تجوالك هذا لم ينتهِ بكسر رقبتك. وماذا قالت زوجتك؟

وقالت «هيلين»:

ـ إن الرياضيين المحترفين لا ينتقلون بغير مصابيح، وبغير بوصلة. يضاف إلى ذلك أنهم لا يستطيعون المشي، فهو يتعبهم. واصِل قولك.

ـ شعرت بما شعر به «ر. ل. ستيفنسون». وأغلب الظن أنكِ تذكرين كيف أنه في «فيرجينيبوس»...

ـ نعم، ولكن الغابة! فهناك توجد غابة. كيف خرجت منها؟

ـ تمكنت من أن أجتاز إحدى الغابات، ووجدت في الناحية الأخرى منها طريقًا صعد مسافة طويلة فوق أحد التلال. وإني أميل إلى الظن أنها كانت هضاب «نورث داونز» لأن الطريق انحرف إلى مرج معشوشب، ودخلت منه إلى غابة أخرى، ولكنها كانت شنيعة، تتخللها أدغال ذات أشجار شائكة. وتمنيت لو أني لم أقُم بالرحلة. ولكن الأدغال خفت فجأة في الوقت الذي كدت أقع فيه تحت شجرة. ثم وجدت طريقًا يؤدي إلى محطة، وعدت إلى لندن في أول قطار استطعت أن أستقله.

وسألته «هيلين»:

ـ ولكن، أكان الفجر رائعًا؟

وأجاب في صدق يرسخ في الذاكرة:

ـ لا.

وانطلقت الكلمة ثانية انطلاق الحصاة من المقلاع. وانهار كل ما بدا حقيرًا أو أدبيًّا في حديثه، تهاوى «ر. ل. ستيفنسون» المتعِب، و«حب الأرض»، وقبعته الحريرية العالية. لقد بلغ «لينارد» غايته، في حضرة هاتين المرأتين، وتكلم في طلاقة وابتهاج لم يعرفهما إلا نادرًا:

ـ كان الفجر أغبش ليس إلا، ولم يكن به شيء يستحق الذكر...

ـ لم يكن إلا أصيلًا أغبش قُلب رأسًا على عقب. أفهم ذلك.

ـ وكنت مجهدًا إلى حد أني عجزت عن رفع رأسي إليه، وكان البرد قارسًا أيضًا. وقد سرني أني قمت بهذه الجولة، ولو أني ضقت بها وقتها ضيقًا أشد من أن أستطيع وصفه. وكنت أشعر فوق ذلك بجوع شديد، سواء أشئتما أن تصدقاني أم لا. وكنت أريد أن تقيم وجبة العشاء التي تناولتها في ويمبلدون أودي طوال الليل كشأن وجبات العشاء الأخرى. ولم يخطر ببالي قَطُّ أن المشي يسفر عن مثل هذا الفرق. أجل، إن المرء يشعر وهو يمشي كأنه يحتاج إلى إفطار وغداء ووجبة شاي خلال الليل أيضًا، ولم يكن معي وقتذاك

سوى حزمة من اللبلاب. يا إلهي، لقد شعرت فعلًا بوطأة الجوع. وعندما أعود إلى النظر في الرحلة لا أجد كلمة «متعة» تنطبق عليها. إنها أقرب إلى أن تكون حالة إصرار على شيء. لقد أصررت عليها، وكنت... كنت مصممًا... أوه، سحقًا لكل شيء، فما الفائدة؟ أعني ما فائدة العيش بين أربعة جدران إلى الأبد؟ فهناك يظل المرء يسلخ يومًا بعد يوم، ويلعب نفس اللعبة القديمة، ذهابه إلى المدينة هو نفسه، وكذلك أوبته منها حتى ينسى أن هناك أي لعبة أخرى. يجب على المرء أن يرى بين الحين والحين ما يجري في الخارج، حتى ولو لم يكن يجري شيء متميز.

وقالت «هيلين» وهي تجلس على حافة المائدة:

ـ أظن أن هذا واجب على المرء.

ورده عن الصدق والإخلاص رنين صوت السيدة فقال:

ـ عجيب أن ذلك كله ينشأ من قراءة شيء لـ«ريتشارد جيفريز».

ـ عفوًا يا سيد «باست»، فأنت تخطئ في هذه النقطة. إن ذلك لم ينشأ من القراءة، ولكن من شيء أعظم منها بكثير.

ولكنها لم تستطع أن توقفه. فقد أقبل «بورو» في أثر «جيفريز». «بورو» و«ثورو»، وهَم ثقيل غيرهما. وختم «ر. ل. ستيفنسون» المطاف. وانتهى تدفقه هذا بمستنقع من الكتب. إنا لا نقصد ازدراء هذه الأسماء العظيمة، فالخطأ ليس خطأهم، ولكنه خطأنا. لقد قصدوا أن نجعل منهم معالم تشير إلى الطريق. ولا لوم عليهم إذا كنا لضعفنا نحسب أن معالم الطريق هي الغاية. وقد وصل «لينارد» إلى الغاية، فزار مقاطعة سارِّي عندما حجب الظلام أسباب الحضارة فيها، وعادت دُورها الأنيقة فدخلت جوف الليل العتيق. وهذه المعجزة تحدث مرة كل أربع وعشرين ساعة، ولكنه تجشم عناء الذهاب ليرى الأمر بنفسه. فقد ثوى في ذهنه الصغير المقيد شيء أعظم من كتب «جيفريز». ثوت الروح التي دفعت «جيفريز» إلى كتابتها. وكان فجره ـ برغم أنه لا يتجلى إلا عن تكرار رتيب ـ جزءًا من الشروق الأبدي الذي جلاه لنا «جورج بورو ستونهينج».

وسأل «مارجريت»، وقد أصبح من جديد ذلك الفتى الساذج، عذب الطبع، الذي قصدته الطبيعة:

ـ أنتما لا تريان إذن أني ارتكبت سُخفًا؟

وأجابت «مارجريت»:

ـ لا، والله.

وردت «هيلين»:

ـ كان الله في عوننا إن كنا نرى ذلك!

ـ أنا في غاية السرور لقولكِ هذا. ولكن زوجتي لن تفهم أبدًا. لن تفهم حتى إذا أسهبت في الشرح أيامًا.

وصاحت «هيلين» وقد اتقدت عيناها:

ـ لا، لم يكن ذلك سخفًا. إنك أزحت الحدود بعيدًا، وكان ذلك رائعًا منك.

ـ إنك لم تكتفِ بأن تحلم كما فعلنا...

ـ برغم أننا تمشينا نحن كذلك...

ـ لا بد أن أريك لوحة في الطابق العلوي...

ودق في هذه اللحظة جرس الباب. لقد جاءت العربة لتقلهم إلى حفلة المساء.

ـ أوه، إنه لأمر مضجر، بل لعين. نسيت أننا سنتناول عشاءنا خارج الدار. ولكن أرجو... أرجو أن تحضر لتزورنا ثانية، ولنتبادل الحديث.

ورددت «مارجريت» القول:

ـ نعم، لا بد من ذلك. أرجو أن تحضر.

وأجاب «لينارد» وقد بلغ به التأثر غايته:

ـ لا، لن أحضر. والأفضل أن نقف عند هذا الحد.

وسألت «مارجريت»:

ـ لماذا يكون أفضل؟

ـ لا، فمن الأفضل ألا نجازف بتبادل حديث آخر. وسأظل أنظر إلى حديث الليلة معكما على أنه من أطيب الأشياء في حياتي، وأنا أعني ذلك حقًّا. وليس في إمكاننا أبدًا أن نكرر ما يقع. لقد أحدث في نفسي أطيب الأثر. وخير لنا أن ندع الأمر عند هذا الحد.

ـ إن هذه نظرة للحياة يغلب عليها الحزن، أليس كذلك؟

ـ إن الأشياء كثيرًا ما تفسد بعد صلاحها.

واندفعت «هيلين» قائلة:

ـ أعلم ذلك، ولكن الناس لا يفسدون.

وعجز عن فهم هذا. وواصل قوله بنغمة اختلط فيها التصور الصادق بالكاذب. والذي قاله لم يكن خطأ، ولم يكن كذلك صوابًا، كانت هناك نغمة نابية تخدش الأذن. وشعرت الفتاتان أن لَيَّة بسيطة للوتر قد تضبط الآلة الموسيقية، وأن قليلًا من الشد قد يسكتها إلى الأبد. وشكر السيدتين كثيرًا، ولكنه قال إنه لن يكرر الزيارة ثانية. ومرت فترة ارتباك، ثم قالت «هيلين»:

ـ اذهب إذن، فقد تكون أصوب رأيًا. ولكن لا تنسَ أبدًا أنك خير من «جيفريز».

وذهب، ولحقت به عربتهم في زاوية الشارع، ومرت به بين تلويح الأيدي، وتوارت بحملها المهذب طي المساء.

وكانت لندن قد بدأت تضيء نفسها لتواجه الليل. وأخذت الأنوار في الشوارع الرئيسية تتلألأ، ومصابيح الغاز الكهربائية تئز وتضطرب في لون ذهبي أو أخضر كلون الكناريا. وكانت السماء ميدان قتال للربيع في لون النجيع، ولكن لندن لم تخف. ونال دخانها من البهاء المتجلي، وبدت السحب عند شارع أكسفورد كأنها سقف رقيق التلوين، يزين ما حوله ولكنه لا يبهر. إن لندن لم تعرف قَطُّ الحشود واضحة الخطوط التي تبدو في الجو الأنقى. وأسرع «لينارد» خلال أعاجيبها الملونة، وكان هو نفسه جزءًا من تلك اللوحة الطبيعية. وكانت حياته حياة غبراء. وإذ أراد أن يشيع فيها الإشراق ترك بعض أركانها للخيال. إن آنستَي أسرة «شليجل»، أو حديثه معهما إذا ما توخينا الدقة في القول، حري أن يملأ أحد تلك الأركان. ولم تكن هذه بحال من الأحوال أول مرة خاطب فيها الأغراب بألفة. وهذه العادة تشبه العربدة، فهي متنفس ـ وإن كانت أسوأ متنفس ـ لغرائز لا يمكن إنكارها. وهي تفزعه

فتتغلب على ريبته وحيطته حتى يفضي بأسراره لأناس يكاد لا يعرفهم. وقد جلبت له الكثير من المخاوف، وبعض الذكريات المبهجة. ولعل أشد سعادة عرفها أتيحت له أثناء رحلة قام بها إلى كمبريدج حيث حادثه تلميذ مهذب الخلق. وخاضا في الحديث. واطّرح «لينارد» التحفظ جانبًا شيئًا فشيئًا، وحدثه عن بعض متاعبه المنزلية، ولمح إلى الباقي. ودعاه التلميذ إلى تناول قدح من القهوة بعد المحاضرة بعد أن قدر أنهما سيعقدان بينهما أواصر الصداقة، وقبل «لينارد» الدعوة، ولكن الحياء أخذ يستحوذ عليه فيما بعد، وحرص على ألا يتحرك من الفندق الرخيص الذي نزل فيه. فهو يأبى أن يصطدم الخيال بشركة «بورفيريون»، وهو أقل رغبة أن يصطدم الخيال بـ«جاكي»، وهذا فهمه عسير على الذين يستمتعون بحياة أغنى وأسعد. إنه في نظر أسرة «شليجل»، ونظر ذلك التلميذ، مخلوق يثير الاهتمام، وهم يودون الإكثار من رؤيته. ولكنهم كانوا في نظره نزلاء الخيال، الذين يجب أن يلتزموا الركن الذي خصصه لهم. إنهم صور لا يجوز أن تخرج من إطاراتها.

كان مسلكه بشأن بطاقة «مارجريت» نموذجيًّا، فزواجه لم يكن مأساة. وحيثما ينضب المال والميل إلى العنف، لا تنبت للمأساة جذور. إنه لم يكن يستطيع ترك زوجته، ولم يكن يرغب في ضربها، فقد اكتفى بالمناكدة وحياة الإهمال والبذاذة، وعن طريقهما برزت مسألة «تلك البطاقة». فقد كان «لينارد» سيئ الترتيب برغم تكتمه، فتركها ملقاة حيثما اتفق، ووجدتها «جاكي»، ومن ثم بدأ الشجار: «ما هذه البطاقة؟ هَه؟»، «نعم. ألا تتمنين أن تعلمي ما هذه البطاقة؟»، ««لين»! من الآنسة «شليجل» هذه؟»، وهكذا. ومرت شهور والبطاقة تتناولها أيديهما، وتزداد اتساخًا، وكانت مثار الفكاهة مرة، ومثار النكد مرة أخرى. وتبعتهما عندما انتقلا من مسكنهما في شارع «كاميليا» إلى تولس هيل. وأعطيت إلى الغير. إن هذه القطعة من الورق المقوى التي هي في حجم بضع بوصات أصبحت ميدان قتال اعتركت فيه روح «لينارد» وروح زوجته. لماذا لم يقُل لها: «أخذت سيدة مظلتي، وأعطتني أخرى البطاقة لأذهب وأسترجعها»؟ ألأن «جاكي» لن تصدقه؟ قد يكون ذلك جزءًا من السبب، ولكن السبب الرئيسي أن «لينارد» كان عاطفيًّا. ولم تتجمع عاطفة حول البطاقة، ولكنها، أي البطاقة، كانت ترمز لحياة الثقافة التي لا يجوز لـ«جاكي» أبدًا أن تفسدها. وكان يقول لنفسه في الليل: «حسنًا. إنها على أي حال لا تعلم شيئًا عن البطاقة. ياه؟ لقد هزمتها في هذا!».

مسكينة «جاكي»! فهي لم تكن شريرة، وكان عليها أن تحتمل الكثير. وقد استخلصت نتيجتها الخاصة ـ وهي لا تقدر إلا على استخلاص نتيجة واحدة ـ وعملت على أساسها عندما حان الوقت. لقد أبى «لينارد» أن يحادثها طوال

يوم الجمعة، وقضى المساء وهو يراقب النجوم. وذهب صباح السبت كعادته إلى المدينة، ولكنه لم يَعُد مساء ذلك اليوم، ولا صباح الأحد أو عصر الأحد. وازداد ضيقها حتى أصبح غير محتمل، وبرغم أنها اعتادت الآن الاحتجاب عن الناس، وأصبحت تستحي من النساء، فقد ذهبت إلى «ويكهام بليس»، وعاد «لينارد» أثناء غيابها، وكانت البطاقة ـ البطاقة المحتومة ـ قد اختفت من صفحات كتاب «راسكن»، فاستنتج ما حدث.

صاح وهو يحييها بضجة من الضحكات:

ـ حسنًا. أنا أعرف أين كنتِ، ولكنكِ تجهلين أين كنت أنا.

وتنهدت «جاكي» وقالت:

ـ «لين»! أظن أنه يصح أن تفسر الأمر.

ثم عادت إلى جو المنزل.

ولكن التفسير كان صعبًا في هذه المرحلة. وبلغ الفتى «لينارد» من الحماقة... أو لعله من المغري أن نكتب أنه بلغ من سلامة التفكير مبلغًا منعه من محاولة التفسير. ولم يكن تحفظه عبارة عن تلك السلعة الرثة التي تنميها حياة المال والأعمال، ولم يتظاهر بأن اللاشيء شيء، ويداري نفسه وراء صحيفة «الديلي تلجراف». فإن المغامر أيضًا متحفظ. وإنها لمغامرة في نظر موظف كتابي أن يمشي بضع ساعات تحت جنح الظلام. وقد تسخر منه أنت الذي نام الليالي فوق مروج أفريقيا، وبندقيتك إلى جانبك، وجو المغامرة كله مهيأ. وقد تسخر أيضًا أنت الذي يرى المغامرات سخيفة. ولكن لا تدهش إذا وجدت «لينارد» حييًّا كلما قابلك، وإذا وجدت الآنستين «شليجل» لا «جاكي» هما اللتان تسمعان حديثه عن الفجر.

وكان رأي فتاتَي أسرة «شليجل» فيه، بأنه لم يكن أحمق، مصدرًا لفرح دائم. وكان كلما فكر فيهما يغدو في خير حالاته. وأخذ التفكير فيهما يحدوه وهو في طريقه إلى داره تحت قبة السماء المتصوحة. وسقط حاجز الغنى بطريقة من الطرق. وصار هناك ـ على نحو ما لا يستطيع تبيينه ـ تأكيد لأعجوبة هذه الدنيا، يقول الصوفي: «إن عقيدتي تحوز قوة لا تحد حين تؤمن بها نفس أخرى»، وقد اتفق هو والآنستان «شليجل» و«جاكي» على أن هناك شيئًا وراء غبرة الحياة اليومية. وخلع قبعته العالية ومسحها مستغرقًا في التفكير. لقد حسب حتى الآن أن المجهول هو الكتب والأدب والحديث اللامع والثقافة. لقد رفع مستواه بالدرس، وثأر لنفسه من الدنيا. ولكن بزغ

نور جديد أثناء ذلك التبادل السريع. فهل كان هذا «الشيء» هو السير طي الظلام خلال تلال الضواحي؟

وفطن إلى أنه كان يمشي في شارع «ريجنت» عاري الرأس، وارتدت لندن تهجم في اندفاع، وكان العابرون قلة، ولكن كل من مر به كان يحدجه بنظرة عداء زاد من وقعه أنه كان عن غير عمد. ووضع قبعته على رأسه، وكانت كبيرة جدًّا حتى إن رأسه غاص فيها كما تغوص الفطيرة في وعاء، والتَوت أذناه خارج القبعة حين مستا حافتها المَثنية. وزحزحها إلى الوراء قليلًا، وكان أثر ذلك أنها أطالت وجهه كثيرًا، وأبرزت المسافة بين عينيه وشاربه. ونجا من النقد إذ تحصن على هذا النحو، ولم يشعر المارة بالضيق وهو يطوي الرصيف بخفة، وبين جوانحه قلب رجل يخفق خفقًا سريعًا.

## الفصل الخامس عشر

ذهبت الأختان إلى حفلة العشاء وهما مملوءتا الخاطر بالمغامرة التي وقعت لهما. وعندما يمتلئ خاطر كلتيهما بموضوع واحد فقلما تستطيع حفلة من حفلات العشاء أن تقف صامدة ضدهما. وهذه الحفلة، التي لا تضم إلا سيدات، توافر لها من روح المقاومة ما لا يتوافر لأغلب الحفلات، ولكنها استسلمت بعد نضال. وجلست «هيلين» في طرف من المائدة، و«مارجريت» في طرف آخر، وهما تودان أن تتحدثا عن السيد «باست» دون أحد سواه. في بداية العشاء اصطدم حديث إحداهما بحديث الأخرى، وتهشما، وأصبحا مشاعًا بين الجميع. ولم يكن ذلك كل ما حدث. فحفلة العشاء كانت في الحق ناديًا غير رسمي للمناقشة. وكان هناك مقال يقرأ في الختام بين الضحكات وأقداح القهوة التي تدار في غرفة الاستقبال، ولكنه كان يتناول، بقدر متفاوت من التفكير، موضوعًا ذا أهمية عامة. وأعقبت قراءة المقال مناظرة ظهر فيها كذلك السيد «باست» حينًا نقطة مشرقة في الحضارة، وحينًا آخر نقطة مظلمة، وذلك حسب مزاج المتحدث. وكان موضوع المقال: «كيف يجب أن أنفق مالي؟» وإذ زعمت قارئة المقال أنها من ربات الملايين وهي على وشك أن تموت، فقد رغبت في الإيصاء بمالها لإنشاء متاحف للفن المحلي، ولكنها عرضت استعدادها للاقتناع بغير هذا من آراء. وكانت الأدوار المختلفة قد وزعت على صاحباتها مقدمًا، وكان بعض الخطب مسليًا. وقامت المضيفة بدور بغيض هو دور ابن المليونيرة الأكبر، وتوسلت إلى الأم المحتضرة ألا تفكك أواصر المجتمع بالسماح لمثل هذه المبالغ الضخمة من المال أن تتسرب من الأسرة. فالمال ثمرة إنكار الذات، وللجيل الثاني الحق في الإفادة من إنكار الجيل الأول لذاته. وأي حق لمثل السيد «باست» في هذه الإفادة؟ إن المتحف الوطني كافٍ لأمثاله. وبعد أن قالت الملكية الفردية كلمتها ـ وهي كلمة غير كريمة بطبيعة الحال ـ تقدم بعض مُحبات الخير للكلام. فقلن إنه لا بد من القيام بعمل ما لمعونة السيد «باست». لا بد من تحسين أحواله من دون النيل من استقلاله. لا بد من أن تكون له دار كتب للقراءة المجانية، أو ملاعب تنس مجانية. لا بد أن يؤدى عنه إيجار مسكنه بطريقة لا يفطن معها إلى أن أحدًا يؤديه عنه. لا بد من جعل اشتغاله في المستعمرات مجزيًا. ولا بد من فصله عن زوجته غير الملهمة، على أن تحصل هي على المال تعويضًا عن ذلك. لا بد أن يخصَّص له «نجم توأم» يرعاه كما في الأساطير، وأن يختار ذلك التوأم من أعضاء الطبقة كثيرة الفراغ، على أن يرعاه من دون انقطاع. (أنات من «هيلين»). لا بد أن يعطى الطعام لا الكساء، بل الكساء من دون الطعام. بل تذكرة ذهاب وإياب في الدرجة الثالثة إلى البندقية من دون إعطائه، لدى وصوله

هناك، طعامًا أو شرابًا. ومجمل القول أنه يمكن إعطاؤه أي شيء، وكل شيء، ما دام لا يعطى المال نفسه.

وهنا قاطعت «مارجريت» قارئة المقال، فقالت:

ـ النظام، النظام، يا آنسة «شليجل»! فالذي أعلمه أنكِ حضرت هنا لتقدمي لي النصيحة لصالح «جمعية صيانة الأماكن ذات الأهمية التاريخية أو الجمال الطبيعي». ولن أدعكِ تخرجين عن دورك، فذلك يدير رأسي المسكين وأحسبكِ نسيتِ أني مريضة جدًّا.

وقالت «مارجريت»:

ـ إن رأسكِ لن يدور إذا استمعتِ إلى حجتي. لماذا لا تعطينه المال نفسه، فالمفروض أن دخلكِ السنوي يبلغ زهاء ثلاثين ألفًا.

ـ أهذا دخلي؟ حسبته مليونًا.

ـ ألم يكن المليون هو رأسمالكِ؟ يا الله! كان علينا أن نسوي هذه المسألة منذ البداية. ومع ذلك، لا بأس، فإني أفرض عليكِ، أيًّا كان المبلغ الذي تملكين، أن تجودي على أكبر عدد من الفقراء، بمبلغ ثلاثمائة لكل واحد منهم.

فقالت فتاة جادة تميل إلى آنستَي أسرة «شليجل»، ولكنها كانت تراهما غير روحانيتين نوعًا ما في بعض الأحيان:

ـ ولكن ذلك يكون تعويدًا لهم على التسول.

ـ لن يكون الأمر كذلك إذا أعطيتِهم مثل هذا القدر من المال. إن الهبة الكبيرة لا تُعود الإنسان التسول، ولكن تلك القطرات الصغيرة التي توزع بين عدد كبير جدًّا من الناس، هي التي تضر ولا تنفع. إن المال يعلِّم صاحبه، وهو أبعد شوطًا في تلقين العلم من الشيء الذي يشتريه.

واعترض البعض، فأضافت «مارجريت»:

ـ هذا بمعنى من المعاني.

ولكن الاحتجاج استمر:

ـ حسنًا، أليس أكثر الأشياء اليوم تحضرًا هو الرجل الذي تعلم كيف ينفق دخله كما يجب؟

ـ هذا على وجه التحديد هو الذي لن يفعله أمثال السيد «باست».

ـ أتيحي لهم فرصة، أعطيهم مالًا. لا تتصدقي عليهم بدواوين الشعر وتذاكر السكك الحديدية كأنهم أطفال. أعطيهم الأداة التي يستطيعون بها شراء هذه الأشياء. وقد يختلف الأمر عندما تجيء اشتراكيتكم، وقد نفكر عندئذٍ بأسلوب السلع بدل النقد. ولكن أعطي الناس النقد إلى أن يحل ذلك اليوم، فأيًّا كانت لحمة الحضارة فهو سداها. وينبغي للخيال أن يستخدم المال لتحقيق مآربه، ويجعله حقيقة نابضة بالحياة لأنه... لأنه لا يقع في المرتبة الثانية من أهم أشياء الدنيا. لقد انتقص من قدره وأسكت صوته. والتفكير الواضح أقل من القليل. أوه، هناك الاقتصاد السياسي بالطبع، ولكن قلة منا هي التي تفكر تفكيرًا واضحًا في دخلها الخاص، وتسلم بأن تسعة أعشار الآراء المستقلة نتيجة للإيراد المستقل. المال: أعطي السيد «باست» المال ولا تقلقي على مُثله الفكرية، فهو سيختار لنفسه تلك المُثل.

ومالت إلى الخلف بينما بدأ أعضاء النادي المخلصات الجادات يُسئن فهم كلامها. وعقلية الإناث، برغم اتجاهها العملي الجبار في الحياة اليومية، لا تحتمل سماع الاستهانة بالمُثل العليا في المناقشات. وسألن الآنسة «شليجل» كيف استطاعت أن تقول مثل هذه الأقوال الفظيعة، وماذا يمكن أن يفيده السيد «باست» إذا كسب العالم بأسره، وخسر نفسه. وأجابت:

ـ لا شيء. ولكنه لا يستطيع أن يكسب نفسه إن لم يكسب قليلًا من نعم العالم.

فقلن لها لا، إنهن لا يعتقدن ذلك. وسلمت «مارجريت» بأن الموظف الكتابي المرهق بالعمل قد ينقذ روحه بالمعنى السماوي، حيث يؤخذ الجهد على أنه هو العمل. ولكنها أنكرت أنه سيستكشف في يوم من الأيام ذخائر هذا العالم الروحية، أو سيعرف المتع الجسدية الأكثر ندرة، أو سيصل إلى علاقاته صافية حارة بزملائه. وهاجم بعض المجتمعات نسيج المجتمع: الملكية، والفوائد، وغير ذلك. أما «مارجريت» فاكتفت بتركيز بصرها على بضعة أشخاص لترى كيف يمكن جعلهم، في الظروف الراهنة، أسعد حالًا. إن إسداء الخير للإنسانية جمعاء غير مُجدٍ، هذه الجهود عديدة الألوان التي تنتشر كالقشرة الرقيقة فوق المساحة الشاسعة، وتنتهي إلى شقاء عام. أما

إسداء الخير لفرد واحد، أو لبضعة أفراد كما هي الحال هنا، فهو غاية ما تجرؤ على أن تطمع فيه.

وقضت «مارجريت» وقتًا عصيبًا بين السيدات المثاليات، وسيدات الاقتصاد السياسي. ومع أن أولئك السيدات قد اختلفن في كل الموضوعات الأخرى، فإنهن اتفقن على استنكار ما قالته، والاحتفاظ لأنفسهن بالتصرف في مال صاحبة الملايين. وتقدمت الفتاة الجادة بخطة لـ«المراقبة الشخصية، والعون المتبادل»، من شأنها أن تحور الفقراء من الناس حتى يصبحوا تمامًا كأولئك الذين هم أقل فقرًا. ولاحظت المضيفة ملاحظة مناسبة، وهي أنها، بحسبانها الولد الأكبر لصاحبة الملايين، يمكن من دون شك أن تكون من ضمن ورثة أمها. وسلمت «مارجريت» بهذه الدعوى تسليمًا متخاذلًا. وعرضت «هيلين» على الفور دعوى أخرى أعلنت فيها أنها ظلت تعمل خادمة لصاحبة الملايين مدة تزيد على أربعين عامًا، وتتناول خلال ذلك غذاء وفيرًا، وأجرًا ضئيلًا، فهل تترك من دون أن يقدم لها أي عون بعد أن وصلت إلى هذا الحد من البدانة والفقر؟ وقرأت صاحبة الملايين بعد ذلك وصيتها الأخيرة، وفيها أوصت بثروتها كلها إلى وزير الخزانة، ثم ماتت. وكانت الأجزاء الجادة من المناقشة أكثر قيمة من الأجزاء الهازلة ـ فهل العكس أعم في مناقشات الرجال؟ ـ ولكن الاجتماع انفض في بهجة غامرة، وتفرقت زهاء عشر من السيدات السعيدات منطلقات إلى بيوتهن.

وسارت كل من «هيلين» و«مارجريت» مع الفتاة الجادة حتى محطة «باترسي بريدج»، وهن يتناقشن مناقشة مستفيضة طوال الطريق. وما انصرفت الفتاة حتى شعرنا بالراحة، وبجمال المساء الباهر. وعرجتا عائدتين إلى شارع «أوكلي». وكانت المصابيح وأشجار الدلب التي تتبع الجسر الممتد، توحي بنغمة وقور قل أن تسمعها في المدن الإنجليزية. وبدت المقاعد التي تكاد تخلو من الجلساء ـ بدت هنا وهناك ـ محتلة بقوم من كرام الناس، خرجوا في ملابس السهرة من منازلهم الواقعة خلف ذلك المكان، قاصدين الاستمتاع بالهواء النقي، وخرير المد المتعالي. إن لرصيف تشيلسي شيئًا من الطابع الأوروبي، فهو مكان متسع طلق يحسن الناس استعماله، وهو نعمة مألوفة في ألمانيا أكثر مما هي مألوفة هنا. وما جلست «مارجريت» و«هيلين» حتى بدت المدينة وراءهما كأنها مسرح فسيح، كأنها دار أوبرا تمثل فيها ثلاثية لا تنتهي، وكانتا هما أنفسهما متفرجتين راضيتين لم تعبآ بأن جزءًا من الفصل الثاني قد فاتهما.

ـ أتشعرين ببرد؟

ـ لا.

ـ أمتعبة؟

ـ لا يهم.

وقعقع قطار الفتاة الجادة فوق الجسر.

ـ اسمعي يا «هيلين»...

ـ نعم؟

ـ أسنواصل حقًّا صلتنا بالسيد «باست»؟

ـ لا أدري.

ـ أرى ألا نواصلها.

ـ كما تشائين.

ـ أظنها غير مجدية، إلا إذا كنتِ تقصدين معرفة الناس. وقد أوضحت لي المناقشة الأمر كل الوضوح. إن الأمور سارت بيننا سيرًا لا بأس به ونحن مأخوذتان بروح الانفعال، ولكن فكِّري في الاتصال العقلي. يجب ألا نحاول الصداقة غير جادتين فهذا عمل غير مُجدٍ.

وقالت «هيلين» متثائبة:

ـ لا تنسَي أن هناك السيدة «لانولاين» أيضًا، وهي بليدة الذهن جدًّا.

ـ هذا صحيح. وقد تكون أسوأ من ذلك.

ـ أريد أن أعرف كيف حصل على بطاقة الزيارة الخاصة بكِ.

ـ ولكنه قال شيئًا عن حفلة موسيقية، وعن مظلة...

ـ ثم رأت الزوجة البطاقة...

ـ «هيلين»، هيا لتأوي إلى فراشكِ.

ـ لا، لنبقَ مدة أطول قليلًا، فالجلسة جميلة كل الجمال. خبريني؛ أوه نعم؛ أقلتِ إن المال سدى نسيج العالم؟

ـ نعم.

ـ وما هي لُحمته إذن؟

وقالت «مارجريت»:

ـ هي على الأغلب ما يؤثره الإنسان. هي شيء غير المال، وهذا كل ما يستطيع الإنسان قوله.

ـ أهي المشي مساء؟

ـ هذا محتمل.

ـ أهي «أكسفورد» بالنسبة لـ«تيبي»؟

ـ يبدو ذلك.

ـ وما هي عندك أنت؟

ـ لقد بدأت أرى أنها «ويكهام بليس» بعد أن أصبحنا مضطرين إلى مغادرته. وهي «هواردز إند» بالتأكيد عند السيدة «ويلكوكس».

إن اسم الإنسان ينتقل إلى أذنيه من مسافات شاسعة. وقد سمع السيد «ويلكوكس» اسمه وهو جالس مع بعض أصدقائه في مقعد تفصله عنهما مقاعد كثيرة، فهبَّ واقفًا على قدميه، وخطا صوب المتحدثتين.

واستطردت «مارجريت»:

ـ من المحزن أن تتصور أن بعض الأماكن قد تكون أهم من الناس.

ـ لماذا يا «ميج»؟ لأن الأماكن أظرف كثيرًا من الناس على العموم. إني أؤثر التفكير في دار حارس الغابة في بوميرانيا على التفكير في السيد «فورستمايستر» البدين الذي يقطنها.

ـ أعتقد يا «هيلين» أن اهتمامنا بالناس سيقل على التوالي. وعلى قدر ازدياد عدد الناس الذين يعرفهم الإنسان يكون أسهل عليه أن يستبدل بهم غيرهم. وهذه نقمة من نقم لندن. وإني أتوقع كل التوقع أن أبلغ نهاية حياتي وأنا أخص مكانًا ما بحبي الأكبر.

وهنا وصل السيد «ويلكوكس» إليهما، وكانت عدة أسابيع قد مضت على آخر لقاء لهم. وصاح:

ـ كيف حالكما؟ ظننت أني تبينت صوتيكما. ماذا تصنعان هنا أنتما الاثنتان؟

ونمت نبراته عن اهتمام بحمايتهما، وكان المعنى المتضمن في سؤاله أنه لا يجوز للسيدات أن يجلسن على رصيف تشيلسي من دون صحبة رجل يحميهن، واستنكرت «هيلين» هذا الرأي، ولكن «مارجريت» قبلته على أنه جانب من شمائل الرجل الطيب.

ـ أي أمد طويل مضى على مقابلتي الأخيرة لك يا سيد «ويلكوكس»! ومع ذلك فقد قابلت «إيفي» في المترو أخيرًا. وأرجو أن تكون قد بلغتك أخبار طيبة من ابنك.

وقال السيد «ويلكوكس» وهو يطفئ سيجارته، ويجلس بينهما:

ـ «بول»؟ أوه، «بول» بخير. وقد وصلت إلينا كلمة من ماديرا، وأظنه الآن قد عاد إلى عمله.

وقالت «هيلين» مقشعرة من جراء أسباب متشابكة:

ـ أنج...

ـ أستميحك عذرًا؟

ـ أليس الجو في نيجيريا شنيعًا جدًّا؟

فقال ببساطة:

ـ لا بد لأحد ما أن يذهب، فإنجلترا لن تستطيع الاحتفاظ بتجارتها وراء البحار إلا إذا كانت مستعدة لبذل التضحيات، وإذا نحن لم نثبِّت أقدامنا في غرب أفريقيا فإن ألما... فإن تعقيدات لا آخر لها قد تحدث على الأثر. والآن خبِّراني عن أخباركما كافة.

وصاحت «هيلين» التي تنتعش دائمًا لإقبال زائر:

ـ أوه، لقد قضينا سهرة رائعة، فنحن ننتمي إلى نوع من أنواع الأندية تقرأ فيه مقالات. نحن ننتمي إليه أنا و«مارجريت». وأعضاؤه كلهن نساء. ولكن المقالات تناقش بعد قراءتها. وكان موضوع الليلة: على أي نحو يجب على المرء أن يوصي بماله؟ أيوصي به لأفراد أسرته أم للفقراء، وإذا اختار الرأي الثاني فعلى أي نحو يقوم بذلك؟ أوه، كانت المناقشة شائقة جدًّا.

وابتسم رجل الأعمال. لقد ضاعف دخله تقريبًا منذ وفاة زوجته وأصبح آخر الأمر شخصية ذات أهمية، وصار اسمه مدعاة للاطمئنان حين يذكر في برامج الشركات، وأحسنت الحياة معاملته كل الإحسان. وبدا كأن الحياة في قبضته وهو ينصت إلى نهر «التيمز» الذي لا يزال يتدفق من البحر إلى داخل الأرض. وإذا كان هذا النهر يبدو للفتيات عجيبًا كل العجب، فهو لا يتكشف له عن أي أسرار. وقد ساعد السيد «ويلكوكس» على تقصير البقعة التي يغمرها مد هذا النهر بشراء بعض الأسهم الخاصة بمشروع هَويس «تيدنجتون»، ويمكن تقصيرها ثانية في يوم من الأيام إذا استحسن ذلك السيد «ويلكوكس» وغيره من الرأسماليين الآخرين. وإذ كان جوف هذا السيد ممتلئًا بغداء طيب، وإذ كانت على يمينه وشماله امرأتان لطيفتان وإن كانتا رفيعتَي الثقافة، فقد شعر بأن يديه تمسكان بأزمَّة الحياة جميعها، وأن ما لا يعرفه لا يستحق بحال أن يعرف.

وصاح وهو يضحك بطريقته اللطيفة:

ـ يبدو أنها تسلية مبتكرة كل الابتكار! وبودي أن تذهب «إيفي» إلى مثل هذا النوع من الأشياء، لكن الوقت ينقصها، فقد هويت تربية كلاب «أبردين»؛ كلاب صغيرة لطيفة.

ـ أرى أن الأفضل لنا حقًّا أن نقوم بنفس هذا العمل.

وقالت «هيلين» بشيء من الحدة، لأن فتنة آل «ويلكوكس» ليست من النوع الذي يعود إلى التأثير من جديد، وهي ما زالت تحتفظ بذكريات مريرة عن الأيام التي كان مثل الحديث الذي أدلى به السيد «ويلكوكس» الآن يحدث في نفسها أثرًا مرضيًا.

ـ نحن نزعم كما ترى أننا نهذب أنفسنا، ونعتقد أنه عمل طيب أن نضيع كل أسبوعين ليلة في مناظرة، ولكن قد يكون من الأفضل أن نربي كلابًا، كما تقول أختي.

ـ لا، أبدًا. أنا لا أوافق أختك على رأيها، فليس ثمة شيء يعلم الإنسان سرعة الخاطر مثل المناظرة. وكثيرًا ما تمنيت لو أني حاولت ذلك وأنا في مقتبل العمر، فإنه كان قمينًا أن يعينني عونًا لا حد له.

ـ سرعة الخاطر؟

ـ نعم، سرعة الخاطر في الجدال. وقد أخفقت مرة بعد مرة في إصابة هدف ما لأن غريمي يملك موهبة البلاغة وأنا لا أملكها. أوه، أنا أؤمن بهذه المناقشات.

وخطر ببال «مارجريت» أن لهجة الحماية مقبولة من رجل بلغ من السن حدًّا يكفي لأن يكون مثل والدهما. وقد كانت دائمًا ترى أن للسيد «ويلكوكس» فتنة. وكان قصوره في أوقات الحزن والانفعال يؤلمها. ولكن الإنصات إليه الآن كان مبهجًا، وكذلك النظر إلى شاربه البني الكثيف، وجبهته العالية وهي تجابه النجوم. ولكن «هيلين» اغتاظت فأشارت إلى أن هدف مناظراتـهن هو الحقيقة.

وقال:

ـ أوه، نعم. فليس الموضوع الذي تطرقونه هو الذي يهم في ذاته كثيرًا.

وضحكت «مارجريت» وقالت:

ـ ولكن ذلك سيكون أفضل بكثير من الجدال نفسه.

واستعادت «هيلين» هدوءها وضحكت كذلك، وقالت:

ـ لا، أنا لن أستطرد في القول. ولكني سأكتفي بعرض قضيتنا الخاصة على السيد «ويلكوكس».

ـ عن السيد «باست»؟ نعم، اعرضيها. فإنه سيكون أكثر تساهلًا إزاء قضية خاصة.

ـ ولكن أشعِل سيجارة أخرى أولًا يا سيد «ويلكوكس». هذه هي القضية. إننا التقينا أخيرًا مصادفة بفتى يبدو أنه فقير جدًّا. ويظهر أنه مثير للاهتما...

ـ ما هي مهنته؟

ـ موظف كتابي.

ـ أين؟

ـ أتذكرين أين يا «مارجريت»؟

ـ شركة «بورفيريون» للتأمين ضد الحريق.

ـ أوه، نعم. أولئك القوم الظرفاء الذين أعطوا خالتي «جولي» غطاء جديدًا للمدفأة. وهو شاب يبدو مثيرًا للاهتمام، ويثيره من بعض النواحي كثيرًا، ويود الإنسان لو يستطيع مساعدته. وهو متزوج بامرأة لا يبدو أنه يحبها كثيرًا. وهو يحب الكتب، وما يمكن للمرء أن يسميه على وجه التقريب «المغامرة». ولو أن الفرصة قد أتيحت له... ولكنه فقير جدًّا. وهو يحيا حياة أصبح فيها ماله كله عرضة لأن ينفق في النفايات والملبس. وإن المرء ليخشى كل الخشية أن تغلبه الظروف حتى يغرق. حسنًا. لقد كان له ضلع في مجادلتنا. إنه لم يكن موضوع المجادلة، ولكن يبدو أنها تتصل بموضوعه. فافترض أن أحد أصحاب الملايين قد مات، وأراد أن يوصي بمال رغبة منه في معاونة مثل هذا الرجل، فكيف يمكن عونه؟ أيُعان بمنحه مباشرة راتبًا شهريًّا قدره ثلاثمائة جنيه، وهذه هي الخطة التي ارتأتها «مارجريت»؟ إن أغلب المتناقشات رأين أن ذلك سيعوِّده التسول، فهل تنشأ له ولأمثاله مكتبات عامة مجانية؟ أنا أقول: «لا» فهو ليس في حاجة إلى مزيد من الكتب لقراءتها، ولكن في حاجة إلى أن يقرأ الكتب قراءة صحيحة. وكان اقتراحي أن يعطى مبلغًا كل عام لقضاء عطلته الصيفية. ولكن هناك زوجته أيضًا، وقد قيل إنها يجب أن تذهب معه هي أيضًا. لم يبدُ حلٌّ خاليًا من النقص! والآن، ما رأيك؟ تصور أنك صاحب ملايين، وأنك أردت مساعدة الفقراء، فماذا تصنع؟

واستغرق السيد «ويلكوكس» في الضحك، وهو الذي لا تنقص ثروته كثيرًا عن الحد المشار إليه:

ـ يا عزيزتي الآنسة «شليجل»، إني لم أقحم نفسي فيما عجزت بنات جنسكِ عن الخوض فيه، ولن أضيف خطة أخرى إلى الخطط العديدة الرائعة التي اقترحت فعلًا. وإن مساهمتي الوحيدة في الموضوع هي أن أقول لكِ: دعي صديقكِ الشاب يبتعد بأسرع ما يمكن عن شركة «بورفيريون» للتأمين ضد الحريق.

وقالت «مارجريت»:

ـ لماذا؟

وخفض صوته:

ـ هذا فيما بيننا بحسباننا أصدقاء. إنها ستقع في قبضة الحارس القضائي قبل عيد الميلاد.

وأضاف وقد ظن أنها لم تفهم:

ـ ستفلس.

ـ يا الله! اسمعي هذا يا «هيلين». فسوف يضطر إلى أن يجد وظيفة أخرى.

ـ سوف؟ دعيه يترك السفينة قبل غرقها. دعيه يجد وظيفة الآن.

ـ أفضل من الانتظار حتى يتأكد؟

ـ قطعًا.

ـ ولمَ ذلك؟

وعادت الضحكة الأولمبية والصوت الذي خفضه صاحبه:

ـ إن الرجل الذي يكون له منصب وهو يلتمس وظيفة أخرى أوفر حظًّا، وأقوى مركزًا مما لو كان عاطلًا. فالأمر يبدو كأن لمثل هذا الرجل قيمة. وأنا أعلم ذلك بنفسي، وأنا أطلعكما الآن على أسرار الدولة؛ إن هذه النقطة تؤثر تأثيرًا كبيرًا في صاحب العمل، وأخشى أن يكون مرجع ذلك هو الطبيعة البشرية.

وغمغمت «مارجريت»:

ـ أنا لم أفكر في هذا.

بينما قالت «هيلين»:

ـ إن طبيعتنا البشرية تبدو على نقيض ذلك. إننا نوظف الناس لأنهم عاطلون. ماسح الأحذية مثلًا.

ـ وعلى أي وجه ينظف أحذيتكم؟

واعترفت «مارجريت» قائلة:

ـ على غير ما يرام.

ـ ها أنتِ ذي ترين؟

ـ أأنت إذن تنصحنا حقًّا أن نخبر ذلك الفتى...؟

وقاطعهما وهو يجيل النظر في الرصيف خشية أن يكون السر الذي أذاعه في غير حرص قد وصل إلى أذن أحد:

ـ أنا لا أنصح بشيء. وكان عليَّ ألا أتكلم. لقد اتفق أن علمت بالأمر لأني أقف على نحو ما وراء المسرح. إن وضع شركة «بورفيريون» سيئ. أعمالها متعثرة. والآن لا تقولا إني أخبرتكما بهذا. إن الشركة خارج «اتحاد التعريفة».

ـ أنا لن أقول شيئًا بالتأكيد. وأنا في الواقع لا أفهم معنى كلامك.

واشتركت «هيلين» بقولها:

ـ ظننت أن شركة التأمين لا تفلس أبدًا. ألا تسارع الشركات الأخرى دائمًا إلى إنقاذها؟

وقال السيد «ويلكوكس» في هدوء:

ـ إن فكرك منصرف إلى شركات إعادة التأمين. وشركة «بورفيريون» ضعيفة من هذه الناحية على وجه التحديد. فقد حاولت منافسة غيرها من الشركات بأسعارها المنخفضة وأصيبت بضرر جسيم بعد وقوع سلسلة طويلة من الحرائق الصغيرة، ولم تتمكن من إعادة التأمين. وأخشى أن الشركات العامة لا ينقذ بعضها بعضًا حبًّا وكرامة.

وقالت «هيلين» مرددة عبارته السابقة:

ـ أظن أنها الطبيعة البشرية.

وضحك السيد «ويلكوكس»، ووافقها على أن الأمر كذلك. وعندما قالت «مارجريت» إنها تحسب الكتبة يجدون صعوبة شديدة كغيرهم في الحصول هذه الأيام على وظيفة أجابها:

ـ نعم، صعوبة شديدة.

ونهض ليلحق بأصدقائه. وقد علم بذلك من مكتبه، فقلما تخلو به وظيفة، وهناك مئات من طالبي الالتحاق بها. ولا توجد به وظيفة خالية الآن.

وقالت «مارجريت» راغبة في تغيير الموضوع قبل أن يفترق عنهما:

ـ وكيف يبدو «هواردز إند»؟

وكان السيد «ويلكوكس» يميل قليلًا إلى الظن بأن كل إنسان يريد أن يحصل منه على شيء.

ـ لقد تم تأجيره.

ـ حقًّا؟ وأنت تهيم بلا دار فوق جسر تشيلسي الذي يرتاده ذوو الشعر الطويل من الفتيان، ما أعجب تصرفات الأقدار!

ـ لا، إننا أجرناه غير مفروش. وقد انتقلنا إلى منزل آخر.

ـ ماذا! لقد ظننت أنكما ألقيتما مرساكما فيه إلى الأبد. إن «إيفي» لم تخبرني بذلك قَطُّ.

ـ لعل الأمر لم يكن قد تم يوم قابلت «إيفي». فنحن لم ننتقل إلا من أسبوع. إن «بول» يشعر نوعًا ما بميل إلى المنزل القديم، فظللنا به من أجله حتى يقضي عطلته هناك. بيد أنه في الواقع ضيق على نحو غير معقول. وبه عيوب لا حصر لها. لقد نسيت ما إذا كنت أنت قد ذهبت إليه؟

ـ أنا لم أذهب قَطُّ إلى المنزل.

ـ إن «هواردز إند» ضيعة من تلك الضياع التي حُولت إلى دُور، بيد أنها لا تصلح أبدًا مهما أنفقت في سبيلها. وقد أقمنا بالجهد جراجًا بين جذور شجرة الغرغار الجبلي، وضممنا في العام الماضي جزءًا من المرج إلى الحديقة لنقيم ركنًا صخريًّا فيه. وكانت «إيفي» قد أخذت تهتم نوعًا ما بالنباتات الألبية، ولكنها لم تنجح. لا، لم تنجح. وإنكِ لتذكرين، أو تذكرِ أختكِ مزرعة

الدجاج الغيني القبيح، وسياج النبات الذي تأبى أن تقصه المرأة العجوز كما يجب حتى صار أقل سُمكًا من أسفل. وداخل المنزل تجدين عروق الخشب، والسلم الذي تدخلين إليه من باب. إن البيت جميل جدًّا، ولكنه ليس مكانًا للإقامة.

ونظر مغتبطًا من فوق الحاجز وقال:

ـ مدٌّ كامل! لم يكن موقع المنزل ملائمًا أيضًا. وقد بدأت تنشأ ضاحية حوله. وقد قلت إما أن نسكن في لندن وإما في خارجها. ولذلك اتخذنا لنا منزلًا في شارع «دوسي» الملاصق لشارع «سلون». ومكانًا آخر في شروبشير، «أونيتون جرانج»، أسمعتما عن أونيتون؟ أرجو أن تأتيا وتزوراها. إنها بعيدة كل البعد عن أي مكان في الأرض هناك صوب ويلز.

وقالت «مارجريت»:

ـ يا له من تغير! أنا لا أستطيع أن أتصور «هواردز إند» أو هيلتون من دونكم.

ولكن التغير كان قد طرأ على صوتها الذي شاع فيه الحزن الشديد.

وأجاب:

ـ هيلتون ليست خالية منا، فإن «تشارلز» لا يزال هناك.

وقالت «مارجريت» التي لم تتابع أخبار «تشارلز» وأسرته:

ـ لا يزال؟ ولكني ظننته لا يزال في إبسوم. كانوا يؤثثون المنزل في عيد الميلاد ذاك... في أحد أعياد الميلاد. كيف يتغير كل شيء! لقد اعتدت في كثير من الأحيان أن أنظر إلى السيدة زوجة «تشارلز» من نوافذ منزلنا. ألم يكن المكان هو إبسوم؟

ـ نعم، ولكنهما انتقلا منه منذ ثمانية عشر شهرًا. وقد ظن «تشارلز»، الفتى الطيب...

وهنا خفض صوته:

ـ ظن أني سأعاني الوحدة. وكنت لا أريده أن ينتقل من مسكنه، ولكنه أصر. واستأجر منزلًا في الناحية الأخرى من هيلتون، هناك عند «التلال الستة».

وكان يملك سيارة أيضًا. وها هم أولاء يعيشون جميعًا. أسرة مرحة للغاية، هو وهي والحفيدان.

وقالت «مارجريت» وهما يتصافحان:

ـ إني أنظِّم شؤون غيري على نحو أفضل كثيرًا مما ينظمونها لأنفسهم. ولو كان الأمر بيدي لحملت السيد «تشارلز ويلكوكس» على الانتقال إلى «هواردز إند» على أثر مغادرتك له، واحتفظت للأسرة بمثل هذا البيت الرائع.

وأجاب:

ـ إن الأمر كذلك، فأنا لم أبِعه، ولا أنوي بيعه.

ـ هذا صحيح. ولكن أحدًا منكم لا يقطنه.

ـ أوه، إن لدينا مستأجرًا ممتازًا يشغله، «هامار برايس»، وهو رجل عليل. وإذا أراد «تشارلز» أن يسترجعه منه في أي وقت... ولكنه لن يفعل ذلك. فإن «دوللي» متعلقة جدًّا بوسائل الترفيه الحديثة. لا، إن قرارنا جميعًا كان ضد «هواردز إند». ونحن نميل إليه على وجه ما، ولكننا نشعر الآن بأنه لم يَعُد لا هذا الشيء ولا ذاك، ولا بد للمرء من الحصول على هذا الشيء أو ذاك.

ـ وهناك أناس يجود عليهم الحظ بالشيئين معًا. إنك حققت لنفسك ما تفاخر به يا سيد «ويلكوكس». لك تهانئي.

وقالت «هيلين»:

ـ وتهانئي.

ـ أرجو أن تذكِّر «إيفي» بزيارتنا. رقم ٢ في ويكهام بليس. ونحن أيضًا لن نطيل مكثنا فيه.

ـ أنتم أيضًا بصدد الانتقال من منزلكم؟

وتنهدت «مارجريت»:

ـ في سبتمبر القادم.

ـ الجميع ينتقلون من منازلهم! أترككم بخير.

وبدأ المد يتراجع، ومالت «مارجريت» على السور ولاحظته في حزن. لقد نسي السيد «ويلكوكس» زوجته، ونسيت «هيلين» حبيبها. ولعل «مارجريت» نفسها نسيت ذلك أيضًا. كل إنسان ينتقل. فهل تُجدي محاولة إحياء الماضي مع هذا التدفق المستمر حتى في قلوب الرجال؟

وأيقظتها «هيلين» من تأملها بقولها:

ـ أيَّ سوقيٍّ موسر أصبح السيد «ويلكوكس»! أنا لا حاجة لي به في هذه الأيام. بيد أنه أخبرنا عن شركة «بورفيريون». لنكتب إلى السيد «باست» على أثر وصولنا إلى المنزل، ولنخبره بأن يترك الشركة على الفور.

ـ لتفعلي ذلك، نعم، فهذا عمل يستحق أن نعمله. لنكتب له.

ـ لندعُه إلى تناول الشاي.

## الفصل السادس عشر

وقبِل «لينارد» الدعوة إلى تناول الشاي يوم السبت التالي. ولكنه كان على صواب، فقد أخفقت الزيارة إخفاقًا صارخًا.

قالت «مارجريت»:

ـ شيئًا من السكر؟

وقالت «هيلين»:

ـ كعكًا؟ أتأخذ الكعكة الكبيرة أم شيئًا من الحلوى الصغيرة؟ أخشى أن تكون قد رأيت خطابي شاذًّا. ولكننا سنفسر الأمر، فإننا لسنا في الواقع قومًا شاذين، ولا متصنعين، في الواقع. وكل ما في الأمر أننا نسرف في التعبير.

لم يكن «لينارد» يحسن القبوع بين يدي السيدات. فهو لا يشبه الإيطالي، وهو أبعد شبهًا من الفرنسي الذي تجري في عروقه روح السخرية والإجابة الرشيقة، فإن روحه الفكاهية كانت روح أهل لندن: لا تفتح مجالًا للخيال.

وفجأة صُدت «هيلين» بالعبارة التالية التي قالها لمجرد الكلام:

ـ كلما أفاضت السيدة في الكلام كان ذلك أفضل.

فقالت:

ـ أوه، نعم.

ـ إن السيدات يُضئن...

ـ نعم، أعلم ذلك. فهؤلاء الحبيبات كأشعة الشمس تمامًا. دعني أقدم لك صحنًا.

وتدخلت «مارجريت» بقولها:

ـ إلى أي حدٍّ تحب عملك؟

وفجأة صُد هو أيضًا. فهو لا يسمح لهاتين السيدتين أن تتدخلا في عمله. فقد كانتا ضربًا من الخيال الشعري، وكذلك كانت الغرفة التي استطاع أن ينفذ إليها أخيرًا، والصور الغريبة المرسومة على الحائط لأناس يستحمون، وكذلك أقداح الشاي ذات الحفافي الرقيقة التي ارتسم عليها شليك بري. ولكنه لا يسمح للخيال الشعري أن يتدخل في حياته، وإلا كان ذلك شرًّا.

وأجاب:

ـ أوه، أحبه بقدر كافٍ.

ـ شركتك هي شركة «بورفيريون»، أليس كذلك؟

وقال وقد بدأ يستاء قليلًا:

ـ نعم، هو كذلك. إن الأمور تجري على نحو غريب.

وسألته «هيلين» التي لم تكن تتبع ما يدور في خلده:

ـ غريب! لماذا؟ إن اسمها مكتوب على بطاقتك في حجم كحجم الحياة. وإذا وضعنا في حسباننا أننا أرسلنا إليك كتابنا بعنوانها، وأنك كتبت ردك على ورقة مطبوع عليها اسمها...

وواصلت «مارجريت» كلامها:

ـ أتعدُّ شركة «بورفيريون» إحدى شركات التأمين الكبرى؟

ـ هذا يتوقف على مقدار ما تسمينه كبيرًا.

ـ أقصد بالشركة الكبيرة، الشركة ذات الأركان الراسخة، والأعمال الثابتة. الشركة التي تتيح لموظفيها مستقبلًا طيبًا إلى حدٍّ معقول.

وقال الموظف غير مستريح:

ـ لا أستطيع الجزم بشيء، فبعض الناس يقول لك شيئًا، وغيرهم يقول لك شيئًا آخر. أما من ناحيتي...

وهز رأسه واستطرد:

ـ فأنا لا أصدق إلا نصف ما أسمع. بل لا أصدق حتى هذا القدر، وهذا أسلم. وقد لاحظت أن الناس المهرة يقعون غالبًا في شر نهاية. آه، إنكِ لا تستطيعين أن تكوني حريصة كل الحرص.

واحتسى الشاي، ومسح شاربه الذي أوشك أن يصبح من تلك الشوارب التي تنغمس دائمًا في أقداح الشاي، والتي تزيد مضايقتها على قيمتها بالتأكيد، وليست كذلك من آخر طراز.

ـ أنا أوافقك تمامًا، ولذلك تشوقت إلى معرفة ما إذا كانت شركتك راسخة الأركان، وأعمالها مستقرة ثابتة.

ولم تكن لدى «لينارد» أي فكرة عن ذلك. فقد كان يعرف ركنه هو من الآلة، ولا يعرف شيئًا عداه. وهو لم يُرِد أن يعترف بمعرفته أو بجهله، وإيماءة أخرى بالرأس بدت أسلم في مثل هذه الظروف. فشركة «بورفيريون» المرسومة في الإعلانات عملاق كلاسيكي الطراز، ولكنه يتدثر بالقطيفة، ويحمل بإحدى يديه مشعلًا مضاء، ويشير بالأخرى إلى كنيسة «سانت بول» وقصر وندسور، وهناك مبلغ ضخم من المال مذكور تحته. وعليك أنت أن تستخلص النتيجة التي تراها. وهذا العملاق كان يكلف «لينارد» عمليات حسابية، وكتابة الرسائل، وتفسير التعليمات للعملاء الجدد، وإعادة تفسيرها للعملاء القدامى. إن العملاق ذو فضيلة فطرية، و«لينارد» يعرف عنه ذلك القدر، فقد يدفع العملاق للسيدة «منت» ثمن غطاء لمدفأتها في سرعة يباهي بها، ويرفض الطلب الكبير في هدوء، ويناضل من محكمة إلى أخرى. ولكن وزن نضاله الحقيقي، وسوابقه، ومغازلاته لبقية أعضاء «البانثيون» التجاري، هذا جميعه يبدو غامضًا للمخلوقات العادية كما كانت تبدو نزوات «زيوس». ونحن لا نعرف عن الآلهة إلا القليل عندما يكونون أقوياء، وفي أيام تدهورهم فقط يسطع نور قوي في السماء.

وقالت «هيلين» في اندفاع:

ـ قيل لنا إن شركة «بورفيريون» تتعثر، وقد أردنا أن نخبرك بالأمر، ولذلك كتبنا لك.

وقالت «مارجريت»:

ـ يرى صديق لنا أنه ليس مُؤَمنًا عليها تأمينًا كافيًا.

وتفتح الباب لـ«لينارد» الآن. فعليه أن يشيد بشركة «بورفيريون». قال:

ـ تستطيعان أن تخبرا صديقكما أنه مخطئ كل الخطأ.

ـ أوه، هذا حسن!

واصطبغ وجه الفتى قليلًا، فارتكاب الخطأ في محيطه خطب جلل، في حين لا تهتم آنستا أسرة «شليجل» بأن تخطآ. وقد سرتا سرورًا حقيقيًّا بأن الأخبار التي تلقتاها كانت خطأ. وليس من خطب جلل في نظرهما إلا الشر.

وأضاف:

ـ صديقكما مخطئ، إن جاز لي هذا التعبير.

ـ ما معنى: إن جاز لك هذا التعبير؟

ـ أعني أني لا أقول بأنه على صواب تمامًا.

ولكن هذا كان منه تخبطًا، وقالت الفتاة الكبرى في لمح البرق:

ـ هو إذن على جانب من الصواب.

وأجاب «لينارد» بأن كل امرئ على جانب من الصواب إن توخيت الحقيقة.

ـ يا سيد «باست»، أنا لا أفهم في الأعمال، وربما كانت أسئلتي عنها سخيفة. ولكن أتستطيع أن تخبرني عما يجعل مشروعًا من المشروعات ناجحًا أو فاشلًا؟

ومال «لينارد» إلى الخلف متنهدًا.

ـ إن صديقنا الذي هو رجل أعمال أيضًا، كان متأكدًا جدًّا. وقال إنه قبل عيد الميلاد...

وأتمت «هيلين» القول:

ـ وقد نصحك أن تجلو عنها. ولكني لا أرى سببًا يجعله أدرى منك بالأمر.

وفرك «لينارد» يديه. وشعر بدافع يغريه بأن يقول إنه لا يعرف عن الموضوع شيئًا البتة. ولكن التدرب التجاري كان أقوى منه، ثم هو لا يستطيع أن يقول عن الشركة إنها سيئة، فذلك يعني إفشاء سرها، ولا هو يستطيع أن يقول

إنها جيدة، فذلك يعني أيضًا إفشاء سرها. وقد حاول أن يشير إلى أنها شيء بين بين، وأن احتمالاتها كبيرة من كلتا الناحيتين. ولكن الفتى تخاذل تحت نظرات أربع عيون صادقة. وهو مع ذلك لم يكَد يميز بين الأختين. فإحداهما أجمل وأشد حيوية، ولكن الآنستين «شليجل» ظلتا في نظره إلهًا هنديًّا مُركبًا، تَصْدُر تلويحات ذراعيه وأحاديثه المتناقضة من عقل واحد.

وأبدى الملاحظة الآتية:

ـ لا يستطيع الإنسان إلا أن يرى.

ثم أضاف:

ـ وكما قال «إبسن»: «إن الأمور تحدث».

كان يتوق إلى التحدث عن الكتب، وإلى أن يفيد أكبر فائدة من الساعة الشعرية الجميلة المتاحة له. وانسلخ الوقت دقيقة بعد أخرى بينما السيدتان تناقشان ببراعة عرجاء موضوع إعادة التأمين، أو تمتدحان صديقهما مجهول الاسم. وازداد ضجر «ليناردِ»، ولعله كان محقًّا في ذلك. وأومأ بملاحظات غامضة إلى أنه ليس من أولئك الذين يعارضون في أن يخوض الغير في شؤونهم الخاصة، ولكنهما لم تفطنا إلى تلميحه. ولعل الرجال في هذا الموقف كانوا يبدون قدرًا أكبر من اللباقة. والنساء وإن كن يراعين الذوق في حالات أخرى، فإنهن غير لبقات في مثل هذه الحالة، وهن لا يدركن السبب الذي يدعونا إلى إسدال الستر على إيراداتنا الحاضرة والمرجوة: «ما مقدار ما تملكه الآن بالضبط، وما مقدار ما تنتظر أن تملكه في يونيو القادم؟». ثم إن هاتين السيدتين تدينان بمبدأ، فهما تريان أنَّ تكتم الشؤون المالية سخافة، وأن الحياة تكون أصدق إذا كشف كل فرد ـ على وجه التحديد ـ مساحة الجزيرة الذهبية التي يقف عليها، وطول السدى الذي سينسج عليه اللحمة ـ وهي غير المال ـ وإلا فكيف نحكم حكمًا صحيحًا على القالب أو النموذج بغير هذه الطريقة؟

وانسلت الدقائق الثمينة، واقترب موعد عودته إلى «جاكي» وحياة البذاذة، ولم يستطع آخر الأمر أن يحتمل أكثر من ذلك، فاندفع يتلو أسماء الكتب محمومًا. وكانت لحظة من لحظات الفرح الخارق عندما قالت «مارجريت»:

ـ أنت تحب «كارلايل» إذن.

وفتح الباب على الأثر، ودخل كل من السيد «ويلكوكس» والآنسة «ويلكوكس»، يسبقهما جروان يتوثبان.

وصاحت «هيلين» وهي تركع على ركبتيها ويديها أمام الكلبين الصغيرين:

ـ أوه، يا للعزيزين! أوه يا «إيفي»، يا لعذوبتهما التي تفوق المعقول!

وقال السيد «ويلكوكس»:

ـ لقد جئنا لكما بالصغيرين.

ـ لقد ربيتهما بنفسي.

ـ أوه، حقًّا! تعالَ العب مع الجروين يا سيد «باست».

وقال «لينارد» بحدة:

ـ لا بد لي من الانصراف الآن.

ـ ولكن العب مع الجروين قليلًا قبل انصرافك.

وقالت «إيفي»، التي كانت من أولئك الذين يطلقون على حيواناتهم الأسماء الخائبة في تاريخ التوراة:

ـ هذا «آخاب»، وهذه «إيزابل».

ـ لا بد لي من الانصراف.

وكان اهتمام «هيلين» الكبير بالجروين أشد من أن يجعلها تلتفت إليه.

ـ السيد «ويلكوكس». السيد «با...»، ألا بد من انصرافك حقًّا؟ أسعدت مساء.

وقالت «هيلين» وهي في مكانها على أرض الحجرة:

ـ زرنا ثانية.

وصعدت روح «لينارد» إلى حلقه. لماذا يزورهم ثانية؟ وما جدوى ذلك؟ وقال لها بلا مواربة:

ـ لا، لن أحضر ثانية. كنت أعلم أن زيارتي لكما ستخفق.

وأغلب الناس كانوا في هذا الظرف سيدعونه ينصرف قائلين: «إنها هفوة. لقد حاولنا أن نعرف طبقة أخرى، وهذا مستحيل». بيد أن أسرة «شليجل» لم تلهُ قَطُّ بالحياة. لقد سعت إلى الصداقة، وهي تتحمل النتائج. وردت «هيلين» الإهانة بقولها:

ـ إني أسمي هذا ملاحظة وقحة جدًّا. ماذا تقصد من هجومك عليَّ هكذا؟

وعلى حين فجأة رددت غرفة الاستقبال أصداء مشاجرة صاخبة:

ـ أتسألينني لماذا أهاجمكِ؟

ـ نعم.

ـ ماذا تبتغين من إحضاري هنا؟

وصاحت «هيلين»:

ـ لنساعدك أيها الغلام الأبله! ولا تزعق هكذا.

ـ أنا لا أريد ولايتك. أنا لا أريد شايك. لقد كنت سعيدًا. ماذا تبتغيان من وراء إقلاقي؟

ودار إلى السيد «ويلكوكس»:

ـ أنا أعرض الأمر على هذا السيد... إني أسألك يا سيدي، أيجوز أن أُحمل على إفشاء سر؟

ودار السيد «ويلكوكس» إلى «مارجريت» وقد بدا عليه مظهر القوة المازحة الذي كان يتقنه كل الإتقان:

ـ أترانا أقحمنا أنفسنا عليكم يا آنسة «شليجل»؟ أيمكن أن نؤدي لكم خدمة، أن ننصرف؟

ولكن «مارجريت» تجاهلته.

ـ أنا موظف يا سيدي بشركة تأمين رئيسية. وقد تلقيت ما حسبته دعوة من هاتين... السيدتين (ومط لفظة «السيدتين») وحضرت، وإذا بي أحضر لأحمل على إفشاء سر. وأنا أسألك يا سيدي، أهذا عدل؟

وقال السيد «ويلكوكس»:

ـ هذا حيف كبير.

وشهقت «إيفي» إذ أدركت أن أباها بدأ يصبح خطرًا.

ـ ها هو ذا، أسمعتما؟ يقول السيد إنه حيف كبير. إنها لم تكتفِ...

وأشار إلى «مارجريت»:

ـ أنتِ لا تستطيعين إنكار ذلك.

وارتفع صوته، وبدأ يتخذ الإيقاع الذي تجري عليه مشاحناته مع «جاكي»:

ـ ولكن الحال تختلف تمامًا في الوقت الذي أصبح فيه نافعًا: «أوه، نعم... لنرسل في طلبه. لنستجوبه. لنكشف عن دخائل عقله». أوه، نعم. إذا نظرتم إليَّ في الجملة وجدتموني شخصًا هادئًا، أتبع القانون، ولا أحب تكدير أحد. ولكني... لكني...

وقالت «مارجريت»:

ـ ولكنكَ... ولكنكَ... ولكنكَ...

وتصاعدت ضحكات «إيفي» كأنها تضحك لرد ذكي.

ـ ولكنكَ الرجل الذي أراد أن يتجول مسترشدًا بنجم القطب الشمالي.

وتزايدت الضحكات.

ـ وقد رأيت الشروق.

وتعالت الضحكات.

ـ وحاولت أن تبتعد عن الضباب الذي يكتم أنفاسنا جميعًا، أن تبتعد إلى ما وراء الكتب والمنازل، إلى الحقيقة. أنت تبحث عن مأوى حقيقي.

وقال «لينارد» مشتعلًا بغضب غبي:

ـ لا أدري ما العلاقة...

ـ كذلك أنا...

وصمتت فترة، ثم تابعت:

ـ إنك كنت على نحو يوم الأحد الماضي، وأصبحت على نحو آخر اليوم. وقد تناقشنا أنا وأختي في أمرك يا سيد «باست»، وأردنا أن نعاونك، وقدرنا كذلك أنك يمكن أن تعاوننا. ونحن لم نستدعِك من باب الإحسان، فإننا نضيق بذلك، ولكن لأننا رجونا أن تكون هناك رابطة بين يوم الأحد الماضي والأيام الأخرى. فأي خير في نجومك وأشجارك وشروق شمسك ورياحك إذا هي لم تدخل في حياتنا اليومية؟ ظننا أنها لم تدخل في حياتنا، ولكن في حياتك فقط. أليس علينا جميعًا أن نكافح شقاء الحياة اليومية، والخسة، والابتهاج المصطنع، وإساءة الظن؟ أنا أكافح ذلك بتذكر أصدقائي، وأعلم أن غيري يكافحون بتذكر مكان ما، مكان ما محبوب، أو شجرة، وقد ظنناك أحد هؤلاء.

وغمغم «لينارد»:

ـ إذا كان هناك بالطبع أي سوء تفاهم، فما عليَّ إلا أن أرحل. ولكني أستميحكما في أن أقرر...

وتوقف قليلًا. وأخذ «آخاب» و«إيزابل» يرقصان عند حذائه، وجعلاه يبدو مضحكًا:

ـ كنتما تستدرجانني لتحصلا على معلومات رسمية. أنا أستطيع أن أثبت ذلك. أنا...

وتمخط، ثم غادرهم.

وقال السيد «ويلكوكس» وهو يلتفت إلى «مارجريت»:

ـ أأستطيع أن أعينك الآن؟ أيمكن أن أتبادل معه كلمة هادئة في الردهة؟

ـ اذهبي وراءه يا «هيلين». افعلي أي شيء، أي شيء، لتحملي هذا الأخرق على الفهم.

وترددت «هيلين». وقال زائرهما:

ـ ولكن، أعليها أن تذهب حقًّا؟

فذهبت على الفور. واستأنف قوله:

ـ أردت أن أتدخل، ولكني شعرت بأنكما تستطيعان أن تعطياه درسًا بأنفسكما. ولذا لم أتدخل. لقد كنتِ رائعة يا آنسة «شليجل»، رائعة للغاية. وتستطيعين أن تصدقيني. ولكن نسوة قليلات جدًّا كن يستطعن التصرف معه لو كن في مكانكِ.

وقالت «مارجريت» شاردة الذهن:

ـ أوه، نعم.

وصاحت «إيفي»:

ـ إن قذفه بهذه الجمل الطويلة هو الذي أضحكني.

وقال أبوها وهو يكتم ضحكه:

ـ نعم، يقينًا، كل هذا الجزء من حديثها عن الابتهاج المصطنع، أوه، ما أجمله!

وقالت «مارجريت» وهي تتماسك:

ـ أنا آسفة جدًّا، فهو مخلوق لطيف حقًّا، ولست أفهم ما الذي أثاره، وقد كان ذلك مكدِّرًا جدًّا لكما.

ـ أوه، أنا لا أبالي.

ثم غير طريقته. وسأل عما إذا كان يستطيع أن يتحدث بحسبانه صديقًا قديمًا. وقال وقد أجيب إلى ما طلب:

ـ ألا يجب حقًّا أن تكونا أشد حرصًا؟

وضحكت «مارجريت» برغم أن أفكارها كانت شاردة في أثر «هيلين»:

ـ أتعرف أن ذلك نتيجة خطئك أنت؟ فأنت المسؤول.

ـ أنا؟

ـ هذا هو الفتى الذي كان علينا أن نحذره من شركة «بورفيريون»، وقد حذرناه، فانظر!

وتضايق السيد «ويلكوكس» وقال:

ـ يصعب أن أعدَّ ذلك استنتاجًا عادلًا.

وقالت «مارجريت»:

ـ من الواضح أنه غير عادل. إنما كنت أفكر في مدى تشابك الأشياء وتعقدها. إن أغلب الخطأ يقع على عاتقنا، لا عاتقك ولا عاتقه.

ـ لا يقع على عاتقه؟

ـ لا.

ـ أنتِ يا آنسة «شليجل» كريمة جدًّا.

وأومأت «إيفي» في شيء من الازدراء.

ـ نعم، من دون مراء.

ـ أنتِ تسرفين في العطف على الناس فإذا هم يفرضون أنفسهم عليكِ. أنا أدرى بالحياة وبهذا الطراز من الناس، وقد تبينت على أثر دخولي الغرفة أنكِ لا تعاملينه المعاملة الواجبة. لا بد أن توقفي هذا الطراز من الناس على مسافة منكِ، وإلا نسوا أنفسهم. هذا مؤلم، ولكنه الحقيقة. إنهم ليسوا من طرازنا، ولا بد للإنسان من مواجهة الحقيقة.

ـ نـــعم.

ـ اعترفي بأن هذه السورة لم تكن لتقع قَطُّ لو أنه كان رجلًا مهذبًا.

وقالت «مارجريت» التي كانت تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا:

ـ أنا أعترف بذلك عن رضا، فالرجل المهذب كان سيحتفظ بشكوكه لنفسه.

وراقبها السيد «ويلكوكس» بقلق مبهم.

ـ وما الذي ظنه فيكما؟

ـ ظن أننا نحاول أن نكسب مالًا من ورائه.

ـ وحش لا يحتمل! ولكن على أي نحو يمكنكما أن تفيدا منه؟

ـ حقيقة! كيف يمكننا ذلك! إنه لمجرد شك فظيع يفري الذهن. وإن لمسة واحدة من الفكر أو من حسن النية كانت كفيلة بتنظيف ذهنه منه. إنه مجرد الخوف الأعمى الذي يحيل الرجال إلى وحوش لا تُحتمل.

ـ أعود إلى نقطتي الأصلية. يجب أن تكوني أكثر حرصًا يا آنسة «شليجل»، وأن يتلقى خدمكِ أمرًا بأن يمنعوا مثل أولئك الناس من الدخول.

ودارت إليه فواجهته بصراحتها:

ـ دعني أشرح لك على وجه الدقة سبب إعجابنا بهذا الرجل ورغبتنا في لقائه من جديد.

ـ هذه هي طريقتك الماهرة في الحديث. أنا لن أصدق أبدًا أنه يعجبك.

ـ بل يعجبني، ويرجع ذلك أولًا إلى أنه يحب المغامرات الطبيعية كما تحبها أنت تمامًا. نعم، فأنت تخرج إلى الصيد، وتجوب البلاد بالسيارة، وهو يحب الرحيل إلى الخلاء، والعيش في الخيام. وهو ثانيًا يحب شيئًا معينًا في المغامرة، ولنُسمِّ هذا الشيء باختصار شعرًا...

ـ أوه، إنه من طبقة الكُتاب.

ـ لا، أوه لا! أقصد أنه قد يكون كذلك، ولكن كتابته تكون في هذه الحالة مادة غثة، فذهنه مشحون بقشور الكتب والثقافة... فظيع. إننا نريده أن يغسل ذهنه ويتجه إلى الشيء الصحيح. إننا نبتغي إرشاده إلى التعادل مع الحياة. وكما سبق أن قلت: إما أصدقاء، وإما الريف. إما إنسان...

وترددت قبل أن تستطرد:

ـ يبدو أنه لا بد إما من إنسان عزيز جدًّا، وإما مكان عزيز جدًّا للتخفيف من كآبة الحياة اليومية وإظهار كآبتها. وإذا أمكن فليتوفر للإنسان كلاهما.

وقد فات السيد «ويلكوكس» بعض كلماتها فتركها تفوت. والتقط بعضها الآخر فانتقدها في وضوح باهر:

ـ إن خطأكِ، وهو خطأ شائع جدًّا، يرجع إلى أن هذا الشاب الرذل له حياته الخاصة، فبأي حق تستخلصين أنها حياة غير ناجحة، أو أنها، كما تسمينها، حياة كئيبة.

ـ لأن...

ـ دقيقة واحدة. أنتِ لا تعرفين عنه شيئًا. وأكبر الظن أن له مباهجه واهتماماته الخاصة: زوجة وأولاد، ودار صغيرة مريحة. وهذا هو ما يجعلنا نحن معشر العمليين (وهنا ابتسم) أكثر تسامحًا منكم أنتم المثقفين. نحن نعيش وندع غيرنا يعيش، ونفترض أن الأمور تسير سيرًا لا بأس به مع غيرنا، وأن الرجل العادي البسيط يمكن الوثوق به في رعاية شؤونه الخاصة. أنا أسلم لك، فأنا أنظر إلى الموظفين الكتابيين في مكتبي، وألاحظ أنهم بُلداء الفهم، ولكني لا أعرف ما يجري في الخفاء. وهذه هي حال لندن. وبهذه المناسبة، لقد سمعتكِ تتهكمين على لندن يا آنسة «شليجل». ويبدو عجبًا أن أقول لكِ إني استأت منكِ جدًّا. ماذا تعرفين عن لندن؟ أنتِ لا ترين الحضارة إلا من ظاهرها... ولست أقول عن حالتكِ هذه، ولكن في حالات كثيرة جدًّا يؤدي هذا الموقف إلى الانحراف، والتبرم، والاشتراكية.

وأقرت بقوة موقفه، ولو أنه موقف يقوض الخيال، وتهدمت وهو يتحدث بعض المعاقل الأمامية للشعر، وربما للعطف أيضًا. وتقهقرت هي إلى ما تسميه «الخط الثاني»، إلى بعض وقائع القضية، فقالت ببساطة:

ـ زوجته امرأة مزعجة. وهو لم يَعُد إلى بيته ليلة السبت لأنه أحب أن ينفرد بنفسه. وقد ظنت زوجته أنه كان معنا.

ـ معكما؟

ـ نعم.

وضحكت «إيفي»:

ـ يفتقد البيت المريح الذي تخيلتِه، ويحتاج إلى اهتمامات خارجية.

وصاحت الفتاة:

ـ شاب شقي.

وقالت «مارجريت» التي تكره الشقاوة أكثر مما تكره الخطيئة نفسها:

ـ شقي؟ ألن ترغبي بعد زواجكِ، يا آنسة «ويلكوكس»، في اهتمامات خارجية؟

وقال السيد «ويلكوكس» في خبث:

ـ لقد حقق تلك الاهتمامات على ما يبدو.

ـ نعم، بالتأكيد، يا أبي.

وقالت «مارجريت» بشيء من الحدة وهي تتمشى مبتعدة عنهما:

ـ كان يضرب في أرجاء سارِّي على غير هدى، إذا كنتِ تقصدين ذلك.

ـ أوه، صحيح!

ـ كان يفعل يا آنسة «ويلكوكس»!

وانطلقت من السيد «ويلكوكس» هذه النأمة:

ـ م... م... م... م!

وقد ظن هذا الفصل مسليًا، وإن شابه شيء من عدم اللياقة. وهو لم يكن ليناقش هذا الأمر مع معظم السيدات، ولكنه كان يستغل ما اشتهرت به «مارجريت» من أنها امرأة متحررة.

ـ لقد قال ذلك. وهو لا يكذب في مثل هذه الأمور.

وأخذا يضحكان كلاهما.

ـ هذا هو موضع اختلافي معك. فالرجال يكذبون فيما يتعلق بمراكزهم وأرباحهم المرجوة، ولكنهم لا يكذبون في أمر من هذا النوع.

هز رأسه:

ـ أستميحكِ عذرًا يا آنسة «شليجل»، ولكني أعرف هذا الطراز.

ـ أنا قلت من قبل إنه ليس طرازًا خاصًّا. فهو يحب المغامرات حبًّا حقيقيًّا. وهو على يقين من أن حياة الرضا عن النفس التي نحياها ليست كل ما في الوجود. إنه سوقي ومستهتر ومولَع بالكتب، ولكن لا تظن أن هذا هو مجمله. فهو ينطوي على رجولة كذلك. نعم، هذا هو ما أحاول قوله إنه رجل بحق.

وتقابلت نظراتهما وهي تتكلم، وبدا كأن خطوط دفاع السيد «ويلكوكس» انهارت. وتكَشف لها الرجل الحقيقي الكامن فيه، لقد لمست عن غير قصد مشاعره. إن امرأة ورجلين قد كَونوا المثلث السحري للجنس. وسَرت الغيرة في أوصال الذكر لأن الأنثى مالت إلى ذكر آخر. يقول الزهاد إن الحب يكشف عن قرابتنا المخزية للحيوان. وليكن ذلك، فالمرء يمكن احتماله. ولكن الغيرة هي المخزية حقًّا. إن الغيرة، لا الحب، هي التي تربطنا على نحو لا يحتمل بمزرعة الدواجن، وتبتعث رؤى ديكين غاضبين ودجاجة معجبة بنفسها. وداست «مارجريت» على ذلك الإعجاب لأنها كانت متحضرة، أما السيد «ويلكوكس» غير المتحضر فقد ظل يشعر بالغضب فترة طويلة بعد أن أقام خطوط دفاعه من جديد، وعاد يواجه الحياة من حصنه.

ـ أنتما مخلوقتان لطيفتان يا آنسة «شليجل». ولكن يجب حقًّا أن تكونا أكثر حيطة في هذه الدنيا اللئيمة. وماذا يقول أخوك؟

ـ نسيت.

ـ إن له رأيه من دون ريب؟

ـ إنه يضحك، إذا كانت ذاكرتي لم تخطئ.

وقالت «إيفي» التي كانت قد التقت بـ«تيبي» في «أكسفورد» وأبغضته:

ـ إنه ذكي جدًّا، أليس كذلك؟

ـ نعم، ذكي جدًّا. ولكني أعجب ماذا تصنع «هيلين».

وقال السيد «ويلكوكس»:

ـ إنها أصغر كثيرًا من أن تتكفل بهذا النوع من الأمور.

وخرجت «مارجريت» إلى عتبة السلم فلم تسمع صوتًا، ووجدت أن قبعة السيد «باست» الطويلة لم تَعُد في الردهة. ونادت:

ـ «هيلين»!

وأجابها صوت من المكتبة:

ـ نعم.

ـ أأنت هناك؟

ـ نعم. وقد رحل منذ بعض الوقت.

وذهبت إليها «مارجريت» وقالت:

ـ أنت هنا وحدك.

ـ نعـ... ليس في الأمر شيء يا «ميج». إنه مخلوق مسكين مسكين.

ـ عودي بنا إلى السيد «ويلكوكس» وابنته، وأرجئي الحديث إلى ما بعد. السيد «ويلكوكس» مهتم جدًّا، ومتحمس قليلًا.

ـ أوه، أنا أضيق به ذرعًا. أنا أمقته. يا للسيد «باست» اللطيف المسكين! كان يرغب في التحدث عن الأدب، ونحن نأبى إلا الحديث عن العمل. إنه إنسان مهوش، وهو مع ذلك يستحق إنقاذه من ورطته. إني أعجب به إعجابًا شديدًا.

وقالت «مارجريت» وهي تقبلها:

ـ حسنًا فعلتِ. ولكن تعالَي الآن إلى غرفة الاستقبال، ولا تتحدثي عنه أمام أسرة «ويلكوكس»، خذي الأمر كله مأخذًا سهلًا.

ودخلت «هيلين»، وأشربت سلوكها بقدر من البهجة أعاد الاطمئنان إلى زائرهما. كانت هذه الدجاجة على أي حال. خالية من الأوهام.

وصاحت قائلة:

ـ لقد ذهب مشيعًا ببركاتي. والآن إلى الكلبين!

وقال السيد «ويلكوكس» لابنته وهما ينصرفان في سيارتهما:

ـ إني في الواقع قلِق لطريقة سلوك هاتين الفتاتين. إنهما ذكيتان إلى الحد الذي تشائين، ولكنهما غير عمليتين، يرحمنا الله! إنهما ستشتطان جدًّا في يوم من الأيام. لا يجوز لفتاتين مثلهما أن تعيشا بمفردهما في لندن. ويجب أن يتولى أحد رعايتهما إلى يوم تتزوجان. ولا بد لنا أن نزيد من زيارتنا لهما، ونحن خير من لا أحد. أنتِ تميلين إليهما، أليس كذلك يا «إيفي»؟

وأجابت «إيفي»:

ـ «هيلين» لا بأس بها، ولكني لا أحتمل ذات الضب، وما كان يجب أن أطلق على أي منهما كلمة «فتاة»، فهما عانسان.

كانت «إيفي» قد شبَّت مليحة الوجه. وكانت عيناها سوداوين، وصباها الذي يتوهج تحت تلويح الشمس، وبنيانها المتين، وشفتاها الراكزتان، أحسن ما يمكن أسرة «ويلكوكس» أن تبتدعه في ميدان الجمال النسائي. وهي لا تحب في الوقت الحاضر إلا الجروين وأباها. ولكن حبائل الزواج كانت قد نصبت لها. وبعد أيام انجذبت إلى السيد «بيرسي كاهل»، أحد أعمام زوجة «تشارلز»، وانجذب هو إليها.

## الفصل السابع عشر

إن لعصر المِلكية لحظات مريرة حتى للمُلاك أنفسهم. وعندما يقترب أوان الانتقال من منزل إلى آخر يصبح الأثاث مثارًا للسخرية. كانت «مارجريت» تقضي الآن لياليها راقدة من دون أن تغفل، متسائلة في أي بقاع الأرض سيستقرون هم وحاجاتهم في شهر سبتمبر القادم! إن المقاعد والموائد واللوحات والكتب التي تدحرجت إليهم في جلبة من خلال الأجيال المتعاقبة، يجب أن تدحرج ثانية إلى أمام، كأنها عربة من النفايات تتوق «مارجريت» إلى أن تدفعها الدفعة الأخيرة إلى البحر. ولكن كانت هناك كل كتب أبيهم، وهم لم يقرأوها قَطُّ، ولكنها كتب أبيهم، ولا بد من الاحتفاظ بها. وكانت هناك خزانة الملابس المغطاة بالرخام، وكانت أمهم تعتز بها لسبب، عجزوا عن أن يذكروه الآن. وقد تجمعت حول كل مقبض وكل وسادة في المنزل عواطف... عواطف هي في بعض الأحيان شخصية، وفي أكثر الأحيان هي احترام ضئيل للموتى، وامتداد للطقوس التي كان يمكن أن تنتهي عند القبر.

إنه لسخف إذا فكرت فيه، وقد أخذ كل من «تيبي» و«هيلين» يفكران فيه. وكانت «مارجريت» في شغل شاغل عنه مع وسطاء البيوت. إن المِلكية الإقطاعية للأرض كانت تورث الوقار، بينما المِلكية الحديثة للمنقولات ترجع بنا القهقرى إلى عهد القبائل الرحل. إننا نرتد إلى حضارة الأمتعة المنقولة. وسيذكر مؤرخو المستقبل كيف كانت الطبقات الوسطى تكثر من تمَلك الأمتعة من دون أن تتخذ لها قرارًا من الأرض، وقد يجدون في ذلك سر فقرها في الخيال. ولا شك أن أفراد أسرة «شليجل» أفقرهم بسبب فقدهم «ويكهام بليس»، فهذا المنزل قد ساعدهم على موازنة حياتهم، بل كاد يساعدهم بإبداء المشورة. وليس مالك منزلهم أغنى منهم روحيًّا، فقد أقام عمارة سكنية في مكان ذلك المنزل. وازدادت سرعة سياراته، وكان تنديده «بالاشتراكية» أجدَّ وأقطع. ولكنه أراق الخلاصة النفيسة التي قُطِّرت في سنين، وكيمياؤه لا تستطيع أن تعيدها إلى المجتمع كما كانت.

وتملَّك الهم «مارجريت». كانت تتوق إلى الاستقرار في منزل قبل مغادرة المدينة للقيام بالزيارة السنوية للسيدة «منت». وكانت تجد متعة في هذه الزيارة فأرادت أن تقوم بها وهي مرتاحة البال. وبلدة سوانيج مستقرة برغم هدوئها الممل. وشعرت «مارجريت» هذا العام باشتياق أشد من العادة إلى هوائها النقي، وهضابها البديعة التي تحرسها في الشمال، أما لندن فتخنقها. وهي لا تستطيع أن تركز أفكارها في جو تلك المدينة. إن لندن تستثير فقط ولكنها لا تستطيع أن تقيم أودًا. وكانت «مارجريت»، وهي تطوي أديمها

مسرعة بحثًا عن مسكن، من دون أن تعرف أي نوع من المساكن تريد، تدفع ثمن أحاسيس الماضي الكثيرة اللذيذة، وهي لم تستطع حتى التحرر من قيود الثقافة، فتَبدد وقتها في حضور الحفلات التي يُعَد عدم حضورها خطيئة، وفي تلبية الدعوات التي لا يجوز رفضها. واستولى عليها اليأس في النهاية، واعتزمت أن تمتنع عن الذهاب إلى أي مكان، وعن استقبال أي زائر حتى تجد مسكنًا. ثم نقضت ما عقدت عليه العزم بعد نصف ساعة.

وكانت مرة قد بكت حظها، على سبيل المزاح، لأنها لم تغشَ قَطُّ مطعم «سيمبسون» في «ستراند». والآن جاءتها من الآنسة «ويلكوكس» رسالة تدعوها إلى تناول الغداء في المطعم المذكور، وسيكون السيد «كاهل» حاضرًا، وسيتاح لثلاثتهم أن يسمروا سمرًا مبهجًا. وربما ختموا يومهم في ميدان سباق الخيل. ولم تكن «مارجريت» تخص «إيفي» باعتبار كبير، ولم تكن ترغب في لقاء خطيبها، وقد أدهشها ألا تُدعى «هيلين» بدلها وهي أشد استلطافًا لمطعم «سيمبسون». ولكن الدعوة مست عاطفتها بلهجتها الحميمة. لا بد لها إذن أن تعرف «إيفي» خيرًا مما خيل إليها أنها تعرفها، وإذا صرحت بأنه لا بد من ذهابها، قبلت الدعوة.

ولكنها حينما رأت «إيفي» تشخص ببصرها إلى الفراغ في شراسة عند مدخل المطعم على طريقة السيدات الرياضيات، خذلها قلبها من جديد. لقد طرأ على الآنسة «ويلكوكس» تغير محسوس منذ خطبتها. فصوتها أصبح أكثر خشونة، وخُلقها أقل تهذيبًا، وأصبحت تميل إلى التظاهر بالعطف على العذراء المفضلة. وكانت «مارجريت» بلهاء إلى حد أن ذلك آلمها. ولم ترَ، وهي مهمومة لانعزالها، المنازل ومنقولاتها فحسب، ولكنها رأت سفينة الحياة أيضًا تتجاوزها وهي تحمل على ظهرها أناسًا مثل «إيفي» والسيد «كاهل».

وهناك لحظات تخذلنا فيها الفضيلة والحكمة. وقد مرت إحدى تلك اللحظات بـ«مارجريت» في مطعم «سيمبسون» بشارع «ستراند». وعندما صعدت السلم الضيق المكسو ببساط سميك، وعندما دخلت قاعة الطعام حيث تدار أضلاع الضأن على رجال الدين المترقبين، اقتنعت بتفاهتها اقتناعًا قويًّا، وإن يكن خاطئًا، وودت لو أنها لم تخرج قَطُّ من بيتها الهادئ حيث لا يحدث حادث خلاف الحديث عن الفن والأدب، وحيث لا تتزوج فتاة أبدًا، أو تنجح في البقاء مخطوبة، ثم وقعت مفاجأة صغيرة:

ـ قد ينضم أبي لجماعتنا. نعم، ها هو ذا قد حضر.

وتقدمت «مارجريت» لتحيته وعلى ثغرها ابتسامة سرور، وتبدد شعورها بالوحدة.

قال السيد «ويلكوكس»:

ـ خطر لي أن أحضر لو أمكنني الحضور. وقد أنبأتني «إيفي» بتدبيرها هذا الصغير، ولذا انسللت إلى هنا وحجزت مائدة، عليكم دائمًا أن تحجزوا مائدة مقدمًا.

«إيفي»، لا تدَّعي أنكِ ترغبين في الجلوس إلى جانب أبيكِ، لأنكِ لا ترغبين في ذلك.

يا آنسة «شليجل» تعالَي اجلسي إلى جانبي من قبيل الرحمة بي. يا إلهي! ولكنكِ تبدين متعبة! أكنتِ تُرهقين نفسكِ بمتاعب موظفيكِ الكتابيين الصغار؟

وقالت «مارجريت» وهي تسبقه إلى المقصورة:

ـ لا، بل بالمنازل. أنا جائعة، لا متعبة. أريد أن أزدرد أكوامًا من الطعام.

ـ هذا حسن. ماذا تطلبين؟

وقالت وهي تلقي نظرة على قائمة الطعام:

ـ فطيرة محشوة بالسمك.

ـ فطيرة سمك! تصوري المجيء إلى «سيمبسون» لأكل فطيرة سمك! إنها ليست بالشيء الذي يأتي الإنسان إلى هنا من أجله.

وقالت «مارجريت» وهي تنزع قفازها:

ـ اختَر لي أنت شيئًا إذن.

وأخذت معنويتها تنتعش. وبعث فيها تلميحه إلى السيد «باست» دفئًا عجيبًا.

وقال بعد تفكير عميق:

ـ ضلع ضأن، وعصير التفاح للشراب. هذا هو الصنف الذي يطلب هنا. إني أحب المجيء إلى هذا المكان من حين إلى حين للتفكه. إنه طراز إنجليزي قديم بحت. ألا توافقينني؟

وقالت «مارجريت» التي لا توافقه على ذلك:

ـ نعم.

وأمر بإحضار الطلب، وجاء ضلع اللحم، وأخذ المختص بتقطيع اللحم يحزه من النواحي اللينة بإرشاد السيد «ويلكوكس»، وكوَّم قِطعه في صحافهما. وأما السيد «كاهل» فأصر على طلب شريحة من لحم الصُّلب، ولكنه أقر فيما بعد أنه أخطأ في اختياره. ولم يلبث أن وقع هو و«إيفي» في مناقشة من نوع: «لا، أنا لم أفعل... بلى، أنت فعلت». وهي مناقشة تفتن المشتغلين بها وإن لم تكن بها رغبة في لفت انتباه الآخرين، ولا هي تستحق هذا اللفت.

ـ إن إعطاء «بقشيش» لمقطِّع اللحم قاعدة ذهبية وشعاري أن أمنح «البقشيش» أينما ذهبت.

ـ لعل ذلك يجعل الحياة أكثر إنسانية.

ـ سيعرف أولئك الأشخاص عندئذٍ الإنسان عندما يعود إليهم، لا سيما في الشرق. إنك إذا منحتهم «حلوانًا» تذَكروك من آخر كل عام إلى آخر العام الذي يليه.

ـ أذهبت إلى الشرق؟

ـ أوه، اليونان والمشرق. اعتدت أن أذهب إلى قبرص للرياضة ولقضاء الأعمال، والمجتمع هناك نوع من المجتمعات العسكرية. وتوزيع بضعة قروش بحكمة يساعد على إبقاء ذكرى المرء حية. ولكنكِ ترين بالطبع في هذا كلبية تصدمكِ. كيف تسير أمور ناديكم المضطلع بالمناقشات؟ أمن موضوعات مثالية جديدة نوقشت أخيرًا؟

ـ لا. فأنا أبحث عن مسكن كما سبق أن قلت لك مرة يا سيد «ويلكوكس». أتعرف أي منازل خالية؟

ـ أخشى أني لا أعرف.

ـ حسنًا، ولكن ما فائدة كونك رجلًا عمليًّا إذا كنت لا تستطيع أن تجد مسكنًا لأنثيين في محنة؟ نحن لا نريد إلا منزلًا صغيرًا يحتوي على غرف فسيحة، وكثيرة.

ـ «إيفي»، إن هذا ليعجبني! إن الآنسة «شليجل» تنتظر مني أن أصبح لها وسيطًا لاستئجار منزل!

ـ ماذا تقول يا أبي؟

ـ أنا أريد بيتًا آخر في سبتمبر، ولا بد أن يجده لي أحد، فأنا عاجزة عن ذلك.

ـ «بيرسي»، أتعرف شيئًا من هذا القبيل؟

وأجاب السيد «كاهل»:

ـ لا أستطيع أن أزعم أني أعرف.

ـ هذا هو ما ينتظر منك! أنت لا تصلح لشيء أبدًا.

ـ لا أصلح لشيء. استمعوا إليها! لا أصلح لشيء أبدًا! أوه، عودي إلى الحق!

ـ أجل، إنك لا تصلح...

أترين يا آنسة «شليجل» أنه يصلح؟

وبعد أن قذف سيل حبهما «مارجريت» بهذا الرشاش، تدفق بعيدًا في مجراه المعتاد، وقد عطفت عليه الآن بعد أن عاد إليها لطف «إيفي» بقليل من الراحة. واغتبطت بالكلام والسكوت على السواء. وجالت عيناها في المطعم بينما كان السيد «ويلكوكس» يسأل أسئلة تمهيدية عن أنواع الجبن، وأعجبت بما يؤديه من ثناء متعمد لإظهار ضخامة ماضينا. وبرغم أنه لم يعد أقرب إلى الطراز الإنجليزي القديم من مؤلفات «كيبلينج»، فقد أحسن في اختياره لتذكارات القديم إلى حدٍّ هدأ معه نقدها، وبدت على رواده الذين يغذيهم لأغراض إمبراطورية، مشابه سيماء «بارسون آدمز» أو «توم جونز». وصرَّت نتف من أحاديثهم صريرًا شاذًّا في الآذان، وتعالت العبارات التالية من مائدة تقع خلفهم: «اتفقنا، سأبرق إلى أوغندا هذا المساء». وكان رأي قس من الزبائن: «يريد إمبراطورهم الحرب. حسنًا، فتلكن الحرب إذن». وابتسمت «مارجريت» لهذه المفارقات وقالت للسيد «ويلكوكس»:

ـ في المرة القادمة ستحضر للعشاء معي في مطعم السيد «يوستيس مايلز».

ـ بكل سرور.

وقالت وهي تدفع كوبها صوبه لتنال كمية أخرى من شراب التفاح:

ـ لا، إنك ستمقته. فهو مليء بالبروتينات وبألوان الطعام التي تبني الأجسام، ويأتي إليك الناس ويستأذنونك قائلين: «إن لروحك هالة جميلة».

ـ ماذا؟

ـ ألم تسمع قَطُّ عن الهالة؟ أوه يا لك من رجل سعيد، سعيد! أنا أقضي ساعات أصقل ما أملك من هالة. أو لم تسمع كذلك عن البرج النجمي؟

فأجاب بأنه سمع عن الأبراج النجمية، وانتقدها.

ـ كذلك. من حسن الحظ أن الهالة كانت لـ«هيلين». وكان عليها أن ترعاها وتؤدي لها واجب الأدب. أما أنا فاكتفيت بالجلوس ومنديلي في فمي حتى ذهب الرجل.

ـ يبدو أن تجارب مضحكة تمر بكما أنتِ وأختكِ. أنا لم يسألني أحد عن... ماذا تسمينها؟ أعندي منها شيء؟

ـ لا بد أن يكون لك واحدة منها، ولكن لونها مفزع إلى حدِّ أن أحدًا لا يجرؤ على أن يذكرها أمامك.

ـ خبريني مع ذلك يا آنسة «شليجل»، أأنتِ تؤمنين حقًّا بالخوارق وما إليها؟

ـ إنه لسؤال عويص.

ـ لماذا؟ أترغبين في قطعة جبن من نوع «الجروبير» أو «الستيلتون»؟

ـ «جروبير» من فضلك.

ـ من الأفضل أن تطلبي «ستيلتون».

ـ هاتِ «ستيلتون». سؤال عويص لأني، برغم عدم إيماني بوجود الهالة، وظني أن «الثيوصوفية» لم تقطع غير نصف الشوط...

فأنهى السيد «ويلكوكس» جملتها وهو يقطب:

ـ ... ومع ذلك قد تنطوي على شيء.

ـ ولا هذا أيضًا. فقد تكون قطعَت نصف الشوط في الاتجاه الخطأ. أنا عاجزة عن شرح الأمر. أنا لا أؤمن بكل هذه التقاليع، ولكن لا أحب مع ذلك أن أقول إني لا أؤمن بها.

وبدا عليه أنه لم يقتنع وقال:

ـ أنتِ لا تؤكدين لي إذن أنكِ لا تؤمنين بأجرام سماوية وما إلى ذلك؟

وقالت «مارجريت»، وقد أدهشها أن يكون لهذا الموضوع أي أهمية بالنسبة له:

ـ يمكن أن أؤكد لك ذلك. أنا أؤكده بالفعل. وعندما حدثتك عن صقل الهالة الخاصة بي كنت أقصد الإضحاك. ولكن لماذا تريد رأيًا باتًّا في هذه المسألة؟

ـ لا أعلم.

ـ أنت تعلم سيد «ويلكوكس».

وانطلقت من العاشقين الجالسين تجاههما عبارات «نعم، أنا كذلك» و«لا، لست كذلك».

وصمتت «مارجريت» هنيهة ثم غيرت الموضوع:

ـ كيف حال منزلك؟

ـ يكاد لا يختلف عما كان عليه عندما شرفته بحضورك في الأسبوع الماضي.

ـ أنا لا أقصد منزل شارع «دوسي»، ولكن «هواردز إند» بالطبع.

ـ لماذا تقولين: «بالطبع»؟

ـ ألا يمكنك أن تُخرج من يقطنه وتؤجره لنا؟ لقد كدنا نُجن.

ـ دعيني أفكر. وددت لو أستطيع مساعدتكِ. ولكني ظننت أنكِ تريدين الإقامة في المدينة. هاكِ نصيحة صغيرة: حددي الناحية، ثم حددي منزلَي شارع «دوسي» و«أونيتون». لقد قلت لنفسي: «أريد أن أعيش هنا على وجه التحديد»، وكان لي ما أردت. إن منزل «أونيتون» قليل النظير.

ـ ولكني أُغير رأيي بالفعل. يبدو أن الرجال يأسرون المنازل بالتنويم المغناطيسي، فهم يحدجونها بنظرهم فإذ هي تقبل مرتجفة. بيد أن السيدات لا يستطعن ذلك، فالمنازل هي التي تنومهن مغناطيسيًّا. وأنا لا سلطان لي على هذه الأشياء اللعوب. والمنازل حية، أليس كذلك؟

فقال:

ـ لقد فرغت حيلتي.

وأضاف:

ـ ألم تخاطبي ذلك الغلام الكاتب بهذه الطريقة، على الأرجح؟

ـ أفعلت ذلك؟ بل أقصد أني فعلته، على وجه التقريب. إني أحادث جميع الناس بنفس الطريقة، أو أحاول ذلك.

ـ نعم. أنا أعلم ذلك. وإلى أي حد تعتقدين أنه أدرك قولكِ؟

ـ هذا يتوقف على وجهة نظره. أنا لا أؤمن بضرورة ملاءمة حديثي لمن هم في صحبتي. والإنسان يستطيع من دون شك أن يعثر على وسيلة لتبادل الرأي قد تسد الطلب، ولكنها لن تشبه الحديث الأصيل كما لا يشبه المال الطعام، فهي خلوٌّ من الغذاء، وأنت تدفعها للطبقات الدنيا، وهذه تردها لك ثانية. وأنت تسمي ذلك «اتصالًا اجتماعيًّا» أو «محاولة من الجانبين»، بينما هو غرور من الجانبين، إن كان يمكن أن يكون شيئًا. وأصدقائي في تشيلسي لا يرون هذا، بل يرون أنه يجب على الإنسان أن يكون مفهومًا بأي ثمن، وأن يضحي...

وقاطعها السيد «ويلكوكس»، وكأنه يحشر يده وسط حديثها:

ـ الطبقات الدنيا، أنتِ تُسلمين إذن بانقسام الناس إلى أغنياء وفقراء. هذا شيء على أي حال.

ولم تستطع «مارجريت» الإجابة. أهو غبي إلى حدٍّ غير معقول أم هو أدرى بها منها هي نفسها؟

ـ أنتِ تُسلمين بأنه إذا وُزعت الثروات على الناس بالتساوي، فلن تمر سنوات قليلة حتى يكون هناك أغنياء وفقراء من جديد على نحو ما كانوا من قبل. فالرجل الذي يعمل جاهدًا يرتفع إلى القمة بينما يهوي المِتلاف إلى الحضيض.

ـ كل إنسان يسلم بذلك.

ـ ولكن اشتراكييك لا يسلمون به.

ـ بل يسلمون به. واشتراكيوك أنت هم الذين قد لا يسلمون. وأنا أشك كل الشك في أن هؤلاء اشتراكيون حقيقيون، فهم نصب في لعبة أقمتموهم لتسلوا أنفسكم. أنا لا أستطيع أن أتصور مخلوقًا حيًّا يتدحرج بمثل هذه السهولة.

وكان قمينًا أن يستاء من قولها لو لم تكن امرأة. ولكن النساء يستطعن أن يقلن ما يعِن لهن. هذه هي إحدى عقائده المقدسة. لذلك اكتفى بأن أجاب مبتسمًا في مرح:

ـ ذلك لا يهمني. إنك سلمت بأمرين ضارين بك. وأنا أسلم بهما معك من قرارة قلبي.

وكانوا حينذاك قد أتموا الغداء. وانصرفت «مارجريت» التي اعتذرت عن عدم الذهاب معهم إلى ميدان سباق الخيل، ولم تحادثها «إيفي» أثناء الغداء إلا لمامًا، فساورها الشك في أن الدعوة كانت من تدبير السيد «ويلكوكس». وكانت هي وهو يتقدمان، خارج نطاق أسرتيهما الكريمتين، صوب معرفة أوثق. وكانت تلك المعرفة قد بدأت منذ زمن بعيد. فقد كانت صديقة زوجته، وقد أهداها بوصفها هذا قنينة العطر الفضية تذكارًا للفقيدة. وكان ذلك جميلًا منه، وقد كان يؤثرها دائمًا على «هيلين»، بخلاف أكثر الرجال. ولكن معرفتهما تقدمت أخيرًا على نحو مدهش. لقد تقدما في أسبوع أكثر مما تقدما في عامين، وبدا كل منهما يعرف الآخر حقًّا.

ولم تنسَ وعده أن يتذوق مطعم «يوستيس مايلز». وأرسلت إليه الدعوة على أثر تمكنها من أن تكفل مرافقة «تيبي» له. وجاء إلى المطعم، وتناول في خضوع أصناف الطعام التي تبني الأجسام.

ورحلت أسرة «شليجل» إلى سوانيج في صباح اليوم التالي. ولم تكن قد أفلحت في العثور على مسكن.

## الفصل الثامن عشر

وصلت رسالة إلى «مارجريت» بينما كانوا يجلسون على مائدة الإفطار بمنزل خالتهم «جولي» في «ذي بيز». ويتجنبون ضيافتها المسرفة، ويستمتعون بمنظر الخليج، وأثارت هذه الرسالة بَلْبالَها. لقد وردت من السيد «ويلكوكس»، ودلت على تغير هام طرأ على خططه. فقد قرر أن يخلي منزله في شارع «دوسي» نظرًا لزواج «إيفي»، وأراد أن يؤجره بعقد إيجار سنوي. وكانت الرسالة كرسائل رجال الأعمال، واشتملت بصراحة على ما سيؤديه لهم، وما لن يؤديه. وكذلك نصت على قيمة الإيجار، فإذا وافقوا كان على «مارجريت» أن تحضر على الأثر ـ وقد وضع خطًّا تحت الكلمتين كما يتطلب الأمر عند الكتابة للسيدات ـ وأن تذهب معه إلى المنزل لمعاينته. وإذا لم يوافقوا فبرقية تكفيه، وسيوكل الأمر عندئذٍ إلى وسيط.

أقلقتها الرسالة لأنها لم تستوثق مما تعنيه. فإذا كان يميل إليها، وإذا كان قد داورها ليأتي بها إلى مطعم «سيمبسون»، فهل هذه مناورة أخرى ليستدرجها إلى لندن. وينتهي الأمر إلى طلب الزواج؟ وسألت نفسها هذا السؤال بما وسعها من صراحة جافية، راجية أن يصيح بها عقلها قائلًا: «هذا هراء، إنكِ لبلهاء مستغرقة في ذاتك!» ولكنها أحست لذعًا خفيفًا في عقلها ثم سكت. وجلست فترة تشخص إلى تموجات الماء، وتحار أكان النبأ سيبدو غريبًا للآخرين أم لا.

وما بدأت تتكلم حتى أعاد رنين صوتها اطمئنانها إليها. فلا يمكن أن يكون وراء هذه الرسالة شيء. وكانت الأجوبة أيضًا عادية، وفي غمرة الحديث المتدفق تبددت مخاوفها.

وبدأت مضيفتها تقول:

ـ ليس هناك مع ذلك ما يضطركِ إلى الذهاب.

ـ ليس هناك ما يضطرني، ولكن أليس من الأفضل أن أذهب؟ إن الأمر بدأ يصبح خطيرًا فعلًا، فنحن ندَع الفرصة تفلت بعد الفرصة، وسينتهي الأمر إلى أن يلقى بنا إلى الشارع بقضنا وقضيضنا. إننا لا نعرف ماذا نريد، وهذه هي بلوانا.

وقالت «هيلين» وهي تتناول قطعة من الخبز المقمَّر:

ـ لا، فنحن ليست لنا دُور حقيقية تربطنا.

ـ ألا أذهب اليوم إلى المدينة، وأستأجر المنزل إذا كان ذلك ممكنًا بحال من الأحوال، ثم أعود بعد ظهر غد، وأبدأ في إمتاع نفسي؟ أنا لن أمتع نفسي أو الآخرين إلا إذا خلا ذهني من هذه المشغولية.

ـ ولكنكِ لن تُقدمي على عمل متسرع يا «مارجريت»؟

ـ ليس هناك من عمل متسرع أُقدم عليه.

وقال «تيبي»:

ـ من هي أسرة «ويلكوكس»؟

والسؤال يبدو سخيف الوقع، ولكنه في واقع الأمر عويص جدًّا كما وجدته خالته عندما حاولت الإجابة عليه.

ـ ليست لي سلطة على أسرة «ويلكوكس»، ولا أستطيع أن أتبين وضعهم منا.

ووافقتها «هيلين»:

ـ ولا أنا. ومن الغريب أنهم لا يغربون أبدًا عن نظرنا. وليس هناك بين أصدقاء الفنادق جميعهم من لصق بنا غير السيد «ويلكوكس». وقد مر على ذلك أكثر من ثلاث سنوات، وقد ابتعدنا جدًّا خلال ذلك عن أناس أمتع منه بكثير.

ـ الناس الممتعون لا يعثرون للمرء على منازل.

ـ يا «ميج»! إذا بدأت بأسلوبك هذا الإنجليزي الأصيل، فسأقذفك بالعسل الأسود.

وقالت «مارجريت» وهي تنهض:

ـ إنه أفضل من الأسلوب العالمي. والآن يا أولاد، ماذا تختارون أن يكون؟ أنتم تعرفون منزل شارع «دوسي». أأقول نعم أم لا؟ «تيبي»، يا حبيبي، أي قول أقول؟ أنا أتوق إلى أن أقيد كليكما برأي.

ـ إن الأمر كله يتوقف على ما تعنينه بكلمة «ممكـ...».

ـ إنه لا يتوقف على شيء من هذا القبيل. قل «نعم».

ـ قل «لا».

ثم تحدثت «مارجريت» بلهجة الجد. قالت:

ـ أظن أن أمتنا في انحلال. إننا نعجز عن البت في هذه المسألة الصغيرة. فماذا تكون الحال إذا كان علينا أن نبتَّ في مسألة كبيرة؟

فردت «هيلين»:

ـ سيكون الأمر سهلًا كتناول الطعام.

ـ كنت أفكر في أبي. كيف بتَّ في أمر هِجرته من ألمانيا كما فعل بعد أن حارب في سبيلها وهو رجل في مقتبل العمر، وكانت عواطفه وصداقاته كلها بروسية؟ كيف استطاع أن يتخلص من عاطفته الوطنية، ويبدأ في استهداف غاية أخرى؟ لو حدث لي هذا لكان كفيلًا أن يقتلني. لقد استطاع وهو في الأربعين أن يبدل بلاده ومُثله العليا، ونحن في سننا لا نستطيع تبديل المنازل؟ إنه لأمر مهين.

وقالت السيدة «منت» بحدة:

ـ ربما كان في استطاعة أبيك أن يبدل بلادًا ببلاد، وقد يكون ذلك عملًا طيبًا وقد لا يكون. ولكنه لم يكن أقدر منك على تبديل المنازل، بل إنه قد يكون في الواقع أعجز منك بكثير. وأنا لن أنسى أبدًا ما عانته المسكينة «إميلي» عند انتقالها من مانشستر.

وصاحت «هيلين»:

ـ كنت أعلم ذلك، وقلته لك. إن الأمور الصغيرة هي التي يتخبط فيها الإنسان، أما الأمور الكبيرة الحقيقية فهي لا تتعبنا عندما تقع.

ـ يتخبط، يا عزيزتي! إنكِ أصغر من أن تتذكري، والواقع أنكِ لم تكوني قد ولدتِ يومها. كانت رياش المنزل بالفعل في عربات النقل تتحرك على الطريق قبل توقيع العقد الخاص بإيجار «ويكهام بليس». واستقلت «إميلي» القطار إلى لندن مِع طفلتها، وهِي «مارجريت»، وأخذت معها الأمتعة

الخفيفة من دون أن تعلم حتى أين سيكون منزلها الجديد. وقد يكون انتقالكم من هذا المنزل صعبًا، ولكن ذلك لا يقاس أبدًا إلى العناء الذي كابدناه نحن جميعًا في سبيل تمكينكم من الحلول فيه.

وصاحت «هيلين» بفم ممتلئ بالطعام:

ـ وهذا هو الرجل الذي هزم النمساويين والدنماركيين والفرنسيين، وهزم كذلك الألمان الكامنين في باطنه. ونحن لا نختلف عنه.

وقال «تيبي»:

ـ تحدثي عن نفسكِ. ولا تنسَي من فضلكِ أني عالميُّ النزعة.

ـ قد تكون «هيلين» على صواب.

وقالت «هيلين»:

ـ هي على صواب بالطبع.

قد تكون «هيلين» على صواب، ولكنها لم ترحل إلى لندن. و«مارجريت» هي التي رحلت. وقطع العطلة على هذا النحو أسوأ ألوان المضايقات الطفيفة. وقد يُعذر الإنسان على شعوره بالسقم إذا انتزعته رسالة خاصة بالعمل بعيدًا عن شاطئ البحر وعن الأصدقاء. ولم تستطع أن تصدق أن أباها شعر يومًا بمثل هذا الشعور. وكانت عيناها تؤلمانها أخيرًا فلم تستطع أن تقرأ في القطار. وضاقت بتأمل المناظر الطبيعية التي رأتها بالأمس فقط. وفي ساوثمبتن لوحت بيدها لـ«فريدا»، وكانت «فريدا» في طريقها إليهم في سوانيج، وقدرت السيدة «منت» أن قطاريهما، هي و«مارجريت»، سيتقابلان في الطريق. ولكن «فريدا» لم ترَ إشارة «مارجريت» لأنها كانت تنظر إلى الناحية الأخرى. وواصلت «مارجريت» سفرها شاعرة بأنها وحيدة يغلب عليها هوس العوانس. فما أشبهها بالعانس وهي تتصور أن السيد «ويلكوكس» يتودد إليها! لقد زارت ذات مرة امرأة عزباء، فقيرة، بلهاء، لا فتنة فيها، كان هوسها أن كل رجل يقترب منها يقع في حبائل حبها. وكم دمي قلب «مارجريت» إشفاقًا على هذه المخلوقة المخدوعة! وكم حاضرتها وناقشتها، ثم استسلمت بعد يأس منها: «قد يكون القس خدعني يا عزيزتي، ولكن الفتى الذي يحمل إلينا بريد الظهر مغرم بي حقًّا. وأراد في الواقع أن...». وكان يخيل إليها دائمًا أن ذلك هو أقبح زاوية من زوايا الشيخوخة، وبرغم ذلك قد تقاد إليه قسرًا تحت ضغط عذريتها.

وقابلها السيد «ويلكوكس» بنفسه في محطة «ووترلو». وشعرت شعورًا لا يعتوره شك بأنه مختلف عن عادته. ومرجع ذلك إلى شيء واحد، هو أنه كان يرى في كل قول تقوله إساءة إليه.

وبدأت الحديث بقولها:

ـ هذا عطف غامر منك، ولكني أخشى أن المسألة لن تقضى. فالمنزل الذي يلائم أسرة «شليجل» لم يُبنَ بعد.

ـ ماذا؟ أجئت معتزمة ألا تبرمي الصفقة؟

ـ ليس الأمر كذلك بالضبط.

ـ ليس كذلك بالضبط! لننطلق في هذه الحالة إلى المنزل.

وتريثت لتشاهد السيارة في إعجاب. وكانت جديدة تفوق في حسنها تلك السيارة الكبيرة قرمزية اللون التي أقلت الخالة «جولي» منذ ثلاث سنوات إلى المقدور الذي قسم لها.

وقالت «مارجريت»:

ـ أحسب أنها جميلة جدًّا. ما رأيك فيها يا «كرين»؟

فكرر مضيفها القول:

ـ تعالَي، دعينا ننطلق. ولكن بحقكِ كيف عرفتِ أن سائق سيارتي اسمه «كرين»؟

ـ أجل أنا أعرف «كرين». وقد خرجت بالسيارة مرة مع «إيفي». وأنا أعلم أن لديكم خادمة اسمها «ميلتون»، وأعرف عنكم أشياء كثيرة.

وردد بلهجة متوجعة:

ـ «إيفي»! إنكِ لن تريها، فقد خرجت مع «كاهل». وأستطيع أن أقول لكِ إن تركي بمفردي كثيرًا ليس بالأمر الممتع. إن لديَّ من الأعمال ما يستغرق وقتي طوال النهار، وفي الحق أنه قدر أكبر مما أطيق. ولكني أصارحكِ بأني عندما أعود في المساء لا أحتمل المنزل.

وأجابت «مارجريت»:

ـ وأنا وحيدة أيضًا على طريقتي السخيفة، فإن ترك المرء لمنزله القديم يحطم القلب. وأنا أكاد لا أذكر من حياتي شيئًا قبل سكنى «ويكهام بليس». وقد ولدت «هيلين» و«تيبي» بين جدرانه. وتقول «هيلين»...

ـ أأنتِ أيضًا تشعرين بالوحدة؟

ـ بشكل مفزع. «هالو»، لقد عاد البرلمان إلى الانعقاد!

ونظر السيد «ويلكوكس» إلى دار البرلمان باحتقار، فإن مقاليد أمور الحياة الأكثر أهمية توجد في مكان آخر. وقال:

ـ نعم. إنهم عادوا إلى الكلام. ولكنكِ كنت ستقولين...

ـ لا شيء إلا سخافات عن الرياش. تقول «هيلين» إن الرياش وحده هو الذي يبقى بينما الناس والمنازل إلى فناء، وستنقلب الحياة في النهاية إلى صحراء من كراسي ومقاعد مستطيلة. تصور! كراسي ومقاعد تتدحرج خلال الأبدية من دون أن يكون هناك حي يجلس عليها.

ـ إن أختك تميل إلى مزحتها الصغيرة.

ـ إنها توافق على استئجار لمنزل شارع «دوسي» بينما أخي يعارض. أؤكد لك يا سيد «ويلكوكس» أن مد يد العون لنا أمر غير مبهج.

ـ إنك لستِ غير عملية على قدر ما تدَّعين. ولن أصدق ما تدَّعينه أبدًا.

وضحكت «مارجريت». ولكنها ظلت غير عملية كما هي بالضبط. فهي لم تتمكن من تركيز ذهنها في التفصيلات. فدار البرلمان، ونهر «التيمز»، وسائق السيارة الكتوم، هذه الصور كلها اقتحمت في ذهنها ميدان البحث عن المنازل، وتتطلب كل منها تعليقًا وجوابًا. ومن المستحيل أن يرى المرء الحياة الحديثة في ثبات، وأن يراها كلًّا لا يتجزأ، وقد اختارت أن تراها كلًّا لا يتجزأ. أما السيد «ويلكوكس» فيرى الحياة في ثبات، فهو لا يشغل باله أبدًا بالشيء الخفي أو الشيء الخاص. فنهر «التيمز» يمكن أن يتوغل في الأرض آتيًا من البحر، ويمكن سائق سيارته أن يكتم كل عاطفة وفلسفة تحت جلده الهزيل. فهما أدرى بشأنهما، وهو أدرى بشأنه.

ولكنها برغم ذلك كانت تحب أن تكون في صحبته، فهو لم يكن مصدر توبيخ بل كان منبهًا، مبعدًا للانحراف. وبرغم أنه يكبرها بزهاء عشرين عامًا، فهو يحتفظ بموهبة كانت تظن أنها فقدتها. وهذه الموهبة ليست قوة الشباب الخلاقة، ولكن الثقة بالنفس والتفاؤل؛ كان على أتم ثقة من أن هذه الحياة مبهجة كل الإبهاج. كان لون بشرته يدل على القوة. وبرغم أن شعره جلا عن أعلى جبهته وارتد إلى الخلف فإنه ظل على كثافته. وكان شاربه وعيناه اللتان شبهتهما «هيلين» بكرتين في لون «البراندي» تشتملان على تهديد لطيف سواء اتجهتا إلى الأحياء القذرة أو إلى نجوم السماء. قد لا تكون هناك حاجة إلى هذا الطراز من الرجال في يوم ما، في «العصر الألفي»، أما اليوم فهو يستحق احترام الذين يظنون أنهم أسمى منه قدرًا، والذين قد يكونون كذلك فعلًا.

ولاحظ السيد «ويلكوكس»:

ـ إنك على أي حال رددت على برقيتي من دون إبطاء.

ـ أوه، حتى أنا أدرك الشيء الطيب حين أراه.

ـ يسرني أنكِ لا تزدرين طيبات هذه الدنيا.

ـ لا، بحق السماء، فالبلهاء والمغرورون هم وحدهم الذين يزدرونها.

وأخذ يكرر قوله وقد رق فجأة، ودار إليها كأنما ملحوظتها قد أبهجته:

ـ أنا مبتهج بهذا، مبتهج جدًّا. فكم من أحاديث جوفاء تجري في دوائر أدعياء الثقافة! ويسرني أنكِ لا تشاركينهم فيها. لا بأس بإنكار الذات إذا كان وسيلة لتقوية الخلق. ولكني لا أحتمل أولئك الذين يذمون وسائل الراحة. إن لهم في العادة دافعًا خفيًّا. أتحتملين أنتِ هذا الذم؟

وقالت «مارجريت» التي كانت تحتفظ باتزانها:

ـ وسائل الراحة على نوعين، نوع نستطيع أن نشترك فيه مع الآخرين، مثل النار أو الطقس أو الموسيقى، ونوع لا نستطيع مشاركة الغير فيه، كطعام الإنسان مثلًا. إن الأمر يتوقف على نوع تلك الوسائل.

ـ أنا أقصد وسائل الراحة المعقولة بالطبع. وأنا لا أريد أن أظن أنكِ...

ومال مقتربًا منها. وماتت الجملة على شفتيه قبل أن يتمها. وبدا الغباء على رأس «مارجريت»، وبدا كأن ما بداخله يدور دوران مصباح المنار. ولم يقبلها لأنهما كانا في منتصف الساعة الواحدة، وكانت السيارة تمر وقتذاك بإسطبلات قصر بكنجهام. ولكن الجو كان مشحونًا بالعاطفة إلى حد أن الناس بدوا في عينيها كأنهم لم يخلقوا إلا من أجلها. وأدهشها أن «كرين» لم يدرك ذلك، ولم يلتفت إلى وراء، وبرغم أنها قد تكون بلهاء، فمما لا شك فيه أن السيد «ويلكوكس» كان ـ كيف يستطيع المرء أن يعبر عن ذلك؟ ـ أكثر خبرة بالنفس الإنسانية من المعتاد. هو الذي يقدر خلق الناس دائمًا لأغراض عملية، يبدو أنه أخذ يوسع بعد ظهر هذا اليوم ميدانه، ويلاحظ صفات تتجاوز النظافة والطاعة والحزم.

وجاهرت بقولها عندما وصلا:

ـ أريد أن أرى أنحاء المنزل كافة. وعلى أثر عودتي إلى سوانيج ـ وسيكون ذلك بعد ظهر غد ـ سأناقش الأمر مع «هيلين» و«تيبي» مرة أخرى، وسأبرق لك بما يتضمن «لا» أو «نعم».

ـ حسنًا. هذه غرفة الطعام.

وبدآ في معاينة المنزل.

كانت غرفة الطعام فسيحة، ولكنها اكتظت بالأثاث. ولو رأى شارع تشيلسي القاعة بهذه الكَظة لانبعث منه أنين عالٍ. وقد أعرض السيد «ويلكوكس» عن تنسيق داره بالزخارف التي تتراجع، وتلين، وتتمنع، وتحقق الجمال بتضحية الراحة والجرأة. وبعد كثير من احمرار الوجه وإنكار الذات نظرت «مارجريت» في غمرة من الراحة والفرح إلى الزخرف الجداري الأنيق، المظلم، وورق الجدار المذهب الذي تصدح الببغاوات بين نباتاته، إن هذا لن يلائم أثاثها أبدًا. ولكن هذه المقاعد الثقيلة، و«البوفيه» الضخم المحمل بأطقم المائدة الفخمة، وقفت تحت عبء أحمالها كأنها الرجال. كانت الغرفة توحي بالرجال، ورأتها «مارجريت» التي كانت تتوق إلى أن ترى الرأسمالي الحديث، أحد رجال الحرب والصيد القدامى، رأتها كأنها غرفة استقبال من العصر القديم، حيث كان الأمير يجلس إلى الطعام وسط بطانته من الأشراف، وحتى التوراة ـ النسخة الهولندية التي عاد بها «تشارلز» من حرب البوير ـ احتلت مكانها الصحيح في الغرفة. إن مثل هذه الغرفة تسمح بأسلاب الحرب.

ـ والآن ردهة المنزل.

وكانت أرض الردهة مكسوة بالبلاط.

ـ هنا ندخن نحن الرجال.

و«نحن الرجال» كانوا يجلسون للتدخين في مقاعد مكسوة بالجلد الأسود. وكأن سيارة قد أفرخت تلك المقاعد. وقالت «مارجريت» وهي تغوص في أحدها:

ـ أوه، ما ألطف هذا!

وقال محدقًا بعينيه في وجهها المرفوع إليه، ونبراته تنم عن لهجة قريبة من ألفة:

ـ إنها تعجبك حقًّا! إنه لسخف، كل السخف، ألا يمتع الإنسان نفسه بوسائل الراحة. أليس كذلك؟

ـ نعـ...ـم. بعض السخف. أهذه لوحات بريشة «كرويكشانك»؟

ـ بل بريشة «جيلري». نصعد إلى علو الدار؟

ـ أأتيتم بهذا الأثاث جميعه من «هواردز إند»؟

ـ إن أثاث «هواردز إند» انتقل جميعه إلى أونيتون.

ـ أهو... بيد أني مهتمة بالمنزل، لا الأثاث، ما مساحة غرفة التدخين؟

ـ ثلاثون قدمًا طولًا، وخمسة عشر عرضًا. لا، انتظري دقيقة. خمسة عشر ونصف.

ـ آه، حسنًا. ألا يُضحكك أبدًا، يا سيد «ويلكوكس»، ما نضفيه نحن أبناء الطبقة المتوسطة، من جدٍّ على موضوع المنازل حينما نتناوله؟

وتقدما إلى غرفة الاستقبال. وأثاث «تشيلسي» منسق هنا على نحو أفضل بيد أن الغرفة شاحبة اللون، مفتقدة التأثير، والإنسان يستطيع أن يلمح السيدات وهن يخلون إليها. بينما أزواجهن يناقشون في الدور الأول حقائق الحياة وهم يدخنون «السيجار». أكانت غرفة استقبال السيدة «ويلكوكس» في «هواردز إند» تبدو هكذا؟ وفي نفس الوقت الذي نفذ فيه هذا الخاطر إلى ذهن «مارجريت»، سألها السيد «ويلكوكس» عما إذا كانت ترضى أن

تصبح زوجة له. وغلبتها فكرة أنها كانت على صواب في ظنها إلى حد أنه كاد يغمى عليها.

ولكن عرض الزواج هذا لم يُرِد به صاحبه أن يسمو إلى مرتبة مواقف العالم الغرامية الكبيرة.

وقال بصوت ثابت:

ـ يا آنسة «شليجل»، إني أستدرجكِ إلى هنا بحجج كاذبة. فأنا أريد أن أحدثكِ في أمر أهم من مسألة المنزل.

وكادت «مارجريت» تجيبه بقولها: «أعلم ذلك».

ـ أيمكن إقناعكِ بأن تشاركيني في... أهذا محتمل الحدوث...

وقاطعته وهي تمسك بالبيانو وتبعد عينيها:

ـ أوه، يا سيد «ويلكوكس»! فهمت، فهمت، سأكتب إليك فيما بعد إذا سمحت.

وأخذ يتلعثم:

ـ يا آنسة «شليجـ...» يا «مارجريت». أنتِ لم تفهمي...

وقالت «مارجريت»:

ـ أوه، نعم فاهمة، نعم بالتأكيد.

ـ أنا أطلب منكِ أن تكوني زوجتي.

وكان عطفها عميقًا إلى حد أنها تظاهرت بأنها تجفل قليلًا عندما قال لها «أنا أطلب منكِ أن تكوني زوجتي». إذ لا بد أن تظهر الدهشة ما دام أنه يتوقعها. وغمرتها فرحة كبرى. فرحة لا توصف. فرحة لا علاقة لها بالإنسانية، ولكنها أشبه الأشياء بالسعادة الطاغية التي تشيع في الجو الصحو. إن الجو الصحو مصدره الشمس، ولكن «مارجريت» لم تستطع التفكير في مصدر الإشراق هنا. لقد وقفت في غرفة استقباله سعيدة تواقة إلى الإسعاد. وأدركت بعد مغادرته أن مصدر الإشراق كان الحب.

ـ أنتِ لم تشعري بإهانة يا آنسة «شليجل»؟

ـ كيف يمكن أن أشعر بإهانة؟

ومرت فترة صمت. وكان يتوق إلى التخلص منها، ولم يخفَ عليها ذلك. ومنعها شعور تلقائي شديد من النظر إليه وهو يناضل في سبيل تمَلك شيء يعجز المال عن شرائه. كان يرغب في الزمالة والعطف، ولكنه كان يخشاهما. وهي التي دربت نفسها على الرغبة فقط، وكانت تستطيع أن تضفي على هذا النضال غلالة من الجمال، أحجمت، وترددت في التصرف معه.

واستأنفت قولها:

ـ وداعًا. ستَرِد إليك رسالة مني. سأعود إلى سوانيج غدًا.

ـ أشكركِ.

ـ وداعًا، وأنت الجدير أن أشكرك.

ـ أتسمحين بأن آمر بحضور السيارة؟ أتسمحين بذلك؟

ـ إنه يكون عطفًا كبيرًا منك.

ـ وددت لو أني كتبت لك في الأمر بدل مصارحتك به. أكان يجب عليَّ أن أكتب؟

ـ لا، أبدًا.

ـ يوجد سؤال واحد فقط...

وهزت رأسها. وبدا عليه شيء من الحيرة، وافترقا.

لقد افترقا من دون أن يتصافحا، وطوت من أجله هذا اللقاء في ثنايا ظلال باهتة جدًّا، ومع ذلك فقد كانت تختلج سعادة قبل وصولها إلى منزلها. لقد أحبها غيره فيما مضى، إذا كان المرء يستطيع أن يطلق كلمة «الحب» الخطيرة على رغباتهم وجيزة الأمد. ولكن هؤلاء كانوا من الحمقى، كانوا شبابًا لا شاغل يشغلهم، أو كانوا شيوخًا لم يجدوا من يفضلها. وقد كابدت «الحب» هي أيضًا، ولكن إلى المدى الذي تتطلبه حقائق الجنس فحسب،

مجرد صبوات إلى المذكر كفت عن التفكير فيها بابتسامة بعد أن وزنتها بما يستحق ولكن شخصيتها لم تمسَّ قبل ذلك قَطُّ. إنها لم تكن جميلة، أو واسعة الثراء، فأدهشها أن رجلًا له مكانة ما يمكن أن يأخذها مأخذ الجد. وإذ كانت تحاول أن تحسب بعض الحسابات وهي جالسة بين اللوحات الجميلة والكتب الكريمة في منزلها الخالي، اندفعت أمواج من الانفعال، وكأنها تدفق مد من العاطفة خلال هواء الليل، فهزت رأسها، وجاهدت في سبيل تركيز انتباهها، وأخفقت في ذلك. وعبثًا كانت تكرر قولها: «ولكني مررت بمثل ذلك من قبل». ولكنها لم تكن قد مرت بمثل ذلك قَطُّ. إن الآلة الضخمة، لا الآلة الصغيرة، قد بدأت تدور. وتسلطت عليها فكرة أن السيد «ويلكوكس» قد أحب قبل أن تنتهي إلى أن تحبه بدورها.

وأبت أن تستقر على رأي بعد: «أوه، يا سيدي، إن الأمر كان مفاجئًا إلى حدٍّ بعيد». هذه العبارة المحتشمة عبرت بالضبط عما بها عندما جاء دورها. إن الشعور السابق للحادث غير الاستعداد له. وهي لا بد أن تمتحن على وجه أدق كلًّا من طبيعتها وطبيعته. ولا بد أن تباحث «هيلين» في الأمر في تبصر. لقد كان موقفًا غراميًّا غريبًا، ظل مركز الإشراق فيه غير معترف به من البداية حتى النهاية. ولو كانت هي مكانه لقالت كما يقول الألمان: «أنا أحبك»، ولكن لعله لم يتعود أن يفتح مغاليق قلبه. وكان يمكن أن يقول ذلك لو أنها ضغطت عليه، ولكن لعله كان يقوله على سبيل الواجب. إن إنجلترا تتوقع من كل رجل أن يفتح قلبه مرة، ولكن بذل الجهد في هذا ربما ضايقه، ويجب ألا يفقد خطوط دفاعه التي اختار أن يقيمها في مواجهة العالم إذا استطاعت أن تجنبه ذلك. إنه يجب ألا يزعج أبدًا بالكلام العاطفي، أو التظاهر بالعطف. إنه الآن رجل جاوز الشباب، ومن العبث، بل من الوقاحة أن يُقومه مقوِّم.

وهامت السيدة «ويلكوكس»، غادية رائحة، وطيفها محل ترحيب أبدًا، وخطر لـ«مارجريت» أنها تراقب المشهد، من دون أقل شعور بالمرارة.

## الفصل التاسع عشر

إذا أراد أحد أن يتيح لأجنبي مشاهدة إنجلترا فلعل أحكم طريقة لذلك أن يذهب به إلى آخر قسم من تلال بوربيك، ويقف به فوق قمتها على مسافة بضعة أميال شرقيَّ كورف. فعند ذلك تتدحرج تحت قدميه مجموعة تلو مجموعة من جزيرتنا البريطانية. فمن تحته وادي «فروم»، وكذلك كل الأراضي الموحشة التي تتدافع مقبلة من دورتشستر، سوداء وصفراء، لتستعرض شجرها الشائك في فيافي بوول. وفيما وراء ذلك يقع وادي جدول «ستاور»، ذلك الجدول الصغير العكر عند بلاندفورد، النقي عند ويمبورن، المنساب من الحقول الخصبة ليتزوج نهير «آفون» تحت قلعة كريستشورش. وادي نهير «آفون» لا يبدو للعيان، ولكن العين المدربة تستطيع أن ترى بعيدًا إلى الشمال حلقة تلال كليربوري التي تحرسه، ويمكن للخيال أن يثب فيما وراء ذلك إلى سهل سلزبوري نفسه، ثم فيما وراء ذلك السهل أيضًا إلى جميع الهضاب العظيمة في وسط إنجلترا. والضواحي لا تغيب عن بصر الناظر أيضًا. فشاطئ بورنموث حقير الشأن ينحني إلى اليمين، مبشرًا بأشجار الصنوبر التي تعني ـ على كل ما تحلت به من جمال ـ المنازل الحمر وبورصة الأوراق المالية، وتمتد حتى أبواب لندن نفسها... ما أروع الطريق المؤدي إلى «السيتي»! ولكن لن يصل أبدًا إلى مس صخور شاطئ «فريش ووتر»، وستظل جزيرة «وايت» تحفظ نقاءها إلى آخر الزمن. ومنظر «وايت» من الغرب جميل إلى حد يتجاوز نواميس الجمال، فهو يبدو كأنه قطعة من إنجلترا تتقدم سابحة لتحيي الأجنبي. هي طباشير من طباشيرنا، وعشب من عشبنا، خلاصة لما سوف يلي. وفيما وراء هذه القطعة من إنجلترا تقع ساوثمبتن، مضيفة الأمم، وتقع بورتسموث، وهي نار مستترة، والبحر من حولها يدور، ويتصادم فيه المد من جهتين أو ثلاث. وكم من قرية تبدو في هذا المنظر! وكم من قلعة! وكم من كنيسة اندثرت أو بقيت وانتصرت! وكم من سفن، ومن قطارات وطرق! وكم من رجال مختلفين اختلافًا لا يصدق يعملون تحت قبة السماء المتألقة، ولكن إلى أي نهاية! إن المنطق ليخفق إخفاق الموجة المتكسرة على شاطئ سوانيج؛ وإن الخيال ليتضخم، ويتسع، ويعمق حتى يصبح خيالًا جغرافيًّا ويلم بإنجلترا من أطرافها.

وجيء إذن بـ«فريدا موزباخ» ـ التي تزوجت وأصبحت الآن «السيدة زوجة المهندس المعماري ليزيكي»، وأمًّا لطفل زوجها ـ إلى هذه القمم لتؤخذ بها. وقد قالت بعد أن أطالت النظر إليها إنها أضخم من قمم بوميرانيا. وقولها هذا صحيح، ولكن يبدو أنه لم يبدُ سديدًا في نظر السيدة «منت». وكان

ميناء بوول ناضبًا. وهذا دعا «فريدا» إلى أن تحمد عدم وجود شاطئ أمامي موحل لـ«فريدريش فيلهلمز باد» في «روجِن» حيث تتدلى أشجار الزان على بحر البلطيق الخالي من المد والجَزر، وحيث يمكن أن تتأمل الماء المالح. وقالت السيدة «منت» إن هذا أحرى أن يكون غير صحي، فالماء حين يتحرك يصبح أسلم.

ـ على ذلك تكون البحيرتان الإنجليزيتان فيندرمير وجراسمير غير صحيتين؟

ـ لا يا سيدة «ليزيكي»، لأن ماءهما عذب، فهما مختلفتان. لا بد للماء المالح من المد والجزر، ومن قدر كبيرٍ من الارتفاع والانحسار، وإلا فاحت رائحته. انظري حوض تربية الأسماك مثلًا.

ـ حوض تربية أسماك! أتقصدين يا سيدة «منت» أن رائحة أحواض السمك ذات الماء العذب لا تنتن بمقدار الأحواض ذات الماء المالح؟ كيف؟ إن «فيكتور»، أخا زوجي، عندما جمع كمية من أفراخ الضفادع...

فقاطعتها «هيلين»:

ـ يجب ألا تقولي «تنتن»، أو، على الأقل، لكِ أن تقوليها، ولكن يجب أن تتظاهري وأنتِ تقولينها بأنكِ تقصدين الإضحاك.

ـ إذن «تفوح». والطين الذي يغمر ميناءكم المسمى «بوول» هناك، ألا تفوح رائحته؟ لعل الأصوب أن أقول «يَنْتُن»، هاها؟

وقالت السيدة «منت» وهي تعبس عبوسًا خفيفًا:

ـ إن ميناء بوول لم يخلُ قَطُّ من الطين، فالأنهار تجلبه إليه، وهناك صيد سمين للمحار يعتمد عليه.

وسلمت «فريدا» قائلة:

ـ نعم. هذا صحيح.

وكان ذلك ختام واقعة دولية أخرى.

واستأنفت مضيفتهم قولها، مقتبسة عبارة إقليمية مسجوعة كانت شديدة التعلق بها.

ـ إن بورنموث الآن... وبوول كانت... وسوينج ستكون بدورها أهم هذه المدن الثلاث وكبراها. والآن، يا سيدة «ليزيكي»، لقد أريتكِ بورنموث، وأريتكِ كذلك بوول، ولذا دعينا نتمشى إلى الوراء قليلًا، ونلقي نظرة أخرى على سوانيج.

ـ خالتي «جولي»! ألا يكون ذلك قطار «ميج»؟

ودارت نفخة خفيفة من الدخان حول الميناء، وهي الآن تتجه إليهم جنوبًا صوب الأرض التي اختلط فيها السواد بالصفرة.

ـ أوه! أرجو ألا تكون عزيزتنا «مارجريت» منهكة من التعب.

ـ أو إني لأتساءل... إني لأتساءل عما إذا كانت قد استأجرت المنزل.

ـ أرجو ألا تكون قد تسرعت.

ـ وأنا كذلك. أوه، وأنا كذلك.

وسألت «فريدا»:

ـ أهو جميل كـ«ويكهام بليس»؟

ـ أظن ذلك. ثقي أن السيد «ويلكوكس» لا يقصر في الظهور بمظهر يفخر به. إن منازل شارع «دوسي» جميعها جميلة في أسلوبها العصري، ولست أفهم لماذا لم يحتفظ به لنفسه. ولكنه لم يذهب إلى هناك في الواقع إلا من أجل «إيفي». ولما كانت «إيفي» ستتزوج...

ـ آه!

ـ أنتِ يا «فريدا» لم تري الآنسة «ويلكوكس» قَطُّ. فما أسخف استغراقكِ في حياتكِ الزوجية!

ـ ولكن أهي أخت «بول» ذاك؟

ـ نعم.

وقالت السيدة «منت» متأثرة:

ـ وأخت «تشارلز» ذاك أيضًا. أوه يا «هيلين»، يا «هيلين» أي أيام كانت تلك!

وضحكت «هيلين»:

ـ أنا و«ميج» لا نملك مثل هذه القلوب الرقيقة. إذا كانت هناك فرصة للحصول على منزل رخيص فسنلتمسها.

ـ انظري الآن يا سيدة «ليزيكي» إلى قطار ابنة أختي. انظري، إنه قادم صوبنا. قادم، قادم. وعندما يصل إلى كورف سيمر قطعًا خلال الهضاب التي نقف نحن الآن عليها. فإذا مشينا قدمًا كما اقترحت، وأطللنا على سوانيج، فسنرى القطار قادمًا من الناحية الأخرى. فهل نذهب؟

وقبلت «فريدا» الاقتراح. ولم تمر بضع دقائق حتى اجتزن قمة التل، واستبدلن بالمنظر الفسيح منظرًا أضيق. فقد رقد أسفل التل وادٍ لا فتنة فيه يسنده منحدر الهضاب الممتدة إلى الشاطئ. كن ينظرن عبر جزيرة «بوربيك» إلى سوانيج التي ستصبح عما قريب أهم «المدن الثلاث»، وأقبحها. وظهر قطار «مارجريت» من جديد وفق الوعد، وقوبل من الخالة بالترحاب. وقف القطار في منتصف المسافة. وكان قد اتُّفق على أن يقابل «تيبي»، «مارجريت» هناك، ويصحبها في العربة ومعه سلة الشاي، لينضما إليهن.

واستطردت «هيلين» مخاطبة ابنة عمها:

ـ انظري، إن أسرة «ويلكوكس» تجمع المنازل كما يجمع «فيكتورُك» أفراخ الضفادع. فلهم أولًا بيت في شارع «دوسي»، وثانيًا «هواردز إند» حيث وقعت واقعتي الكبرى، ثالثًا مأوى ريفي في شريشير، ورابعًا لـ«تشارلز» منزل في هيلتون، وخامسًا منزل آخر له في إبسوم، وسادسًا منزل سيكون لـ«إيفي» عندما تتزوج وسيكون لها غالبًا منزل آخر في الريف للنزهة، فالجملة سبعة. آه، نسيت. وكوخ لـ«بول» في أفريقيا، فالجملة ثمانية. بودي لو نحصل على «هواردز إند». ذلك كان أقرب الأشياء إلى المنزل الصغير اللطيف! ألا تعتقدين ذلك يا خالتي «جولي»؟

وقالت السيدة «منت» بوقار ظريف:

ـ كان لديَّ يا عزيزتي عمل أضخم من أن يتيح لي النظر إلى المنزل. كان عليَّ أن أسوي جميع الأمور، وأن أشرحها، وعليَّ فوق ذلك أن أوقف

«تشارلز» عند حده. فمن غير المعقول أن أتذكر الشيء الكثير. أنا لا أتذكر إلا أني تناولت الغداء في غرفة نومكِ.

ـ نعم. وأنا أتذكر ذلك أيضًا. آه، ولكن عجبًا، عجبًا، ما أشد الموت الذي يبدو محتمًا على هذا كله! وفي الخريف بدأت الحركة المناهضة لـ«بول»، فأنت و«فريدا»، و«ميج»، والسيدة «ويلكوكس»، تسلطت عليكن جميعًا فكرة أني قد أتزوج «بول».

وقالت «فريدا» في قنوط:

ـ لا قد تفعلين.

وهزت «هيلين» رأسها قائلة:

ـ لن يعود «خطر أسرة «ويلكوكس» الأكبر» ثانية. فإذا كنتُ واثقة من شيء، فهو هذا.

ـ إن الإنسان لا يستطيع أن يثق إلا من صدق عاطفته.

ووقعت هذه الملحوظة على المناقشة فأخمدتها، ولكن «هيلين» دست ذراعها حول خصر ابنة عمها، شاعرة بأنها زادت ميلًا إليها على نحو ما لملحوظتها تلك. ولم تكن الملحوظة مبتكرة، ولم تحرص عليها «فريدا» في حماسة، فقد كان لها عقل وطني أكثر مما هو فلسفي، بيد أنه نمَّ عن الاهتمام بالأمور التي يشترك فيها الناس جميعًا، وهو اهتمام يتصف به التيوتوني متوسط الفهم من دون نظيره الإنجليزي، هذه الأمور هي الطيب والجميل والصادق مقابل المحترم واللطيف والمناسب، ولو أن هذه المقارنة غير منطقية، إن الأول كمنظر بريشة «بوكلين» مقابل منظر بريشة «ليدر»: خشن رديء التصميم، ولكنه يتهدج بحياة ما وراء الطبيعة. إنه يشحذ المثالية، ويحرك الروح، وقد يكون إعدادًا سيئًا لما يليه.

وصاحت السيدة «منت» وهي تسرع فوق قمة الهضبة الضيقة، مبتعدة عن العموميات:

ـ انظرا. قفا حيث أقف، تريا العربة التي يجرها المهر مقبلة. إني أرى العربة مقبلة.

ووقفن ورأين العربة التي يجرها المهر مقبلة. وأمكن الآن رؤية كل من «مارجريت» و«تيبي» مقبلين فيها. وسارت قليلًا في الطرقات المزهرة بعد مغادرة أطراف سوانيج، ثم بدأت طريق الصعود.

وصحن قبل أن يمكنها سماعهن بمدة طويلة:

ـ هل استأجرت المنزل؟

وانحدرت «هيلين» ركضًا للقائها. ومر الطريق الرئيسي بفجوة بين تلين، ومن ثم اتجه طريق إلى اليمين على شكل زاوية قائمة ممتدًّا إلى حافة الهضبة:

ـ أحصلتِ على المنزل؟

وهزت «مارجريت» رأسها.

ـ أوه، يا له من أمر مزعج! نحن لا نزال حيث كنا إذن؟

ـ ليس الأمر كذلك بالضبط.

وخرجت من العربة وقد بدا عليها التعب. وقال «تيبي»:

ـ هناك سر ما. وسيُكشف لنا ستره عما قريب.

واقتربت «مارجريت» من «هيلين»، وهمست في أذنها أن السيد «ويلكوكس» عرض عليها الزواج.

وكان في النبأ ما أضحك «هيلين». وفتحت الباب المؤدي إلى الهضاب ليتمكن أخوها من إدخال المهر. ولاحظت «هيلين»:

ـ إن هذا ما يُنتظر من أي أرمل. فلهم قدر كافٍ من الصفاقة بحيث لا يحجمون عن أي أمر، وهم يختارون على الدوام إحدى صديقات زوجتهم الأولى.

وبدت على وجه «مارجريت» ومضة يأس، وقطعت «هيلين» الأمر بصيحة:

ـ إن هذا النوع... أجَرى لكِ شيء يا «ميج»؟

وقالت «مارجريت» مواصلة الهمس:

ـ انتظري لحظة...

وقالت «هيلين»:

ـ ولكنك على الأرجح لم... إنك على الأرجح لم...

ثم تماسكت وقالت:

ـ يا «تيبي»، أسرع في اجتياز الباب، فأنا لا أستطيع أن أمسك به إلى ما لا نهاية. وأنتِ يا خالتي «جولي»، يا خالتي «جولي»! اصنعي لنا الشاي من فضلك، وأنتِ يا «فريدا»، سنتحدث أنا وأختي في أمر اختيار المسكن، وسأوافيكم فيما بعد.

ثم أجهشت بالبكاء وهي تدور لأختها.

وذهلت «مارجريت». وسمعت نفسها وهي تقول:

ـ أوه، حقيقة...

وشعرت أن يدًا مرتعشة تلمسها، وطفقت «هيلين» تنشج:

ـ لا تفعلي، لا تفعلي، لا تفعلي يا «ميج»، لا تفعلي.

وبدا أنها عاجزة عن أن تضيف كلمة أخرى. وسارت «مارجريت» بها قدمًا في الطريق، وهي ترتجف كذلك، حتى سرحتا من باب آخر إلى السهل.

ـ لا تفعلي. لا تفعلي شيئًا من هذا القبيل. أقول لكِ لا... لا تفعلي. أنا أدري... لا تفعلي!

ـ ماذا تريدين؟

وشهقت «هيلين»:

ـ الفزع والفراغ... لا تفعلي.

وقالت «مارجريت» لنفسها: «هيلين» محبة لذاتها بعض الشيء. وأنا لم أسلك مثل هذا المسلك قَطُّ عندما كان يبدو أن فرصة للزواج سنحت لها.

ثم قالت لأختها:

ـ ولكن سيرى بعضنا بعضًا كثيرًا، وأنتِ...

وأجابت «هيلين» وهي تشهق:

ـ ليس الأمر من هذا القبيل.

وانطلقت على الأثر، وصعدت في الكثيب هائمة شاردة الفكر، باسطة يديها صوب المنظر الطبيعي، منهمرة الدموع. ونادتها «مارجريت» وهي تتبعها خلال الرياح التي تتجمع عند الغروب في المنحدرات الشمالية للتلال.

ـ ماذا جرى لكِ؟ ولكن هذه سخافة!

واستولى عليها الذهول فجأة، وانطمس المنظر الطبيعي مترامي الأطراف. ولكن «هيلين» كرَّت راجعة إليها:

ـ «ميج»!

فقالت «مارجريت» وهي تجفف عينيها:

ـ لست أدري ماذا جرى لنا نحن الاثنتين. لا بد أننا فقدنا صوابنا.

وبعد ذاك جففت «هيلين» عينيها أيضًا، بل لقد ضحكتا قليلًا أيضًا.

ـ اسمعي... اجلسي.

ـ حسنًا، سأجلس فيما إذا جلست.

ـ هأنذا أجلس (وقبلتها قبلة واحدة) والآن، ما هو... ما هو الأمر؟

ـ أنا أقصد ما قلته... لا تفعلي، فلن ينجح الأمر.

ـ أوه، يا «هيلين». كُفي عن قولكِ: «لا تفعلي»، فهذا جهل. وهو يشعرني بأن رأسكِ لم يُنتشل من الوحل. إن هذه العبارة هي على الأغلب ما تردده

السيدة «باست» لزوجها طوال النهار.

ولاذت «هيلين» بالصمت:

ـ وبعد.

ـ حدثيني عن الأمر أولًا، ولعلي أُخرج رأسي أثناء ذلك من الطين.

ـ هذا أفضل. حسنًا. من أين أبدأ؟ عندما وصلت إلى ووترلو. لا، سأعود إلى ما قبل ذلك لأني أتوق إلى أن أطلعك على كل شيء من البداية، والبداية كانت منذ ما يقرب من عشرة أيام. كانت في ذلك اليوم الذي جاءنا السيد «باست» خلاله لشرب الشاي، وخرج عن طوره. كنت أدافع عنه، فغار عليَّ السيد «ويلكوكس»، وإن تكن غيرة طفيفة. وقد ظننتها من ذلك النوع غير الإرادي الذي لا حيلة للرجال فيه مثلنا نحن النساء. وأنتِ تعلمين... أو على الأقل أعلم أنا من واقع حالتي أنه إذا قال لي رجل إن فلانة فتاة جميلة تملكتني غصة وقتية من فلانة هذه، وتُقت إلى قرص أذنها. إنه شعور متعب، ولكنه غير خطير، والإنسان يستطيع علاجه بسهولة. بيد أن هذا لم يكن كل شيء في حالة السيد «ويلكوكس»، كما أدرك الآن.

ـ أنتِ تحبينه إذن؟

وفكرت «مارجريت» ثم قالت:

ـ إنه لمدهش أن تعلم المرأة أن رجلًا بمعنى الكلمة يحبها. إن مجرد الحقيقة في هذا الأمر تزداد أهمية على التوالي. ولا تنسَي أني ظللت أعرفه وأميل إليه ميلًا متزايدًا طوال ما يقرب من ثلاث سنوات.

ـ ولكن، هل أحببتِه؟

وكرَّت «مارجريت» بنظرها إلى ماضيها. فمما يبهج أن يحلل المرء عواطفه وهي لم تزَل مجرد عواطف، ولم تتجسد في النسيج الاجتماعي. وطفقت تتأمل في أمانة، ويدها حول خصر «هيلين»، وطَرْفها ينتقل حول المنظر الطبيعي، وكأنما هذا الصقع الريفي أو ذاك يمكن أن يكشف الستر عن سر فؤادها. وقالت:

ـ لا.

ـ ولكنكِ ستحبينه؟

فقالت «مارجريت»:

ـ نعم. فأما عن هذا فأنا واثقة منه ثقة وطيدة. وقد بدأت أحبه بالفعل منذ اللحظة التي حادثني فيها.

ـ وهل استقر رأيكِ على الزواج به؟

ـ نعم. ولكني أريد أن أعرض لذلك الآن في حديث طويل. ماذا تأخذينه عليه يا «هيلين»؟ عليكِ أن تبذلي جهدكِ وتصارحيني.

وسرحت «هيلين» بطَرْفها في الفضاء بدورها. وقالت آخر الأمر:

ـ المسألة ترجع أولًا إلى أزمة اتصالي بـ«بول».

ـ ولكن ما شأن السيد «ويلكوكس» بـ«بول»؟

ـ ولكنه كان هناك. كانوا جميعًا هناك عندما نزلت في ذلك الصباح لتناول الإفطار، ورأيت «بول» مذعورًا؛ رأيت الرجل الذي يحبني مذعورًا، بلا حول ولا قوة. فأدركت أن الأمر كان مستحيلًا، لأن العلاقات الشخصية هي الأمر الهام دائمًا وأبدًا، وليست تلك الحياة الظاهرة؛ حياة البرقيات والغضب.

وقد صبَّت الجملة في نفَس واحد، ولكن أختها فهمت مقصودها لأنها كانت تشير إلى أفكار متعارف عليها بينهما.

ـ هذه حماقة. فأنا بادئ ذي بدء لا أوافقكِ على رأيكِ في «الحياة الظاهرة». نعم، لقد ناقشنا ذلك مرارًا. والنقطة الحقيقية الهامة هي أن هناك فجوة واسعة بين طريقتكِ في الحب وطريقتي. فحبكِ كان خيالًا شعريًّا، أما حبي فسيكون نثرًا. وأنا لا أنتقص من قدره، فهو نوع جيد من النثر، ولكنه حظي بقدر كافٍ من التدبر والتفكير. مثال ذلك أني على علم بعيوب السيد «ويلكوكس» كلها. فهو يخشى الانفعال العاطفي، ويهتم اهتمامًا مسرفًا بتحقيق النجاح، واهتمامًا ضئيلًا جدًّا بالماضي، وعطفه تنقصه الشاعرية، وعلى ذلك لا يكون عطفًا في واقع أمره. ويمكن حتى أن أقول...

ونظرت إلى بحيرات الماء الضحل المتلألئة:

ـ أن أقول إنه من الناحية الروحية ليس أمينًا أمانتي. أليس في هذا ما يكفيكِ؟

وقالت «هيلين»:

ـ لا. إنه لا يكفيني. بل يجعلني أشعر بأني في حالة أسوأ وأسوأ. لا بد أنكِ جننتِ.

وقامت «مارجريت» بحركة تدل على الغيظ.

ـ ليس في نيتي أن أجعله هو أو أي رجل أو امرأة يستغرق حياتي، لا، بحق السماء! فهناك أكداس من الأشياء داخل نفسي لا يفهمها، ولن يفهمها أبدًا.

على هذا النحو تحدثت قبل الاحتفال بالزواج، وقبل الارتباط الجسدي. وقبل أن تسقط تلك المظلة الزجاجية العجيبة التي تحُول بين الزوجين والعالم. لقد قررت أن تحتفظ باستقلالها أكثر مما تحتفظ به أكثر النساء، وأن زواجها سيبدل حظها لا شخصيتها. وهي لم توغل بعيدًا في الخطأ حين تفاخرت بأنها عرفت زوجها المنتظر على حقيقته. وبرغم ذلك فقد بدل زوجها شخصيتها قليلًا. لقد كانت هناك مفاجأة غير متوقعة، ركود اعتور رياح الحياة وهبَّات روائحها، وضغط اجتماعي حملها على أن تفكر تفكير امرأة متزوجة.

واستطردت تقول:

ـ وكذلك حاله هو. فهناك أكداس من الأشياء فيه أيضًا ـ وعلى الأخص الأشياء التي يفعلها ـ والتي ستظل خافية عني أبدًا. إنه يتصف بجميع هذه الصفات العمومية التي تحتقرينها كثيرًا، والتي تيسر كل ذلك...

وأشارت بيدها إلى المنظر الطبيعي الذي يؤيد أي شيء كان.

ـ إذا لم يكن أمثال «ويلكوكس» قد عملوا وماتوا في إنجلترا منذ آلاف السنين، ما استطعت أنا وأنتِ أن نجلس هنا من دون أن تقطع رقابنا، وما كانت هناك قطارات وسفن تطوف بنا نحن المثقفين، بل ما كانت هناك حقول مزروعة أيضًا. بربرية ليس إلا. لا، بل لعلنا لم نكن نصل إلى هذا. ولو أن الحياة خلت من روحهم لظلت على عهدها لا تبرح طور الكائن وحيد الخلية. وأنا أرفض أكثر فأكثر أن أسحب ريع مالي وأسخر في الوقت نفسه ممن يكفلون حصولي عليه، وهناك أوقات يبدو لي فيها...

ـ ولي أيضًا، وكذلك لكل النساء، ولهذا قبَّلت «بول»...

فقالت «مارجريت»:

ـ هذا بهيمي، ولكن حالتي مختلفة كل الاختلاف. فأنا تدبرت الأمور.

ـ إن تدبر الأمور لا يُحدث فرقًا، فنهايتها واحدة.

ـ هراء!

خيَّم صمت طويل عاد المد أثناءه إلى ميناء بوول. وغمغمت «هيلين»، وكأنما تخاطب نفسها:

ـ إن المرء يفقد شيئًا.

وزحف الماء فوق السهول الطينية متجهًا إلى الشجر الشائك والخلنج المسود. وأفقد الماءُ الزاحف جزيرةَ «برانكسي» شواطئَها الأمامية الكبيرة، وحوَّلها إلى بقعة مظلمة من الشجر. واضطر نهر «فروم» إلى التقهقر صوب دورتشستر، و«ستاور» صوب ويمبورن، و«آفون» صوب سلزبوري، وسادت الشمس فوق هذا المكان الذي تبدلت معالمه، وهبَّت ريح الشمال في اتجاهٍ مضاد هبوبًا أقوى على بحارها متعالية العباب. فماذا تقصد إنجلترا؟ ولأي غاية تنوعاتها هذه الجميلة، وتغيرات تربتها، وتعرج شاطئها؟ أهي تخص أولئك الذين بنوها وجعلوها مرهوبة من البلاد الأخرى، أم تخص أولئك الذين لم يضيفوا شيئًا إلى بأسها، ولكنهم اكتفوا على نحو ما برؤيتها ـ رؤية الجزيرة بأكملها في وقت واحد وهي متمددة كالجوهرة في صدر البحر الفضي، سابحة كسفينة تحمل أرواحًا، يرافقها أسطول العالم الباسل في طريقها صوب الأبدية؟

## الفصل العشرون

كثيرًا ما عجبت «مارجريت» للاضطراب الذي يغشى مياه العالم عندما يتسرب إليها الحب، وهو الذي يبدو كحصاة صغيرة أشد الصغر! فمن ذا الذي يهتم بـالحب غير المحب وحبيبه؟ ومع ذلك فإن وقعه يغرق مئات الشواطئ، ولا ريب أن ذلك الاضطراب هو في الواقع روح الأجيال تحتفي بالجيل الجديد، وتتحرش بـالقدر النهائي الذي يمسك بالبحار جميعها في راحة يده. ولكن الحب لا يستطيع أن يدرك ذلك، إنه يعجز عن فهم خلود غيره لأنه لا يعي إلا خلوده هو وحده؛ شعاع طائر، ووردة متساقطة، وحصاة تلتمس غطسة واحدة هادئة تحت تفاعل الزمان والمكان القلِق المضطرب. والحب يعلم أنه سيظل حيًّا بعد فناء كل شيء، وأن القدر سيلتقطه كما تلتقط الدرة من الطين، وسيسلمه في إعجاب إلى محفل الآلهة. وستقول الآلهة: «إن الناس ابتدعوا هذا». وإذ يقولون ذلك يمنحون الناس الخلود. لكن في غضون ذلك... في غضون ذلك، أي اضطراب يقع! فـالمِلكية، واللياقة ـ وهما صخرتان توأمان ـ تعرَّيان، وكبرياء الأسرة تطفو إلى السطح لاهثة نافخة رافضة أن تواسى. واللاهوت، ذو الميل الغامض إلى الزهد، يثير ضجة كريهة. عند ذلك يوقظ رجال القانون ـ وهم سلالة باردة ـ فيخرجون من جحورهم زاحفين. ويبذلون قصارى ما يستطيعون، فيعيدون الهندام إلى المِلكية واللياقة، ويعيدون الطمأنينة إلى اللاهوت وكبرياء الأسرة. ثم تُصب أنصاف الجنيهات فوق سطح الماء المضطرب، فيزحف رجال القانون عائدين إلى جحورهم. وإذا سارت الأمور كلها على ما يرام، ربط الحب بين رجل وامرأة برباط الزوجية.

وكانت «مارجريت» تتوقع الاضطراب، فلم تنزعج له، وكانت أعصابها قوية بالنسبة إلى امرأة حساسة مثلها. وتستطيع أن تحتمل المتناقضات والمضحكات. ثم إنه لم تكن في حبها مبالغة. فالرضا هو النغمة الغالبة على علاقتها بالسيد «ويلكوكس»، أو «هنري»، كما يجب أن أسميه منذ الآن. إن «هنري» لا يشجع العواطف الخيالية، وهي لم تكن بالفتاة التي تقلق بسبب ذلك. إن أحد معارفها أصبح عاشقًا لها، وقد يصبح زوجًا لها، ولكنه يود أن يحتفظ بكل ما تبينته فيه وهو من معارفها؛ وعلى الحب أن يوطد العلاقة القديمة أكثر من أن ينشئ علاقة جديدة.

وبهذه الروح وعدت أن تتزوجه.

وكان في سوانيج صباح اليوم التالي حاملًا معه خاتم الخطوبة. وحيا كل منهما الآخر بإخلاص قلبي أثر في نفس الخالة «جولي». وتناول «هنري»

غداءه في «ذي بيز»، ولكنه احتجز لنفسه غرفة لنومه في الفندق الرئيسي، وكان من أولئك الرجال الذين يعرفون الفندق الرئيسي بالغريزة. وسأل «مارجريت» بعد الغداء عما إذا كانت تحب أن تقوم بجولة في المتنزه العام. وقبلت العرض، ولم تستطع أن تخفي رجفة خفيفة اعترتها. فسوف يكون هذا أول مشهد حقيقي لحبها. ولكنها انفجرت ضاحكة بينما كانت تضع قبعتها على رأسها. فالحب يختلف كل الاختلاف عن هذه السلعة التي تعرض في الكتب، فبهجته مختلفة، وإن كانت أصيلة وسره الغامض سر لا يتوقع، ذلك أن السيد «ويلكوكس» لا يزال يبدو غريبًا.

وتحدثا بعض الوقت عن خاتم الخطوبة. ثم قالت:

ـ أتذكُر «جسر تشيلسي»؟ إن ذلك لا يمكن أن يجاوز عشرة أيام.

فقال ضاحكًا:

ـ نعم، وكنتما أنتِ وأختك غارقتين حتى آذانكما ورأسيكما في مشروع خيالي. آه طيب!

ـ لا شك أن الأمر لم يخطر ببالي وقتها، فهل خطر ببالك أنت؟

ـ ليس لي بذلك علم، ولست أحب التحدث فيه.

وصاحت «مارجريت»:

ـ كيف، أفكرت في الأمر من قبل؟ أفكرت فيَّ على هذا النحو من قبل؟ ما أطرف هذا يا «هنري»! خبرني.

ولكن «هنري» لم يكن ينوي أن يخبرها. ولعله لم يكن يستطيع ذلك لأن حالته الذهنية تكتنفها الظلمة بمجرد أن يجتازها. وهو يعاف كلمة «طريف». ويراها موحية بالطاقة المبددة بل المرض، فالحقائق الواقعية الصلدة كانت تكفيه.

واستطردت «مارجريت»:

ـ أنا لم أفكر في ذلك، لا. وكانت البداية فعلًا عندما تحدثت إليَّ في غرفة الاستقبال، وقد حدث ما حدث كله مختلفًا اختلافًا كبيرًا عن المفروض حدوثه. إن عرض الزواج فوق المسرح أو في الكتب هو... كيف أعبر عن

ذلك؟ إنه شيء متفتح كل التفتح، إنه باقة من الزهور. وبذلك يفقد العرض معناه الحرفي. ولكن العرض في الحياة الواقعة هو عرض...

ـ بهذه المناسبة...

وأكملت قولها:

ـ هو اقتراح، هو بذرة...

وفرَّت الفكرة طي الظلام.

ـ خطر لي، إذا كان هذا لا يضيركِ، أنه يجدر بنا أن نقضي الليلة في حديث عملي، فستكون هناك مسائل عديدة جدًّا تحتاج إلى تسوية.

ـ أنا أرى رأيك أيضًا. قل لي أولًا، كيف سارت بك الحال مع «تيبي»؟

ـ مع أخيكِ؟

ـ نعم، أثناء التدخين.

ـ أوه، على ما يرام.

وأجابت وقد دهشت قليلًا:

ـ أنا سعيدة جدًّا. وفيمَ تحدثتما؟ في شأني غالبًا.

ـ وعن بلاد اليونان أيضًا.

ـ اختيار اليونان ورقة طيبة جدًّا يا «هنري». فليس «تيبي» إلا صبيًّا بعد، وعلى المرء أن يتخير موضوعات الكلام. حسنًا فعلت.

ـ قلت له إني أملك أسهمًا في مزرعة للزبيب البناتي بالقرب من كالاماتا.

ـ ما أبدعه من مكان يساهم الإنسان بماله فيه. ألا نستطيع الذهاب إلى هناك لقضاء شهر العسل؟

ـ نذهب لنصنع ماذا؟

ـ لنأكل الزبيب. ثم ألا توجد هناك مناظر طبيعية رائعة؟

ـ مناظر لا بأس بها. ولكن المكان ليس من النوع الذي يمكن للمرء بحال أن يذهب إليه في صحبة سيدة.

ـ لمَ لا؟

ـ لا توجد هناك فنادق.

ـ بعض السيدات يستغنين عن الفنادق. ألا تعلم أني أنا و«هيلين» سرنا فوق جبال الأبينين حاملتين متاعنا فوق ظهرينا؟

ـ لم أعلم بذلك. ولن تُقدِما على مثل هذا مرة أخرى إذا استطعتُ منعكما.

وقالت في مزيد من الجد:

ـ أظن أنك لم تجد بعدُ مندوحة من الوقت لمحادثة «هيلين»؟

ـ لا.

ـ أرجو أن تحادثها قبل رحيلك، فأنا تواقة إلى أن تصبحا صديقين.

وقال بلا اكتراث:

ـ أنا وأختكِ على وفاق دائم، ولكننا ابتعدنا عن حديث الأعمال، فدعيني أبدأ من البداية. أنتِ تعلمين أن «إيفي» ستتزوج «بيرسي كاهل».

ـ عم «دوللي».

ـ تمامًا. إن الفتاة تهيم به حبًّا، وهو فتى طيب جدًّا. ولكنه يطلب، وبحق، تهيئة مناسبة للحياة معها. وأنتِ تعلمين جيدًا، من الناحية الثانية، أن هناك «تشارلز». وقد كتبت له قبل مغادرتي المدينة خطابًا أوليته كل عناية. فإن لـ«تشارلز»، كما تعلمين، أسرة أفرادها ونفقاتها في تزايد مستمر، وليست أعمال شركتيه، «الآي» و«الدبليو إيه»، رائجة جدًّا في الوقت الحاضر وإن كان من الممكن أن تروج مستقبلًا.

وغمغمت «مارجريت» وهي تنظر إلى البحر من دون أن تفهم شيئًا:

ـ يا للمسكين!

ـ وبما أن «تشارلز» هو الولد الأكبر فسيحل يوم يؤول فيه «هواردز إند» إليه. ولكني، وأنا مستمتع بسعادتي، حريص على ألا أظلم الآخرين.

وبدأت تقول:

ـ هو ذلك بالطبع...

ثم أطلقت صيحة خفيفة:

ـ أنت تعني النقود. ما أشد غبائي! أنت على حق بالطبع!

والعجيب أنه جفل قليلًا من كلمة «النقود»:

ـ نعم، النقود، ما دمتِ قد أفصحتِ على مثل هذا النحو الصريح. أنا مصمم على أن أكون عادلًا مع الجميع: عادلًا معكِ، وعادلًا معهم. أنا مصمم على ألا يكون لأولادي سبب للشكوى مني.

فقالت بحدة:

ـ كن كريمًا معهم. ودعك من حديث العدالة!

ـ أنا مصمم على ذلك، وقد كتبت فعلًا إلى «تشارلز» بما يفيد هذا.

ـ ولكن ما مقدار المال الذي تملكه؟

ـ ماذا؟

ـ كم يبلغ دخلك في العام؟ أنا دخلي يبلغ ستمائة.

ـ دخلي أنا؟

ـ نعم. يجب أن نبدأ بالوقوف على مبلغ دخلك قبل أن نستطيع البت في مقدار المبلغ الذي يمكن أن تعطيه لـ«تشارلز». إن العدالة بل حتى الجود يتوقف على ذلك.

وقال معقبًا وهو يربت على ذراعها، ويضحك قليلًا:

ـ لا بد أن أقول إنكِ شابة غريرة جدًّا. ما أعجبه من سؤال تفجئين به الإنسان!

ـ ألا تعرف مبلغ دخلك؟ أم أنت تأبى أن تذكره لي؟

ـ أنا...

ـ لا بأس.

وربتت عليه الآن بدورها:

ـ لا تخبرني، فأنا لا أريد أن أعرف، وأستطيع أن أحسب الحسبة بطريقة النسبة. قسِّم دخلك إلى عشرة أجزاء. فكم جزءًا تريد أن تعطيه لـ«إيفي»، وكم لـ«تشارلز»، وكم لـ«بول»؟

ـ الواقع يا عزيزتي أني لم أقصد أن أضايقكِ بهذه التفصيلات. وكل ما أردته هو أن تحيطي علمًا... حسنًا... تحيطي علمًا بأن شيئًا يجب أن يُبذل للآخرين، وأنتِ قد فهمتِ قصدي تمامًا، وعلى ذلك لننتقل إلى النقطة التالية.

قالت «مارجريت» من دون أن تزعجها أخطاؤه الاستراتيجية:

ـ نعم، لقد سوينا هذا. واصِل قولك. أفصِح عن كل ما تستطيع قوله من دون أن يغيب عن بالك أن لي دخلًا خالصًا يبلغ ستمائة جنيه. يا لها من رحمة أن يكون في حوزة الإنسان كل هذا المال!

ـ أؤكد لكِ أننا لا نملك الشيء الكثير، فأنتِ تتزوجين رجلًا فقيرًا.

واستطردت «مارجريت»:

ـ «هيلين» لا توافقني في هذه النقطة. فهي لا تجرؤ على تحقير الأغنياء لأنها هي نفسها غنية، ولكنها تود تحقيرهم. إن هناك فكرة شاذة تدور في مؤخر رأسها لم أستطِع إدراكها تمامًا، هي أن الفقر، على نحو ما، شيء «واقعي». إنها تكره كل نظام، وتخلط على الأرجح بين الثروة، وطرائق الثروة. فالجنيهات الذهبية في الجورب لا تضجرها، بعكس «الشيكات». إن «هيلين» صعبة لا تلين أبدًا، والإنسان لا يستطيع أن يتعامل في هذه الدنيا بمثل أسلوبها التحكمي.

ـ هناك مسألة أخرى، ثم لا بد من عودتي إلى الفندق وكتابة بعض الرسائل. ما الرأي الآن في منزل شارع «دوسي»؟

ـ احتفظ به. والأمر على الأقل يتوقف على أمر: متى تريد أن تتزوج بي؟

ورفعت صوتها كما تفعل غالبًا. وسمعها بعض الشبان الذين خرجوا يستنشقون أيضًا هواء المساء. وقال أحدهم:

ـ اشتدت الحماسة قليلًا، هيه؟

ودار السيد «ويلكوكس» إليهم، وقال محتدًّا:

ـ اسمعوا!

وساد الصمت.

ـ حذارِ لئلا أبلغ أمركم إلى الشرطة.

وابتعدوا في هدوء، ولكنهم لم يقصدوا إلا التلكؤ وتحيُّن الفرص، وقطعت بقية حديثهما قهقهاتٌ مدوية من الضحك العنيف.

وخفض صوته، وقال وقد أشرب نبرته ما يوحي بالتوبيخ:

ـ ستتزوج «إيفي» في سبتمبر غالبًا. ونحن نكاد لا نستطيع التفكير قبل ذلك في شيء آخر.

ـ خير البر عاجله يا «هنري». والمفروض ألا تتحدث النساء بمثل ذلك، ولكن خير البر عاجله.

وسأل بصوت أقرب إلى الجفاف:

ـ ما الرأي في أن نتزوج في سبتمبر نحن أيضًا؟

ـ هذا مناسب. أنسكن نحن منزل شارع «دوسي» في سبتمبر؟ أم نحاول أن نزجَّ «هيلين» و«تيبي» فيه. إن هذه لفكرة راجحة. إنهما لا يفقهان في الأعمال أبدًا، ونحن نستطيع أن نحملهما على فعل أي شيء بالسياسة الحكيمة. اسمع: نعم. سنفعل ذلك. أما نحن فنستطيع أن نقطن «هواردز إند» أو شروبشير.

ونفخ صدغيه:

ـ يا للسماء! كيف تقفزن من موضوع لموضوع أيتها النساء. إن رأسي يدور في دوامة. نقطة نقطة يا «مارجريت». «هواردز إند» مستحيل لأني أجرته في مارس الماضي إلى «هامار برايس» بعقد مدته ثلاث سنوات. ألا تذكرين؟ ومنزل أونيتون. حسنًا، إنه بعيد جدًّا جدًّا إلى حد أنه لا يمكن أن نعتمد عليه كل الاعتماد. إنكِ تستطيعين أن تذهبي إليه، وتنشدي التسلية لمدة معينة، ولكن لا بد أن يكون لنا بيت يسهل الوصول منه إلى المدينة. ولكن لمنزل شارع «دوسي» عيوبًا كبيرة، فهناك إسطبلات وراءه.

ولم تتمالك «مارجريت» نفسها من الضحك. فهي تسمع لأول مرة عن الإسطبلات الواقعة خلف شارع «دوسي»، فعندما كان من المحتمل أن تستأجر المنزل طمست هذه الواقعة نفسها لا عن وعي، ولكن بطريقة ذاتية. إن أسلوب «ويلكوكس» المرح ينقصه، برغم أصالته، صفاء النظر الذي لا غنى للحق عنه بحال. لقد كان «هنري» يذكر الإسطبلات أيام إقامته في منزل شارع «دوسي»، ولكنه نسيها يوم حاول تأجيره. ولو أن إنسانًا عقَّب بأنها إما موجودة وإما غير موجودة، لشعر «ويلكوكس» بالمضايقة، وانتهز بعد ذلك أي فرصة لِيتهم ذلك الإنسان بأنه نظري التفكير. كذلك يتهمني البدال عندما أشكو من جودة زبيبه البناتي، ويجيبني في نفَس واحد بقوله لي: «إنه أحسن أنواع الزبيب، وكيف تتوقع الحصول على أحسن أنواعه بهذا الثمن؟». إن هذا العيب غريزي في عقل رجل الأعمال، وتُحسن «مارجريت» صنعًا بالتلطف في الحكم عليه مُقدرة كل ما أدى رجل الأعمال من خدمة لإنجلترا.

ـ نعم، إن الإسطبلات مزعجة إلى حدٍّ خطير، لا سيما في الصيف. وغرفة تدخين ذلك المنزل أيضًا وكرٌ صغير كريه. وقد حل قوم يشتغلون في الأوبرا بالمنزل المقابل له، إن شارع «دوسي» آخذ في الاضمحلال. هذا هو رأيي الشخصي.

ـ يا له من أمر محزن. إن هذه المنازل البديعة لم تشيَّد إلا منذ سنوات قليلة.

ـ هذا يدل على أن الدنيا تتحرك. وهذا مفيد للتجارة.

ـ إني أكره هذا التدفق المستمر الذي يعتور لندن. إنه مجمل مصغر لنا ونحن في أسوأ حالتنا. «تميَّع» أبدي. فجميع الصفات، سواء الطيبة منها والسيئة والمتأرجحة، تتدفق مبتعدة. تتدفق... تتدفق إلى الأبد. ولهذا أنا أخشى

التدفق، ولا أئْتمن الأنهار، حتى وهي تبدو في المناظر الطبيعية. والآن، حتى البحر...

ـ نعم، المد العالي.

وتعالت من جانب الشبان الذين يتمشون سخريتُهم بعبارة «المد العالي»:

ـ «المود العولي»...

وأبدى السيد «ويلكوكس» الملاحظة الآتية:

ـ وهؤلاء هم الرجال الذين نمنحهم حق التصويت...

وفاته أن يضيف قوله إنهم أيضًا الرجال الذين كان يستخدمهم في وظائفه الكتابية، تلك الوظائف التي تكاد لا تشجعهم على أن يتطوروا إلى رجال آخرين.

ـ ومع ذلك، فإن لهم حياتهم واهتماماتهم الخاصة. لنمضِ من هنا.

وتلفت وهو يتكلم، واستعد ليرافقها إلى «ذي بيز»، فقد انتهت المهمة. بيد أن فندقه يقع في الناحية المقابلة، وإذا رافقها إلى دارها تأخرت خطاباته عن ميعاد جمع البريد، فتوسلت إليه ألا يحضر، ولكنه كان عنيدًا:

ـ ستكون بداية حسنة إذا رأتك خالتكِ تتسللين بمفردكِ!

ـ ولكني أروح وأغدو وحدي دائمًا، وذلك بديهي إذا راعيت أني سرت فوق جبال الأبينين. إنك ستغضبني جدًّا. وأنا لا أتقبل هذا أبدًا على أنه تحية لي.

وضحك وأشعل سيجارًا:

ـ ولكنه لم يُقصد به أن يكون تحية يا عزيزتي. وكل ما في الأمر أني لن أدعكِ تسيرين في الظلام، وتحت جنحه أناس كهؤلاء أيضًا هذا خطر.

ـ ألا أستطيع أن أحافظ على نفسي؟ أنا أود...

ـ هلمَّ يا «مارجريت»، لا تحاولي إقناعي بالحيلة.

ولو كانت «مارجريت» امرأة أصغر سنًّا لاستاءت من أساليبه التحكمية، ولكن قبضة «مارجريت» على الحياة كانت قوية جدًّا إلى حد لا يحوجها إلى إحداث ضجة. فقد كانت لا تقل عنه تحكمًا، ولكنْ على طريقتها الخاصة. وإذا كان هو قلعة فهي قمة جبل يمكن أن يسير عليها الجميع، ولكن الثلوج تعيدها كل مساء إلى طهارتها. وقد ضللت محبها كما ضللت خالتها وهي تزدري عتاد البطولة، وتبدو سريعة الانفعال في نهجها، ثرثارة عالية الصوت كثيرة الاستطرادات. لقد أخطأ فحسَب خصوبتها ضعفًا. وخالَها «ذكية ما شئت أن تنعتها بالذكاء»، ولكن ليس أكثر من ذلك، ولم يدرك أنها كانت تتغلغل إلى أعماق نفسه، وتوافق على ما تجده هناك.

وإذا كان نفاذ البصيرة يكفي، وكانت الحياة الباطنية هي الحياة بأسرها، فإن سعادتهما أصبحت إذن مضمونة.

سارا قدمًا في نشاط. وكان المتنزه العام والشارع التالي له، مضاءين إضاءة حسنة، ولكن حديقة الخالة «جولي» كانت أكثر ظلمة. وإذ كانا يسيران صُعُدًا في الممرات الجانبية، خلال نوع من نبات الدفلي، قال السيد «ويلكوكس»، الذي كان متقدمًا، بصوت مبحوح نوعًا:

ـ «مارجريت»!

ودار، وألقى بسيجاره، وضمها بين ذراعيه.

جفلت، وكادت تصرخ، ولكنها تماسكت على الفور، وقبلت الشفتين المضغوطتين على شفتيها في هيام صادق. وكانت هذه قبلتهما الأولى، ولما انتهت رافقها إلى باب الدار، ودق لها الجرس، ولكنه توارى في الظلام قبل أن تحضر الخادمة. وعندما استعادت «مارجريت» الحادث لم يرُق لها، فقد كان منفصلًا كل الانفصال. ولم يبشر به شيء في الحديث السابق عليه، والأسوأ من ذلك أنه لم يعقبه أي حنان. وإذا كان الرجل لا يستطيع أن يتدرج صُعُدًا إلى العاطفة المشبوبة، فهو يستطيع على الأقل أن يتدرج في هبوطه منها. وقد رجت «مارجريت» بعدما استشعرته من رضا عن نفسها، أن يتبادلا بعض الكلمات الرقيقة، ولكنه ابتعد مسرعًا كأنه خجل من نفسه، وذكَّرها ذلك بـ«هيلين» و«بول» لهنيهة.

## الفصل الحادي والعشرون

كان «تشارلز» يزجر في هذه اللحظة زوجته «دوللي». وقد استحقت هذا الزجر، وانحنت أمامه، ولكن رأسها، برغم الجراح، لم يغلب على أمره. وبدأت مناغاتها لطفلها تمتزج بإرعاده الآخذ في الارتداد:

ـ لقد أيقظت الطفل. كنت أعلم أنك ستوقظه.

روم ـ تي ـ فو... راكيتي ـ تاكيتي ـ تومبكين!

أنا غير مسؤولة عما يفعله عمي «بيرسي»، وعن أي مخلوق، أو أي شيء. فحسبك هذا!

ـ من الذي دعاه إلى الحضور أثناء غيابي؟ ومن الذي استدعى أختي للقائه؟ ومن الذي كان يرسلهما للنزهة يومًا بعد يوم في السيارة؟

ـ «تشارلز»! إن عباراتك هذه تذكرني بقصيدة من القصائد.

ـ أتذكركِ بها حقًّا؟ إننا سنرقص كلنا على أنغام موسيقى مختلفة جدًّا عما قريب. لقد ظفرت بنا الآنسة «شليجل» فأصبحنا تحت رحمتها.

ـ أنا أود أن أنتزع عينيها، ولكن من الظلم البين أن يقال إن الخطأ خطئي.

ـ إنه خطأك. وقد اعترفت أنت بذلك منذ خمسة أشهر مضت.

ـ أنا لم أعترف بذلك.

ـ بل اعترفت.

وتردد غناء «دوللي» بعد أن انصرفت بجملتها للطفل فجأة:

توتل، توتل، تعزف على البوتل!

ـ جميل منكِ أن تغيري موضوع الحديث، ولكن أبي لم يكن ليفكر قَطُّ في الزواج ما دامت «إيفي» هناك تقوم على توفير راحته. ولكنكِ أبيتِ إلا أن تديري صفقة زواج «إيفي». ثم إن «كاهل» متقدم في السن جدًّا.

ـ بالطبع، إذا كنت ستُهين عمي «بيرسي كاهل»...

ـ كانت الآنسة «شليجل» تُبيِّت النية دائمًا لأن تستولي على «هواردز إند»، وبفضلك قد استولت عليه فعلًا.

ـ أنا أعدُّ طريقتك في قلب الأشياء وربط بعضها ببعض، ظلمًا فاحشًا. إنك لو فاجأتني أغازل رجلًا لما استطعت أن تغدو أرذل من ذلك. أكان يستطيع يا طفلي؟

ـ إننا في مأزق ضار بنا، ولا بد أن نعالجه على خير وجه. وسأجيب على خطاب أبي بأدب. ومن الواضح أنه يتوق إلى التصرف بلباقة. ولكني لا أنوي أن أنسى أسرة «شليجل» هذه سريعًا. فما داموا يسلكون على خير وجه... أأنتِ تنصتين يا «دوللي»؟ فسنحسن سلوكنا نحن أيضًا. ولكني إذا وجدتهم يتعالون، أو يحتكرون أبي، أو يسيئون معاملته على أي وجه، أو يضايقونه ببهيميتهم الفنية، فإني أنوي أن أتدخل، أجل وبحزم! أتحل محل أمي؟! يعلم الله ماذا سيقول «بول» المسكين عندما يبلغه النبأ.

وينتهي هذا الفاصل الذي حدث في حديقة «تشارلز» في هيلتون. و«تشارلز» و«دوللي» يجلسان في مقاعد الحديقة وسيارتهما ترمقهما من الجراج بنظرات هادئة ترسلها من وراء المرجة. وكذلك نسخة من «تشارلز» في ثوب قصير تنظر إليهما في هدوء. ونسخة تزعق في عربة الأطفال، ونسخة ثالثة يُنتظر مجيئها قريبًا. إن الطبيعة تصنع «ويلكوكسيين» في هذا المسكن الهادئ ليرثوا الأرض.

## الفصل الثاني والعشرون

حيت «مارجريت» سيدها صباح اليوم التالي بحنان غير عادي. فقد خطر لها أنها قد تستطيع، برغم نضج سنه، أن تعينه على إقامة جسر مشرق جميل كقوس قزح بين النثر الكامن فينا والعاطفة الشاعرية. فما نحن، لولا هذا الجسر، إلا حطامًا مجردًا من أي معنى، أنصاف نسَّاك، وأنصاف وحوش، أقواسًا منفصلة لم تنعقد فتصبح إنسانًا. وعن طريق هذا الجسر يولد الحب فيهبط على أعلى قوس، متلألئًا وسط اكفهرار الحياة، هادئًا وسط النار. سعيد ذلك الرجل الذي يرى من أي ناحية بهاء تلك الأجنحة المنشورة. إن مسالك روحه تمتد واضحة، وسيجد هو وأصدقاؤه طرقًا ممهدة.

ولكن طُرق روح السيد «ويلكوكس» غير ممهدة، فقد أهملها منذ طفولته: «أنا لست بالرجل الذي يهتم ببواطنه». وهو في ظاهر أمره مبتهج شجاع موثوق به، ولكن ذلك كله انقلب في باطنه إلى حال من الفوضى، سيطر عليها زهد غير كامل، إن كان لشيء أن يسيطر عليها إطلاقًا. وكان وهو صبي وزوج وأرمل خاضعًا لذلك الاعتقاد المُلح الذي يرى العاطفة الجسدية أمرًا معيبًا، هذا الاعتقاد الذي لا يستحب إلا حين يؤمن به صاحبه إيمانًا عنيفًا مشبوبًا. وقد أيده الدين فيما اعتقد. فالعبارات التي كانت تقرأ علانية في أيام الآحاد له ولغيره من الناس المحترمين هي التي أشعلت يومًا ما في نفسَي القديسة «كاترين»، والقديس «فرانسيس»، تلك الكراهية شديدة الاضطرام لكل ما هو جسدي. وهو لم يستطِع أن يبلغ مبلغ القديسين فيحب اللامتناهي بتلك الحمية الملائكية، ولكن كان يستطيع أن يخجل بعض الخجل من حبه لزوجته. «كان يحب، وكان يخاف الحب» وفق القول اللاتيني، وفي هذا أمَّلت «مارجريت» أن تعينه.

ولم يبدُ الأمر شديد الصعوبة. ولم يكن هناك داعٍ لإزعاجه بموهبة تملكها. وحسبها أن تشير إلى سبيل الخلاص الكامن في نفسه، وفي نفس كل رجل. «ما عليك إلا أن تربط بين الأشياء». هذه كانت خطتها بأكملها. ما عليك إلا أن تربط بين النثر والعاطفة الشاعرية، فيتسامى كلاهما، ويظهر الحب البشري في قمته. لا تعِش شظايا مفككة بعد اليوم. ما عليك إلا أن «تربط» فيموت الوحش والناسك بعد حرمانهما من انعزالهما، الذي هو الحياة لكل منهما.

كذلك لم تكن رسالتها صعبة التبليغ، أو محتاجة إلى أن تتخذ شكل محادثة جدية. فالجسر يمكن أن يبنى بالإشارات الهادئة، فيربط بالجمال بين حياتيهما.

ولكنها أخفقت، لأن «هنري» كان يتصف بصفة لم تكن قَطّ مستعدة لمجابهتها برغم كثرة تذكير نفسها بها. هذه الصفة هي الكلام. فمجمل القول أنه لا يلاحظ الأشياء، وليس بعد ذلك من قول يقال. فهو لم يلاحظ قَطُّ أن «هيلين» و«فريدا» تعاديانه، أو أن «تيبي» لا يهتم بمزارع الزبيب البناتي. إنه لم يلاحظ قَطُّ الأضواء والظلال التي لا تخلو منها أشد المحادثات قتامة، لم يلاحظ معالم الطرق، وقوائم الإرشادات، وتصادم النقائض، والمناظر الممتدة إلى غير حد. وقد لامته «مارجريت» على ذلك مرة من المرات، في مناسبة أخرى، وأربكه ذلك، ولكنه أجاب ضاحكًا:

ـ إن شعاري هو: «التركيز»، وليس في نيتي أن أبدد قوتي في سبيل مثل تلك الأمور.

فاحتجت قائلة:

ـ المسألة ليست تبديد القوة، ولكنْ توسيع النطاق الذي يمكن أن تكون فيه قويًّا.

وأجابها:

ـ أنتِ امرأة صغيرة بارعة، ولكن شعاري هو «التركيز». وهذا الصباح ركزتُ إلى حدٍّ مريع.

تقابلا في المتنزه الذي تقابلا فيه أمس. وظهرت الشجيرات في وضح النهار غير كثيفة، والممر مشرقًا تحت أشعة شمس الصباح. وصَحبتْها «هيلين» التي ظلت لائذة بصمت يندد بالسوء منذ أن قر قرار «مارجريت». وصاحت «مارجريت» وقد أمسكته بإحدى يديها، وظلت يدها الأخرى تمسك بأختها:

ـ ها نحن أولاء مجتمعون كلنا!

ـ ها نحن مجتمعون. صباح الخير يا «هيلين».

وأجابت «هيلين»:

ـ صباح الخير يا سيد «ويلكوكس».

ـ «هنري»، لقد تلقت «هيلين» رسالة لطيفة جدًّا من ذلك الفتى العجيب الغضوب، أتذكُره؟ كان له شارب تعِس، ولكن مؤخر رأسه كان شابًّا.

ـ وأنا أيضًا تلقيت خطابًا، ولكنه ليس لطيفًا، وأريد أن أحادثك في شأنه.

ذلك أن «لينارد باست» لم يَعُد بالشخص الذي يهمه الآن بعد أن وعدته «مارجريت» بالزواج. لقد تحطم مثلث الجنس إلى الأبد.

ـ إنه في سبيل ترك شركة «بورفيريون»، ويرجع الفضل في ذلك إلى تلميحك.

وقال شارد الذهن، بينما كان يخرج رسالته من جيبه:

ـ إن أعمال شركة «بورفيريون» ليست سيئة.

وقالت، وهي تسقط يده:

ـ ليست... سيئة! ولكنك قلتها بالتأكيد، على جسر تشيلسي.

ـ ها هي ذي مضيفتنا. صباح الخير يا سيدة «منت». إنها مرحة بديعة. صباح الخير يا سيدة «ليزيكي». إننا نفلح في زرع الزهور في إنجلترا، أليس كذلك؟

ـ أأعمالها غير سيئة؟

ـ أجل. إن الرسالة التي تلقيتها خاصةٌ بـ«هواردز إند». لقد صدر أمر بنقل «برايس» إلى الخارج، ويريد لذلك أن يؤجر المنزل من الباطن. ولكني لا أعتقد أني سآذن له، فليس في عقد الإيجار شرط يبيح ذلك. وفي رأيي أن السماح بالتأجير من الباطن خطأ. فإذا وجد لي مستأجرًا أراه مناسبًا فقد أقبل إلغاء عقد إيجاره... صباح الخير يا «شليجل». ألا ترين أن ذلك أفضل من السماح له بالتأجير من الباطن؟

وأسقطت «هيلين» يدها الآن. وقاد السيد «ويلكوكس» «مارجريت» إلى جانب الدار المطل على شاطئ البحر، متخطيًا جميع الحضور. وبدا تحتهم الخليج البرجوازي الصغير الذي لا بد أنه تاق خلال الأجيال إلى منتجع مائي تمامًا مثل سوانيج يبنى على حافته. كانت أمواجه بلا لون. وأضافت باخرة بورنموث لمسة أخرى من انعدام الطعم وهي تسبح تجاه دعامة الجسر وتطلق صفارتها بعنف لتدعو طلاب النزهة.

ـ متى كان هناك تأجير من الباطن فإني أجده يضر...

ـ أرجو المعذرة، ولكني قلقة بشأن شركة «بورفيريون». أأستطيع أن أثقل عليك يا «هنري»؟

وكان أسلوبها جادًّا إلى حد أنه توقف وسألها بشيء يسير من الحدة عما تريد.

ـ لقد قلت عند جسر تشيلسي إنه من المؤكد أن أعمالها غير ناجحة، ومن ثم نصحنا ذلك الموظف الكتابي بأن يترك عمله بها، وقد كتب صباح اليوم يقول إنه عمل بنصيحتنا. وها أنت ذا تقول الآن إن أعمالها ليست سيئة.

ـ إن الموظف الكتابي الذي يترك أي وظيفة يشغلها، سواء أكانت سيئة أم غير سيئة، من دون أن يكفل لنفسه وظيفة أخرى أولًا، يكون أحمق، وأنا لا أشفق عليه.

ـ إنه لم يُقدِم على ذلك. فقد قال إنه سيلتحق بوظيفة في أحد المصارف في «كامدن تاون». وسيكون راتبه أقل بكثير من السابق، ولكنه يؤمل أن يدبر أمره. والمصرف فرع من بنك «ديمبستر»، فهل هذا عمل سليم؟

ـ «ديمبستر»! نعم، والله.

ـ أهو أصلح من شركة «بورفيريون»؟

ـ نعم، نعم، نعم. فهو مأمون كالدُّور المبنية، آمَنُ منها.

ـ شكرًا جزيلًا. أنا آسفة. إذا أجرتَ من الباطن...

ـ إذا أجرتُ من الباطن فلن تكون لي نفس الرقابة، ومن الناحية النظرية لن يسفر ذلك عن أي ضرر جديد يلحق بـ«هواردز إند»، ولكن هناك ضررًا من الناحية العملية. وقد تُرتكب أعمال لا يمكن أن يُعوَّض ضررها بأي مبلغ من المال، ومن أمثلة ذلك أني لا أريد إتلاف شجرة الغرغار الجبلي الجميلة تلك، فهي تتدلى. لا بد لنا يا «مارجريت» أن نذهب يومًا لنرى هذا البيت القديم، إنه جميل على طريقته. سنذهب إليه في السيارة ونتناول الغداء مع «تشارلز».

فقالت «مارجريت» في شجاعة:

ـ سيمتعني ذلك.

ـ ما رأيكِ في يوم الأربعاء القادم؟

ـ الأربعاء؟ لا، لن أستطيع القيام بذلك، فخالتي «جولي» تنتظر منا أن نمكث عندها أسبوعًا آخر على الأقل.

ـ ولكنكِ تستطيعين أن تتخلَّي عن هذه الخطة الآن.

وقالت «مارجريت» بعد أن فكرت هنيهة:

ـ أوه، لا.

ـ أوه. لا بأس في ذلك. سأحادثها في الأمر.

ـ إن هذه الزيارة شيء مقدس عند خالتي «جولي»، وهي تحسب حسابها عامًا بعد عام، وتقلب البيت رأسًا على عقب من أجلنا، وتدعو أصدقاءنا الخلصاء، وهي تكاد لا تعرف «فريدا»، ولذلك لا نستطيع أن نتركها عبئًا عليها. وقد تغيبت عنها يومًا، فإذا لم أقضِ عندها الأيام العشرة بأكملها فسيجرح شعورها كثيرًا.

ـ ولكني سأقول لها كلمة في هذا الشأن، فلا تقلقي بالكِ.

ـ «هنري»، أنا لن أذهب، فلا تتحكم فيَّ.

ـ ولكنكِ تريدين مع ذلك مشاهدة المنزل، أليس كذلك؟

ـ جدًّا. وقد سمعت عنه الكثير من هنا وهناك. أليست هناك أسنان خنزير مغروسة في جذع شجرة الغرغار الجبلي؟

ـ أسنان خنزير؟

ـ وتمضغ لحاء الشجرة لتشفي ألم أسنانك.

ـ ما أغربها من فكرة! هذا بالطبع غير صحيح.

ـ لعلي خلطت هذه الشجرة بأخرى. ويبدو أنه لا يزال يوجد في إنجلترا عدد كبير من الأشجار المقدسة.

ولكنه تركها ليقاطع السيدة «منت» التي كان يسمع صوتها عن بعد، ولكن «هيلين» قاطعته هو نفسه، وبدأت تقول له:

ـ أوه يا سيد «ويلكوكس»، بشأن شركة «بورفيريون»...

واصطبغ وجهها كله باللون القرمزي.

وصاحت «مارجريت» وهي تلحق بهما:

ـ لا بأس. بنك «ديمبستر» أفضل من تلك الشركة.

ـ ولكن أظن أنكَ أخبرتَنا أن حالة «بورفيريون» سيئة، وأنها ستفلس قبل عيد الميلاد.

ـ أقلت ذلك؟ إنها كانت لا تزال وقتئذٍ خارج اتحاد التعريفة، فكانت مضطرة إلى اتخاذ سياسة فاسدة. ولكنها انضمت أخيرًا إلى الاتحاد، وأصبحت الآن في مركزٍ آمن.

ـ وبعبارة أخرى لم تكن هناك حاجة تدعو السيد «باست» بحال إلى ترك الشركة.

ـ لا، لم يكن الفتى بحاجة إلى ترك الشركة.

ـ ولا حاجة إلى بدء العمل في مكان آخر متقاضيًا أجرًا أقل بكثير من السابق.

وصححت «مارجريت» قول أختها، وقد رأت حرجًا يوشك أن يحل:

ـ هو لم يقل إلا «أجرًا أقل» فقط.

ـ إن أقل نقص في أجر رجل فقير مثله لا بد أن يُعَد كبيرًا. إني أرى ما حدث كارثة يرثى لها.

وكان السيد «ويلكوكس» يفكر في مهمته مع السيدة «منت»، فمضى في الحديث مع «هيلين» مسايرًا، ولكن الملحوظة الأخيرة حملته على أن يقول:

ـ ماذا؟ ما هذا؟ أتعنين أني مسؤول؟

ـ أنتِ مضحكة يا «هيلين»...

ـ يبدو أنكِ تظنين...

ونظر في ساعته واستطرد:

ـ دعيني أشرح لكِ هذه النقطة: الأمر وما فيه أنكِ تفترضين، على ما يبدو، أن من واجب مؤسسة الأعمال التي تقوم بمفاوضات حساسة، أن تُطلع الجمهور على ما يحدث مرحلة بعد مرحلة. فشركة «بورفيريون»، طبقًا لما ترين، كان عليها أن تقول: «أنا أبذل قصارى جهدي لأنضم إلى اتحاد التعريفة. ولست واثقة من أني سأفلح، ولكن هذا هو سبيل الخلاص الوحيد من الإفلاس، وأنا أبذل جهدي». يا عزيزتي «هيلين»...

ـ أهذه وجهة نظرك؟ أما وجهة نظري أنا فهي أن رجلًا كان يملك مالًا قليلًا أصبح ماله أقل.

ـ إن مسألة موظفكِ الكتابي أحزنتني، ولكنها هي حياة العمل اليومية، إنها جزء من معركة الحياة.

وعادت تقول:

ـ هناك رجل كان يملك مالًا قليلًا، فأصبح ماله أقل بسببنا، وفي مثل هذه الظروف لست أعدُّ «معركة الحياة» تعبيرًا موفقًا.

واعترض في لطف قائلًا:

ـ أوه. هوِّني عليكِ، هوِّني. فأنتِ لستِ ملومة. وليس هناك ملوم أيًّا كان.

ـ أليس هناك ملوم على أي شيء؟

ـ أنا لا أقول هذا. ولكنكِ تأخذين هذا الأمر بجدٍّ متجاوز للحد جدًّا. ومن هو هذا الفتى؟

فقالت «هيلين»:

ـ إننا أخبرناك عنه مرتين إلى الآن. بل إنك حتى قابلت الفتى، وهو فقير جدًّا، وزوجته شديدة البلاهة بيد أنه قادر على أشياء أفضل مما أتيح له. ونحن،

نحن الطبقات العليا، ظننا أننا نستطيع معاونته من قمة علمنا الأسمى، وها هي ذي النتيجة!

ورفع إصبعه قائلًا:

ـ إليكِ كلمة نصح.

ـ لست في حاجة إلى مزيد من النصح.

ـ إليكِ كلمة نصح: لا تتخذي هذا الموقف العاطفي تجاه الفقراء.

اعملي يا «مارجريت» على ألا تتخذ هذا الموقف.

فالفقراء فقراء، والإنسان يأسف لحالهم. ولكن هاكِ الواقع: لا بد أن يؤلم الحذاء في بعض المواضع بينما تسير الحضارة قُدمًا. ومن السخف أن يزعم الإنسان أن أحدًا مسؤول عن ذلك شخصيًّا. فأنتِ لست ملومة، ولا أنا بملوم، ولا من أنبأني بالخبر، ولا منبئ من أنبأني، ولا مديرو شركة «بورفيريون» بملومين على فقدان هذا الموظف الكتابي لراتبه. إن المسألة لا تعدو إيلام الحذاء، وما من أحد يستطيع تلافي ذلك. وكان يمكن أن يصير الأمر أسوأ.

وانتفضت «هيلين» سخطًا.

ـ اشتركي في أعمال الإحسان ما وسعكِ ذلك، اشتركي فيها بسخاء، ولكن لا تجمح بكِ مشروعات الإصلاح الاجتماعي السخيفة. إني أرى الكثير مما يجري وراء مسرح الحياة، وخذيها كلمة مني أنه لا توجد مشكلة اجتماعية إلا لقليل من الصحفيين الذين يحاولون كسب قوتهم من وراء هذه العبارة. ليس هناك إلا أغنياء وفقراء ظلوا وسيظلون كما كانوا دائمًا. دليني على زمن كان الرجال فيه سواسية.

ـ أنا لم أقُل إن...

ـ دُليني على زمن جعلتهم الرغبة في المساواة أسعد حالًا. لا، لا. لن تستطيعي ذلك. فقد كان هناك أغنياء وفقراء دائمًا. أنا لست قدريًّا، حمتني السماء من ذلك! ولكن قوى كبرى غير شخصية شكلت حضارتنا.

وأخذ صوته ينم عن الرضا، وكان ذلك يحدث دائمًا عندما يستبعد العامل الشخصي:

ـ وسيظل هناك أغنياء وفقراء، أنتِ لا تستطيعين إنكار ذلك.

وتحَول صوته الآن إلى صوت مشوب بالاحترام:

ـ وأنتِ لا تستطيعين أن تنكري أن اتجاه الحضارة كان في مجموعه إلى أعلى برغم كل شيء.

وقالت «هيلين» في سرعة البرق:

ـ وهذا بفضل الخالق على ما أعتقد.

وحملق فيها.

ـ أنتم تستولون على الدولارات، والله يتكفل بالباقي.

ليست هناك فائدة ترجى من تعليم الفتاة إذا كانت ستتحدث عن الله بهذا الأسلوب المتهوس الحديث. ومضى يلتمس صحبة السيدة «منت» الأكثر هدوءًا، بعد أن ظل إلى النهاية يتخذ من «هيلين» موقف الأخ، وقال لنفسه: «إنها تُذكرني نوعًا ما بـ«دوللي»».

ونظرت «هيلين» إلى البحر. وقالت لها أختها ناصحة:

ـ لا تناقشي «هنري» أبدًا في الاقتصاد السياسي، فإن ذلك لن ينتهي إلا إلى الإخفاق.

وقالت «هيلين» في تؤدة:

ـ ولكنه لا بد أن يكون أحد أولاء الرجال الذين وفَّقوا بين العلم والدين. أنا لا أحب هؤلاء الرجال، فهم أنفسهم علميون، ويتحدثون عن نظرية «بقاء الأصلح»، ويُنقصون رواتب موظفيهم الكتابيين، ويشلون حرية من يهدد راحتهم. ولكنهم يعتقدون أنه على نحو ما ـ ولا محيص أبدًا عن عبارة «على نحو ما» القلقة ـ ستكون العقبى خيرًا وأن الخير سيتاح بطريقة غامضة لأمثال السيد «باست» الذين سيعيشون في المستقبل، وذلك لأن أمثال السيد «باست» الذين يعيشون اليوم يتألمون.

ـ إنه من هؤلاء الرجال نظريًّا! ولكن، أوه يا «هيلين»، نظريًّا!

ـ ولكن، أوه يا «ميج»، أي نظرية!

ـ لماذا تعبرين عن الأشياء بهذه المرارة يا عزيزتي؟

وقالت «هيلين» وهي تعض شفتها:

ـ لأني عانس. وأنا نفسي لا أدرك سبب مُضِيي على هذا النحو.

ونزعت يدها من يد أختها وتوجهت إلى المنزل. وتتبعت «مارجريت» بنظرها باخرة بورنموث وقد أحزنتها بداية هذا الصباح. وقد رأت أن مسألة السيد «باست» التعسة أثارت أعصاب «هيلين» إثارة تجاوزت حدود الأدب. وقد يحدث في أي لحظة انفجار حقيقي يلحظه حتى «هنري». ولذلك لا بد من إبعاد «هنري».

ونادتها خالتها:

ـ «مارجريت»! «ماجسي»! ليس حقيقيًّا طبعًا ما يقوله السيد «ويلكوكس» من أنكِ تريدين الرحيل في أوائل الأسبوع القادم؟

وكان رد «مارجريت» السريع:

ـ ليس الأمر أني «أريد»، ولكن هناك أمورًا كثيرة لا بد من تسويتها، وأنا أريد أن أرى أسرة «تشارلز».

وقالت السيدة «منت» مقتربة منها:

ـ ولكن أتسافرين من دون أن تقومي برحلة ويموث، أو حتى برحلة لالوورث؟ أو الذهاب مرة أخرى إلى هضبة «ناين باروز»؟

ـ أخشى أن يكون الأمر كذلك.

وانضم إليها السيد «ويلكوكس» بقوله:

ـ أحسنتِ! لقد مهدت لكِ السبيل.

وغمرتها موجة من الحنان، ووضعت يدًا على كل من كتفيه، وتغلغلت بنظرها في أعماق العينين السوداوين اللامعتين، فماذا كان وراء نظرتهما الشاخصة المقتدرة؟ كانت تعرف ما هنالك، ولكن ذلك لم يقلقها.

## الفصل الثالث والعشرون

لم يكن في نية «مارجريت» أن تدع الأمور تنزلق من دون ضابط يحكمها، ففي الليلة السابقة على رحيلها من سوانيج عنفت أختها تعنيفًا شديدًا. وهي لم تلُمها على عدم رضاها عن خطبتها، ولكن على ستار السِّرية والغموض الذي حاطت به عدم رضاها. وقابلت «هيلين» صراحتها بمثلها، وقالت متخذة هيئة من ينظر في باطنه:

ـ نعم، هناك سر، وهو برغمي، والخطأ ليس خطئي، ولكنها الطريقة التي جُبِلت عليها الحياة.

وكانت «هيلين» مهتمة في هذه الأيام اهتمامًا كليًّا بالنفس اللاواعية. وقد بالغت في تقدير ما يبدو في الحياة من مظهر شبيه بعرض الأراجوز «بانش وجودي»، وتحدثت عن البشر كأنهم دمى أراجوز، يوجههم مُحركهم الخفي إلى الحب والحرب. ونبهتها «مارجريت» إلى أن تماديها في ذلك سيجعلها هي أيضًا تُسقط العنصر الشخصي من الحساب. وصمتت «هيلين» لحظة ثم انفجرت بحديث غريب انقشع له الجو:

ـ هلمي تزوجيه، فأنتِ في رأيي مدهشة، وإذا كان هناك من يستطيع أن يذلل هذا الأمر فهو أنتِ.

وأنكرت «مارجريت» أن هناك أمرًا يذلل، ولكن «هيلين» استطردت:

ـ نعم، هناك أمر يذلل، ولكني لم أفلح في ذلك مع «بول». فأنا لا أقدِم إلا على السهل، ولا أقدِر إلا على أن أغوي غيري وأغوى به. أنا لا أستطيع، ولا أريد أن أسعى إلى العلاقة الشاقة. وإذا تزوجت فسأتزوج إما برجل قوي إلى حدٍّ يمكِّنه من السيطرة عليَّ، وإما برجل أكون أنا قوية إلى حدٍّ يمكِّنني من السيطرة عليه. ولذلك فإني لن أتزوج أبدًا إذ لا يوجد رجال من هذا القبيل. وكان الله في عون من أتزوج به لأني لا شك سأهرب منه في طرفة عين. هاكِ الأمر، ذلك لأني غير مثقفة. أما أنتِ فمختلفة. أنتِ بطلة.

ـ أوه، يا «هيلين»! أأنا كذلك؟ أسيكون الأمر شاقًّا مع «هنري» إلى هذا الحد؟

ـ أنتِ تقصدين حفظ التوازن، وهذه بطولة. هذه نزعة إغريقية، ولست أرى سببًا لإخفاقكِ في المحاولة. هلمي وناضلي من أجله، وعاونيه. ولا تلتمسي

مني أي عون، أو حتى أي مشاركة عاطفية. ولن أحيد عن طريقي من الآن فصاعدًا. وفي نيتي أن أمضي في الشوط إلى النهاية، فذلك سهل. في نيتي أن أكره زوجكِ، وأن أصارحكِ بذلك، وألا أتسامح في شيء مع «تيبي»، فإذا شاء أن نعيش تحت سقف واحد فعليه أن يقبلني على علّاتي. وفي نيتي أن أحبكِ أكثر مما أحببتكِ في أي وقت. نعم، أنا أنوي ذلك. فقد بنينا معًا شيئًا حقيقيًّا، لأنه روحي صِرف. وليس هناك ستار من السرية يلفنا. إن السرية واللاحقية تبدآن بمجرد أن يلمس المرء الجسد. والآراء السائدة، كما هي العادة، وهي بالضبط الآراء الخاطئة، إننا نشغل بالنا بأشياء محسوسة، بالمال والأزواج والبحث عن المسكن، ولكن السماء ستعمل من تلقاء نفسها.

وشعرت «مارجريت» بامتنان لهذا التعبير عن المحبة، وأجابت:

ـ ربما.

إن كل منظر ممتد أمام البصر ينتهي باللامنظور ـ فما من أحد يشك في ذلك ـ ولكن «هيلين» كانت تنهي هذه المناظر بسرعة أكبر مما يسبقه ذوق «مارجريت». ففي كل ثنية من ثنايا الحديث يواجه المرء بالواقع وبالمطلق. ولعل «مارجريت» كبرت على الغيبيات، أو لعل «هنري» أخذ يفطمها من حب الغيبيات، ولكنها كانت تحس أن هناك شيئًا من عدم التوازن في العقل الذي يبادر إلى تمزيق المنظور. إن رجل الأعمال الذي يفترض أن حياته هي «كل شيء»، والصوفي الذي يؤكد أنها «لا شيء»، يعجزان في هذه الناحية وتلك عن إصابة الحقيقة. كانت الخالة «جولي» في سنوات سابقة تجرؤ على أن تقول: «نعم، فهمت يا عزيزتي، إن الحقيقة في منتصف المسافة بين هذه الناحية وتلك». لا، إن الحقيقة، بحسبانها حية، لا تقع في منتصف المسافة بين شيئين. وهي لا يمكن العثور عليها إلا بالجولات المستمرة في ربوع كل من هاتين المملكتين. وبرغم أن التناسب هو السر النهائي، فإن الأخذ به منذ البداية معناه العقم لا محالة.

ولو أن الأمر بيد «هيلين» لواصلت الحديث إلى منتصف الليل وهي توافق هنا، وتعارض هناك، ولكن «مارجريت»، التي كان عليها أن تعدَّ حقائبها، وقَّفت الحديث على «هنري». إن لـ«هيلين» أن تذم «هنري» في غيبته، ولكن هل تتفضل بأن تظل مهذبة دائمًا في حضوره؟ وقد وعدتها «هيلين» قائلة:

ـ قطعًا أنا لا أحبه، ولكن سأبذل ما أستطيع، وابذلي أنتِ ما تستطيعين مع أصدقائي مقابل ذلك.

وجعلت هذه المحادثة «مارجريت» أهدأ بالًا، لقد كانت حياة الأختين الباطنية مصونة إلى حد أنهما تستطيعان المساومة على الأشياء الخارجية بطريقة تبدو غير مصدَّقة للخالة «جولي»، ومستحيلة في عين «تيبي» أو «تشارلز». هناك لحظات نجد فيها الحياة الباطنية «تُجزِي» صاحبها، والسنون التي انقضت في الاستبطان ـ لغير سبب مباشر ـ تصبح فجأة ذات فائدة عملية. إن مثل هذه اللحظات لا تزال نادرة في الغرب، وكونها تقع، على الإطلاق، يبشر بمستقبل أجمل. وقد تأكدت «مارجريت» من أن أختها لن تصبح غريبة عنها برغم أنها عجزت عن فهمها، وعادت إلى لندن هادئة البال أكثر من ذي قبل.

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي حضرت إلى مكاتب شركة «إمبيريال آند ويست أفريكان رابر». وقد سَرها أن تذهب إلى هناك لأن «هنري» كان يشير لأعماله ضمنًا من دون أن يشرحها لها شرحًا. وكان الغموض والتميع اللذان يقرنهما الإنسان بأفريقيا نفسها، قد خيما إلى الآن على موارد ثروته الرئيسية. وليس معنى هذا أن زيارة للشركة تكفي لتوضيح ما استغلق من الأمور. فلم يكن هناك إلا المظهر الخارجي العادي الأجوف، فمن دفاتر الحسابات، إلى مناضد الصرافين المصقولة، إلى حواجز نحاسية تبدأ وتنتهي من دون أن يبدو لذلك سبب، إلى كرات كهربائية تضيء من ثلاث شعب، وجحور أرانب لها وجوه من زجاج أو سلك، وأرانب صغيرة. وحتى حين تغلغلت إلى أعماق الشركة الداخلية، لم تجد إلا المنضدة المعهودة، والسجادة التركية. وبرغم أن الخريطة المعلقة فوق المدفأة رسمت قطعة من غرب أفريقيا فإنها كانت خريطة عادية جدًّا. وعلقت تجاهها خريطة أخرى بدت فيها القارة كلها وكأنها حُوت تَقرر صيدُه لما حوى من زيت. وهناك باب مغلق إلى جوار الخريطة، ولكن صوت «هنري» اخترقه وهو يملي خطابًا «شديد اللهجة». وكان يمكن لـ«مارجريت» أن تشهد هذا في شركة «بورفيريون»، أو في بنك «ديمبستر»، أو محل تاجر الخمر الذي تعامله. إن كل شيء يبدو متشابهًا في هذه الأيام. ولكن لعلها كانت ترى الجانب الإمبريالي في الشركة أكثر مما كانت ترى جانب «غرب أفريقيا»، وقد ظلت الإمبريالية إحدى المشكلات التي لا تستطيع فهمها.

ونادى السيد «ويلكوكس» إذ تلَقى اسمها:

ـ دقيقة واحدة!

ولمس زر جرس أسفر رنينه عن ذهاب «تشارلز» إلى «مارجريت».

وكان «تشارلز» قد كتب إلى أبيه خطابًا لائقًا، خطابًا أليق من خطاب «إيفي» الذي تهدج من خلاله سخط صبياني. وحيَّا زوجة أبيه المستقبلية في لياقة. وبدأ كلامه بقوله:

ـ أرجو أن تقدم لك زوجتي ـ كيف حالكِ؟ ـ غداء شهيًّا. وقد أصدرتُ التعليمات، ولكننا نعيش بطريقة سريعة غير وافية. وهي تنتظرك أيضًا لتناول الشاي، بعد أن تلقي نظرة على «هواردز إند». ولست أدري ماذا سيكون رأيكِ في هذا البيت. فأنا أرفض أن ألمسه حتى بملقط. أرجو أن تجلسي! إنه بيت صغير ضئيل.

وقالت «مارجريت» وهي تشعر لأول مرة بالخجل:

ـ سأُسَر بمشاهدته.

ـ سترينه في أسوأ حالاته، فقد هرب «برايس» يوم الاثنين الماضي إلى الخارج من دون أن يأتي حتى بخادمة أجيرة لتنظيفه بعد رحيله. إني لم أرَ قَطُّ مثل هذه الفوضى المشينة، إنها غير معقولة، فهو لم يقضِ في المنزل أكثر من شهر.

وارتفع صوت «هنري» من الغرفة الداخلية:

ـ سيكون لي شأن غير يسير مع «برايس».

ـ لماذا غادر المنزل فجأة على هذا النحو؟

ـ إنه من النوع العليل؛ لم يستطِع النوم.

ـ يا للرجل المسكين!

وقال السيد «ويلكوكس»، وقد انضم إلى مجلسهما:

ـ هراء! لقد بلغت به الوقاحة أن أقام لافتات خشبية، من دون أن يستأذن، وقد أطاح «تشارلز» بها.

وقال «تشارلز» في تواضع:

ـ نعم. لقد أطحت بها.

ـ أنا أرسلت في أثره برقية، وهي برقية حادة جدًّا كذلك. وقد حمَّلته، هو شخصيًّا، نفقات صيانة المنزل لمدة السنوات الثلاث القادمة.

ـ المفاتيح في الضيعة، وقد رفضنا أن نتسلمها.

ـ هذا عين الصواب.

ـ كانت «دوللي» تريد تَسلُّمها، ولكني كنت هناك لحسن الحظ.

وسألت «مارجريت»:

ـ وما شكل السيد «برايس» هذا؟

لكن أحدًا لم يهتم بهذا، فالسيد «برايس» هو المستأجر الذي لا يتمتع بحق التأجير من الباطن، ووصفُه بأكثر من ذلك مضيعة للوقت. وقد أفاضا في الحديث عن أفعاله السيئة حتى خرجت إليهم الفتاة التي كانت تنسخ الخطاب شديد اللهجة على الآلة الكاتبة. وقَّع السيد «ويلكوكس» الخطاب، وقال:

ـ والآن سننطلق.

وكانت في انتظار «مارجريت» جولة بالسيارة، وهي نوع من الهناءة كانت تمقتها. وأوصلهما «تشارلز» إلى السيارة وقد التزم الأدب الجم إلى النهاية. وفي لحظة من الزمن تبددت صورة مكاتب شركة «إمبيريال آند ويست أفريكان رابر». ولكن جولة السيارة لم تكن موفقة. وقد تكون حالة الجو هي الملومة إذ اكفهر لون السماء، وأحاطت بها أكداس من السحب العالية. ولعل مقاطعة هرتفوردشير لم يُقصد بها إرضاء راكبي السيارات. ألم يقُد أحد السادة سيارته خلال ويستمورلاند في سرعة بلغ من شدتها أن أخطأ بصره رؤية ذلك الصقيع؟ وإذا كانت ويستمورلاند يمكن أن يخطئها البصر، فما أنفس مقاطعة يحتاج تكوينها الرقيق أشد ما يحتاج إلى عين يقظة. إن هرتفوردشير هي إنجلترا في أهدأ حالاتها مع نهر أو تل يؤكد وجوده قليلًا. إنها إنجلترا المتأملة. ولو عاد «دريتون» إلى الحياة من جديد ليكتب طبعة جديدة من قصيدته الفذة، لتغنَّى بحوريات هرتفوردشير ووصفهن بالملامح غير المحددة، وبالشعر المغبر بدخان لندن، ولجعل عيونهن حزينة تتقي مصيرها بأن تتجه إلى المساكن الشمالية. ولجعل الزعيمة التي تتقدمهن، لا

«إيزيس» أو «سابرينا»، ولكن نهر «ليا» المترقرق. ولما جعل لهن بهاء الثياب ولا ضرورة الرقص؛ ولكنهن سيكن حوريات حقيقيات.

ولم يستطِع سائق السيارة أن يسير بالسرعة التي كان يأملها لأن طريق «جريت نورث» كان يعج بحركة المرور نظرًا لعيد الفصح، ولكنه كان يسير في سرعة كافية بالنسبة لـ«مارجريت»، المخلوقة الخائفة، التي لا يفتأ عقلها يتوجس من أن تصدم السيارة الأطفال والدجاج.

قال السيد «ويلكوكس»:

ـ لا ضير عليهم. سوف يتعلمون، كالعصافير وأسلاك البرق.

ـ هذا صحيح، ولكن إلى أن يتعلموا...

فأجاب:

ـ إن السيارة اختُرعت لتبقى، فلا بد للناس من التنقل السريع. هناك كنيسة جميلة. أوه، أنتِ لستِ متيقظة كما ينبغي. حسنًا، إذا كان الطريق يضايقكِ، فأرسلي بصركِ إلى المنظر الطبيعي الممتد وراءه.

ونظرت إلى المنظر الطبيعي، وكان يشب ويهبط كالثريد، ولكنه انعقد الآن. لقد وصلوا.

ويقوم منزل «تشارلز» إلى الشمال. وإلى اليمين تبدو هياكل «التلال الستة» الضخمة. وقد أدهشها أن تبدو تلك التلال في مثل هذه البقعة، وتعوق سيل المنازل التي كانت تتكاثف صاعدة إلى هيلتون، ورأت وراءها مروجًا وغابة، وأيقنت أن جنودًا من خيرة المحاربين مدفونون في سفوحها. كانت تمقت الحرب وتحب الجنود، وهذا من متناقضاتها اللطيفة.

ولكن ها هي ذي «دوللي» تبدو متأنقة في ملبسها كل التأنق، وقد وقفت بالباب لتحييهم، وها هي ذي القطرات الأولى من الغيث. ودخلوا مسرعين مرحين. وبعد جلسة طالت في غرفة الاستقبال قاموا إلى الغداء السريع غير الوافي، وقد اشتمل كل صنف منه على قشدة متوارية أو بادية. وكان موضوع الحديث الرئيسي هو السيد «برايس». ووصفت «دوللي» زيارته وهو يحمل المفتاح، بينما أشاع حموها الرضا في الأسرة بالسخرية منها وعارضها في كل ما قالت. وظهر أن السخرية من «دوللي» كانت عادتهم، وقد مازح «مارجريت» أيضًا. وأفاقت «مارجريت» من تأمل عميق، وسُرت

بذلك، وبادلته مزاحًا بمزاح. وبدا أن «دوللي» دهشت لذلك، ورمقتها بطرف عينها في فضول. ونزل الطفلان إليهما بعد الغداء. ولم تكن «مارجريت» تحب الأطفال الرضع، ولكن الطفل ذا العامين لاءمها أكثر من الآخر، وحادثته حديثًا معقولًا مما جعل «دوللي» تستغرق في نوبات من الضحك. وقال السيد «ويلكوكس» لـ«مارجريت»:

ـ قبليهما الآن وتعالَي بنا ننصرف.

وتهيأت للانصراف ولكنها رفضت تقبيلهما. وقالت إنه لَسوء حظ للأطفال الصغار. وتشبثت بما قالت برغم أن «دوللي» قدمت لها الطفلين «تشورلي-وورلي» و«بورجلي-ووجلز» واحدًا بعد الآخر، فقد صممت على ألا تقبلهما.

كان المطر حينذاك ينهمر من دون انقطاع. وأقبلت العربة وهي مرفوعة الغطاء. وفقدت «مارجريت» كل إحساس بالمكان مرة أخرى. وبعد انقضاء بضع دقائق توقفت. وفتح «كرين» باب العربة. وسألت «مارجريت»:

ـ ماذا حدث؟

وقال «هنري»:

ـ ماذا تظنين؟

ورأت سقيفة صغيرة تقوم أمام وجهها:

ـ أوَصلنا بهذه السرعة؟

ـ نعم وصلنا.

ـ حسنًا. ما كان ذلك يخطر لي ببال. إنه كان يبدو لي منذ سنواتٍ بعيدًا جدًّا.

وقفزت من السيارة مبتسمة، وإن كان ظنها قد خاب نوعًا. وقادها حافز فيها إلى باب الدار الأمامي، وإذ أوشكت أن تُقدِم على فتحه قال «هنري»:

ـ لا فائدة في ذلك، فهو مغلق. من يحمل المفتاح؟

ولما كان هو نفسه قد نسي أن يأتي بالمفتاح من الضيعة، فإن أحدًا لم يجِبه. وكان يريد كذلك أن يعرف من الذي ترك باب الحديقة الأمامي مفتوحًا لأن

بقرة دخلته من الشارع وقد ضلت طريقها، وأخذت تعبث في عشب ملعب الكروكيت. وقال في شيء من الحدة:

ـ «مارجريت» انتظريني في معزل عن المطر، وسأذهب لإحضار المفتاح. إن المسافة لا تتجاوز مائة خطوة.

ـ أأستطيع الذهاب أنا أيضًا؟

ـ لا. سأعود في طرفة عين.

ودارت السيارة وانصرفت. وكأنما ارتفع عن عينها ستار. فقد رأت طلعة الأرض لثاني مرة في ذلك اليوم.

فها هي ذي أشجار البرقوق التي وضعتها «هيلين» ذات مرة. وهذا ملعب التنس. وهذا هو السياج الموشج بالنبات، والذي يزدهر بزهور «حنك الكلب» في يونيو. ولكن المنظر يجلله الآن اللونان الأسود والأخضر الباهت. بيد أن ألوانًا أزهى كانت تستيقظ هناك في أخدود الوادي، ووقفت زهور السوسن التي تتفتح في الصوم الكبير على حافة الوادي كالديدبان، أو زحفت في كتائب على الحشائش، وكأن زهور الخزامى بساط من الجواهر. ولم تتمكن من رؤية شجرة الغرغار الجبلي، ولكن فرعًا من الكرمة المشهورة مزدانًا بالعناقيد المخملية، كان يغطي رواق الباب وأدهشتها خصوبة التربة. فهي قليلًا ما رأت حديقة تبدو أزهارها في مثل هذه الحالة الطيبة. بل حتى الأعشاب التي كانت تقتطفها من الرواق لاهية كانت شديدة الاخضرار. لماذا فر السيد «برايس» المسكين من هذا الجمال كله؟ ذلك أنها سبق أن استقر رأيها على أن المكان جميل.

وصاحت «مارجريت» في البقرة، ولكن في غير سخط:

ـ أيتها البقرة الشقية! ابتعدي!

واشتد المطر، هاطلًا من سماء لا تهب فيها ريح، وأخذ يتطاير رشاشه من ألواح اللافتات التي أقامها وسطاء المنزل، والتي تنبطح فوق المرج متعاقبة حيث قذف بها «تشارلز». لا بد أن مقابلتها مع «تشارلز» حدثت في عالم غير العالم المتجلي لها الآن؛ عالم المقابلات والأحاديث. كم تطرب «هيلين» لو خطر لها هذا الخاطر! إن «تشارلز» ميت، وجميع الناس أموات، ولا أحياء إلا المنازل والحدائق. الواضح ميت، وغير المحسوس حي، و... لا صلة بين الاثنين البتة! وابتسمت «مارجريت». ليت تصوراتها كانت في مثل هذا

الوضوح! ليتها تستطيع أن تتعامل مع الحياة بمثل هذه السيطرة والتحكم! ووضعت يدها على الباب وهي تبتسم وتتنهد، فانفتح الباب. إن البيت لم يكن مغلقًا بالقفل قَطّ.

وترددت، أيجب عليها انتظار «هنري»؟ إنه شديد الحساسية بالنسبة لما يمتلك، ولعله يُفضل أن يطلعها بنفسه على محتويات المنزل. بيد أنه من الناحية الأخرى قال لها أن تتقي المطر، وها هي ذي قطراته بدأت تتساقط من الرواق. وعلى ذلك دخلت الدار، ودفع تيار الهواء المنبعث من الداخل باب الدار فأغلقه.

وطالعها البيت المهجور بكل آثار الإهمال. فقد ارتسمت على نوافذ الردهة بصمات أصابع قذرة، وانتشر الزغب والنفايات على ألواحها غير النظيفة. ظلت «حضارة الحقائب» موجودة هنا شهرًا ثم رحلت. ولم يكن من المستطاع أن يحزر المرء غرفتَي الطعام والاستقبال، الواقعتين إلى اليمين والشمال، إلا من الأوراق الملونة التي تكسو الحائط، فهما لم تكونا إلا مجرد غرفتين تقيان من المطر. وامتدت عبر سقف كل غرفة دعامة ضخمة. وقد كشفت غرفة الطعام والردهة عن دعامتيهما في وضوح. أما سقف غرفة الاستقبال فقد كسي بالخشب. فهل يرجع ذلك إلى أن وقائع الحياة يجب أن توارى عن السيدات؟ «غرفة استقبال»، و«غرفة طعام» و«ردهة»، كم بدت الأسماء بسيطة! يوجد هنا ثلاث غرف يمكن أن يمرح فيها الأطفال، ويحتمي فيها الأصدقاء من المطر. نعم... وكانت غرفًا جميلة.

ثم فتحت بابًا تجاهها، وكان هناك بابان، واستبدلت دهان الجير بأوراق الحائط. كانت في جانب الدار الخاص بالخدم، ولو أنها لم تكَد تتبين ذلك. والغرف هنا أيضًا مجرد غرف يتقي فيها الأصدقاء المطر. وكانت الحديقة خلف الدار تزدحم بأشجار الكرز والبرقوق المزدهرة. وفيما وراء ذلك بدت لمحات من المرج، ومن هضبة سوداء مكسوة بأشجار الصنوبر. نعم، كان المرج جميلًا.

وإذ حبستها رداءة الجو في الدار استعادت شعورها بالمكان، ذلك الشعور الذي حاولت السيارة أن تسلبها إياه. فتذكرت من جديد أن روعة عشرة أميال مربعة لا تبلغ عشرة أمثال روعة الميل المربع الواحد، وأن ألف ميل مربع لا يماثل في الواقع الجنة. إن شبح الضخامة التي تشجعها لندن، تضاءل إلى الأبد حين مشت من ردهة «هواردز إند» إلى مطبخه، وسمعت المطر ينحدر على هذا الجانب أو ذاك حيث يفصل بينهما.

وخطرت الآن على بالها أختها «هيلين»، مستشرفة نصف ويسيكس، من هضاب «بوربيك داونز»، وقائلة لها: «لا بد أن تفقدي شيئًا». ولكن «مارجريت» لم تكن متأكدة من ذلك. إذ يمكن أن تضاعف مملكتها مثلًا إذا فتحت هذا الباب الذي يخفي السلم.

وفكرت الآن في خريطة أفريقيا، في الإمبراطوريات، في أبيها، في الأمتين العظيمتين اللتين أدفأت دمها سيول تدفقت من حياتهما، ولكن اختلاط هذه السيول جعلها هادئة ثابتة الجنان، وعادت أدراجها إلى الردهة، وفي أثناء ذلك ردد البيت رجع الصدى، وصاحت:

ـ أهو ذا أنت يا «هنري»؟

ولم تتلقَّ جوابًا. ولكن المنزل رجَّع الصدى من جديد.

ـ «هنري»، أدخلت المنزل؟

ولكنه كان قلبَ المنزل الذي خفق خافتًا في أول الأمر، ثم خفق خفوقًا عاليًا، حربيًّا، وغمر صوت المطر.

ودفعت «مارجريت» الباب المؤدي إلى السلم ففتحته. وخيل إليها أن ضجيجًا كضجيج الطبول أصم أذنيها، كانت هناك امرأة تنزل السلم. امرأة عجوز ذات قامة منتصبة، ووجه جامد، وشفتين افترقتا لتقولا في جفوة:

ـ أوه! حسنًا، حسبتك «روث ويلكوكس».

وتلجلجت «مارجريت»:

ـ أنا... السيدة «ويلكوكس»... أنا؟

ـ في الخيال طبعًا، في الخيال. كانت لك طريقة مشيها. طاب يومك.

وخرجت العجوز إلى حيث ينهمر المطر.

## الفصل الرابع والعشرون

قال السيد «ويلكوكس» وهو يفصل الحادث لـ«دوللي» أثناء تناول الشاي:

ـ لقد أحدث لها ذلك هزة شديدة، فليست لواحدة منكن أيتها الفتيات أعصاب في الواقع. وكلمة مني قد أعادت بالطبع كل شيء إلى نصابه. ولكن الآنسة «أفري» الحمقاء العجوز، لقد أفزعتكِ، أليس كذلك يا «مارجريت»؟ فقد وقفت هناك متشبثة بحزمة من العشب، وكان يمكنها أن تقول شيئًا بدل نزولها على السلم مرتدية تلك القلنسوة المزعجة، لقد مررت بها وأنا آتٍ، وكانت طلعتها تكفي لجفول السيارة. وفي يقيني أن الآنسة «أفري» تهدف إلى أن تكون شخصية غريبة، وبعض العوانس يفعلن ذلك.

وأشعل سيجارة، واستطرد:

ـ وهذا آخر ما يلتجئن إليه. ويعلم الله ماذا كانت تعمل في المنزل. ولكن هذا شأن «برايس» وليس شأني.

وقالت «مارجريت»:

ـ ولكني لم أكن حمقاء إلى الحد الذي أومأت إليه، فقد أخافتني وحسب، ذلك لأن المنزل ظل صامتًا مدة طويلة.

وسألتها «دوللي»:

ـ أحسبتها شبحًا؟

وكان غير المنظور يتلخص عند «دوللي» في الأشباح والذهاب إلى الكنيسة.

ـ ليس كذلك بالضبط.

وقال «هنري»، الذي لم يكن قَطُّ يريد أن يثبط الفزع الأنثوي:

ـ إنها أخافتك فعلًا. مسكينة يا «مارجريت»! بيد أن ذلك طبيعي جدًّا. إن الطبقات غير المتعلمة غبية إلى حدٍّ بعيد.

وسألت «مارجريت»:

ـ هل الآنسة «أفري» من الطبقات غير المتعلمة؟

ووجدت نفسها تنظر إلى النظام الزخرفي الذي زينت به غرفة استقبال «دوللي».

ـ إنها ليست إلا إحدى المشتغلات في المزرعة. والقوم الذين من هذا القبيل يفترضون على الدوام أشياء. فهي تفترض أنكِ لا بد تعرفين من هي، وقد تركت مفاتيح «هواردز إند» جميعها في مدخل الدار، وهي تفترض أنكِ رأيت المفاتيح حين دخلت، وستغلقين الباب وراءكِ متى فرغتِ، وستحضرين لها المفاتيح مع أن ابنة أخيها كانت تبحث عن المفاتيح في المزرعة. إن الجهل يجعل الناس عشوائيين للغاية. وكانت «هيلين» شديدة الاهتمام بأمثال الآنسة «أفري» في وقت مضى.

ـ لعلي كنت لا أكره ذلك.

وقالت «دوللي»:

ـ أو أن تعطيني الآنسة «أفري» هدية زواج.

وكان هذا القول غير منطقي ولكنه طريف، وكان مقدرًا لـ«مارجريت» أن تعرف الكثير عن طريق «دوللي».

ـ ولكن «تشارلز» قال إنه يجب أن أحاول ألا أبالي بهذا الأمر، لأنها كانت تعرف جدته.

ـ إنكِ فهمتِ الحكاية على نحو خاطئ كعادتكِ يا «دوروثي» الطيبة.

ـ أنا قصدت أم جدته، تلك التي أورثت «هواردز إند» للسيدة «ويلكوكس». ألم تكونا صديقتين للآنسة «أفري» أيام كان «هواردز إند» مزرعة أيضًا؟

ونفخ حموها عمودًا من دخان سيجارته، وكان موقفه من زوجته المتوفاة عجيبًا، فهو يذكرها تلميحًا، وينصت إلى ما يجري عنها من مناقشات، ولكنه لم يذكرها باسمها قَطُّ، لا ولم يهتم بالماضي الريفي المظلم. ولكن «دوللي» كانت تهتم للسبب الآتي:

ـ ثم ألم يكن للسيدة «ويلكوكس» أخًا... أو لعله كان عمًّا؟ وعلى أي حال لقد عرض الزواج على الآنسة «أفري»، فأجابته: «لا». تصوري فقط لو أنها

قالت «نعم» فإنها كانت تصبح عند ذاك خالة «تشارلي» ـ أوه، حقًّا! لا بأس بهذا! «خالة تشارلي»! لا بد أن أداعبه في هذا الشأن عند المساء ـ وخرج الرجل وقُتل. نعم، أنا واثقة من أني أصبت الرواية هذه المرة، واسمه «توم هوارد»، آخر سلالة تلك الأسرة من الرجال.

وقال السيد «ويلكوكس» بغير مبالاة:

ـ أعتقد ذلك.

وصاحت «دوللي»:

ـ عجبًا! «هواردز إند». لقد انتهت أسرة «هوارد». لقد أصبت الحقيقة هذا المساء، أليس كذلك؟

ـ أود أن تسألي عما إذا كان «كرين» قد انتهى.

ـ أوه يا سيد «ويلكوكس»، كيف تستطيع؟

ـ لأنه إذا كان قد تناول ما يكفيه من الشاي فعلينا أن نرحل.

واستطرد قائلًا:

ـ «دوللي» امرأة صغيرة طيبة، ولكن قدرًا منها يكفي المرء زمنًا طويلًا. إني لا أستطيع أن أعيش بقربها ولو نقدتني عن ذلك أجرًا.

وابتسمت «مارجريت»، فإن آل «ويلكوكس»، رغم أنهم يتكتلون في مواجهة الغير، لا يستطيعون أن يعيشوا بعضهم بقرب بعض أو بقرب أملاك بعض. إنهم مُشرَبون بالروح الاستعمارية، وهم دائمًا يقصدون بقعة يستطيع الرجل الأبيض فيها أن «يحمل عبئه» في خفية عن الأعين. ولا شك أن سكنى «هواردز إند» مستحيلة ما دام الزوجان الأصغران قد استقرا في هيلتون، واعتراضات السيد «ويلكوكس» على سكنى ذلك المنزل صارت جلية الآن كوضح النهار.

وشرب «كرين» كفايته من الشاي، وأرسل إلى الجراج حيث كانت السيارة تقطر ماء متسخًا بالطين على سيارة «تشارلز». ولا شك أن سيل الماء المتسخ قد وصل الآن إلى «التلال الستة» ناقلًا أنباء حضارتنا التي لا تستقر.
وقال «هنري»:

ـ إنها تلال عجيبة. ولكن ادخلي السيارة الآن... في مرة قادمة.

فهو لا بد أن يكون في لندن قبيل الساعة السابعة، أو السادسة والنصف إن أمكن ذلك. وفقدت «مارجريت» الشعور بالمكان مرة أخرى. وأخذت الأشجار والمنازل والناس والحيوانات تعلو وتهبط من جديد مندمجة في قذارة واحدة. ووصلت «مارجريت» إلى «ويكهام بليس».

قضت مساء مبهجًا. وتبدد لوقتٍ ما شعورها بالتدفق، ذلك الشعور الذي ظل ينتابها طوال العام. فنسيت الأمتعة والسيارات والرجال المسرعين الذين يعرفون الكثير جدًّا، ولا يربطون بين الأشياء إلا قليلًا جدًّا. واسترجعت شعورها بالمكان، وهو أساس كل جمال أرضي. وقد حاولت أن تدرك إنجلترا مبتدئة من «هواردز إند»، ولكنها أخفقت، فالرؤى لا تقبل حين نحاول استجلابها، وإن كان من الجائز أن تقبل عن طريق المحاولة. ولكن حبًّا غير منتظر للجزيرة استيقظ فيها فجأة، مرتبطًا من ناحية بمبهجات الجسد، ومن ناحية أخرى بغير المدرك. وقد عرف أبوها وأختها «هيلين» هذا الحب، وكان «لينارد باست» المسكين يتلمسه، ولكنه ظل خافيًا على «مارجريت» حتى عصر ذلك اليوم. ولا شك أنه أتاها عن طريق المنزل والآنسة «أفري» العجوز. عن طريقهما. وألحت عليها فكرة «عن طريقهما». وارتجف عقلها متجهًا إلى نتيجة لا يعبر عنها بالكلمات إلا الأحمق، وإذ عاد إلى الدفء ثانية، راح يفكر طويلًا في الآجر الأحمر، وأشجار البرقوق المزهرة، ومسرات الربيع المنظورة.

وكان «هنري» قد أخذها، بعد أن هدأ روعها، إلى الدار التي يملكها، وشرح لها منافع الغرف المختلفة وأبعادها. ولخص لها تاريخ الضيعة الصغيرة، وجرى الحديث على هذا النحو من طرف واحد:

ـ من سوء الحظ الشديد أن المال لم يُستغل في هذا العقار منذ خمسين سنة خلت، فقد كانت الضيعة في ذلك الوقت تشمل أربعة أو خمسة أضعاف الأرض الحالية، أي ما مقداره ثلاثون فدانًا إنجليزيًّا على الأقل، وكان المرء يستطيع حينذاك أن يصنع منها شيئًا قيمًا؛ روضة صغيرة، أو منبت شجيرات على الأقل. ثم يعاد بناء المنزل على مسافة أبعد من الشارع. أما الآن فما فائدة محاولة الإصلاح؟ فلم يبقَ شيء غير المرج، وحتى ذلك المرج كان مرهونًا على مبلغ كبير عندما بدأت أتولى الأمور. نعم وكان المنزل مرهونًا أيضًا. أوه، لم يكن الأمر هزلًا.

ولمحت «مارجريت»، بينما كان يتكلم، امرأتين إحداهما عجوز، والأخرى صبية، كانت كلتاهما ترقبان إرثهما وهو يتبخر. ورأتهما تحييانه على أنه منقذهما.

ـ إن سوء الإدارة هو الذي أدى إلى ذلك. ثم إن أيام المزارع الصغيرة قد انتهت. فهي لم تَعُد مربحة، إلا إذا اتُّبع نظام الزراعة الكثيفة. يتحدثون عن الملكيات الصغيرة، وعن العودة إلى الأرض... آه! شقشقة بحب البشر. خذيها قاعدة أن كل المشروعات الصغيرة غير مربحة. وأغلب الأرض التي ترينها (وكانا يقفان إلى نافذة بالدور العلوي، وهي الوحيدة التي تواجه الناحية الغربية) مملوكة لأناس يقطنون في «البارك»، لقد كَونوا ثروتهم من تجارة النحاس، قوم طيبون. ومزرعة «أفري»، ومزرعة «سيشي» التي يَدْعونها «الكومون»، وهي حيث ترين شجرة البلوط الذاوية، سقطت الواحدة تلو الأخرى، وكذلك حدث لهذه الدار أو كاد يحدث.

ولكن «هنري» أنقذها من الرهن. لم يدفعه إلى ذلك شعور نبيل أو عمق نظر، ولكنه أنقذها، وقد أحبته «مارجريت» لفعلته هذه.

ـ وعندما صارت لي هيمنة أشد فعلت كل ما أستطيع، بعت بضعة الحيوانات الموجودة، والمهر الأجرب، والأدوات التي أخنى عليها الدهر، وهدمت ملحقات الدار، وصرفت المياه، وقلمت لا أدري كم من أشجار الورد الأبيض، ومن الأشجار العتيقة. وفي داخل الدار جعلت من المطبخ القديم ردهة، وأنشأت مطبخًا وراء الدار حيث كان مخزن الألبان. وأنشئ الجراج وما إلى ذلك فيما بعد. ولكن المرء لا يزال يتبين أن الدار كانت من قبل مزرعة. وهي ليست مع ذلك بالمكان الذي يجتذب أحد جماعتكِ ذات الذوق الفني.

أجل، إنها لم تكن كذلك. وإذا كان هو لم يفهمها حق الفهم، فهذه الجماعة الفنية أقل فهمًا لها. إنها دار إنجليزية، وشجرة الغرغار الجبلي التي رأتها «مارجريت» من النافذة شجرة إنجليزية، وما من رواية متواترة هيأت ذهنها لهذه الروعة التي تميزت بها الشجرة، فهي ليست بالمحارب، ولا بالمحب، ولا بالإله. والإنجليز لا يبرزون في القيام بأحد هذه الأدوار. إنها رفيقة للدار تحنو عليها، وفي جذورها القوة والمغامرة. ولكن الرقة كانت تكمن في أطراف أصابعها. والجذع الذي لا يستطيع عشرة رجال أن يحيطوا به، أصبح في النهاية خفيفًا إلى حدِّ أن عناقيد براعمه الشاحبة بدت سابحة في الهواء. كانت الشجرة رفيقة للبيت، وهما يسموان على كل تشبيه من تشبيهات الجنس. وقد فكرت «مارجريت» فيهما الآن، وهي ستفكر فيهما خلال ليالٍ كثيرة شديدة الريح، وأيام كثيرة من أيام لندن، ولكن مقارنتهما بالرجل، أو

بالمرأة، مقارنة يبدو فيها منظرهما على الدوام قميئًا. بيد أنهما بقيا في نطاق ما هو إنساني. ولم تكن رسالتهما رسالة الأبدية، ولكن رسالة الأمل في هذا الجانب من اللحد. وإذ وقفت «مارجريت» داخل البيت، شاخصة إلى الشجرة سطع نور صلة بينهما أصدق.

لمسة أخرى، وتنتهي قصتها في ذلك اليوم. دخلا الحديقة هنيهة، وأدهش السيد «ويلكوكس» أنها كانت على حق، فهناك أسنان، أسنان خنزير كان يمكن تبيُّنها في جذع شجرة الغرغار الجبلي، ولم يظهر منها إلا أعاليها البيض، فصاح:

ـ شيء مدهش! من أخبركِ؟

وكان جوابها:

ـ سمعت بها ذات شتاء في لندن.

لأنها كانت تتحاشى هي أيضًا أن تذكر السيدة «ويلكوكس» باسمها.

## الفصل الخامس والعشرون

سمعت «إيفي» بنبأ خطبة أبيها وهي تلعب مباراة في التنس، وانتهى لعبها، ببساطة، إلى الإخفاق. فزواجها وتركها إياه بدا طبيعيًّا لا غرابة فيه. أما أن يحذو حذوها بعد أن تُرك وحيدًا فذلك خداع، ويزعم «تشارلز» و«دوللي» الآن أن الخطأ كله يرجع إليها. وقالت متذمرة:

ـ إن مثل هذا لم يخطر ببالي قَطُّ. كان أبي يستصحبني لزيارتها حينًا بعد حين، وحملني على أن أدعوها إلى «سيمبسون». لا شأن لي أبدًا بما فعل أبي.

ثم إن في ذلك إهانة أيضًا لذكرى أمهم. على هذا أجمع رأيهم، وخطر لـ«إيفي» أن تعيد حليَّ السيدة «ويلكوكس» ومنسوجاتها من «الدانتلا»، «علامة على احتجاجها». ولم تتبين في وضوح سبب احتجاجها. ولكنها إذ كانت لا تتجاوز الثامنة عشرة، فإن فكرة «التنازل» استهوتها، وزادها استهواء لها أنها لم تكن تهتم بالمجوهرات ومنسوجات «الدانتلا». واقترحت «دوللي» عندئذٍ أن يتظاهر كل من عمها «بيرسي» و«إيفي» بأنهما فسخا خطبتهما، فقد يتشاحن السيد «ويلكوكس» إذ ذاك مع الآنسة «شليجل» ويفسخ خطبته لها هو أيضًا، أو يستدعي «بول» ببرقية. ولكن عندما وصل الكلام إلى هذا الحد طلب إليهم «تشارلز» أن يكفوا عن الهذر ومن ثم استقر رأي «إيفي» على أن تتزوج في أقرب وقت ممكن، فليس بمستحسن أن تظل حائمة هنا وهناك بينما أسرة «شليجل» ترقبها، وعلى ذلك قُدم ميعاد زواجها من سبتمبر إلى أغسطس. واستعادت كثيرًا من اعتدال مزاجها وهي في نشوة الاستمتاع بالهدايا.

ووجدت «مارجريت» أنه يُنتظر منها أن تظهر في هذه المناسبة، وأن تظهر بشكل بارز. وقال «هنري» إنها ستكون فرصة أي فرصة لتعرف «مارجريت» أصحابه، فسيكون هناك سير «جيمس بيدر»، وجميع أفراد أسرتَي «كاهل» و«فاسل». ومن حسن التوفيق أن زوجة أخيه السيدة «وارنجتون ويلكوكس» عادت من رحلتها حول العالم. لقد أحبت «مارجريت» «هنري»، ولكن أصحابه بدوا لها شيئًا مختلفًا. كانت تنقص «هنري» البراعة في إحاطة نفسه بأناس ظرفاء، والحق أن اختياره كان غير موفق على نحو عجيب بالنسبة لرجل على هذا الحذق والفضيلة، فهو لم يهتدِ بمبدأ يرشده أكثر من تفضيله لأوساط الناس. لقد قنع بتقرير أمر من أهم أمور الحياة مصادفة، وعلى هذا فبينما كانت استثماراته تسير في طريق التوفيق كان اختيار أصدقائه يسير غالبًا في الطريق الخطأ. كان يقول

لـ«مارجريت»: «أوه، إن فلانًا رجل طيب، رجل طيب إلى حدٍّ هائل»، ولكنها عند الالتقاء به تجده إما حيوانًا أو رجلًا مملًّا. ولو أن «هنري» كان يبدي للناس عاطفة محبة حقيقية لأدركت الأمر، فالمحبة تفسر كل شيء. ولكنه كان يبدو مفتقرًا إلى الشعور، وقد يتحول الرجل «الطيب إلى حدٍّ هائل»، في أي لحظة، إلى «إنسان لم أحتَج إليه قَطُّ كثيرًا، وأنا أقل حاجة إليه الآن»، ويُدفع به في مرح إلى زوايا النسيان. وكانت «مارجريت» تفعل مثل هذا أيام التلمذة، ولكنها لا تنسى اليوم أبدًا شخصًا أحبته مرة من المرات. كانت «تربط بين الأشياء» برغم أن هذا الربط قد يكون مريرًا، وأملت أن «هنري» قد يفعل هذا في يوم من الأيام.

وأبت «إيفي» أن تتزوج في «شارع دوسي»، فقد كان يستهويها أن تُزف في بيت ريفي، كذلك لن يكون أحد في لندن وقتئذ، وعلى هذا تركت حقائبها في «أونيتون جرانج» لبضعة أسابيع. وتم إعلان دعوة الزواج في كنيسة الأبرشية. واستيقظت البلدة الحالمة بين التلال المشربة باللون الأحمر على ضوضاء حضارتنا يومين، وانكمشت إلى جانب الطريق لتفسح للسيارات المارة. وكان السيد «ويلكوكس» هو الذي اكتشف أونيتون، وهو كشفٌ لم يعتز به كل الاعتزاز، فبلدة أونيتون تقع في الشمال تجاه حدود ويلز، والوصول إليها عسير إلى حد أن السيد «ويلكوكس» ارتأى أنها لا بد بقعة ممتازة. وقد قامت على أرض البلدة قلعة خربة، ولكن أي شيء يستطيعون عمله بعد الوصول إليها؟ إن الصيد هناك غير ميسور، وصيد السمك بين بين، وقالت جماعة النساء إن مناظرها الطبيعية ليست ذات قيمة. لقد ظهر أن المكان يقع في الجانب الخطأ من شروبشير، عليه اللعنة. وبرغم أن السيد «ويلكوكس» لم يلعن جهارًا شيئًا يملكه قَطُّ، فقد كان ينتظر أن يؤجر تلك الدار ثم يهرب منها. وكان زواج «إيفي» آخر عهد الدار بالظهور بين الناس. فبعد أن وجد لها السيد «ويلكوكس» مستأجرًا، أصبحت في نظره دارًا لم يكن يفيد منها قَطُّ فيما مضى، وهي الآن أقل فائدة من ذي قبل، وانزوت إلى هامش فكره كما انزوت «هواردز إند».

ولكن قُدر لأونيتون أن يكون لها على «مارجريت» تأثير دائم. فقد نظرت إليها على أنها دارها المستقبلية، وتاقت إلى أن تبدأ الاتصال فورًا برجال الكنيسة ومن إليهم، وأن ترى طرفًا من الحياة المحلية، إن أمكن. كانت من مدن الأسواق، ومن أصغر مدن الأسواق التي تملكها إنجلترا، وقد ظلت تخدم ذلك الوادي المنعزل حقبًا من الزمن، وتحرس زحفنا على الكلتيين. وبرغم المناسبة، وبرغم الفرحة المخدِّرة للشعور، التي قوبلت بها «مارجريت» بمجرد دخولها الصالون المحجوز في القطار في محطة «بادنجتون»، فإن حواسها ظلت متيقظة ترقب ما حولها. وبرغم ما اتضح

لـ«مارجريت» فيما بعد من أن أونيتون بداية من بداياتها الكثيرة الزائفة، فإنها لم تنسَها قَطُّ، ولم تنسَ ما حدث بها.

كان المدعوون من لندن يبلغون ثمانية أشخاص لا أكثر: أسرة «فاسل»، المكونة من الأب وابنه؛ وسيدتين إنجليزيتين-هنديتين، إحداهما السيدة «بلينليمون» والأخرى الليدي «إدسير»؛ والسيدة «وارنجتون ويلكوكس» وابنتها؛ وأخيرًا الصبية الصغيرة، الرشيقة الهادئة جدًّا، التي تظهر في عدد كبير من حفلات الزواج، والتي ظلت ترقب «مارجريت»، وهي إشبينة العروس. ولم تحضر «دوللي»، فقد أبقتها مشغولية عائلية في هيلتون. وبعث «بول» برسالة خفيفة الروح. وكان «تشارلز» سيقابلهم في شروزبري ومعه ثلاث سيارات. ورفضت «هيلين» الدعوة، وأغفل «تيبي» الرد على دعوته كلية. وكان التنظيم رائعًا على نحو ما هو منتظر في أي عمل يتولاه «هنري»، وكان المرء يشعر أن وراء ذلك التنظيم ذهن «هنري» المدرك المضياف. فقد أصبحوا ضيوفه على أثر وصولهم إلى القطار: أعد بطاقة خاصة لحقائب كل منهم، وساعيًا لخدمتهم، وغداء خاصًّا. ولم يكن عليهم إلا أن يبدوا البهجة والظرف، حيثما أمكن ذلك. وفكرت «مارجريت»، في قنوط، في حفلة زواجها التي سيشرف «تيبي» على تنظيمها على الأرجح: «يرجو السيد «تيوبالد شليجل»، والآنسة «هيلين شليجل» أن يسعدا بحضور السيدة «بلينليمون»، وذلك بمناسبة زواج أختهما «مارجريت»». إن هذه الصيغة لا يمكن تصديقها، ولكنها ستطبع لا محالة عما قريب، وسترسل إلى المدعوين. وبرغم أنه لا داعي يدعو «ويكهام بليس» إلى منافسة «أونيتون»، فلا بد للدار من تقديم الطعام المناسب لضيوفها، ومن توفير المقاعد الكافية لهم. سيكون حفل زواج «مارجريت» إما باليًا، وإما برجوازيًّا، وهي ترجو أن يكون برجوازيًّا. أما مثل هذا الحفل الذي أخرج بحذق يكاد يرقى إلى مرتبة الجمال فهو فوق متناول قدرتها وقدرة أصدقائها.

إن الهدير الموفور الخافت الذي ينبعث عن «إكسبريس» سكة حديد «الجريت ويسترن» ليس أسوأ ما يكتنف حديث الركاب من أصوات، وقد مرت الرحلة مبهجة سارة، ولم يكن ألطف من الرجلين خلالها. كانا يفتحان النوافذ لبعض السيدات، ويغلقانها لغيرهن، ويدقان الجرس لاستدعاء الخادم، ويتعرفان على الكليات عندما انساب القطار متجاوزًا أكسفورد، ويمسكان الكتب والمحافظ وهي توشك أن تسقط على الأرض. ومع ذلك لم يتسم أدبهما هذا بشيء من التكلف، وإنما كانت عليه مسحة من أدب المدارس الخاصة؛ كان أدبًا فيه رجولة، وإن كان فيه الاجتهاد والمثابرة. لقد كُسبت معارك أكثر من موقعة ووترلو فوق أرض ملاعبنا، وأحنت «مارجريت»

رأسها لفتنة لم تكن تحبذها كل التحبيذ، ولم تنبس ببنت شفة عندما أخطأ في التعرف على كليات «أكسفورد». «ذكرًا وأنثى خلقهما»، لقد أيدت رحلة شروزبري هذه العبارة التي هي كانت محل جدل، وأصبح صالون القطار المريح، يسير الحركة، مستنبتًا لفكرة الجنس.

وعندما وصلوا إلى شروزبري هب نسيم نقي. وكان رأي «مارجريت» أن تتفرج على المدينة. وقد استقلت سيارة، وأسرعت بها في أرجاء المدينة المدهشة، بينما كان الباقون يُتمون تناول الشاي في محل آل «رافين». ولم يكن «كرين» الأمين هو الذي يقود لها السيارة، وإنما كان سائقًا إيطاليًّا مولعًا بأن يصل بها متأخرة، وكان «تشارلز» يقف أمام الفندق عندما عادا، وساعته في يده، وإن بدا جبينه هادئًا، وقال لها إنه لا ضير البتة، فهي ليست آخر من عادوا بحال، ثم اختلى في قاعة تناول القهوة، وسمعته يقول:

ـ استحثوا السيدات على الإسراع بالله عليكم، فنحن على هذا النحو لن نرتحل من هنا أبدًا.

وكان رد «ألبرت فاسل»:

ـ دعني أنا، فقد قمت بنصيبي.

وسمعت الكولونيل «فاسل» يقول إن السيدات يبذلن جهدًا في التزين ليفتكن بالرجال. ولم تلبث «ميرا» أن ظهرت. (وهي ابنة السيدة «وارنجتون») ووبخها «تشارلز» توبيخًا هينًا نظرًا إلى أنها ابنة عمه، وكانت تستبدل قبعة أنيقة مناسبة لركوب السيارة بقبعة الرحلة الأنيقة أيضًا. ثم جاءت السيدة «وارنجتون» نفسها وهي تقود الصبية الصغيرة الهادئة. وكانت السيدتان الهنديتان تحضران في الذيل دائمًا. وكانت الخادمات و«الساعي» والأمتعة الثقيلة قد تم نقلها في سكة حديد فرعية إلى محطة قريبة من أونيتون. ولكن هناك خمس علب للقبعات، وأربع حقائب للملابس متبقية لا بد من رصها في السيارات، وهناك خمسة معاطف للوقاية من الغبار جيء بها للبسها، ثم لخلعها إذ قال «تشارلز» إنها غير ضرورية. وأشرف الرجال على كل شيء من دون أن يفقدوا مرحهم، وما وافت الساعة الخامسة والنصف حتى كانت الجماعة متأهبة، وخرجت من محطة «شروزبري» عن طريق جسر ويلز.

ولم تكن شروبشير في مثل تحفظ هرتفوردشير. وقد ظلت تحدث الإحساس بالمكان الجبلي برغم أن مرورهم السريع بها سلبها نصف فتنتها. وكانوا يقتربون من المرتفعات التي ترغم جدول «سيفري» على الانحراف

شرقًا، وتجعل منه جدولًا إنجليزيًّا. وكانت الشمس الغاربة وراء «سنتنلز أوف ويلز» في أعينهم رأسًا. وبعد أن التقطوا مدعوًّا آخر داروا إلى الجنوب متحاشين الجبال الأكثر ضخامة، شاعرين مع ذلك بوجود قمة جبل تصادفهم من حين لحين، قمة مستديرة لطيفة، يختلف تلوينها في نوعه عن لون الأرض أسفلها، وتتغير حدودها على نحو أبطأ. وكانت الأسرار الهادئة تتزايد وراء تلك الآفاق المتلاطمة. وتقهقر الغرب، كعادته دائمًا، منطويًا على سرٍّ من الأسرار قد لا يستحق عناء السعي لكشفه، ولكن أي رجل عملي لن يكشف هذا السر أبدًا.

وتحدثوا عن تعديل التعريفة الجمركية.

كانت السيدة «وارنجتون» قد عادت في التو من المستعمرات. وتوقف فمها عن النقد بعد ملئه بالطعام كشأن كثيرين من نقاد الإمبراطورية، ولم تستطِع إلا أن تعجب للكرم الذي قوبلت به، وأن تحذر «البلد الأم» من أن تعبث بالجبابرة الصغار. وصرخت قائلة:

ـ إنهم يهددون بالانفصال، فماذا يكون مصيرنا إذن؟ يا آنسة «شليجل»، إنكِ تتكفلين بإبقاء «هنري» ثابت الرأي في شأن «تعديل التعريفة»، فهي آخر أمل لنا.

وأقرت «مارجريت» معابثة بأنها تعتنق الرأي المضاد. وأخذ كل منهم يقرأ من دليله الذي يحمله بينما السيارة تتوغل بهم بعيدًا في التلال. وكانت هذه التلال غريبة المظهر أكثر منها شديدة الوقع في النفس إذ كان ينقص معالمها الجمال. والحقول الحمر التي كست قممها أوحت إلى الخاطر أنها مناديل عملاق نشرها هناك لتجفيفها. وكان ما يلقونه بين الحين والحين من صخر جاف، أو شجر، أو «غابات» جرداء عديمة الشجر، كل ذلك يشير إلى ما سيتلوه من تيه موحش، ولكن اللون الغالب كان اللون الأخضر الزرعي. وأصبح الهواء أبرد، فقد اعتلوا آخر المدرج، وانبسطت تحتهم بلدة أونيتون بكنيستها، ومنازلها المشعة، وقلعتها، شبه جزيرتها التي يطوقها النهر. وقام إلى جانب القلعة قصر ريفي، رمادي اللون، ليس في بنائه ما يدل على سمو فكري، ولكنه لطيف، يمتد بأرضه عبر رقبة شبه الجزيرة، وهو من نوع القصور الريفية التي كانت تبنى في إنجلترا بأسرها في مطلع القرن الماضي حين كان المعمار لا يزال تعبيرًا عن خلقنا الوطني. وقال «ألبرت» ملتفتًا من فوق كتفه:

ـ هذا هو «الجرانج».

ثم ضغط «فرملة» السيارة، وهدأت السيارة من سرعتها ثم توقفت. وقال وهو يدور إلى الوراء:

ـ أنا آسف، أتسمحون بالنزول؟ من باب اليمين. احترسوا.

وسألت السيدة «وارنجتون»:

ـ ماذا حدث؟

ثم وصلت السيارة التي كانت خلفهم، وسُمع صوت «تشارلز» وهو يقول:

ـ أخرجوا السيدات على الفور.

وتجمع الذكور معًا. واستُعجلت «مارجريت» ورفيقاتها في الخروج، وتلقوهن في السيارة الأخرى. ماذا حدث؟ وعندما سارت بهن السيارة من جديد فتح باب أحد الأكواخ وصاحت فتاة فيهم بوحشية. وسألت السيدات:

ـ ما الأمر؟

وقاد «تشارلز» بهن السيارة مسافة مائة ياردة من دون أن ينبس بشيء، ثم قال:

ـ لا شيء. ليس في الأمر إلا أن سيارتكن مست كلبًا.

وزعقت «مارجريت» مرتاعة:

ـ ولكن، قف!

ـ المسَّةُ لم تؤذِه.

وسألت «ميرا»:

ـ ألم تؤذِه حقًّا؟

ـ لا.

وقالت «مارجريت» وهي تميل إلى أمام، وكانت تقف في العربة، والراكبات معها يمسكن بركبتيها ليُعنَّها على الثبات:

ـ أرجوك أن تتوقف. أريد أن أرجع. أرجوك.

ولم يُعِرها «تشارلز» التفاتًا. وقال آخر:

ـ إننا تركنا السيد «فاسل» وراءنا، وكذلك «أنجلو» و«كرين».

ـ هذا صحيح. ولكن لم تتركوا امرأة.

وخمشت السيدة «وارنجتون» كفها قائلة:

ـ أظن أن قليلًا من هؤلاء سيكون أكثر سدادًا من أيٍّ منا!

وقال «تشارلز» معقبًا:

ـ شركة التأمين كفيلة بتسوية المسألة، وسيتولى «ألبرت» التحدث إليهم.

وكررت «مارجريت» وقد أخذت تغضب:

ـ أريد مع ذلك أن أرجع!

ولم يُعِرها «تشارلز» التفاتًا. وواصلت العربة التي امتلأت باللاجئات مسيرها في منحدر الجبل، متباطئة كل التباطؤ. وقال سائر النسوة في نفَس واحد:

ـ الرجال هناك... سيتولى الرجال الأمر.

ـ لا يستطيع الرجال أن يتولوا ذلك. أوه، هذا سخف! «تشارلز»، أنا أطلب إليك أن تقف.

وقال «تشارلز» في بطء:

ـ لا خير في الوقوف.

وقالت «مارجريت»:

ـ ألا خير فيه؟

وقفزت من السيارة رأسًا.

وقعت على ركبتيها، ومزقت قفازها، واهتزت قبعتها فوق أذنيها. وتبعتها صيحات الفزع. وزعق «تشارلز» وهو يقفز وراءها:

ـ لقد جرحتِ نفسكِ.

وردت عليه قائلة:

ـ جرحت نفسي طبعًا!

ـ أأستطيع أن أسأل عما...؟

وقالت «مارجريت»:

ـ ليس هناك ما تسأل عنه.

ـ إن يدكِ تدمي.

ـ أعلم ذلك.

ـ أنا متعرض لتعذير مخيف من أبي.

ـ كان عليك أن تفكر في ذلك من قبل يا «تشارلز».

لم يقف «تشارلز» مثل هذا الموقف من قبل. إنها امرأة ثائرة تلك التي تعرج وهي تبتعد عنه، وكان المنظر غريبًا إلى حد أنه لم يدع أي مجال للغضب، ولم يثُب إلى رشده إلا حين لحقت النساء الأخريات بهما. وكان يعرف طبائعهن، فأمرهن أن يَعُدن أدراجهن.

وظهر «ألبرت فاسل» وهو يُقبل صوبهم، وصاح:

ـ مسألة بسيطة! لم يكن المصاب كلبًا بل قطًّا.

وصاح «تشارلز» في لهجة انتصار:

ـ أرأيت! إنه لا يعدو قطًّا عفنًا.

ـ ألديكم مكان في السيارة لرجل صغير الحجم؟ لقد جريت حالما تبينت أن المصاب ليس كلبًا. وسائقو السيارات يُسَوون المسألة مع الفتاة.

ولكن «مارجريت» سارت قدمًا في ثبات، لماذا يُسَوي السائقون المسألة مع الفتاة؟ إن السيدات يتسترن وراء الرجال، والرجال يتسترون وراء الخدم، إن النظام برمته خاطئ. ولا بد أن تتحداه.

ـ يا آنسة «شليجل»! أقسم إن يدكِ جرحت.

وقالت «مارجريت»:

ـ أنا ذاهبة لأرى، فلا تنتظر يا سيد «فاسل».

وجاءت السيارة الثانية وهي تدور حول الناصية. وقال «كرين» بدوره:

ـ لم يحدث ضرر يا سيدتي.

وقد اعتاد أن يدعوها «سيدتي».

ـ لم يحدث ضرر؟ للقط؟

ـ نعم يا سيدتي، وستحصل الفتاة على تعويض عنه.

وقال السائق «أنجلو» في تأمل ـ بلكنة إيطالية ـ وقد أقبل في السيارة الثالثة:

ـ كانت فتاة وقحة جدًّا.

ـ أما كنت تتصرف بوقاحة في مثل هذه الحالة؟

ومد الإيطالي يديه في الفضاء بحركة تدل على أنه لم يفكر في الوقاحة، ولكنه لن يضن بها إذا كان ذلك يرضيها. وأصبح الموقف سخيفًا. وعاد الرجال يطنون حول الآنسة «شليجل» عارضين أنواعًا من المساعدة. وبدأت الليدي «إدسير» تضمد جرح يدها. واستسلمت «مارجريت» مبدية قليلًا من الاعتذار، واقتيدت إلى السيارة ثانية، ولم يلبث المنظر الطبيعي أن استأنف تحركه، فتوارى الكوخ المنعزل، وتضخمت القلعة فوق وسادتها السندسية. لقد وصلوا. لا شك أنها ارتكبت ما يعيبها، ولكنها شعرت بأن الرحلة كلها، ابتداء من مغادرتها للندن، كانت زائفة، فهم لا يشاركون بنصيب في الأرض ومشاعرها. إنهم تراب، ونتن، وثرثرة مخلطة، والفتاة التي قتل قطها تحيا حياة أعمق من حياتهم.

وهتفت «مارجريت»:

ـ أوه، يا «هنري». لقد كنتُ «شقية» جدًّا.

ذلك لأن رأيها استقر على اتباع هذه الخطة.

ـ لقد دهسنا قطًّا. وطلب إليَّ «تشارلز» ألا أقفز من السيارة، ولكني قفزت. انظر!

ومدت يدها المضمدة:

ـ إن خطيبتك «ميج» المسكينة وقعت وقعة شديدة.

وبدا السيد «ويلكوكس» في حيرة. وكان يقف في الردهة مرتديًا سترة السهرة ليستقبل ضيوفه.

وأضافت السيدة «وارنجتون»:

ـ لقد ظننته كلبًا.

وقال الكولونيل «فاسل»:

ـ آه، إن الكلب رفيق للإنسان، وهو يذكر صاحبه.

ـ أجرحتِ نفسكِ يا «مارجريت»؟

ـ الأمر لا يستحق الذكر، ويدي اليسرى هي التي أصيبت.

ـ حسنًا، اصعدي بسرعة واستبدلي ملابسكِ.

وأطاعت، كما أطاع الآخرون. والتفت السيد «ويلكوكس» بعد ذلك إلى ابنه.

ـ والآن يا «تشارلز»، ماذا حدث؟

وصدق «تشارلز» غاية الصدق. ووصف ما اعتقد أنه حدث: لقد دهس «ألبرت» قطًّا، وفقدت الآنسة «شليجل» زمام أعصابها كما يمكن أن يحدث لأي امرأة، واقتيدت إلى السيارة الأخرى في أمان، ولكن عندما أخذت السيارة تواصل سيرها قفزت منها برغم كل ما أمكنهم أن يقولوه لها،

وهدأت بعد أن سارت قليلًا في الطريق، وأبدت أسفها. وقبِل أبوه هذا التعليل من دون أن يعلم لا هو ولا ابنه أن «مارجريت» مهدت له في حذق. وكان التعليل يتفق كل الاتفاق ورأيهما في طبيعة المرأة. وفي غرفة التدخين بعد العشاء عرض الكولونيل رأيًا يتحصل في أن الآنسة «شليجل» قفزت خارج السيارة من باب الشيطنة. فهو لم ينسَ قَطُّ ما حدث ذات مرة في ميناء جبل طارق، وهو بعدُ رجل في مقتبل العمر، لم ينسَ كيف أن فتاة، وفتاة جميلة أيضًا، قفزت من ظهر سفينة إلى البحر نتيجة لمراهنة، وهو يستطيع أن يراها الآن وجميع الفتيان على ظهر السفينة يقفزون وراءها. ولكن «تشارلز» والسيد «ويلكوكس» اتفقا على أن الأرجح في مسألة الآنسة «شليجل» أن تكون الأعصاب هي السبب. واكتأب «تشارلز»، فهذه المرأة ذات لسان طويل، وستفضح أباه قبل أن ينتهي أمرها معهم، وتمَشى إلى رابية القلعة لينعم النظر في المسألة، وكان المساء رائعًا. وهمس نهر صغير يحف به من ثلاث نواحٍ حول «تشارلز» وهو يتدفق برسائل من الغرب. وبدت خرائب القلعة فوق رأسه قوالب منعكسة على صفحة السماء، وأخذ يستعرض في عناية معاملاتهم مع تلك الأسرة، حتى مسلك «هيلين» و«مارجريت» والخالة «جولي» في مؤامرة مدبرة. لقد جعلت منه الأبوة رجلًا مستريبًا. كان له ولدان عليه أن يرعاهما، وغيرهما في الطريق، واحتمال إثرائهم يقل يومًا بعد يوم. وأخذ يتأمل: «لا بأس بما يقول الأب من أنه سيكون منصفًا مع الجميع، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يظل منصفًا إلى ما لا نهاية. فالمال ليس مطاطًا. فماذا يحدث لو رزقت «إيفي» أطفالًا، بل لو حدث للأب نفس الشيء، عند ذلك لن يكفي الإيراد لأنه لن يأتي للأسرة مال عن طريق «دوللي» أو «بيرسي»، إنه موقف لعين». ونظر في حسد إلى «الجرانج» الذي كانت نوافذه تفيض بالأنوار والضحكات. إن حفل الزواج هذا سيتكلف، أولًا وآخرًا، مبلغًا ضخمًا من المال. وكانت هناك سيدتان تذرعان حديقة الشرفة ذهابًا وإيابًا، وعندما ترامت إلى آذانه مقاطع من كلمة «إمبريالية» حزر أن إحداهما هي عمته، ولعل هذه العمة كانت تعينه ماليًّا، لولا أن لها هي أيضًا أسرة تعولها. وكرر القول: «كل امرئ لنفسه». وهذا قول مأثور كان يبهجه فيما مضى، ولكنه يرن الآن رنينًا كئيبًا بين أنقاض «أونيتون». كانت تنقصه كفاية أبيه في الأعمال، ولذا صار يهتم بالمال اهتمامًا فاق حتى اهتمام أبيه، وقد خشي أن يترك أولاده فقراء من بعده ما لم يرث قدرًا كبيرًا من المال.

وغادرت إحدى السيدتين الشرفة، بينما كان يجلس مفكرًا، وسارت في المرج. وقد تبين فيها «مارجريت» من الرباط الأبيض الذي التمع حول يدها، فأطفأ سيجاره خشية أن يشي به وهجه. وصعدت «مارجريت» في ربوة الحصن متعرجة في سيرها. وكانت تنحني في بعض الأحيان كأنما هي تربت

على الخضرة السندسية. وقد ظن «تشارلز» في لحظة من اللحظات ولكن للحظة فقط ـ وإن بدا هذا الظن غير معقول بتاتًا ـ أنها تحبه، وقد أقبلت لتغويه، وكان يؤمن بوجود الفاتنات المغويات اللواتي هن في الحق تتمة للرجل القوي، ولما كان يفتقر إلى روح الفكاهة فقد عجز أن يتخلص من الفكرة بابتسامة. وواصلت «مارجريت» سيرها من دون أن تلحظه، «مارجريت» المخطوبة لأبيه، والمدعوة إلى حفل زواج أخته. وأقر أنه أخطأ في حقها فيما يتعلق بهذه النقطة. ولكن ما الذي تعمله؟ لماذا تسير متعثرة بين الحجر المهشم، وتدع ثوبها يعلق بالحسك والنبت الشائك؟ ولا بد أنها شمت رائحة دخان سيجاره بعدما دارت حول الحصن وأصبحت في مهب الريح لأنها صاحت:

ـ هالو! من هذا؟

ولم يُحِر «تشارلز» جوابًا.

واستطردت ضاحكة في جوف الظلام:

ـ أأنت سكسوني أم كلتي؟ ولكن هذا لا يهم. فمهما يكن من أمرك عليك أن تسمعني. أنا أحب هذا المكان. أحب شروبشير. وأكره لندن. وأنا سعيدة إذ سيكون هنا بيتي آه، يا إلهي!

وكانت الآن تسير عائدة إلى المنزل...

ـ أي راحة في أن يصل المرء!

وقال «تشارلز» لنفسه: «إن هذه المرأة تضمر شرًّا». وضم شفتيه بشدة، وتبع «مارجريت» بعد بضع دقائق إلى داخل المنزل إذ صارت الأرض رطبة. وتصاعد الضباب من النهر الذي لم يلبث أن خفي عن العيان ولو أن همسه ازداد ارتفاعًا. لقد كان هناك غيث منهمر على تلال ويلز.

## الفصل السادس والعشرون

وفي صباح الغد غطى شبه الجزيرة ضباب رقيق. وبشَّر اليوم بجوٍّ حسن. وكانت معالم رابية القلعة تزداد وضوحًا في كل لحظة ترقبها فيها «مارجريت»، وقد رأت الآن الحصن. ونقشت الشمس الحجر المهشم بلون الذهب، وشحنت السماء البيضاء باللون الأزرق. وتجَمع ظل المنزل بعضه إلى بعض وترامى على الحديقة. ونظرَ قط إلى نافذة «مارجريت» وماءَ. وظهر النهر في النهاية وهو لا يزال يضم ضبابًا بين ضفتيه ونباتاته المتدلية، ولا يبدو مجراه إلى التل الذي أخفي أعلاه.

وافتتنت «مارجريت» بأونيتون، لقد قالت من قبل إنها أحبتها، ولكن الذي استحوذ عليها هو ما بدا من مفاتن السفر. فتلال درويدز المكورة التي اختطفت النظر السريع إليها أثناء مسيرها بالسيارة، والأنهار التي تنحدر منها مسرعة إلى إنجلترا، والتلال الدنيا التي شُكلت كتلها بغير عناية، هذه المناظر هزتها بالشاعرية. كان المنزل تافهًا، ولكن المنظر الذي يبدو أمامه يمكن أن يكون مصدرًا للفرح لا ينقطع. وأخذت تفكر في الأصدقاء الذين لا بد أن تدعوهم للنزول به، وفي تحولِ «هنري» نفسه إلى الحياة الريفية. والمجتمع هنا أيضًا يبشر بأنه مجتمع طيب. وقد تعشى قس الأبرشية معهم أمس، وتبينت أنه كان صديقًا لأبيها، وعلى ذلك عرف ما سيتبينه فيها، وقد مالت إليه، وقال إنه سيقدمها لأهل البلدة. وكان السير «جيمس بيدر» يجلس خلال ذلك إلى الجانب الآخر منها، وقال مكررًا إن كل ما عليها هو أن تنطق بكلمة واحدة فيسوق لها أسر المقاطعة الريفية من مساحة تمتد حولهم إلى عشرين ميلًا، وقد اعتورها الشك فيما إذا كان سير «جيمس» يستطيع الوفاء بما وعد، وحمل أسرَ المقاطعة على زيارتها فعلًا، ولكن يكفيها أن «هنري» سيحسب أن زائريها هم من أسرِ المقاطعة حين يزورونها فعلًا.

واجتاز كل من «تشارلز» و«ألبرت فاسل» الخضيرة الآن، وكانا قد خرجا ليغطسا في النهر غطسة صباحية، وتبعهما خادم يحمل لهما ملابس الاستحمام. وكانت تقصد هي كذلك أن تقوم بجولة قبل الإفطار، ولكنها وجدت النهار ما زال مكرسًا للرجال، وألهت نفسها بمراقبة أحداثهم. وقد حدث بادئ الأمر أنه لم يمكن العثور على مفتاح كشك الاستحمام. ووقف «تشارلز» إلى جانب النهر مكتوف اليدين مفجوعًا بينما كان الخادم يزعق ولا يفهم خادم آخر في الحديقة زعيقه. ثم نشأت صعوبة بشأن خشبة القفز إلى الماء، ولم يلبث أن جرى ثلاثة رجال رائحين غادين فوق المرج، ثم أوامر

تصدر، وأوامر تنقضها، وتُهَم توجه، ثم اعتذارات تُبدَى. إن أرادت «مارجريت» أن تقفز من السيارة فستفعل، وإن ظن «تيبي» أن التجديف يقوي كاحليه فسيجدف، وإن تاق موظف كتابي إلى المغامرة فسيخرج متجولًا في الظلام. ولكن هؤلاء الرياضيين بدوا كأنهم أصيبوا بالشلل. فهم لا يستطيعون الاستحمام من دون توفر أدواته، مع أن شمس الصباح كانت تدعوهم، وقِطع الضباب الأخيرة كانت ترتفع عن صفحة النهر المتموجة. أتراهم رغم كل تشدقهم ظفروا بحياة الجسد؟ ألا يستطيع الرجال الذين يحتقرهم أولئك الرياضيون على زعم أنهم ضعفاء، أن يقهروهم حتى على أرضهم هذه؟

وفكرت في ترتيبات الاستحمام التي ستجرى في عهدها المقبل، فلن يكون هناك حينذاك إزعاج للخدم، ولا أدوات تزيد عن حد المعقول. ولكن تأملاتها قوطعت بالطفلة الهادئة التي خرجت لتخاطب القطة، وأخذت الآن تنظر إلى «مارجريت» وهي ترقب الرجال، وصاحت في شيء من الحدة:

ـ نعمتِ صباحًا يا عزيزتي.

ونشر صوتها الفزع، ونظر «تشارلز» حوله، ثم توارى داخل كشك الاستحمام برغم أنه كان في رداء كامل أزرق داكن، ولم يظهر ثانية.

وهمست الطفلة:

ـ لقد استيقظَت الآنسة «ويلكوكس».

ثم لم تعُد كلماتها مفهومة لـ«مارجريت».

ـ ماذا تقولين؟

وجاء الرد يشبه في نغمته: «كوت يوك... ساك... باك».

ـ لا أستطيع سماعكِ.

ـ على الفراش... منديل ورقي...

وصعدت إلى غرفة «إيفي» إذ فهمت أن ثوب الزفاف يمكن التفرج عليه، وأن من اللائق زيارة العروس. كان الطرب كله هنا. كانت «إيفي»، تراقص، وهي ترتدي «جونيله»، إحدى السيدتين الإنجليزيتين-الهنديتين، بينما كانت

الأخرى تعجب بياردات من الساتان الأبيض. كن يصرخن، ويضحكن، ويغنين، وكان الكلب ينبح.

وصاحت «مارجريت» قليلًا أيضًا، ولكن من دون اقتناع بالطرب. ولم تستطِع أن تشعر بأن الزفاف ممتع إلى هذا الحد. ولعل شيئًا كان ينقص سجيتها.

وشهقت «إيفي» قائلة:

ـ «دوللي» سخيفة لعدم مجيئها! أوه، فقد كان يمكن أن نمرح وقتئذ!

ونزلت «مارجريت» بعد ذاك لتناول إفطارها.

وكان «هنري» قد سبق وجلس إلى المائدة، وأبطأ في الأكل، وأقل في الكلام، وكان في نظر «مارجريت» الفرد الوحيد الذي نجح بين أفراد جماعتهم في تجنب الانفعال العاطفي. ولم تستطِع أن تفترض أنه غير مهتم سواء بفقد ابنته أو بوجود زوجته المستقبلية. ومع ذلك ظل كما هو، واكتفى بإصدار الأوامر بين الحين والحين ـ أوامر زادت من راحة مدعويه. وسأل عن يد «مارجريت» المجروحة، وكلفها أن تصب القهوة، وكلف السيدة «وارنجتون» أن تصب الشاي. وحل الارتباك لحظة عندما نزلت إليهم «إيفي»، وقامت السيدتان لتُخليا لها مكانهما. ونادى «هنري»:

ـ يا «بورتن»، ناوِلنا الشاي والقهوة من البوفيه!

ولم يكن ذلك من أدب اللياقة الأصيل، ولكنه كان نوعًا من اللياقة والسلام ـ نوعًا يفيد بقدر ما يفيد النوع الأصيل، ويُجنب المواقف المحرجة في اجتماعات مجالس الإدارة. كان «هنري» يعالج حفل الزواج كمعالجته لمأتم: عالجه فقرة فقرة، من دون أن يرفع عينيه قَطُّ ليراه في مجموعه. ويستطيع الإنسان في النهاية أن يقول في عجب، على طريقة بولس الرسول: «أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا حب؟».

وطلبت إليه بعد الإفطار أن تبادله بضع كلمات. وكان من الأفضل دائمًا أن تدخل إليه بالطريق الرسمي. طلبت التحادث معه لأنه كان سيخرج صباح اليوم التالي لصيد طير القطا، وستعود هي إلى «هيلين» في المدينة. وقال لها:

ـ بالتأكيد يا عزيزتي. لديَّ مندوحة من الوقت بالطبع. ماذا تريدين؟

ـ لا شيء.

ـ خشيت أن يكون قد وقع خطأ.

ـ كلا. وليس لديَّ ما أقوله. ولكن يمكنك أن تتكلم.

وتكلم وهو يرمق ساعته عن المنحنى القذر لباب الكنيسة الخارجي. وأنصتت إليه في اهتمام. وكان ظاهرها يستطيع دائمًا أن يتجاوب مع ظاهره من دون ازدراء وإن كان إنسانها الباطن يتوق إلى مساعدته. لقد تخلت عن أي خطة مرسومة للتصرف معه. فالحب أفضل الخطط. وكلما تركت نفسها تتمادى في حبه ازدادت فرصة تمكنه من تقويم نفسه. كانت مثل هذه اللحظات ـ وهما جالسان في مثل هذا الجو الجميل إلى جانب ممرات بيتهما المستقبلي ـ عذبة في نظرها إلى حد تستطيع معه من دون شك أن تبث هذه العذوبة فيه. فكل لفتة من عينيه، وكل انفراجة من شفته ذات الشارب عن شفته الأخرى الحليقة، هي لا بد مقدمة للرقة التي تقتل فيه الناسك والوحش بطعنة واحدة. ومع أن ظنها خاب مئات المرات، فإنها ظلت متشبثة بالأمل. كانت تحبه بعين بصيرة إلى حد أنها لم تخشَ تلبد نفسه. وسواء أرَدد التفاهات، كما فعل اليوم، أم فاجأها بالقبلات في ضوء الغسق، فإن في استطاعتها أن تغفر له، وأن تتجاوب معه.

وقالت تعرض عليه رأيًا:

ـ ما دام هناك ذلك المنحنى القذر الذي يعوق السيارات، فهلا نستطيع الذهاب إلى الكنيسة سيرًا على الأقدام. ولست أقصدك أنت و«إيفي» بالطبع، ولكن باقينا يستطيعون من دون ضير أن يسبقوا إلى هناك، وهذا يعني وفرًا في عدد السيارات.

ـ لا يستطيع المرء أن يدع السيدات يجتزن ميدان السوق. وأسرة «فاسل» لن ترضى عن ذلك، وكان أفرادها شديدي التدقيق في حفل زفاف «تشارلز». إن زَو... إن إحدى سيدات جماعتنا كانت تتوق إلى الذهاب مشيًا، والكنيسة كانت عند ناصية الشارع، ولكن الكولونيل تشدد في الأمر.

وقالت «مارجريت» مستغرقة في التفكير:

ـ يجدر بكم، أيها الرجال، ألا تسرفوا في رعايتكم للنساء.

ـ لمَ لا؟

كانت تعرف السبب، ولكنها قالت إنها لا تعرف.

وهنا قال لها بأنه إذا لم يكن لديها شيء هام تقوله فسيضطر إلى المرور بمخزن الأنبذة، وانطلقَا معًا بحثًا عن «بورتن» الخادم. وبرغم أن منزل أونيتون غير رشيق، وغير مريح نوعًا، فهو منزل ريفي أصيل. ونزلا يقعقعان فوق ممرات مبلطة، وتفحصاه غرفة بعد غرفة، وأفزعا الخادمات المجهولات فشغلاهن عن تأدية أعمالهن المغمورة. وكان لا بد من أن يكون الإفطار معدًّا على أثر عودة الجميع من الكنيسة، وأن يجري تقديم الشاي في الحديقة. وحمل منظر هذا الجمع الغفير من الخدم المنفعلين الجادين «مارجريت» على الابتسام، ولكنها فكرت في أنهم نُقدوا أجرًا ليتخذوا هذا المظهر الجاد، وأنهم يستمتعون بهذا الانفعال. فهنا كانت تدور العجلات السفلى من الآلة التي تدفع «إيفي» عاليًا إلى مجد العُرس. وسد عليهما الطريق غلام يحمل ضفائر من الشعر المستعار، ولم يستطع ذهنه أن يدرك علو مكانتهما، وقال لهما:

ـ عن إذنكما، دعاني أمُر من فضلكما.

وسأله «هنري» أين يكون «بورتن». ولكن الخدم كانوا جددًا إلى حد أنهم لم يعرف بعضهم أسماء البعض. وفي غرفة تقطير الخمور جلست فرقة الموسيقى التي اشترطت أن تشرب الشمبانيا كجزء من أجرها، والتي كانت تشرب البيرة الآن فعلًا. وتصاعدت من المطبخ رائحة غريبة (كرائحة الصبار) امتزجت بصيحات عالية. وأدركت «مارجريت» ما جرى هناك، لأن نظيره جرى في «ويكهام بليس». فقد فار لون من ألوان طعام العُرس فشرع الطاهي يرمي فوقه نشارة الأرز ليخفي رائحته. وأخيرًا عثرا على كبير الخدم، وأعطاه «هنري» المفاتيح، وأخذ بيد «مارجريت» لينزل بها في دَرج مخزن الخمور. وفُتح بابان. ودهشت لما رأت، وهي التي تضع زجاجات نبيذها كلها في قاع خزانة ملابسها، وصاحت:

ـ إننا لن نتمكن من شرب هذا كله أبدًا.

وتقارب الرجلان فجأة تقارُب الأخوة فتبادلا البسمات. وأحست كما لو أنها قفزت مرة ثانية من السيارة أثناء مسيرها.

إن «أونيتون» تقتضيها ولا ريب بعض الجهد لهضمها. وليس بالأمر الهين أن تظل «مارجريت» هي نفسها من دون تغير، وأن «تمَثل» مع ذلك مثل هذه الدار. لا بد أن تظل كما هي، في سبيله هو وكذلك في سبيل نفسها، فالمرأة الزائفة تنحدر بزوجها الذي تصاحبه. ولكن لا بد من «تمثيل» المنزل لأسبابٍ

تتعلق بالأمانة المشتركة بين الناس، لأنه ليس لها الحق في أن تتزوج رجلًا ولا تعمل على راحته. لقد كان حليفها الوحيد هو قوة البيت. وقد علَّمها فقدانها منزل «ويكهام بليس» أكثر مما علمها تملكه. و«هواردز إند» لقنها نفس الدرس من جديد. لذلك عقدت العزم على أن تخلق مقدسات جديدة بين هذه التلال.

واستبدلت ملابسها بعد زيارتها لمخزن النبيذ، وحضرت حفل الزواج الذي بدا قليل الشأن بالقياس إلى الاستعدادات التي قامت له. وسارت الأمور على خير ما يرام. وظهر السيد «كاهل» بلحمه وعظمه من العدم، وكان ينتظر عروسه على باب الكنيسة. ولم يسقط خاتم الزواج من أحد العروسين، ولم يخطئ أحدهما في نطق الردود على أسئلة القس، ولم يطأ أحدٌ ذيل ثوب «إيفي»، ولم يبكِ أحد وأدى رجال الدين مهمتهم في بضع دقائق، وتم توقيع السجل، وعاد الجميع إلى سياراتهم، وهم في منحنى باب الكنيسة الخطر. وكانت «مارجريت» مقتنعة بأن الزوجين لم يتزوجا قَطُّ، وأن الكنيسة النورماندية كانت منصرفة طوال وقت الزفاف إلى غير هذا من شؤون.

وكان هناك مزيد من أوراق أعدت للتوقيع عليها في المنزل، وكان هناك طعام الإفطار معدًّا للأكل. ثم حضر قوم جدد للاشتراك في حفل الحديقة. واعتذر عدد كبير من الناس عن عدم الحضور. ولم يكن الحفل بعد هذا كله حفلًا كبيرًا، لم يكن كبيرًا إلى الحد الذي سيكون عليه زفاف «مارجريت». ولاحظت ألوان الطعام وقطع الأبسطة الحمر لكي تعطي «هنري» ـ في الظاهر ـ ما يناسبه، ولكنها في الباطن أملت في شيء أفضل من هذا المزيج بين كنيسة الأحد وصيد الثعالب. آه إن أحدًا قد وقع في خطأ من الارتباك! ولكن هذا العُرس قد تم على أفضل وجه، فهو في رأي الليدي «إدسير» يشبه تمامًا «حفل استعراض هندي»، وقد وافقتها «مارجريت» على ذلك موافقة تامة.

وهكذا تقدم اليوم المنصرم في تثاقل. وانصرف الزوج وعروسه في السيارة وهما يضجان بالضحك. وارتدَّت الشمس صوب تلال ويلز للمرة الثانية. وجاء «هنري» إليها في مرج القلعة، وكان متعبًا إلى حدٍّ يفوق ما أقر به، وعبر عن سروره بنبرات أعذب من المعتاد. فقد سارت الأمور كلها على أحسن وجه. وشعرت بأنه يثني عليها هي أيضًا فاحمر وجهها خجلًا، ولا شك أنها بذلت قصارى جهدها لتجامل أصدقاءه شديدي المراس. وقد راعت بصفة خاصة أن تنحني للرجال، وكانوا سينصرفون في تلك الليلة. ولن يقضي ليلته في البيت إلا أسرة «وارنجتون» والطفلة الهادئة، أما الباقون فكانوا في طريقهم إلى البيت ليتموا حزم أمتعتهم. ووافقت «هنري» قائلة:

ـ أظن أن الحفل فعلًا سار سيرًا حسنًا، ولما كنت مضطرة إلى القفز من السيارة، فشكرًا لله أني وقعت على يدي اليسرى. وأنا مسرورة بذلك سرورًا كبيرًا يا عزيزي. وكل ما أرجوه أن يجد مدعوونا من الراحة نصف ما توفر اليوم. ويجب ألا يغيب عن بالكم جميعًا أنه لا يوجد في أسرتنا فرد واحد عملي، ما عدا خالتي، وهي لم تعتَد المآدب المقامة على نطاق واسع.

وقال في جد:

ـ أعلم ذلك. ويحسن في هذه الظروف أن يوكل الأمر كله إلى محل «هارودز» أو «وايتلي»، أو أن نذهب حتى إلى فندق ما.

ـ أتؤثر إقامة الحفل في فندق؟

ـ نعم، لأن... حسنًا. ينبغي ألا أتدخل في شؤونكِ، فلا شك أنكِ ترغبين أن تتزوجي في بيتكِ القديم.

ـ بيتي القديم يتهاوى ويصبح حطامًا يا «هنري»، وأنا لا أريد اليوم إلا منزلي الجديد. أليست هذه ليلة كاملة الحسن؟

ـ فندق «إسكندرينا» ليس سيئًا.

ورددت «مارجريت»:

ـ فندق «إسكندرينا»...

وكانت أكثر مشغولية بخيوط الدخان التي كانت تتصاعد من مداخن بيتهما، رمادية متوازية على المنحدرات التي تضيئها الشمس.

ـ إنه يقع أمام شارع «كرزن».

ـ أهو كذلك؟ فلنتزوج في شارع «كرزن».

ثم دارت إلى الغرب لتنظر إلى قرص الذهب الدائر، فقد أدركت الشمس النهر حيث التفَّت بالتل تمامًا. ولا بد أن أرض الجان تقع فوق هذه الثنية. وسائلها الثمين ينسكب صوبهما مارًّا بكشك استحمام «تشارلز». وأطالت «مارجريت» النظر إلى حدِّ أن الضوء أزاغ بصرها، وعندما عادا إلى البيت لم تستطِع أن تتعرف وجوه الناس الذين كانوا يغادرونه. وتقدمتهم خادمة الاستِقبال.

وسألتها «مارجريت»:

ـ من أولئك القوم؟

وصاح «هنري»:

ـ إنهم زوار! لقد تأخر الوقت عن موعد الزيارة.

ـ لعلهم أناس من أهل البلدة جاءوا للفرجة على هدايا العُرس.

ـ أنا لست مستعدًّا بعد لاستقبال أهل البلدة.

ـ حسنًا. اختبئ أنت بين الخرائب، وإذا استطعت أنا أن أردهم فسأردهم.

وشكرها.

وتقدمت «مارجريت» وهي تبتسم ابتسامةَ ألفة، وافترضت أنها لن تجد إلا زوارًا جاءوا في غير ميعادهم وعليهم أن يقنعوا بمجاملتها هي نيابة عن أهل البيت لا سيما وقد رحلت «إيفي» و«تشارلز»، وأنهك «هنري» التعب، ولاذ الباقون بغرفهم. واتخذت سيماء المضيفة، ولم يطُل ذلك، لأن «هيلين» كانت بين الجماعة ـ «هيلين» في أقدم ملابسها، وقد تسلط عليها ذلك الانفعال الجارح المتوتر الذي كان يجعلها مصدر فزع أيام طفولتهما.

وصاحت «مارجريت»:

ـ ماذا حدث؟ أوه، ما الخطب؟ هل «تيبي» مريض؟

وتحدثت «هيلين» إلى مرافقَيها اللذين نكصا إلى وراء. ثم تقدمت ثائرة صائحة:

ـ إنهما يموتان جوعًا! لقد وجدتهما يموتان جوعًا!

ـ عمن تتحدثين؟ لماذا جئتِ؟

ـ «باست» وزوجته.

وقالت «مارجريت» وهي تئن:

ـ أوه يا «هيلين»، ما هذا الذي فعلتِه الآن؟

ـ لقد فقدَ وظيفته. فُصل من المصرف. نعم، قضي عليه. لقد دمرناه نحن الطبقات العليا، وأحسبكِ ستقولين لي الآن إنها معركة الحياة. إنه يموت جوعًا، وزوجته مريضة، وتموت جوعًا. وقد أغمي عليها في القطار.

ـ «هيلين»! أأنتِ مجنونة؟

ـ ربما. نعم، أنا مجنونة إذا كان ذلك يرضيكِ. ولكني أتيت بهما، أنا لن أصبر على الظلم أكثر مما صبرت. وسأكشف عن البؤس الذي يتوارى خلف هذا البذخ، وعن هذا التشدق بالقوى غير الشخصية، وهذا الهراء عن قيام الخالق بما نتقاعس نحن عن القيام به.

ـ هل جئتِ حقًّا من لندن إلى شروبشير بإنسانين يموتان جوعًا يا «هيلين»؟

وصدم السؤال «هيلين»، فهي لم تفكر في هذا. هبط الآن هياجها الهستيري، وقالت:

ـ كانت هناك غرفة أكل ملحقة بالقطار.

ـ لا تكوني سخيفة. إنهما لا يموتان جوعًا، وأنتِ تعلمين ذلك. والآن، ابدئي من البداية، وأنا لن أقبل هذا الهراء المسرحي. كيف تجرئين على ذلك؟

وكررت قولها إذ تمَلكها الغضب:

ـ نعم، كيف تجرئين على اقتحام عُرس «إيفي» بغتة بهذه الطريقة الجافية؟ يا إلهي! ولكن فكرتكِ عن حب الخير للناس منحرفة عن الصواب. انظري.

وأشارت إلى المنزل:

ـ الخدم، والناس المطلون من النوافذ، إنهم يحسبون في الأمر فضيحة، ولا بد أن أفسره لهم فأقول: أوه، لا. ليس في الأمر إلا أن أختي تزعق، وأن هناك اثنين من المتطفلين علينا جاءت بهما دونما سبب معقول.

وقالت «هيلين» في هدوء منذر بالويل:

ـ اسحبي من فضلكِ كلمة «متطفلين».

وأذعنت «مارجريت» التي اعتزمت أن تتجنب عراكًا حقيقيًّا مع أختها برغم كل ما استولى عليها من غضب:

ـ حسنًا جدًّا. أنا أيضًا آسفة لما وقع لهما، ولكن الذي يحيرني هو السبب الذي دعاكِ إلى المجيء بهما، أو سبب مجيئكِ أنتِ نفسكِ.

ـ لأن هذه هي فرصتنا الأخيرة للقاء السيد «ويلكوكس».

وتوجهت «مارجريت» صوب المنزل لدى سماعها هذا، فقد كانت تعتزم تجنيب «هنري» أي انزعاج.

ـ إنه سيرحل إلى اسكتلندا. أنا أعلم أنه سيرحل، وأصر على مقابلته.

ـ نعم، غدًا.

ـ كنت أعلم أن هذه هي فرصتنا الأخيرة.

وقالت «مارجريت» وهي تحاول أن تضبط صوتها:

ـ كيف حالك يا سيد «باست»؟ إن هذه مسألة غريبة. فما رأيك أنت فيها؟

وأسرعت «هيلين» لنجدته قائلة:

ـ هناك السيدة «باست» أيضًا.

وصافحت «جاكي» «مارجريت» أيضًا، وكانت مستحية كزوجها. وفوق ذلك كانت مريضة، وفوق ذلك كله كانت على بلهٍ حيواني إلى حد أنها لم تستطِع أن تدرك ما يحدث. فكل ما عرفته هو أن السيدة اقتحمت عليهما الدار كالإعصار في الليلة السابقة، ودفعت لهما قيمة إيجار الدار، وحررت الأمتعة من الرهن، وأمدتهما بعشاء وإفطار، وأمرتهما أن يقابلاها صباح اليوم التالي في محطة «بادنجتون». واعترض «لينارد» في تخاذل، وعند حلول الصباح ارتأى ألا يذهبا. ولكنها امتثلت وكأنها خاضعة نصف خضوع لتنويم مغناطيسي. لقد قالت لهما «السيدة» أن يذهبا، فلا مناص من ذهابهما. وتحولت غرفة نومهما، التي هي غرفة جلوس في نفس الوقت، إلى محطة «بادنجتون»، ومحطة «بادنجتون» إلى عربة سكة حديد تهتز، وتغدو حارة، وتغدو باردة، وتُخفى كلية، وتظهر من جديد وسط تيارات من رائحة عطر ثمين. وقالت السيدة بصوت مرتعب:

ـ لقد أغمي عليكِ، ولعل الهواء يفيدكِ.

ولعله أفادها فعلًا، فهي الآن هنا شاعرة بالتحسن وسط زهور كثيرة.

وبدأ «لينارد» يقول ردًّا على سؤال «مارجريت»:

ـ لا شك أني لا أريد أن أتطفل، ولكنكما كنتما شديدتي العطف عليَّ فيما مضى بتحذيري من شركة «بورفيريون» حتى إني لا أدري... نعم، لا أدري هل...

وأكملت «هيلين»:

ـ هل يمكننا إعادته إلى «بورفيريون» ثانية؟ لقد كان ذلك عملًا سارًّا يا «ميج». كان عملًا ألمعيًّا ذلك الذي تم في المساء على جسر تشيلسي.

وهزت «مارجريت» رأسها ثم انثنت إلى السيد «باست»:

ـ أنا لم أفهم. إنك تركت شركة «بورفيريون» لأننا أوعزنا إليك أنها شركة متداعية، أليس كذلك؟

ـ هذا صحيح.

ـ والتحقت بمصرف بدلها.

فقالت «هيلين»:

ـ لقد أنبأتك بهذا جميعه، ووفر البنك عددًا من موظفيه بعد شهر من التحاقه به، وهو الآن خالي الوفاض تمامًا. وأنا أرى أننا نحن ومن أمدنا بالمعلومات نستحق اللوم.

وغمغم «لينارد»:

ـ أنا أمقت ذلك كله.

ـ أرجو أن يكون هذا شعورك يا سيد «باست»، ولكن لا خير في المداورة. إنك لم تحسن صنعًا بمجيئك إلى هنا، وإذا كنت تنوي أن تواجه السيد «ويلكوكس» وتحاسبه بسبب ملاحظة عارضة أبداها، فإنك سترتكب بذلك خطأ كبيرًا.

فصاحت «هيلين»:

ـ أنا التي جاءت بهما، أنا التي فعلت كل شيء.

ـ لست أستطيع أن أنصحك إلا بأن تعود أدراجك حالًا. لقد وضعتك أختي في وضع غير سليم، ومصارحتك بهذا رحمة بك. لقد فات الوقت المناسب لعودتك اليوم إلى المدينة، ولكنك ستجد فندقًا مريحًا في أونيتون حيث تستطيع السيدة «باست» أن تستريح، وأرجو أن تكونا ضيفيَّ في الفندق المذكور.

فقال «لينارد»:

ـ ليس هذا هو ما أريده يا آنسة «شليجل». أنت عطوف جدًّا، ولا شك أنك في وضع مربك. ولكنك تشقينني. إني أبدو غير كفء لشيء.

وقطعت «هيلين» عليهما الحديث:

ـ إنه يريد عملًا، ألا ترين؟

وعند ذلك قال:

ـ دعينا ننصرف يا «جاكي» فنحن نسبب من الإزعاج أكثر مما يستحق. لقد كلفنا هاتين السيدتين جنيهات إلى الآن لتوفرا لنا عملًا، ولكنهما لن توفراه أبدًا، فليس هناك عمل نحن أكفاء للقيام به.

وقالت «مارجريت» قولًا أقرب إلى المجاملة:

ـ نحن نود أن نجد لك عملًا. نحن نود ذلك. وأنا لا أختلف عن أختي في هذا. والأمر لا يخرج عن أن الحظ خانك. اذهب إلى الفندق، واستمتع بليلة مريحة هناك. ورد لي قيمة قائمة الحساب في يوم ما إذا شئت.

ولكن «لينارد» كان على حافة الهاوية، والرجال في مثل هذه اللحظة تنجلي بصائرهم، ويرون في وضوح، فقال لها:

ـ أنتِ تتحدثين فيما لا تعرفين. أنا لن أحصل على وظيفة أبدًا بعدما حدث. فالأغنياء إذا أخفقوا في مهنة حاولوا القيام بغيرها. أما أنا فلا. لقد كنت أسير في خط العمل الذي أجيده فخرجت منه، كنت أستطيع العمل في فرع معين من أعمال التأمين، في مكتب معين، وأحسن هذا العمل المعين إلى حد

يكفي لحملهم على إعطائي راتبًا. ولكن ليس في الأمر غير ذلك. والشعر لا وزن له يا آنسة «شليجل». وآراء المرء عن هذا الشيء وذاك لا وزن لها كذلك. ومالك أيضًا لا وزن له إذا كنتِ تفهمين قولي. فأنا أعني أنه إذا فقدَ رجل فوق العشرين عمله المعين مرة، انتهى أمره. وقد رأيت ذلك يحدث لآخرين، وأمدهم أصدقاؤهم بالمال لبعض الوقت، ولكنهم سقطوا جميعًا من فوق الحافة في النهاية. ليست هناك فائدة. إن العالم كله ضدنا. وسيظل هناك أغنياء وفقراء دائمًا.

وتوقف عن القول، فسألته «مارجريت»:

ـ ألا تريد أن تأكل شيئًا؟ لست أدري ماذا أصنع، فالدار ليست داري. وبرغم أن السيد «ويلكوكس» كان يسره أن يراك في أي وقت غير هذا... أنا كما قلت لا أعرف ماذا أصنع، ولكني أتعهد بالقيام بما أستطيع في سبيلك. قدمي لهما شيئًا يا «هيلين». حاولي يا سيدة «باست» أكل هذا الساندويتش.

واتجهوا إلى مائدة مستطيلة لا يزال أحد الخدم يقف وراءها. وكاد ما عليها من الفطائر المثلجة والساندويتشات المنوعة والقهوة والكلاريت والشمبانيا أن تكون كما هي من دون أن يمسها أحد، فإن الضيوف المتخمين استنفدوا طاقتهم. ورفض «لينارد» تناول شيء. وقالت «جاكي» إنها قد تستطيع أكل القليل. وتركت «مارجريت» الزوجين يتهامسان، وأخذت تبادل «هيلين» بعض العبارات.

قالت:

ـ «هيلين»، يعجبني السيد «باست»، وأوافق على أنه يستحق المعاونة. وأوافق أيضًا على أننا مسؤولتان مباشرة...

ـ لا. عن طريق غير مباشر. عن طريق السيد «ويلكوكس».

ـ دعيني أقل لكِ أولًا وآخرًا إني لن أقوم بأي عمل إذا كنتِ ستتخذين هذا الموقف. ولا شك أنكِ منطقيًّا على حق، ومن حقكِ أن تقولي أشياء كثيرة جارحة عن «هنري»، ولكني لن أسمح بذلك، وعلى ذلك اختاري ما شئتِ.

ونظرت «هيلين» إلى غروب الشمس.

ـ إذا وعدتِني أن تذهبي بهما في هدوء إلى فندق «جورج» فسأحادث «هنري» عنهما، ولكن اعلمي أن ذلك سيكون بطريقتي الخاصة. ولن يكون

هناك هذا الصراخ السخيف عن العدالة، فأنا لا تهمني العدالة. ولو كانت المسألة مسألة مال فقط، لاستطعنا حلها بأنفسنا، ولكنه يريد عملًا، وهو ما لا نستطيع توفيره له، ولكن لعل «هنري» يستطيع.

وقالت «هيلين» محتجة:

ـ إن من واجبه أن يفعل.

ـ ولا الواجب يعنيني أيضًا. ولكن الذي يعنيني هو مكانة عدد من الناس الذين نعرفهم، وكيف يمكن، والحال كما هي، أن نجعل الأمور أفضل قليلًا مما هي عليه. إن السيد «ويلكوكس» يكره أن يطالبه أحدٌ بمعروف، وجميع رجال الأعمال على هذا المنوال. ولكني سأجازف وأطالبه به متعرضة للصد، ذلك لأني أريد أن أجعل الأمور أفضل قليلًا.

ـ حسنًا جدًّا. أنا أعدكِ. إنكِ تأخذين الأمر بهدوء شديد.

ـ خذيهما إلى فندق «جورج» إذن، وسأبذل أنا جهدي. يا للمسكينين! التعب يبدو عليهما.

وأضافت بعد انصرافهما:

ـ أنا مع ذلك لم أنتهِ معكِ يا «هيلين». فقد كنتِ شديدة الاستسلام لأهوائكِ. وأنا لا أستطيع التغاضي عن ذلك. إنكِ كلما تقدمتِ في السن تزدادين إرخاء لجماحكِ أكثر مما تزدادين كبحًا له. فكّري في الأمر مليًّا، وغيِّري ما بنفسكِ، وإلا فإننا لن نحيا حياة سعيدة.

ولحقت بـ«هنري». ومن حسن الحظ أنه كان جالسًا على الأرض؛ إن هذه الأمور البدنية لها أهميتها. وسألها وهو يحييها بابتسامة عذبة:

ـ هل كانوا من أهل البلدة؟

وقالت «مارجريت» وهي تجلس إلى جواره:

ـ إنك لن تصدقني أبدًا. وقد سوي الأمر الآن، ولكنها كانت أختي.

وصاح وهو يستعد للنهوض:

ـ هل «هيلين» هنا؟ ولكنها رفضت الدعوة! كان ظني أنها تزدري حفلات الزواج.

ـ لا تنهض، فهي لم تأتِ لحضور العُرس. وقد شيعتها إلى فندق «جورج».

وإذ كان بطبيعته مضيافًا فقد احتج.

ـ لا، فهي تستصحب اثنين من محاسيبها، ولا تستطيع أن تفترق عنهما.

ـ دعيهم يحضروا جميعًا.

ـ يا عزيزي «هنري»، أرأيتهما؟

ـ أنا لمحت بالتأكيد امرأة أشبه بحزمة سمراء.

ـ الحزمة السمراء هي «هيلين». ولكن هل لمحت حزمة سمراء تجمع بين خضرة البحر وسمك السلمون؟

ـ ماذا؟ أخَرجا للنزهة واللهو؟

ـ لا، بل لعمل. جاءا للالتقاء بي، وأريد أن أحدثك عنهما فيما بعد.

وخجلت من دبلوماسيتها. فكم تُسول لها نفسها، عند التعامل مع واحد من آل «ويلكوكس»، أن تنحرف عن أصول الزمالة، وتعطيه ذلك النوع الذي يريده من النساء! وأدرك «هنري» مرماها على الفور وقال:

ـ لماذا الإرجاء؟ خبريني الآن، فليس من وقت يَفضُل وقتنا هذا.

ـ أأخبرك؟

ـ إذا لم تكن الحكاية طويلة.

ـ أوه، لن تستغرق أكثر من خمس دقائق، ولكنها ستنتهي بوخزة، لأني أريد منك أن توفر للرجل وظيفة في مكتبك.

ـ ما هي مؤهلاته؟

ـ لا أدري. ولكنه موظف كتابي.

ـ كم سنه؟

ـ لعله في الخامسة والعشرين.

ـ ما اسمه؟

وقالت «مارجريت»:

ـ «باست».

وأوشكت أن تخبره بأنهما سبق أن تقابلا في «ويكهام بليس»، ولكنها ردت نفسها عن ذلك، فمقابلتهما لم تكن موفقة.

ـ أين كان يعمل من قبل؟

ـ في بنك «ديمبستر».

وسألها وقد ظل لا يذكر شيئًا:

ـ ولماذا ترك وظيفته؟

ـ نقصوا عدد الموظفين.

ـ حسنًا. سأراه.

كان هذا مكافأة لها على ما أبدته طوال النهار من لباقة وإخلاص. وأدركت الآن لماذا يفضل بعض النساء استعمال نفوذهن على التمسك بحقوقهن. وقد قالت السيدة «بلينليمون» وهي تُسفه المطالبات بحق الانتخاب: «إن المرأة التي لا تستطيع أن تؤثر في زوجها فتحمله على التصويت وفق رأيها قمينة أن تخجل من نفسها».

وقد جفلت «مارجريت» عند سماع هذا الرأي، ولكن ها هي ذي تؤثر في زوجها الآن، وبرغم أنها سُرت بانتصارها الصغير، فقد أدركت أنها لم تحرزه إلا بأساليب «الحريم». وقالت:

ـ سيسرني أن تلحقه بمكتبك، ولكني لا أعرف ما إذا كان مؤهلًا.

ـ سأفعل ما أستطيع، ولكن ينبغي ألا يتخذ ذلك سابقة يا «مارجريت».

ـ لا، بالطبع... بالطبع.

ـ أنا لا أستطيع أن ألحق محاسيبكِ بوظيفة في كل يوم، فالأعمال تضار بذلك.

ـ أستطيع أن أعدكَ بأنه الأخير... إنه... إن له حالة خاصة.

ـ حالات المحاسيب خاصة دائمًا.

وتركت «مارجريت» الأمر يقف عند هذا الحد. ونهض وهو يشعر بقدر من الرضا عن النفس أكثر قليلًا مما يشعر به عادة، ومد يده إليها ليساعدها على النهوض. ما أشد الهوة بين «هنري» على الحالة التي هو عليها، وبين «هنري» كما يجب أن يكون في رأي «هيلين»! و«مارجريت» نفسها، وهي تتأرجح كالعادة بين الاثنين، راضية في لحظة بالرجال على ما هم عليه، وتواقة في لحظة أخرى، كأختها، إلى الحق. الحب والحق: إن الحرب بينهما تبدو أبدية. ولعل العالم المنظور كله يرتكز عليها، ولو حدث وكان شيئًا واحدًا فإن الحياة نفسها تتلاشى وتصبح هواء رقيقًا كما حدث للأرواح عندما تصالح الساحر «بروسبيرو» مع أخيه.

وقال «هنري»:

ـ محسوبكِ أخرنا. وأسرة «فاسل» على أهبة الانصراف الآن.

كانت على العموم في جانب الرضا بالرجال على ما هم عليه. إن «هنري» سينقذ «باست» كما أنقذ «هواردز إند»، بينما «هيلين» تناقش، هي وأصدقاؤها، أخلاقيات الإنقاذ. إن طريقته كان يشوبها الإهمال والنقص. ولكن هذه الدنيا شيدت بإهمال ونقص، وجمال الجبل والنهر والشمس الغاربة قد لا يكون إلا طلاء تداري به الطبيعة غير الماهرة مآخذ تركيبها. كان في أونيتون عيون، كـ«مارجريت» نفسها. فأشجار تفاحها قميئة، وقلعتها مهدمة. وقد عانت هي أيضًا من الحرب على الحدود بين الأنجلوسكسونيين والكلتيين، بين الأشياء على ما هي عليه، وكما يجب أن تكون. وأخذ الغرب يتقهقر مرة أخرى، والنجوم المنسقة ترصع صفحة سماء الشرق. لا شك أنه لم تكتب لنا راحة في هذه الأرض، ولكن فيها سعادة. وشعرت «مارجريت»، وهي تنحدر من الربوة متأبطة ذراع حبيبها، بأنها تنال نصيبها منها.

وضايقها أن وجدت السيدة «باست» لا تزال في الحديقة، فقد تركها زوجها و«هيلين» لتتم تناول وجبتها، وذهبا لاستئجار غرف للمبيت. ووجدت

«مارجريت» هذه المرأة منفرة. فقد شعرت من قبل وهي تصافحها بخزي غلاب. وتذكرت الداعي الذي دعا تلك المرأة إلى زيارتها لـ«ويكهام بليس»، وشمت من جديد روائح تتصاعد من الهاوية ـ روائح أشد إزعاجًا لأنها غير مقصودة، فليس في «جاكي» شر ولا لؤم، فها هي ذي تجلس هناك وفي إحدى يديها قطعة من الكعك، وفي اليد الأخرى كوبة فارغة من أكواب الشمبانيا، ولا تلحق أي أذى بأحد.

وهمست «مارجريت»:

ـ إنها تعاني من تعب شديد.

وقال «هنري»:

ـ إنها تعاني من شيء آخر غير التعب. هذا لا يجوز. وأنا لا أسمح بجلوسها في حديقتي وهي على تلك الحال.

ـ أهي...

وترددت «مارجريت» في إضافة كلمة «سكرى»، فإن «هنري» ـ بعد أن وافقت على أن تتزوجه ـ أصبح مدققًا، ولم يَعُد يقر الحديث المكشوف.

وتقدم إلى المرأة. فرفعت وجهها الذي سطح في ضوء الغسق كأنه كرة منفوخة. وقال في حدة:

ـ سيدتي، إنكِ ستشعرين براحة أوفر في الفندق.

وأجابت «جاكي»:

ـ أليس هذا بالله «هِن»!

واعتذرت «مارجريت» قائلة بالفرنسية:

ـ لا تظن أن زوجها يشبهها، فهو مختلف عنها كل الاختلاف.

وعادت تقول في وضوح تام:

ـ «هنري»!

وتضايق السيد «ويلكوكس» جدًّا، وقال معقبًا:

ـ لا أستطيع أن أهنئكِ على محاسيبكِ.

ـ «هِن»، لا تذهب. أنت تحبني يا عزيزي، أليس كذلك؟

وتنهدت «مارجريت» وهي تجمع طرف ثوبها:

ـ اللهم احفظنا. أي إنسانة هذه!

وأشارت «جاكي» بيدها التي تحمل الكعكة:

ـ أنت فتى لطيف، أنت كذلك.

وتثاءبت:

ـ هيا، إني أحبك.

وقالت «مارجريت»:

ـ أنا شديدة الأسف يا «هنري».

وسألها:

ـ ولماذا الأسف من فضلكِ؟

ونظر إليها في صرامة إلى حدٍّ خشيت معه أن يكون مريضًا. وبدا أنه يشعر بالخزي أكثر مما يتطلب الموقف.

ـ لأني سببت لك هذا.

ـ أرجو ألا تعتذري.

وظل صوت المرأة يتردد. وسألت «مارجريت» في براءة:

ـ لماذا تدعوك «هِن»؟ أهي رأتك من قبل؟

وقالت «جاكي»:

ـ رأيت «هِن» من قبل! من ذا الذي لم يرَ «هِن»؟ إنه يعاملكِ كما عاملني. هؤلاء الفتيان! انتظري ترَي. ونحن برغم ذلك نحبهم.

وسأل «هنري» «مارجريت»:

ـ هل اكتفيتِ الآن؟

وبدأت «مارجريت» تخاف، وقالت:

ـ لست أدري شيئًا من هذا كله. دعنا ندخل.

ولكنه ظن أنها تمثل دورًا. ظن أنه أُوقع في مصيدة. ورأى حياته كلها تنهار. وقال بمرارة:

ـ ألا تعلمين شيئًا حقًّا؟ أما أنا فأعلم، واسمحي لي أن أهنئكِ على نجاح خطتكِ.

ـ هذه ليست خطتي، ولكنها خطة «هيلين».

ـ أنا أدرك الآن سبب اهتمامكِ بأسرة «باست». لقد دُبر الأمر تدبيرًا متقنًا. وقد أمتعني تحرزكِ يا «مارجريت». إنكِ أصبتِ تمامًا. وكان الأمر لا بد منه. فأنا رجل، وقد عشت ماضيَّ كما يعيش الرجل. ولي الشرف أن أحلَّكِ من الخطبة التي ارتبطتِ بها.

وظلت عاجزة عن أن تفهم. كانت تعرف الجانب الأسوأ من الحياة نظريًّا. ولكنها لم تستطِع أن تلم به كحقيقة واقعة. وكان لا بد من كلمات أخرى تقولها «جاكي»... كلمات واضحة لا تحتمل الإنكار.

وانطلق منها قولها:

ـ إذن فالأمر كذلك...

ودخلت الدار. ومنعت نفسها من أن تزيد في القول.

وسأل الكولونيل «فاسل» الذي كان يستعد في الردهة للانصراف:

ـ أي أمر؟

ـ كنا نقول... جرت بين «هنري» وبيني أعنف مناقشة، وكانت وجهة نظري...

وتناولت معطفه الفرو من أحد الخدم وعرضت عليه أن تعينه على ارتدائه فاعترض، وحدث مشهد صغير مسلٍّ.

وقال «هنري» وهو يتبعها:

ـ لا، دعيني أقُم أنا بهذا.

ـ شكرًا جزيلًا! أرأيت؟ لقد غفر لي!

وقال الكولونيل في شهامة:

ـ أنا لا أحسب أن هناك شيئًا يستحق المغفرة.

وركب السيارة. وتبعته السيدات بعد فترة. أما الخادمات والساعي والأمتعة الثقيلة فقد سافرت من قبل بالقطار الفرعي. وحملت السيارة الضيوف وهم لا يزالون يثرثرون ويشكرون مضيفهم، ويجاملون مضيفتهم المستقبِلة.

ثم واصلت «مارجريت» قولها:

ـ هذه المرأة كانت إذن محظيتك؟

فأجابها:

ـ أنتِ تضعين السؤال بطريقتكِ المهذبة المعتادة.

ـ ومتى كان ذلك؟ أجِبني من فضلك.

ـ لماذا؟

ـ متى؟ أجِب من فضلك.

ـ منذ عشر سنوات.

وتركته من دون أن تنبس بكلمة. لأن المأساة لا تخصها، وإنما تخص السيدة «ويلكوكس».

## الفصل السابع والعشرون

أخذت «هيلين» تعجب لماذا أنفقت زهاء ثمانية جنيهات لتمرض أناسًا وتغضب آخرين. أما وقد أخذت موجة الانفعال تنحسر الآن وبعد أن ألقت بها وبالسيد «باست» والسيدة «باست» في فندق من فنادق شروبشير لقضاء الليلة، فإنها أخذت تسأل نفسها عن القوى التي جعلت هذه الموجة تعلو. بيد أنه لم يحدث ضرر على أي حال. وستلعب «مارجريت» دورها الآن بإتقان. وبرغم أن «هيلين» لم تكن ترضى عن وسائل أختها، فهي تعلم بأن أسرة «باست» ستفيد من تلك الوسائل في المدى الطويل.

وقالت تشرح الأمر لـ«لينارد» الذي أوصل زوجته للفراش، وعاد يجلس الآن مع «هيلين» في قاعة تناول القهوة التي خلت من الرواد في هذا الحين:

ـ السيد «ويلكوكس» ليس منطقيًّا أبدًا. فلو أننا قلنا له إن واجبه يقتضي أن يلحقك بوظيفة في مكتبه فقد يرفض القيام بذلك. والواقع أن في تربيته نقصًا، فهو ليس كما ينبغي. وأنا لا أريد أن أحرضك عليه، ولكنك ستجده متعبًا.

ولم يكن في مقدور «لينارد» إلا أن يقول لها:

ـ لن أستطيع أن أوفيكِ حقكِ من الشكر أبدًا يا آنسة «شليجل»!

ـ أنا أعتقد في المسؤولية الشخصية، ألا تعتقد أنت في ذلك؟ وأعتقد أيضًا في كل شخص. أنا أمقت... أحسب أنه ينبغي لي ألا أقول هذه الكلمة، ولكن أفراد أسرة «ويلكوكس» يسيرون في الاتجاه الخطأ ولا ريب. أو لعل ذلك ليس خطأهم. لعل ذلك الشيء الصغير، الذي يقول: «أنا»، مفتقَد من مركز رؤوسهم، وعلى ذلك يكون لومهم مضيعة للوقت. وهناك نظرية كالكابوس، تقول إن جنسًا خاصًّا من البشر يولد الآن، وإنه سوف يسود سائر البشر في المستقبل، لا لشيء إلا لأنه يفتقد ذلك الشيء الصغير الذي يقول: «أنا». أسمعت عن ذلك؟

ـ أنا لا أجد وقتًا للمطالعة.

ـ أفكرت في ذلك إذن؟ في أن هناك نوعين من الناس: أحدهما نوعنا، وهو الذي يحيا معتمدًا على مركز رأسه، والنوع الثاني هو الذي لا يستطيع ذلك، لأن رأسه ليس به مركز، فأفراده لا يستطيعون أن يقولوا «أنا»، لأنهم ليسوا

كذلك في الواقع، وعلى ذلك فكل واحد منهم هو الإنسان الأعلى.ٌ «السوبرمان». إن رجل الأعمال الثري «بييربونت مورجان» لم ينطق قَطُّ في حياته بكلمة «أنا».

وأيقظ «لينارد» عقله. فما دامت ولية نعمته ترغب في محادثةٍ عقلية، فليكن لها ذلك، وهي ذات أهمية أكبر من ماضيه المحطم.

وقال:

ـ أنا لم أصل قَطُّ إلى قراءة «نيتشه»، ولكني ظننت دائمًا أن أولئك الرجال الأعلين هم من يمكنكِ أن تسميهم «الأنانيين».

وأجابت «هيلين»:

ـ أوه، لا. هذا خطأ. فليس هناك «إنسان أعلى» قال مرة: «أنا أطلب»، لأن عبارة: «أنا أطلب» لا بد أن تؤدي إلى التساؤل: «ومن أنا؟»، ثم تؤدي إلى الشفقة والعدالة. هو لا يقول إلا: «مطلوب». فإن كان «نابليون» قال «مطلوب أوروبا»، وإن كان «ذا اللحية الزرقاء» قال: «مطلوب نساء»، وإن كان «بييربونت مورجان» قال: «مطلوب لوحة لـ«بوتشيلي»». فإن أحدًا منهم لا يقول كلمة «أنا» أبدًا، وإذا استطعت أن تخترق رأسه وجدت في وسطه الفوضى والفراغ.

وصمت «لينارد» هنيهة ثم قال:

ـ أأستطيع أن أفهم من ذلك، يا آنسة «شليجل»، أننا كلينا من النوع الذي يقول: «أنا»؟

ـ بالطبع.

ـ وأختكِ أيضًا؟

وكررت «هيلين» بشيء من الحدة:

ـ بالطبع. وكل إنسان محترم يقول: «أنا».

فهي متضايقة من «مارجريت»، ولكنها لا تريد أن تجعلها محل مناقشة.

ـ ولكن السيد «ويلكوكس»... لعله ليس...

ـ لا أحسب أن هناك أي فائدة من مناقشة السيد «ويلكوكس» أيضًا.

ووافقها قائلًا:

ـ هذا صحيح تمامًا. صحيح تمامًا.

وسألت «هيلين» نفسها لماذا زجرته. فقد شجعته مرة أو مرتين خلال النهار على أن ينتقد، ولكنها عادت فأوقفته عند حده. أكانت تخشى أن يسمح لنفسه بكثير من الحرية؟ فإن كان هذا صحيحًا، فمسلكها يثير التقزز.

أما هو فقد وجد زجره طبيعيًّا جدًّا، فكل ما تُقدِم «هيلين» عليه طبيعي ولا يمكن أن يلحق به إهانة. وعندما رأى الأختين «شليجل» معًا كان يشعر بأنهما من غير البشر؛ كانتا نوعًا من دوامة مخدرة. ولكن الأمر يختلف إذا كانت إحدى الآنستين «شليجل» بمفردها. ففي حالة «هيلين» هي فتاة غير متزوجة، وفي حالة «مارجريت» هي فتاة على وشك الزواج، وكل منهما في كلتا الحالتين ليست صدى للأخرى. لقد سقط أخيرًا نور على هذه الطبقة العليا الغنية، ورآها تزخر برجال ونساء بعضهم أكثر عطفًا عليه من بعضهم الآخر. وقد أصبحت «هيلين» الآنسة «شليجل» الخاصة به، التي قرَّعته، وكاتبته، ثم اقتحمت داره أمس مسرورة سارة. أما «مارجريت» فصارمة متباعدة، برغم أنها لم تكن غير عطوف. فهو لا يخطر بباله مثلًا أن يساعدها. وهو لم يمِل إليها قَطُّ، وبدأ يظن أن انطباعته الأولى عنها كانت صادقة، وأن أختها لا تميل إليها كذلك. إن «هيلين» تشكو الوحدة من دون شك. هي التي بذلت الكثير جدًّا، لا تتلقى إلا القليل جدًّا. وقد سُر «لينارد» أن يرى أنه يستطيع تجنيبها الغيظ بضبط لسانه، وإخفاء ما عرفه عن السيد «ويلكوكس». فقد جاهرت «جاكي» بما وقفت عليه عندما ذهبت لاستحضارها من المرجة. وهو بعد الصدمة الأولى لم يهتم بالأمر فيما يختص بشخصه، ولكن موقفه الآن موقف من لم تَعُد تخدعه الأوهام عن زوجته، وليس ما عرفه اليوم إلا وصمة جديدة تلطخ بها وجه حب لم يكن نقيًّا في يوم من الأيام. إن إبقاء الكمال كاملًا جدير أن يكون مَثله الأعلى، فيما إذا أتاح له المستقبل مندوحة من الوقت لاعتناق مُثل عليا. ينبغي ألا تعلم «هيلين» شيئًا، وكذلك «مارجريت»، من أجل «هيلين».

وقد أوقعته «هيلين» في حيرة بتحويل الحديث إلى موضوع زوجته، فقد سألته في بعض الخبث:

ـ أتقول السيدة «باست» «أنا» أبدًا؟

ثم أردفت:

ـ أهي متعبة جدًّا؟

وقال «لينارد»:

ـ من الأفضل أن تبقى في غرفتها.

ـ أترى أن أجالسها؟

ـ لا، أشكركِ. إنها لا تحتاج إلى مجالسة.

ـ يا سيد «باست»، أي نوع من النساء زوجتك؟

وصبغ الاحمرار وجه «لينارد» حتى عينيه.

ـ مفروض أنك تعرف الآن أساليبي. هل في سؤالي إساءة إلى شعورك؟

ـ لا، أوه، يا آنسة «شليجل»، لا.

ـ ذلك أني أحب الأمانة. لا تدَّعِ أن زواجك كان سعيدًا. فليس بينك وبينها شيء مشترك.

ولم ينكر ذلك. ولكنه قال في خجل:

ـ أعتقد أن ذلك ظاهر جدًّا، ولكن «جاكي» لم تقصد يومًا أن تسيء إلى أحد. وكنت أعتقد عند تعَثر الأمور، أو عندما كانت تترامى إليَّ أشياء، أن الخطأ يرجع إليها، ولكني أجد الخطأ خطئي عندما أرجع الأمر. ولم يكن ينبغي لي أن أتزوج بها، ولكن ما دام ذلك قد حدث فلا بد أن أبقيها معي ولا أفترق عنها.

ـ منذ متى تزوجتما؟

ـ زهاء ثلاث سنوات.

ـ وماذا قال أهلك عن هذا الزواج؟

ـ لقد قطعوا الصلة بينهم وبيننا. فما علموا أني تزوجت حتى عقدوا ما يشبه مجلسًا عائليًّا، وقاطعونا كلية.

وأخذت «هيلين» تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وقالت بلطف:

ـ يا لها من ورطة يا بُني! ومن هم أهلك هؤلاء؟

كان يستطيع الإجابة على هذا السؤال. فأبواه قد ماتا، وكانا يشتغلان بالتجارة. وتزوجت أختاه بتاجرين متجولين. وكان أخوه قارئًا في الكنائس الأنجليكانية.

ـ وجدودك؟

وصارحها «ليناردِ» بسرٍّ كان يظنه مشينًا إلى الآن. قال:

ـ كانوا لاشيء على الإطلاق؛ فلاحين يعملون في الأراضي، أو شيئًا من هذا القبيل.

ـ أهكذا كانوا؟ ومن أي جهة هم؟

ـ من لنكولنشير غالبًا، ولكن جدي لأمي جاء من حوالي هذه الأنحاء، وهذا غريب.

ـ من شروبشير هذه نفسها. نعم، هذا غريب. أما أهل أمي فكانوا من لانكاشير. ولكن ما اعتراض أخيك وأختيك على السيدة «باست»؟

ـ أوه، لا أدري.

ـ اسمح لي، إنكِ تدري، وما أنا بطفلة. أنا أستطيع أن أحتمل أي شيء تقوله، وكلما زدتني قولًا جعلتني أقدر على معاونتك. أسمعت شيئًا يشينها؟

ولاذ بالصمت.

وقالت «هيلين» في جد شديد:

ـ أظن أني حزرت الآن.

ـ أنا لا أظن أنكِ حزرت يا آنسة «شليجل». أرجو ألا يكون ذلك.

ـ يجب أن نكون أمناء حتى في هذه الأمور. لقد حزرت. وإني لآسفة، آسفة جدًّا جدًّا، ولكن ذلك لن يغير من أمري شيئًا. وسأظل أشعر لكل منكما بنفس الشعور. وأنا ألوم الرجال، لا زوجتك، على هذه الأمور.

وترك «لينارد» الأمر يقف عند هذا الحد، ما دام أنها لم تحزر الرجل. ووقفت إلى جانب النافذة ورفعت مصراعيها. وكان الفندق يطل على ميدان مظلم، والضباب بدأ يحل. وعندما ارتدَّت إليه ثانية كانت عيناها تلمعان.

وقال متوسلًا:

ـ لا تزعجي نفسكِ فأنا لا أطيق ذلك. إننا سنصبح في حال حسنة متى توفر لي عمل. فلو أنني التحقت بعمل، عمل منتظم أقوم به، إذن لما عدنا إلى الحال السيئة. إني لا أشغل بالي بالكتب كما اعتدت من قبل. وأستطيع أن أتصور أن حياتنا ستستقر من جديد متى التحقت بعمل منتظم، فهو يمنع المرء من التفكير.

ـ تستقر على ماذا؟

ـ أوه، تستقر وحسب.

قالت «هيلين» وقد غص حلقها:

ـ وهذه تكون حياة! كيف تستطيع، بغير كل هذه الأشياء الجميلة التي تتوق لرؤيتها وعملها... الموسيقى، والسُّرى في جنح الليل...

فأجاب:

ـ لا بأس بالسُّرى لرجل ملتحق بالعمل. أوه، لقد قلت هراء كثيرًا في يوم من الأيام، ولكن ليس هناك شيء مثل مجيء المُحضر إلى بيتكِ لينتزعه منكِ. وقد بدا لي أني رأيت الحياة على حقيقتها عندما رأيته يتناول بأصابعه كتب «راسكن» و«ستيفنسون»، ولم يكن ما رأيته منظرًا جميلًا، وقد أعيدت إليَّ الكتب ثانية، وتم ذلك بفضلكِ، ولكنها لن تكون في نظري أبدًا كما كانت من قبل، ولن أرى الليل رائعًا وسط الغابات مرة أخرى.

وسألته «هيلين» وقد فتحت النافذة:

ـ لماذا؟

ـ لأني أرى من الضروري أن يكون للمرء مال.

ـ رأيي أنك مخطئ.

ـ وددت لو كنت مخطئًا... إن القس يملك مالًا، وإلا فإنه ينقد أجرًا؛ وكذلك الشاعر والموسيقي؛ ولا يختلف المتشرد عن ذلك، فهو يعود في النهاية إلى ملجأ الفقراء، وينقد مالًا من جيوب الآخرين. يا آنسة «شليجل»، إن المال هو الحقيقة، وما عدا ذلك حلم.

ـ إنك ما زلت على خطأ، فقد نسيت الموت.

ولم يستطِع «لينارد» أن يفهم.

ـ لو أننا مخلدون لكان ما تقوله حقًّا. ولكن لا بد لنا أن نموت، لا بد أن نغادر الحياة قريبًا. إن الظلم والجشع يكونان هما الحقيقة لو أننا نعيش أبدًا. ولكن الواقع أننا مضطرون إلى الاستمساك بأشياء أخرى لأن الموت آتٍ لا ريب فيه. إني أحب الموت، لا حبًّا سقيمًا، ولكن لأنه يفسر الأمور، فهو يريني خواء المال. إن الموت والمال، لا الموت والحياة، هما العدوان الأبديان. دع عنك ما وراء الموت يا سيد «باست»، ولكن ثق أن الشاعر والموسيقي والمتشرد سينعمون بـالموت أكثر مما ينعم به الرجل الذي لم يتعلم قَطُّ أن يقول: «أنا هو أنا».

ـ لا أدري.

ـ إننا جميعًا محوطون بالضباب، أنا أعلم ذلك، ولكني أستطيع أن أسعفك إلى هذا الحد. إن رجالًا كأفراد أسرة «ويلكوكس» غارقون في الضباب أكثر من غيرهم. إنهم رجال إنجليز أصحاء عقلاء! يبنون الإمبراطوريات، يهبطون بالدنيا كلها إلى مستوى واحد، هو ما يسمونه «التفكير السليم». ولكن اذكر لهم الموت تراهم يستاءون، ذلك لأن الموت إمبراطوري حقًّا، وهو لا يكف أبدًا عن الصراخ في وجوههم صراخ الاستهجان.

ـ أنا أخشى الموت كما يخشاه أي إنسان.

ـ نعم، ولكنك لا تخشى فكرة الموت.

ـ ولكن ما الفرق بين الاثنين؟

وقالت «هيلين» في جدٍّ أشد من ذي قبل:

ـ فرق لا حد له.

ونظر «ليناردِ» إليها في عجب، وأحس أن أشياء عظيمة تزحف من الليل المستور، ولكنه لم يستطِع أن يتلقاها لأن قلبه كان لا يزال ممتلئًا بالأشياء الصغيرة. وكما أفسد ضياع مظلته حفلةَ «كوينز هول» الموسيقية، كذلك كان ضياع وظيفته يحجب الآن أنغامًا أسمى وأجل. إن الموت والحياة والمادية كلمات جميلة، ولكن هل يلحقه السيد «ويلكوكس» بوظيفة كاتب؟ ليقُل المرء ما شاء أن يقول، ولكن السيد «ويلكوكس» هو ملك هذه الدنيا، هو الرجل الأسمى الذي له ناموسه الخاص، والذي ظل رأسه في السحاب.

وقال معتذرًا:

ـ لا بد أني غبي.

هذا بينما أخذ ذلك التناقض الظاهري يزداد لـ«هيلين» وضوحًا:

ـ الموت يهلك الإنسان، وفكرة الموت تنقذه.

إن وراء الأكفان والجماجم التي تصدم العقل السوقي يقبع شيء بلغ من ضخامته أن كل ما هو عظيم فينا يتجاوب معه. إن رجال هذا العالم قد ينفرون من مدافن العظام التي سيلجونها يومًا من الأيام، ولكن الحب أدرى منهم. فـالموت عدوه، ولكنه ليس نده، وفي خلال نضالهما السرمدي اشتدت عضلات الحب، وانكشف بصره، فلم يَعُد أحد يستطيع أن يقف ضده.

واستطردت الفتاة قائلة:

ـ لا تستسلم أبدًا إذن.

وظلت تعيد وتعيد فكرتها الغامضة ـ المقنعة مع ذلك ـ القائلة بأن غير المنظور يقف مقابل المنظور. وقد ازداد انفعالها وهي تحاول أن تقطع الحبل الذي يربط «ليناردِ» بالأرض. وقد تأبَّى عليها ذلك الحبل المفتول من خيوط التجربة المريرة. وفي ذلك الحين دخلت الخادمة وأعطتها رسالة من «مارجريت». وكانت هناك رسالة أخرى قصيرة، موجهة إلى «ليناردِ»، داخلها. وقرآهما وهما يُنصتان إلى خرير النهر.

## الفصل الثامن والعشرون

ظلت «مارجريت» بضع ساعات من دون أن تعمل شيئًا، ثم تمالكت زمام نفسها وقامت بتحبير بضع رسائل. وكان في نفسها من الرضوض ما حال دون مخاطبتها لـ«هنري»، ومع ذلك كان في استطاعتها أن ترثي له، بل وتقرر الزواج به. ولكن ذلك كله ظل أبعد غورًا في أعماق قلبها من أن يفصح عنه الكلام. أما فوق السطح فقد كان شعورها بخزيه قويًّا جدًّا. كانت لا تستطيع السيطرة على الصوت أو النظرات، وبدت الكلمات المهذبة التي حملت قلمها غصبًا على كتابتها كأنها صادرة من شخص آخر.

بدأت بقولها:

يا أعز فتى، ليس ما حدث ليفرق بيننا. إنه إما كل شيء، وإما لا شيء. وأنا أرى أن يكون لا شيء. فقد حدث قبل أن نلتقي بزمان، وحتى لو كان قد حدث بعد ذاك فإني كنت سأكتب نفس ما أكتبه الآن. هذا ما أرجوه. وإني لمتفهمة.

ولكنها حذفت عبارة «وإني لمتفهمة»، فقد كان وقعها زائفًا. و«هنري» لا يحتمل أن يتفهمه أحد. وحذفت أيضًا عبارة «إنه إما كل شيء، وإما لا شيء». فـ«هنري» يستاء من مثل هذا الإدراك القوي للحالة. وهي لا يجوز لها أن تعلق، فالتعليق لا يليق بالإناث.

وقالت في نفسها: أظن هذا يكفي تقريبًا.

ثم أطبق على صدرها شعورها بحطته. فهل هو يستحق كل هذا العناء؟ إن استسلامه لامرأة من هذا النوع هو كل شيء. نعم، إنه كذلك، وهي لا تستطيع أن تصير زوجته. وقد حاولت أن تترجم إغراءه إلى لغتها هي فأخذ عقلها يدور. لا بد أن الرجال مختلفون حتى عندما يريدون الخضوع لمثل هذا الإغراء. واختنق إيمانها بالزمالة، ورأت الحياة كما لو كانت تطل عليها من وراء الصالون الزجاجي في عربة سكة حديد «الجريت ويسترن» الذي كان يمنع الهواء النظيف عن الذكور والإناث على السواء. هل الجنسان في الحقيقة سلالتان، لكل منهما قانونه الأخلاقي الخاص، والحب المتبادل بينهما ليس إلا تدبيرًا من الطبيعة للإبقاء على الحياة؟ وإذا جردت المعاشرة الإنسانية من آداب اللياقة، فهي تنحط إلى ذلك الدرك؟ إن حكمها على الأمور أجابها لا. كانت تعرف أننا شيدنا صرحًا سحريًّا من تدبير الطبيعة سيفوز لنا بالخلود. وإذا كان نداء الجنس للجنس سرًّا غامضًا، فإن تلك الرقة

التي نسبغها على ذلك النداء أشد غموضًا منه بكثير. والهوة التي تفصل ما بيننا وبين مزرعة الدواجن أوسع بكثير من الهوة التي تفصل بين تلك المزرعة والنفايات التي تمدها بالغذاء. إننا نتطور بطرق يعجز العلم عن قياسها، إلى غايات لا يجسر اللاهوت على تأملها. ستقول الآلهة: «لقد أنتج الناس حقًّا جوهرة واحدة»، وسيمنحوننا الخلود إذ يقولون ذلك. كانت «مارجريت» تعرف هذا كله، ولكنها لم تشعر به في اللحظة الراهنة، وقد حولت حفلة عُرس «إيفي» والسيد «كاهل» إلى كرنفال للمجانين. أما حفلة عُرسها هي، فأتعس بكثير من أن تفكر فيها. ومزقت الرسالة، ثم كتبت غيرها:

عزيزي السيد «باست»،

لقد حدثت السيد «ويلكوكس» عنك طبقًا لوعدي، ويؤسفني أن أقول إنه لا توجد لديه وظيفة خالية لك.

المخلصة

«م. ج. شليجل»

ووضعت هذا الخطاب طي رسالة كتبتها لـ«هيلين». وبذلت في كتابة هذه الرسالة تعبًا أقل مما كان يصح أن تبذله، ولكن رأسها كان يوجعها، ولم تستطِع أن تتأنق في اختيار ألفاظها:

عزيزتي «هيلين»

أعطِه هذا الخطاب. إن أسرة «باست» لا خير فيها. فقد وجد «هنري» المرأة سكرى في المرجة. وإني قائمة على إعداد غرفة لكِ هنا. وأرجو أن تحضري إثر تسلمكِ رسالتي. إن «باست» وزوجته ليسا من ذلك النوع الذي يستحق أن نزعج أنفسنا من أجله. وقد أذهب إليهما بنفسي صباح غد، وأقوم بأي عمل منصف.

«م»

وشعرت إذ كتبت هذا أنها عملية. وقد يكون في الإمكان تدبير أي شيء لأسرة «باست» فيما بعد، ولكن لا بد من إسكاتهما في الوقت الحاضر. وكانت تأمل أن تحول دون أي مناقشة تدور بين تلك المرأة و«هيلين». ودقت الجرس للخادم، ولكن أحدًا لم يجِبها. لقد أوى السيد «ويلكوكس»

إلى فراشه، وكذلك أفراد أسرة «وارنجتون». وتُرك المطبخ للفوضى العارمة. وعلى ذلك ذهبت إلى فندق «جورج» بنفسها، ولم تدخله لأن المناقشة قد تكون خطرة. وأعطت خادمة الفندق الرسالة قائلة إنها ذات أهمية. ورأت «هيلين» والسيد «باست» يطلان من نافذة قاعة تناول القهوة بينما كانت تجتاز الميدان من جديد، وخشيت أن تكون قد تأخرت جدًّا. بيد أن مهمتها لم تنتهِ بعد إذ يجب أن تُطلع «هنري» على ما قامت به.

وتم ذلك في سهولة لأنها رأته في الردهة، فقد أقلق منامه صوت اصطدام الصور بالحائط إذ كان يعبث بها هواء المساء. ونادى، وقد غلبت عليه صفة صاحب الدار:

ـ من هناك؟

ودخلت «مارجريت»، وسارت حتى تجاوزته، وقالت:

ـ طلبت من «هيلين» أن تنام هنا، فنومها هنا أفضل. ولذا لا تغلق الباب الخارجي.

وقال «هنري»:

ـ ظننت أن شخصًا ما دخل الدار.

ـ وقد أخبرت الرجل في نفس الوقت أننا لا نستطيع معاونته في شيء. ولست أعرف ما قد يحدث فيما بعد، ولكن أسرة «باست» يجب أن تنصرف وتخلي الجو.

ـ هل قلتِ إن أختكِ ستنام هنا رغم ما حدث؟

ـ في الغالب.

ـ أتريدين أن يذهبوا بها إلى غرفتكِ؟

ـ ليس لديَّ بالطبع شيء أقوله لها. سآوي إلى فراشي، وأرجو أن تبلغ الخدم عن مجيئها. وهلا أرسلت من يأتي بحقيبتها؟

ودق ناقوسًا من نحاس اشتُري لمناداة الخدم.

ـ لا بد أن تُحدث لجبًا أشد إذا كنت تريد أن يسمعوك.

وفتح «هنري» الباب فترامت من الممر صيحات وضحكات، وقال عندئذ:

ـ هناك صراخ كثير جدًّا.

وسار صوبه. وصعدت «مارجريت» إلى علو الدار وهي حائرة أتفرح لأنها قابلته أو تأسى. لقد تصرفا كأن شيئًا لم يحدث، وحدثتها أعمق غرائزها أن هذا خطأ. ولا بد من إيضاح في سبيل مصلحته هو.

ومع ذلك، ماذا يمكن للإيضاح أن يكشفه لها؟ تاريخ، ومكان، وبضعة تفصيلات يمكنها أن تتصورها في وضوح تام. والآن وقد زالت الصدمة الأولى، فقد رأت أن هناك كل الأسباب التي مهدت لوجود امرأة كالسيدة «باست». إن حياة «هنري» الباطنية انبسطت أمامها عارية منذ مدة: بلبلته العقلية، وجموده إزاء كل تأثير شخصي، وانفعالاته المستورة رغم قوتها. أترفضه زوجًا لأن حياته الخارجية تطابق حياته الباطنية؟ ربما. ربما يكون ذلك إذا كانت الإهانة قد وجهت إليها هي، ولكنها سبقت عهدها بوقت طويل. وقد ناضلت ذلك الشعور، وقالت لنفسها إن إهانة السيدة «ويلكوكس» إهانة لها أيضًا. ولكنها لم تكن مفكرة من الناحية النظرية العقيمة. وبينما كانت تخلع ملابسها ضعفت حدة غضبها، وضعف كذلك اهتمامها بكرامة المتوفاة، ورغبتها في إثارة ضجة. لا بد لها أن تُسلم بما أراد «هنري»، فهي تحبه، وستستعمل حبها ذات يوم لتجعل منه رجلًا أفضل.

كانت الشفقة تكمن في صميم تصرفاتها خلال هذه الأزمة كلها. والشفقة، إذا أمكن التعميم، تكمن في أعماق المرأة. إن الرجال إذا أحبونا فهذا لصفاتنا الفضلى، ومهما يكن من ضعف حبهم، فإننا لا نجرُؤ أن نكون غير جديرات به، وإلا تركونا وشأننا في هدوء. ولكن نقص الرجل يحفز كوامن المرأة، ويبرز طبيعتها العميقة، إما على الخير وإما على الشر.

هنا لب الموضوع: لا بد من مسامحة «هنري»، ومِن جعلِه خيرًا مما هو بالحب، ولا شيء يهم بعد ذلك. ولا بد مِن تركِ السيدة «ويلكوكس» ـ ذلك الشبح الذي لا يهدأ، ولكنه مع ذلك عطوف ـ لا بد من تركها لإهانتها. لقد أصبح كل شيء متناسبًا في نظرها الآن، وهي أيضًا ستشفق على الرجل الذي كان يتخبط في حياتهما معًا. أكانت السيدة «ويلكوكس» على علم بإثمه؟ سؤال طريف، ولكن «مارجريت» استغرقت في النوم مشدودة إلى حبل محبتها، مهدهدة بخرير النهر الذي ظل ينحدر من ويلز طوال الليل. وقد وجدت نفسها مندمجة في بيتها المستقبلي، تسبغ عليه من نفسها ويسبغ

عليها من نفسه. واستيقظت كي ترى، للمرة الثانية، قلعة أونيتون تقهر ضباب الصباح.

## الفصل التاسع والعشرون

ـ «هنري»، عزيزي...

كانت هذه تحيتها.

وكان قد أتم تناول إفطاره، وبدأ يقرأ صحيفة «التايمز». وشُغلت زوجة أخيه بإعداد حقائبها. وجثت «مارجريت» إلى جانبه، وأخذت منه الصحيفة شاعرة أنها أشد ثقلًا وسُمكًا من المعتاد. ثم وضعت وجهها مكان تلك الصحيفة، ونظرت في عينيه.

ـ «هنري»، عزيزي، انظر إليَّ. أنا لن أسمح لك أن تهرب من نظراتي. انظر إليَّ. هيا. هذا كل ما أردت.

فقال بصوت أجش:

ـ أنتِ تشيرين إلى ليلة أمس. أنا أحللتكِ من ارتباطكِ. لقد كنت أستطيع التماس المعاذير لنفسي، ولكني لن أفعل. لا، وألف مرة لا. أنا إنسان فاسد. ويجب أن أترك عند هذا الحد.

كان السيد «ويلكوكس» يبني قلعة جديدة بعد طرده من قلعته القديمة. إنه لم يَعُد يستطيع أن يبدو بعد ذلك محترمًا في نظرها، ولذا احتمى عوضًا عن ذلك في ماضٍ معتم. إن توبته لم تكن توبة صادقة.

ـ دع الأمر حيث تشاء يا فتى، فهو لن يُعكِّر صفونا. وأنا على بينة مما أقول، ولن يُحدث الأمر فرقًا.

وسألها:

ـ لن يُحدث فرقًا؟ لن يُحدث فرقًا عندما تجدين أني لست الفتى الذي توهمتِه؟

وقد ضايقه هذا من الآنسة «شليجل». وكان يفضل أن تصرعها الضربة، أو على الأقل تغضبها. وطغى ضد عباب إثمه شعور منه بأنها ليست أنثى خالصة. إن عينيها تنظران في خط مستقيم لا يلتوي أبدًا. إنهما، هي وأختها، كانتا تقرآن كتبًا لا تناسب إلا الرجال. وبرغم أنه كان يخشى نشوب عراك

بينهما، وأنها كانت مصممة على تحاشي مثل هذا العراك، فقد وقع مع ذلك ما لم يرغبا فيه. وكان على نحو ما حتميًّا.

وبدأ يقول:

ـ أنا غير جدير بكِ. وما كنت لأحلَّكِ من ارتباطكِ لو أني كنت جديرًا بكِ. وإني أعرف ما أتحدث عنه، ولا أحتمل الحديث عن مثل هذه الأشياء. ويحسن أن ندع هذا الأمر.

وقبلت يده، فجذبها منها. واستطرد وهو ينهض على قدميه:

ـ أنتِ وحياتكِ البعيدة عن المغريات، واهتماماتكِ المهذبة، وأصدقاؤكِ وكتبكِ... أنتِ وأختكِ ومن على شاكلتكما من النساء... خبريني كيف تستطعن أن تحزرن المغريات التي تحيط بالرجل؟

وقالت «مارجريت»:

ـ إن ذلك يصعب علينا، ولكننا نحزره إذا كنا جديرات بالزواج.

ـ ماذا يحدث في ظنكِ لآلاف الفتيان الذين يعيشون في عزلة وراء البحار، وقد انقطعت صلتهم اللائقة بالمجتمع والأسرة، وليس من أحد قريب منهم؟ إني أعرف الأمر بالتجربة المريرة. وأنتِ تقولين مع ذلك: «هذا لا يُحدث فرقًا».

ـ لا فرق في نظري أنا.

وضحك في مرارة. وذهبت «مارجريت» إلى «البوفيه» وتناولت طبقًا من أطباق الإفطار. وأطفأت المصباح الكحولي الذي كان يدفئهم نظرًا إلى أنها آخر من بقي في سُفل الدار. وكانت رقيقة، لكن رصينة. وكانت تعلم أن حديث «هنري» لم يكن اعترافًا بخبيئة نفسه بقدر ما هو إشارة إلى الهوة التي تفصل روح الذكر عن روح الأنثى. ولم تكن ترغب في الاستماع إلى ما يقوله في هذا الصدد.

وسألت:

ـ أحضرَت «هيلين»؟

فهز رأسه نفيًا.

ـ ولكن هذا لا يجدي أبدًا... أبدًا! نحن لا نريدها أن تثرثر مع السيدة «باست».

وقال وهو يعود فجأة إلى حالته الطبيعية:

ـ أجل والله!

ثم كبح نفسه وقال:

ـ دعيهما تثرثران، لقد خسرتُ كل شيء، وإن كنت أشكركِ على إيثاركِ، مع ما لشكري من قيمة ضئيلة.

ـ ألم تبعث لي «هيلين» برسالة أو شيء من هذا القبيل؟

ـ لم أسمع عن شيء.

ـ اقرع الجرس من فضلك.

ـ لماذا؟

ـ لنستعلم بالطبع.

ومشى في تعاظم إلى الجرس وهو يصطنع الحزن، فقرعه قرعة. وصبت «مارجريت» لنفسها بعض القهوة. وأتى الخادم وقال إن الآنسة «شليجل» نامت في فندق «جورج» على ما سمع، فهل يذهب إلى ذلك الفندق؟

وقالت «مارجريت»:

ـ أشكرك. سأذهب أنا.

ثم صرفته. وقال «هنري»:

ـ لا فائدة في ذلك، فهذه الأسرار تتسرب. وأنتِ لا تستطيعين أن تنهي قصة بدأت فصولها. إني أعرف حالات لأشخاص آخرين، كنت أحتقرهم فيما مضى وأظن أني مختلف عنهم، وأنه لا يمكن إغرائي أبدًا. أوه، يا «مارجريت»...

وجاء فجلس على مقربة منها، واصطنع العاطفة. ولم تُطِق الإنصات إليه:

ـ نحن الرجال تتضعضع عزيمتنا مرة في حياتنا. أتصدقين ذلك؟ هناك لحظات يكون فيها أقوى الرجال... «من يظن أنه قائم فلينظر ألا يسقط». هذا حقيقي، أليس كذلك؟ لو أنكِ ملمة بكل شيء لعذرتِني، فإني كنت بعيدًا عن كل تأثير طيب، بعيدًا حتى عن إنجلترا. كنت وحيدًا جدًّا جدًّا، وتواقًا إلى سماع صوت امرأة. هذا يكفي. لقد قلت لكِ حتى الآن أشياء كثيرة جدًّا تكفيكِ لغفران ذنبي.

ـ نعم، هذا يكفي يا عزيزي.

ـ لقد...

وخفض صوته مستطردًا:

ـ لقد عذبني ضميري عذاب الجحيم.

وتأملت دعواه في اهتمام وجدٍّ. أكان في جحيم حقًّا؟ أعانى آلام تعذيب الضمير؟ أم الحقيقة أنه قال لنفسه: «هذا ما كان، وقد انقضى، والآن إلى الحياة المحترمة من جديد»؟ إن الرأي الثاني هو الصحيح إذا صدقت فراستها فيه. إن الرجل الذي عاش في الجحيم لا يتفاخر برجولته، ولكنه يتواضع ويخفيها حتى إذا ظلت موجودة. وفي الأساطير فقط يخرج الآثم تائبًا، ولكن جبارًا، ليغزو المرأة الطاهرة بقوته التي لا تقاوَم. كان «هنري» يتوق إلى أن يصبح جبارًا مخوفًا ولكنه لم يكن يملك ذلك في صميم نفسه. لقد كان إنجليزيًّا طيبًا متوسطًا، زل وأثم. بيد أن نقطة الذنب الحقيقية، وهي خيانته لزوجته الأولى، لم يبدُ أنها خطرت له ببال. وتاقت «مارجريت» إلى أن تذكر له السيدة «ويلكوكس».

ثم روى لها القصة جزءًا فجزءًا. وكانت قصة بسيطة جدًّا. وكان زمانها يرجع إلى عشر سنوات خلت، ومكانها معسكرًا في قبرص. وأخذ يسألها بين وقت وآخر عما إذا كان في إمكانها العفو عنه. وكانت تجيبه بقولها: «لقد عفوت عنك فعلًا يا «هنري»». واختارت ألفاظها بعناية فأنقذته من الفزع. ولعبت دور الفتاة حتى استطاع أن يبني قلعته من جديد ويخبئ فيها نفسه عن العالم. وعندما جاء الخادم ليرفع المائدة، كان «هنري» في حالة نفسية مختلفة اختلافًا كبيرًا. وسأل الفتى عن سبب تعجله، وشكا من الضجة التي وقعت الليلة الماضية في ردهة الخدم. وتفرست «مارجريت» في الخادم. وكان فتى وسيمًا، فاجتذبها قليلًا بحسبانها امرأة، كانت جاذبية ضعيفة إلى حدٍّ غير محسوس، ولكن السماء كانت لتنطبق على الأرض لو أنها حدَّثت «هنري» عنها.

وعندما عادت من فندق «جورج» كانت إجراءات بناء القلعة قد تمت، وواجهها «هنري» القديم قادرًا، وساخرًا، وعطوفًا. لقد اعترف بزلته وتم الصفح عنه. وصار أهم شيء الآن أن ينسى سقوطه ويبعث به إلى حيث بعث باستثماراته غير الموفقة. ولحقت «جاكي» بـ«هواردز إند» و«شارع دوسي»، والسيارة القرمزية، والدولارات الصعبة الأرجنتينية، وجميع الأشياء والأشخاص الذين لم تكن لهم أهمية كثيرة قَطُّ فيما مضى، وصاروا اليوم أقل أهمية. وكانت ذكراهم تعطله. ولم يكَد يستطيع الإصغاء إلى «مارجريت» التي جاءت بأنباء مقلقة من فندق «جورج»، فقد رحلت «هيلين» وعميلاها.

ـ حسنًا، دعيهم يرحلون. أقصد الرجل وزوجته، أما أختكِ فكلما زاد لقاؤنا لها كان ذلك أفضل.

ـ ولكنهم رحلوا متفرقين. رحلت «هيلين» مبكرة جدًّا، وأسرة «باست» قبل حضوري بقليل. ولم يتركوا رسالة، ولم يجيبوا عن الخطابين اللذين كتبتهما. ولا يطيب لي أن أفكر في معنى هذا كله.

ـ وماذا كتبت في خطابيك؟

ـ لقد أخبرتك ليلة أمس.

ـ أوه، آه! نعم، يا عزيزتي. أترغبين في جولة واحدة في الحديقة؟

وتأبطت «مارجريت» ذراعه. وهدَّأ الجو الجميل أعصابها. ولكن عجلات عُرس «إيفي» كانت لا تزال تدور، دافعة الضيوف إلى الخارج بنفس القدرة التي جذبتهم بها إلى الداخل، ولم تستطِع «مارجريت» أن تطيل مكثها معه. وكان الاتفاق قد تم على أن يرحلوا بالسيارة حتى شروزبري، ومن ثم يتجه هو شمالًا، وتعود هي مع أسرة «وارنجتون» إلى لندن. ونعمت بالسعادة لحظة من الزمن، ثم أخذ ذهنها يكدُّ من جديد.

ـ أخشى أن تكون شائعات من نوعٍ ما قد انتشرت في فندق «جورج»، فما كانت «هيلين» لتغادره لولا أنها سمعت شيئًا. أنا لم أحسن سياسة الأمر. إنه موقف نكِد. كان يجب أن أبعد بها عن تلك المرأة على الفور.

وصاح وقد سحب ذراعه بطريقة مؤثرة:

ـ «مارجريت»!

ـ نعم... نعم يا «هنري»؟

ـ لست قديسًا، بل الواقع أنني عكس ذلك. ولكنكِ قبِلتِني على حسناتي وسيئاتي. وما فات مات. لقد وعدتِ أن تصفحي عني، ووعد الحر دين عليه يا «مارجريت». لا تذكري هذه المرأة مرة أخرى أبدًا.

ـ لن أذكرها أبدًا. إلا إذا كان ذلك لسبب عملي.

ـ عملي! أنتِ عملية!

وغمغمت مُقعِيةً على آلة حز الحشائش، وعابثة بالفضلات المقطوعة التي كانت تنساب من بين أصابعها كالرمال:

ـ نعم، أنا عملية.

لقد أسكتها، ولكن مخاوفها أقلقته، كان في خطر من أن يستغل «باست» وزوجه السر لابتزاز ماله، ولم تكن هذه أول مرة يُهدَّد فيها بابتزاز ماله. إنه غني، والمفروض أنه قويم الخلق، بيد أن أسرة «باست» تعلم أنه ليس كذلك، وقد تجد أن التلميح بإفشاء السر يمكن أن يعود عليها بالربح.

وقال:

ـ يجب ألا تشغلي بالكِ على أي حال، فهذه مهمة من مهام الرجال.

وفكر بإمعان واستطرد:

ـ ولا تذكري الأمر لأحد مهما كانت الأسباب.

واصطبغ وجه «مارجريت» لهذه النصيحة البدائية جدًّا، ولكنه كان في واقع الأمر يمهد الطريق لأكذوبة. فهو في حالة الضرورة سوف ينكر معرفته بالسيدة «باست» بتاتًا، ويقاضيها بتهمة القذف، ولعله لم يعرفها قَطُّ، فها هي ذي «مارجريت» تتصرف كما لو أنه لم يعرف تلك المرأة فعلًا. وها هو ذا المنزل، وحولهما ستة من البستانيين يقومون بتنظيف الحديقة بعد عُرس ابنته. فكل شيء على جانب كبير من المتانة والأناقة حتى إن الماضي انحسر عن النظر كأنه ستار رُفِع، ولم يترك غير الدقائق الخمس الأخيرة مستورة.

ورأى وهو يرمق هذه الدقائق الأخيرة أن السيارة ستحضر في غضون الدقائق الخمس التالية، واندفع إلى العمل. ودقت الأجراس، وصدرت الأوامر. وأرسلت «مارجريت» لارتداء ملابس الخروج، والخادمة لكنس خط الحشائش التي خلفتها «مارجريت» بعرض الردهة. كان عقل السيد «ويلكوكس» بالنسبة لعقول بعض الناس كالإنسان بالنسبة للكون، فعقله عبارة عن ضوء مُركَّز على بقعة صغيرة جدًّا، أشبه بعشر دقائق صغيرة تتحرك منطوية على ذاتها خلال السنين المعينة لها. إن السيد «ويلكوكس» الوثني الذي يعيش للحظة الراهنة، والذي قد يكون أبعد حكمة من جميع الفلاسفة، إنما هو يعيش للدقائق الخمس الفائتة، وللدقائق الخمس المقبلة. إن له عقلية رجل الأعمال.

وكيف حاله الآن بعدما انسلت السيارة من أونيتون وأخذت تواجه التلال الكبيرة المستديرة؟ لقد سمعت «مارجريت» شائعة ما، ولكنها تصرفت بحكمة، وصفحت عنه. بارك الله فيها. وشعر لذلك بازدياد رجولته. ولم يسمع «تشارلز» و«إيفي» بها، ويجب ألا يسمعوا بها أبدًا. وكذلك يجب ألا يسمع بها «بول». كان يشعر بحنان كبير لأولاده، ولم يحاول أن ينقب عن سببه. أما السيدة «ويلكوكس» فكانت تقف في مؤخرة بعيدة من حياته، وهو لم يربط بصلة بينها وبين حبه المفاجئ الموجع لابنته «إيفي». مسكينة «إيفي» الصغيرة! إنه واثق أن «كاهل» سيكون لها زوجًا كريمًا.

و«مارجريت»؟ ما حالها الآن؟

كانت لها متاعب صغيرة عديدة، من الواضح أن أختها سمعت شيئًا. وقد خشيت مقابلتها في المدينة. وكانت مشغولة البال على «لينارد»، فهي وأختها لا شك مسؤولتان عما حدث له. ثم ينبغي ألا تموت السيدة «باست» جوعًا. ولكن الموقف الرئيسي لم يتغير، فهي لا تزال تحب «هنري». إن أعماله، من دون فطرته، قد خيبت أملها، وهي تستطيع احتمال ذلك. ثم إنها أحبت بيتها المستقبلي. وقد كرَّت ببصرها، وأطالت النظر في انفعال عميق إلى أونيتون وهي واقفة في السيارة عند المكان الذي قفزت إليه منذ يومين. واستطاع بصرها أن يتبين، إلى جانب الضيعة وبرج القلعة، بناء الكنيسة، وسقف فندق «جورج» الهرمي الذي اختلط فيه اللونان الأسود والأبيض. وكان هناك الجسر والنهر الذي يقضم شبه الجزيرة الخضراء. وقد استطاعت أن ترى حتى كشك الاستحمام، ولكنها عندما كانت تبحث ببصرها عن لوح القفز الجديد الخاص بـ«تشارلز» ارتفعت جبهة التل، وأخفت المنظر جميعه.

ولم ترَ ذلك المنظر مرة ثانية. فالنهر يظل ليل نهار ينحدر إلى إنجلترا، والشمس ترتد يومًا بعد يوم إلى جبال ويلز. وأجراس القلعة تجلجل: «انظر إلى البطل الغازي». ولكن آل «ويلكوكس» ليس لهم نصيب في هذا المكان، ولا في أي مكان آخر، وليست أسماؤهم هي التي تتواتر في سجل كنيسة البلدة. وليست أرواحهم هي التي تتنهد بين شجر الحور في الأمسيات. لقد هبوا مقتحمين الوادي، وهبوا مدبرين عنه، وخلفوا وراءهم قليلًا من الغبار ومن النقود.

## الفصل الثلاثون

كان «تيبي» يقترب من نهاية عامه الأخير في «أكسفورد». وقد انتقل من مسكنه في الكلية، وأخذ يتأمل العالم، أو الجزء الذي يهمه فيه، من مسكنه المريح في لونج ول. ولم يكن يهتم بالشيء الكثير منه. فالشاب إذا لم يكابد عناء العواطف المشبوبة، وكان صادقًا في عدم مبالاته بالرأي العام، لا بد أن تكون نظرته للعالم محدودة. ولم يكن «تيبي» يرغب في دعم مركز الأغنياء، أو تحسين حال الفقراء، وعلى ذلك أمتعه أن يرقب أشجار الغرغار وهي تومئ وراء أسوار «المجدلية» التي أعدت للدفاع إعدادًا بسيطًا. إن هناك أناسًا يحيون حياة أسوأ من حياة «تيبي». لم يكن قَطُّ قاسيًا برغم أنه كان أنانيًّا. ولم يكن دعيًّا برغم أنه كان متكلفًا في سلوكه. وقد أشبه «مارجريت» في ازدرائه بالصفات البطولية. ولم يكن الناس يكتشفون أن الفتى «شليجل» على خلق، وعلى ألمعية فكرية إلا بعد تعدد زياراتهم له. وقد تفوق في اللغات الحديثة تفوقًا أثار دهشة الذين واظبوا على المحاضرات، وتدربوا كما يجب، وأخذ ينظر الآن باحتقار إلى اللغة الصينية على أساس أنه قد يقبل في يوم ما أن يؤهل نفسه طالبًا مترجمًا. ودخلت عليه «هيلين» وهو مشغول بهذا. وكانت هناك برقية قد سبقتها.

ولاحظ، على نحو غامض، أن أخته تغيرت. وكان يراها عادة صريحة جدًّا. ولم يصادف بصره قَطُّ تلك النظرة المستنجدة، العاطفية، ولكن في وقار. نظرة أشبه بنظرة النوتي الذي فقدَ كل شيء في البحر. وبدأت تقول:

ـ لقد جئت من أونيتون، وكانت هناك متاعب كثيرة جدًّا.

وقال «تيبي» وهو يلتقط النبيذ الذي وُضع فوق المدفأة لتسخينه:

ـ من يتناول معي الغداء؟

وجلست «هيلين» إلى المائدة مستسلمة.

ثم سأل:

ـ لماذا بدأت رحلتك في مثل تلك الساعة المبكرة؟

ـ رحلت عند الشروق تقريبًا. عندما استطعت الرحيل.

ـ هذا ما خمنته، ولماذا؟

ـ لست أدري ماذا أصنع يا «تيبي». لقد أزعجني خبر يتعلق بـ«مارجريت»، ولست أريد أن أواجهها، ولن أذهب إلى «ويكهام بليس». وقد مررت بك لأنبئك بهذا.

وجاءت صاحبة المنزل تحمل شرائح من ضلع الضأن. ووضع «تيبي» علامة بين صفحات كتاب النحو الصيني، وأقبل على مساعدتهما. وكانت «أكسفورد» ـ «أكسفورد» العطلة ـ تحلم ويحفُّ حفيفها في الخارج. وأحيطت النار القليلة في الدار بغشاء رمادي حيثما لامستها الشمس. وواصلت «هيلين» سرد قصتها العجيبة:

ـ بلِّغ «ميج» أشواقي، وخبرها أني أريد أن أُترَك وحدي. وأنا أنوي الذهاب إلى ميونخ أو إلى بون.

وقال أخوها:

ـ مثل هذه الرسالة سهلة الإبلاغ.

ـ ولك أنت و«ميج» أن تفعلا ما تشاءان بـ«ويكهام بليس» وما يحوي من أثاث. وشعوري الخاص أنه يحسن بيع كل شيء، فماذا يفيد الإنسان من كتب معفَّرة في علم الاقتصاد عجزت عن تحسين حال العالم، ومن خزائن الملابس القبيحة التي كانت ملكًا لأمي؟ ثم إن عندي مهمة أخرى لك، وهي أن تقوم بتسليم خطاب...

ونهضت، واستطردت:

ـ أنا لم أكتبه بعد. ومع ذلك لماذا لا أرسله بطريق البريد؟

وعادت فجلست.

ـ إن رأسي مكدود. أرجو ألا يحضر أحد من أصدقائك.

وأرتج «تيبي» الباب. وكان أصدقاؤه يجدون بابه على تلك الحال غالبًا. ثم سأل عما إذا كان قد وقع أمر في حفل زواج «إيفي».

وقالت «هيلين»:

ـ لم يقع هناك.

وانفجرت باكية.

وكان يعرفها «مهسترة» ـ وتلك ناحية من نواحيها التي لا تهمه ـ ولكن هذه الدموع مسته لأنها غير عادية. لقد كانت أقرب إلى الأشياء التي تهمه؛ كالموسيقى. ووضع سكين المائدة، ونظر إليها في غرابة. وعندما واصلت نشيجها، واصل هو تناول طعامه.

وجاء دور الصنف الثاني من الطعام وهي لا تزال تبكي. وكانت فطيرة من التفاح ستعقب ذلك، وهي إذا تأخر أكلها فسد طعمها. وسأل «تيبي» أخته:

ـ أتسمحين بدخول السيدة «مارتليت»؟ أم أتناولها منها عند الباب؟

ـ أأستطيع أن أغسل عيني يا «تيبي»؟

وأدخلها غرفة نومه. وأذن بدخول الفطيرة في غيبتها. وبعد أن تناول وجبته منها، وضعها فوق المدفأة لتظل ساخنة. ومد يده إلى كتاب النحو، ولم يلبث أن قلَّب صفحاته وهو يرفع حاجبيه في سخرية. ولعل سخريته كانت من الطبيعة البشرية أو من اللغة الصينية. وعادت إليه «هيلين» وهو على هذه الحال. وكانت قد استعادت جأشها. ولكن نظرة التوسل الجادة البادية في عينيها لم تتبدد. وقالت:

ـ والآن إلى الإيضاح. لماذا لم أبدأ به؟ إني وقفت على أمر يتعلق بالسيد «ويلكوكس»، فقد تصرف تصرفًا ممعنًا في الخطأ، ودمر حياة إنسانين. وفاجأني كل ذلك ليلة أمس، أنا في أشد الاضطراب، ولا أعرف ماذا أصنع. إن السيدة «باست»...

ـ أوه، هذه الأسرة!

وبدا كأن قوله أسكت «هيلين».

ـ أأوصد الباب من جديد؟

ـ لا، شكرًا يا «تيبيكنز». أنت طيب جدًّا معي، وأريد أن أقص عليك الحكاية قبل رحيلي إلى الخارج. لا بد أن تصنع بها ما تشاء، وتعتبرها كما لو كانت جزءًا من أثاث المنزل. لا يمكن أن تكون «مارجريت» قد سمعت بها، على ما أظن، ولكني لا أستطيع أن أواجهها وأقول لها إن الرجل الذي ستتزوجه قد سلك سلوكًا مشينًا، بل لست أدري حتى أينبغي إخبارها بذلك. وهي

ستشك في صدق قولي لعلمها بأني لا أميل إليه، وستظن أني أريد أن أفسد خطبتها. وكل ما في الأمر أني لا أدري ماذا أصنع في هذا. وأنا أثق في رأيك. ماذا كنت تفعل أنت؟

وقال «تيبي»:

ـ أفهم من هذا أن كانت له عشيقة.

واحمر وجه «هيلين» خزيًا وغضبًا.

ـ ودمر حياة إنسانين. وهو يزعم أن الأفعال الشخصية لا قيمة لها، وأنه سيظل هناك أغنياء وفقراء على الدوام. لقد قابلها عندما كان في قبرص يحاول أن يجمع ثروة. وأنا لا أريد أن أصوره بأسوأ مما هو، ولا مراء أنها كانت على استعداد كافٍ للقائه، ولكن هاك ما حصل، لقد تقابلا. ثم تذهب هي إلى سبيلها، ويذهب هو إلى سبيله. وماذا يكون مصير مثل هؤلاء النساء في ظنك؟

فوافق على أنه كان أمرًا سيئًا.

ـ إنهن ينتهين على إحدى حالين. فإما أن يسقطن حتى تمتلئ بهن مستشفيات المجانين وملاجئ الفقراء، وهذا يدعو السيد «ويلكوكس» إلى كتابة الرسائل للصحف شاكيًا انحلالنا الوطني، وإما أن يتصيدن أحد الفتيان زوجًا لهن قبل فوات الأوان، وهي... أنا لا أستطيع أن ألومها.

واستطردت القول بعد فترة صمت طويلة قدمت لهما ربة المنزل القهوة خلالها:

ـ ولكن ليس هذا كل شيء، فقد آن لي أن أتحدث عن الأمر الذي حملنا على الذهاب إلى أونيتون. إننا ذهبنا نحن الثلاثة. وعملًا بنصيحة السيد «ويلكوكس» ترك الفتى وظيفة مأمونة، والتحق بأخرى غير مأمونة لم يلبث أن طُرد منها. وهناك أعذار معينة، ولكن اللوم يقع أولًا على السيد «ويلكوكس»، وقد سلمت «ميج» نفسها بذلك. والعدل العام يقتضي أن يقوم هو نفسه بتوفير وظيفة لهذا الرجل. ولكنه يقابل المرأة، ويرفض معاونتهما، وهو ما يُنتظر من وغد مثله، ويحاول التخلص منهما. ويحمل «ميج» على الكتابة. ووصلت منها رسالتان في ساعة متأخرة من ذلك المساء: واحدة لي، وواحدة لـ«لينارد» تصرفه فيها دونما سبب. ولم أستطِع فهم ذلك. ثم ظهر أن السيدة «باست» حادثت السيد «ويلكوكس» وهي في

المرجة بعد أن غادرناها هناك لنستأجر غرف الفندق. وعندما عاد إليها «ليناردد» كانت لا تزال تتحدث عن ذلك السيد. وكان «ليناردد» على علم بهذا كله، ورأى أن من الطبيعي أن يدمَّر مرتين. من الطبيعي! أكنت تستطيع أن تتمالك نفسك في موقف كهذا؟

وقال «تيبي»:

ـ لا شك أن هذا أمر سيئ للغاية.

وبدا أن رده هدَّأ بال أخته.

ـ خشيت أن أكون قد هولت الأمر. ولكنك خارجه تمامًا، وتستطيع أن تحكم. اتخِذ من الخطوات ما تراه مناسبًا، وذلك في غضون يوم أو يومين، أو ربما أسبوع. إني أترك الأمر بين يديك.

واختتمت بذلك اتهامها ثم أضافت:

ـ إن جميع الوقائع التي تمس «ميج» مطروحة أمامك.

وتنهد «تيبي»، ووجد من القسوة أن يدرج في سجل المحلفين، نظرًا لتحرر عقله، إنه لم يهتم قَطُّ بالآدميين، وهو لا بد يلام على ذلك، ولكن كان لديه منهم أكثر من الكثير في «ويكهام بليس». وكما أن بعض الناس لا ينصتون عندما يجري الحديث عن الكتب، كذلك يسرح بال «تيبي» عندما يدور النقاش حول «العلاقات الشخصية». أينبغي أن تعلم «مارجريت» بما علمت «هيلين» وبما كان آل «باست» يعلمونه؟ إن الأسئلة المماثلة لهذا السؤال كانت تضايقه منذ صغره. وقد تعلم في «أكسفورد» أن يقول إن الإخصائيين قد بالغوا مبالغة كبيرة في تقدير أهمية الآدميين. والنكتة، بما يفوح منها من رائحة ثمانينيات القرن التاسع عشر الخفيفة، لا تعني شيئًا. ولكنه كان سيطلقها الآن لو لم تكن أخته جميلة دائمًا.

ـ «هيلين»، خذي سيجارة. أنا لا أتبين الشيء الذي عليَّ أن أقوم به.

ـ إذن، لا شيء هناك يمكن عمله. ولعلك على صواب. دعهما يتزوجان وستبقى هناك مسألة التعويض.

ـ أتريدينني أن أحكم في هذا أيضًا؟ أليس من الأفضل أن تستشيري خبيرًا؟

وقالت «هيلين»:

ـ هذا الجانب سِر بيننا، وليست له علاقة بـ«ميج»، فلا تذكره لها. والتعويض، أنا لا أرى من يدفعه إذا لم أدفعه أنا. وقد استقر رأيي على أدنى حد لمبلغه. وسأدفع هذا المبلغ في حسابك الجاري في أقرب وقت ممكن على أن تدفعه نيابة عني بينما أكون في ألمانيا. ولن أنسى عطفك عليَّ أبدًا إذا قمت بهذا يا «تيبيكنز».

ـ وما مقدار المبلغ؟

ـ خمسة آلاف.

وقال «تيبي» وقد صار وجهه في لون القرمز:

ـ يا إلهي الحي!

ـ قل لي ما فائدة «تنقيط» الفقراء بالصدقات؟ على المرء أن يختم حياته وقد قام بعمل واحد، وهو رفع إنسان من الهوة السحيقة: لا تلك الهبات التافهة، هبات الشلنات والأغطية التي تزيد الأشياء الكئيبة كآبة. لا شك أن الناس سيظنونني شاذة.

وصاح «تيبي»، وقد تحمس فأصبحت في ألفاظه رجولة غير عادية:

ـ أنا لا أهتم فتيلًا بما يراه الناس! ولكن هذا القدر يبلغ نصف ما تملكين.

ـ يكاد لا يبلغ نصفه.

وبسطت يديها فوق حِجر ردائها المتسخ، واستطردت:

ـ أنا أملك ما يزيد على ذلك بكثير. وقد استقر رأينا في تشيلسي خلال الربيع الماضي على أنه لا بد للرجل من دخل سنوي يبلغ ثلاثمائة جنيه ليتمكن من الوقوف على قدميه. وما أعطيه اليوم سَيدر دخلًا لاثنين من الناس يبلغ مائة وخمسين جنيهًا وهذا لا يكفي.

ولم يستطِع أن يستعيد جأشه. إنه لم يغضب. بل حتى لم يُصدم. وقد رأى أنه ستظل لدى «هيلين» وفرة من المال تعيش عليها. ولكن أدهشه أن يرى ما يستطيع الأناس المصنوعون من القش أن يفعلوه بحياتهم. ولم تسعفه

نبراته الرقيقة، وكل ما استطاع أن ينفثه هو أن مبلغ الآلاف الخمسة من الجنيهات تعني إزعاجًا شديدًا شخصيًّا.

ـ أنا لم أتوقع منك أن تفهمني.

ـ أنا؟ أنا لا أفهم أحدًا.

ـ ولكنك ستؤدي ما طلبته منك؟

ـ يبدو ذلك.

ـ إني أعهد إليك إذن بمهمتين، أولاهما تتعلق بالسيد «ويلكوكس»، وعليك أن تستعين فيها بحكمتك. وثانيتهما تتعلق بالمال، وينبغي ألا يذكر أمرها لأحد، وأن تنفذ حرفيًّا. وعليك أن ترسل مائة جنيه غدًا تحت الحساب.

وسار معها إلى المحطة مارَّين بتلك الشوارع التي لم يبلبله قَطُّ جمالها المحتشد ولم يرهقه. إن ذلك المخلوق البديع شيد القباب والأبراج ورفعها إلى القبة الزرقاء الصافية. وكان مركز السوقية الذي تجَمع حول حي كارفاكس هو وحده الذي أظهر كم كان هذا المخلوق الرقيق إلى زوال، وأن دعواه أنه يمثل إنجلترا ضعيفة. ولم تلاحظ «هيلين» شيئًا من ذلك وهي تعيد ذكر مهمتها. فأسرة «باست» كانت تحتل ذهنها. وقد عادت فسردت حكاية الأزمة بطريقة تأملية كان يمكن أن تستثير فضول رجال آخرين. كانت تريد أن تعرف هل هي حكاية معقولة، وسألها أخوها مرة عما حملها على اصطحاب أسرة «باست» إلى صميم عُرس «إيفي» رأسًا. وتوقفت كما يتوقف الحيوان المرتعب وقالت:

ـ أهذا يبدو لك غريبًا؟

وظل منظر عينيها، ويدها وهي تضعها على فمها فزعة، يلازمه حتى أنساه إياه تمثال القديسة مريم العذراء الذي قد وقف أمامه هنيهة وهو في طريق عودته إلى داره.

ويجدر بنا أن نتتبعه وهو يقوم بأداء ما كُلف به. استدعته «مارجريت» في اليوم التالي وقد أفزعها فرار «هيلين». واضطر أن يخبرها بأنها زارته بمسكنه في «أكسفورد». فقالت بعد ذلك:

ـ أبدَا عليها أنها مشغولة البال بشائعةٍ ما سمعتها عن «هنري»؟

وأجابها:

ـ نعم.

وصاحت:

ـ كنت أعلم أن هذا هو السبب! سأكتب لها.

وأحس «تيبي» الفرج.

ثم أرسل الشيك إلى العنوان الذي ذكرته له «هيلين». وذكر أن تعليمات وصلت إليه تقضي بأن يبعث بعد ذلك بخمسة آلاف من الجنيهات. وجاء رد جم الأدب، هادئ اللهجة. ردٌّ كان «تيبي» نفسه قمينًا أن يكتب مثله. لقد أعيد الشيك، ورفضت الهبة، وقال كاتب الرد إنه في غير حاجة لمال. وقد بعث «تيبي» هذا لـ«هيلين» وهو يضيف قوله الصادر من صميم قلبه إن «لينارد باست» يبدو على أي حال شخصًا عظيمًا بعض الشيء. وجاء رد «هيلين» هائجًا مائجًا: كان عليه ألا يعبأ بالرد، ويذهب على الفور ويقول إنها تأمر بقبول المبلغ. وذهب، ووجد حثالة من الكتب وأواني الصيني في انتظاره. كان «باست» وزوجته قد طُردا على التو من دارهما لعجزهما عن دفع الإيجار، وهاما على وجهيهما حيثما لا يعلم إنسان. وكانت «هيلين» قد بدأت تتصرف في مالها كيفما اتفق، حتى إنها باعت أسهمًا في شركة «سكة حديد نوتنجهام وداربي». وسلخت بضعة أسابيع من دون أن تعمل شيئًا، ثم أخذت تستثمر مالها من جديد. وأصبحت بفضل نصيحة سماسرتها في البورصة أغنى مما كانت.

## الفصل الحادي والثلاثون

للمنازل أساليبها الخاصة في الموت، فهي تتهاوى على أشكال متنوعة كما تتهاوى أجيال الرجال. فبعضها يهلك في ضجة فاجعة، وبعضها في هدوء، ولكن إلى حياة جديدة في مدينة الأشباح، بينما في بعضها الآخر تتسلل الروح من الجسد قبل هلاكه. وعلى هذا النحو الأخير كانت وفاة «ويكهام بليس». لقد انحلَّ في الربيع، وسبَّب للفتاتين تحللًا أشد مما تعلمان، وحمل كلًّا منهما على أن تأتلف بمناطق غير مألوفة لها. وما وافى سبتمبر حتى كان جثة هامدة؛ خلوًّا من المشاعر والأحاسيس، تكاد لا تقدسها ذكريات ثلاثين عامًا من السعادة. ومن خلال بابه المقوس من أعلاه مرت الأمتعة واللوحات والكتب إلى أن فرغت الغرف حتى آخر غرفة، وقعقعت عربات النقل مبتعدة حتى آخر عربة. وظل البيت قائمًا مدة أسبوع أو أسبوعين آخرين، مفتَّح العين، حتى لكأنه في دهشة من فراغه. ثم تهاوى. جاء العمال وشيعوه محطمًا إلى الفناء، ولم يكونوا بعضلاتهم، وخلقهم المرح النشوان، أسوأ «الحانوتية» لمنزل كان على الدوام آدميًّا، ولم يخطئ الثقافة فيحسبها الغاية الأخيرة.

وتم إرسال الأثاث، مع استثناءات قليلة، إلى هرتفوردشير، إذ تلطف السيد «ويلكوكس» كل التلطف، وعرض «هواردز إند» مخزنًا له. كان السيد «برايس» قد مات في الخارج ـ وهذه مسألة غير مرضية ـ وإذ بدا أنه لم يَعُد هناك إلا ضمان قليل لدفع قيمة الإيجار بانتظام ألغى السيد «ويلكوكس» العقد، واستعاد حيازة المنزل من جديد. ورحب بأن تقوم أسرة «شليجل» بتخزين أثاثها في الجراج والغرف السفلية إلى أن يعيد تأجير البيت. وترددت «مارجريت»، ولكن «تيبي» قبِل العرض في سرور لأنه أنقذه من اتخاذ أي قرار بشأن المستقبل. وقد وجدت أواني المائدة الفضية، واللوحات ذات القيمة، مكانًا في لندن أوفر صيانة لها. أما جملة الأثاث فقد وجد طريقه إلى الريف حيث عهد به إلى الآنسة «أفري».

وقبيل الانتقال من «ويكهام بليس» تزوج بطلنا وبطلتنا، ولقد تغلبا على العاصفة، ولهما أن يتوقعا السلام توقعًا معقولًا. وهل هناك ضمان، يمكن أن تجده المرأة، أقوى من أن تحب من دون أن تكون نهبًا للأوهام؟ لقد اطلعت على ماضي زوجها كما اطلعت على سريرته. وقد عرف سريرتها كذلك معرفة دقيقة شاملة يعتقد الناس العاديون أنها مستحيلة. وظلت سريرة السيدة «ويلكوكس» وحدها متوارية، ولعله يكون انسياقًا وراء الخرافة أن يرجم الإنسان بشعور الميت. لقد تزوجا في هدوء، في هدوء حقيقي، إذ إنها

رفضت، وقد اقترب يوم الزفاف، أن تمر بتجربة «أونيتون» مرة أخرى. وسلمها أخوها ليد عريسها، وأشرفت خالتها، ولم تكن تتمتع حينذاك بصحتها، على توزيع بعض المرطبات البسيطة. وقام «تشارلز» الذي كان شاهِدَ عقد الزواج، بتمثيل أسرة «ويلكوكس»، وكذلك مثَّلها السيد «كاهل» وأرسل «بول» برقية تهنئة. وأحالهما القس إلى زوج وزوجة في بضع دقائق، ودون الاستعانة بالموسيقى. وانسدل الحاجز الزجاجي الذي يفصل بين الزوجين والعالم. وقد أسفت هي التي لا تعتنق تعدد الأزواج، أسفت لتوقف بعض روائح الحياة البريئة عن الهبوب. أما هو الذي تحب غرائزه تعدد الزوجات فقد أحس أن هذا التغير نشَّطه معنويًّا، وأصبح أقل عرضة للمغريات التي كانت تهاجمه فيما مضى.

وقضيا شهر العسل بالقرب من إنزبروك. وكان «هنري» يعرف فندقًا يمكن الركون إليه هناك. وأمَّلت «مارجريت» أن يتم لقاء بينها وبين أختها. وخاب أملها في ذلك، فهما إذ أقبلا جنوبًا تراجعت «هيلين» وراء ممر «برنير»، وأرسلت بطاقة بريد غير مُطَمْئنة من شواطئ بحيرة جاردا قالت فيها إن خطط تنقلاتها غير مؤكدة، والأفضل تجاهل وجودها، ولم يخفَ أنها كرهت لقاء «هنري». إن شهرين من الزمن يكفيان ولا ريب ليعتاد غريبٌ حالةً قبِلتها زوجةٌ في يومين، وكان على «مارجريت» أن تأسف مرة ثانية لعجز أختها عن تمالك نفسها. وقد كتبت خطابًا مطولًا أشارت فيه إلى أن الشؤون الجنسية تحتاج إلى السماحة، فالذي يُعرف عنها قليل جدًّا، ومن الصعب على من مسَّهم الأمر شخصيًّا أن يحكموا؛ فكم إذن يكون حكم المجتمع عقيمًا!

أنا لا أقول إنه ليس هناك مقياس، لأن ذلك يقضي على الأخلاق، وكل ما أقوله إنه لا يمكن أن يكون هناك مقياس حتى تُصنَّف نوازعنا، وتفهم على نحو أفضل.

وشكرتها «هيلين» على خطابها اللطيف؛ وهو رد فيه شيء من الغرابة. ورحلت إلى الجنوب ثانية، وتحدثت عن قضاء الشتاء في نابولي.

ولم يأسف السيد «ويلكوكس» لخيبة مسعى اللقاء، وتركت له «هيلين» وقتًا كافيًا لاندمال جراحه. وكانت هناك لحظات ظلت هذه الجراح تؤلمه فيها. وهو لو علم من قبل بأن «مارجريت» مقسومة له، «مارجريت» مفرطة الذكاء والحيوية، والمستسلمة كل الاستسلام برغم ذلك، لو علم بهذا لصان نفسه حتى يكون أجدر بها. ونظرًا لعجزه عن تصنيف ماضيه، خلط بين قصة «جاكي» وقصة أخرى وقعت حوادثها أثناء عزوبته، وأصبحت كلتاهما جَنًى

واحدًا لخطايا شبابه. وقد أسف قلبيًّا على ذلك، ولم يفطن إلى أن هذه الخطيئة الأخيرة أشد حلكة لأن لها جذورًا تتصل بعار إنسان آخر. إن عدم العفة والخيانة الزوجية كانا مختلطين في ذهنه اختلاطهما في أذهان أهل القرون الوسطى التي كان يتلقن عنها وحدها قواعد الأخلاق. إن «روث» ـ «روث» الزوجة القديسة المسكينة ـ لم تدخل في تقديره قَطُّ، لأنها لم تكشفه في يوم من الأيام.

وازدادت مودته لزوجته الحالية باطراد، فإن ذكاءها اللامع لم يسبب له المتاعب، بل كان يعجبه أن يراها تقرأ الشعر أو شيئًا عن المشكلات الاجتماعية، وقد ميزها هذا عن زوجات الرجال الآخرين. وما كان عليه إلا أن ينادي فتطوي الكتاب مستعدة لإجابته إلى ما يريد. وكانا يتناقشان مناقشة لطيفة. وقد ضيقت عليه الخناق في النقاش مرة أو مرتين، ولكنها كانت تُسلِّم برأيه حالما يجدُّ جدَّه. إن الرجل خلق للحرب، وخلقت المرأة للترويح عن المحارب، ولكن «هنري» لم يكن يكره أن يراها تتخذ مظهر القتال. وهي لا تستطيع الظفر في معركة حقيقية لأنها لا تملك العضلات، بل تملك الأعصاب وحدها والأعصاب تحملها على القفز من سيارة منطلقة، أو رفض الاحتفال بزواجها احتفالًا عصريًّا. والمحارب قد يسمح لها عن طيب خاطر بالانتصار في مثل هذه المناسبات لأنها لا تقلقل الأساس الدائم للأشياء التي تمس راحة باله.

وأصيبت «مارجريت» بنوبة شديدة من نوبات تلك الأعصاب خلال شهر العسل. فقد أنبأها ـ عرضًا، كما هي عادته ـ أنه أجَّر «أونيتون جرانج». وأظهرت ضيقها، وسألته في شيء من الغضب، لماذا لم يستشِرها. وأجاب:

ـ أنا لم أشأ أن أزعجكِ. وفضلًا عن ذلك فإن الأمر لم يتأكد إلا صباح اليوم.

وقالت «مارجريت» وهي تحاول أن تضحك:

ـ وأين سنقيم؟ إني أحببت ذلك المكان حبًّا فوق المعتاد. ألا تؤمن بأن يكون للإنسان بيت دائم يا «هنري»؟

وأكد لها أنها أساءت فهمه، فحياة البيت هي التي تميز الإنجليز عن الأجانب، ولكنه لا يؤمن بالسكنى في بيت رطب.

ـ هذا خبر جديد، فأنا لم أسمع حتى هذه اللحظة أن بيت أونيتون رطب.

ودفع يديه إلى أمام قائلًا:

ـ يا فتاتي العزيزة! ألكِ عينان؟ ألكِ بشرة؟ كيف يمكن لمثل هذا الموقع إلا أن يكون رطبًا؟ فـ«الجرانج» بادئ ذي بدء مبني على أرض من طين، وحيث كان خندق القلعة من دون ريب. ثم هنالك ذلك النهير الكريه الذي يغلي طوال الليل كالقدر فوق النار. تحسسي حوائط القبو، وارفعي بصركِ إلى ما تحت الطنف، واسألي سير «جيمس» أو أي رجل آخر. إن وديان شروبشير هذه ذات شهرة سيئة. والمكان الوحيد الذي يمكن أن يبنى فيه منزل هناك هو قمة تل. ولكني أرى، من ناحيتي أنا، أن ذلك المكان الريفي بعيد جدًّا عن المدينة، ومناظره الطبيعية ليست ممتازة.

ولم تستطِع «مارجريت» أن تمنع نفسها من القول:

ـ ولماذا ذهبت إلى ذلك المنزل إذن؟

ـ أنا! لأن...

ومال برأسه إلى وراء، وغضب قليلًا، واستطرد:

ـ وأنا أسألكِ بالمثل، لماذا جئنا إلى التيرول من دون غيرها من بقاع الأرض؟ إن الإنسان يمكنه أن يستمر في توجيه مثل تلك الأسئلة إلى ما لا نهاية.

يمكن للإنسان ذلك حقًّا. ولكن «هنري» إنما أراد اكتساب الوقت ليجد ردًّا مقبولًا. وجاء الرد، وآمن بصوابه على أثر نطقه به.

ـ الحقيقة أني اخترت أونيتون بسبب «إيفي». ولا تدَعي الحديث في ذلك يتجاوز هذا الحد.

ـ بالتأكيد.

ـ أنا لا أريدها أن تعلم أنها كادت تدفعني إلى عقد صفقة خاسرة. وأنا لم أكَد أوقع العقد حتى تمت خطبتها. يا للفتاة الصغيرة المسكينة! لقد كانت تواقة لإتمام الصفقة إلى حد أنها لم تنتظر حتى القيام بالتحريات الواجبة عن إمكان الصيد في المنطقة. وذلك خوفًا من أن تفلت. فهي لا تختلف عن بنات جنسكن. حسنًا، فلم يقع ضرر ما، إذ ظفرت بحفلة الزفاف الريفية التي أرادتها. وأنا تخلصت من بيتي بتأجيره إلى أناس ينشئون مدرسة أولية.

ـ وأين سنقيم إذن يا «هنري»؟ إنه ليسرني أن نقيم في مكان ما.

ـ أنا لم أبتَّ في ذلك بعد. ما رأيكِ في نورفك؟

وصمتت «مارجريت»، فالزواج لم ينقذها من الشعور بالتدفق، ولندن ليست إلا عينة لما ستكون عليه هذه المدينة المتنقلة التي تُغير الطبيعة الإنسانية تغييرًا عميقًا جدًّا، وتلقي على الصلات الشخصية عبئًا أفدح من أي عبء احتملته من قبل. وفي ظل حياة التجوال، إذا حلت مثل هذه الحياة، فلن تتلقى أي عون من الأرض. ولن تكون الأشجار والمروج والجبال إلا مناظر، والقوة الملزمة التي كانت لها في الماضي على الشخصية يجب أن تُوكَل إلى الحب وحده. فلنرجُ أن يكون الحب كفئًا لهذه المهمة!

واستطرد «هنري»:

ـ في أي وقت نحن؟ إننا قريبون من أكتوبر. لنقضِ الشتاء في «شارع دوسي»، ثم نبحث عن منزل آخر في الربيع.

ـ منزل دائم إذا أمكن. فليس في مقدوري أن أرجع إلى الشباب كما كنت، ولهذا لا يناسبني التنقل الكثير.

ـ ولكن أي الأمرين تفضلين يا عزيزتي: التنقل أم الروماتيزم؟

وقالت «مارجريت» وهي تنهض من مقعدها:

ـ أنا أدرك وجهة نظرك. إذا كانت أونيتون حقيقة رطبة فسكناها غير ممكنة لنا، ولا بد أن يقطنها أولاد صغار. ولكن عليك فقط أن تدَعنا في الربيع ننعم النظر قبل البت في اختيار البيت. وسأعتبر بـ«إيفي» فلا أستعجلك. وتذكَّر أن لك مطلق الحرية في هذه المرة. إن هذا التنقل الدائم لا بد يضر بالأثاث، وهو باهظ التكاليف من دون مراء.

ـ يا لها من امرأة صغيرة عملية! وماذا كانت تقرأ؟ «ثيو... ثيو...» ما اسمها؟

ـ «ثيوصوفية».

وهكذا كان «شارع دوسي» النصيب الأول المقدر لها. وهو نصيب سارٌّ مبهج. وهذا المنزل وهو أوسع قليلًا من «ويكهام بليس»، قد دربها على إدارة الدار الكبيرة التي وعدت بها في الربيع. وكثيرًا ما كانا يسافران، ولكنهما حين يكونان في البيت كانت حياتهما المنزلية تسير في انتظام لا بأس به. كان «هنري» يذهب إلى عمله في الصباح، وهي تصنع له الساندويتش بنفسها

دائمًا ـ وهذا أثر متخلف من حنين إلى عهد ما قبل التاريخ ـ ولم يكن يعول على هذا الساندويتش كغذاء ولكنه كان يُؤثِر أن يحمله ليجده إذا شعر بالجوع في الساعة الحادية عشرة. وبعد انصرافه كان عليها أن تشرف على شؤون المنزل، وتهذب من أخلاق الخدم، وكان هناك كثير من اهتمامات «هيلين» التي تطلبت التفكير فيها. وكان ضميرها يؤنبها قليلًا بسبب أسرة «باست». ولم يكدرها أن يغيب هذان الزوجان عن بصرها. ولا شك أن «لينارد» جدير بالعون، ولكنها كانت ـ بحسبانها زوجة «هنري» ـ تفضل أن تعين أي شخص آخر. أما المسارح وجمعيات المناظرة فقد قلّت جاذبيتها لها باطراد، وبدأت «تفوتها» بعض حركات المجتمع، وتنفق فراغها في إعادة قراءة كتبها، أو التفكير، الأمر الذي أقلق عليها بال أصدقائها في تشيلسي. وقد نسب هؤلاء ما طرأ عليها من تغيير إلى زواجها. ولعل غريزة عميقة حذرتها فعلًا من أن تبتعد عن زوجها أكثر مما تتطلبه الضرورة. ولكن السبب الرئيسي يكمن في أغوار أشد عمقًا؛ فقد تجاوزت سن الأشياء المنبهة، وأخذت تنتقل من مجال الكلمات إلى مجال الكائنات. ولا شك مما يؤسَف له ألا تتابع «فيديكيند» أو «جون»، ولكن إغلاق بعض أبواب الحياة يصبح أمرًا محتومًا بعد الثلاثين، إذا أريد للعقل نفسه أن يصبح قوة خلاقة.

## الفصل الثاني والثلاثون

كانت تنظر ذات يوم من أيام الربيع التالي في رسم هندسي لبناء دار. فقد استقر رأي الزوجين أخيرًا على الانتقال إلى سسيكس بعد بناء دار هناك ـ فإذا الخادمة تعلن قدوم زوجة «تشارلز ويلكوكس».

وصاحت «دوللي» إثر دخولها الغرفة:

ـ أسمعتِ النبأ؟ إن «تشارلز» جد غاضب. إنه واثق من أنكِ تعلمين بالأمر، أو بالأحرى، أنكِ لا تعلمين بالأمر.

وقالت «مارجريت» وهي تقبلها في هدوء:

ـ مرحبًا بكِ يا «دوللي»! إن هذه لمفاجأة! كيف حال الولدين والطفل؟

وقالت «دوللي» إن الولدين والطفل بخير، ونسيت الخبر الذي أرادت أن ترويه وهي تصف ضجة كبرى جرت في نادي التنس بهيلتون: لقد حاول بعض غير المرغوب فيهم الدخول. وقال العميد الذي يمثل القُطّان القدامى كذا؛ وقال «تشارلز» كذا؛ وقال محصل الضرائب كذا؛ وأسف «تشارلز» لأنه لم يقُل كذا. ثم اختتمت وصفها بقولها:

ـ ولكن هنيئًا لك بملاعب التنس الأربعة بالدار التي ستبنيانها في ميدهورست.

وأجابت «مارجريت»:

ـ سيكون ذلك ممتعًا جدًّا.

ـ أهذه تصميمات الدار؟ أهناك مانع يحول دون مشاهدتي إياها؟

ـ كلا بالطبع.

ـ «تشارلز» لم يرَها قَطُّ.

ـ لقد وصلت إلينا الآن فقط. هذا هو الدور السفلي. لا، هذا صعب الفهم، حاولي أن تفهمي الرسم المسطح للواجهة وجانب البناء. فالمفروض أن سيكون للدار أسقف جملونية كثيرة العدد، ومنظر للأفق جميل.

وقالت «دوللي» بعد امتحان الرسم لحظة من اللحظات. وكانت لا تستطيع فهم الرسومات الهندسية والخرط:

ـ ما الذي يجعل له هذه الرائحة العجيبة؟

ـ أظنها رائحة الورق.

ـ وأين أعلاه؟

ـ إنه ككل البيوت. فهذا خط الأفق. والجزء الذي تنبعث منه الرائحة يصور السماء.

ـ حسنًا. اسأليني عن أشياء أخرى يا «مارجريت»! آه، ماذا كنت على وشك أن أقول؟ كيف حال «هيلين»؟

ـ بخير.

ـ ألن تعود إلى إنجلترا؟ إن الجميع يرون عدم عودتها إلى الآن غريبًا جدًّا.

وقالت «مارجريت» وهي تحاول مداراة غيظها فقد أصبحت هذه المسألة تثير فيها شيئًا من الألم الموجع:

ـ هذا صحيح. «هيلين» غريبة، جدًّا. فقد بلغت غيبتها الآن ثمانية أشهر.

ـ ولكن، أليس لها عنوان؟

ـ عنوانها شباك البريد بمكان ما في بافاريا. اكتبي لها كلمة ريثما أبحث لكِ عن العنوان.

ـ لا. لا تتعبي نفسكِ. أتغيبت ثمانية أشهر بالتأكيد؟

ـ على وجه التحديد. لقد رحلت عقب زفاف «إيفي». ويبلغ ذلك ثمانية أشهر.

ـ في نفس الوقت الذي ولد فيه طفلي إذن؟

ـ بالضبط.

وتنهدت «دوللي». ودارت بعينها محملقة في غرفة الاستقبال. وقد شفَّها الحسد كانت قد بدأت تفقد إشراقها وحسنها. فلم تكن حالة أسرة «تشارلز» المالية حسنة، لأن السيد «ويلكوكس» الذي نشأ أولاده على تذوق العز كان يعتقد في فائدة تركهم يشقون طريقهم في الحياة بأنفسهم. وهو على أي حال لم يكن سخيًّا معهم. وقالت لـ«مارجريت» إن هناك مع ذلك مولودًا منتظَرًا، وأصبح عليهم أن يفرطوا في سيارتهم. وأبدت «مارجريت» العطف ولكن بطريقة متكلفة، ولم يدُر بخلد «دوللي» أن زوجة حميها كانت تلح على السيد «ويلكوكس» في أن يخصص لـ«تشارلز» راتبًا أكثر سخاء. وتنهدت ثانية. ثم تذكرت في النهاية مبعث الشكوى التي بدأت بها الحديث، وصاحت:

ـ أوه، نعم، هذا هو الأمر. إن الآنسة «أفري» تقوم بفتح صناديقكم المقفلة.

ـ لماذا فعلت ذلك؟ ما أغنانا عن هذا!

ـ سليني غير هذا. ظننت أنكِ أمرتِها بذلك.

ـ أنا لم أصدر أوامر من هذا القبيل. ولعلها قصدت تهوية الأشياء. لقد أخذت على عاتقها فعلًا إضرام النار في المدفأة من حين لحين.

وقالت «دوللي» في جد:

ـ كان الأمر أبعد كثيرًا من مجرد التهوية. فالأرض تبدو مغطاة بالكتب. وقد أرسلني «تشارلز» إليكِ ليعرف ماذا يجب أن يصنع لأنه يشعر عن ثقة بأنكِ لا تعلمين.

وصاحت «مارجريت» وقد حركت ساكنها بتلك الكلمة المقدسة:

ـ الكتب! «دوللي»! أأنتِ جادة فيما تقولين؟ أأقدمت على مس كتبنا؟

ـ ومع ذلك لم تمسها! إن المكان الذي كان ردهة فيما مضى أصبح مزدحمًا بها. وقد اعتقد «تشارلز» عن يقين أنكِ تعلمين بالأمر.

ـ أنا شاكرة لكِ هذا الجميل شكرًا جزيلًا يا «دوللي». ماذا جرى للآنسة «أفري»؟ لا بد من ذهابي للنظر في ذلك على الفور. وبعض هذه الكتب ملكٌ لأخي، وهي قيمة جدًّا. ولم يكن من حقها أن تفتح تلك الصناديق.

ـ أرى أنها ملتاثة العقل. فهي المرأة التي لم تتزوج قَطّ كما تعلمين. أوه، لعلها تظن أن تلك الكتب هدية عُرس مقدمة إليها. إن العوانس المتقدمات في السن يُصَبن بمثل هذا أحيانًا. والآنسة «أفري» تكرهنا كراهية السم منذ سوء التفاهم الرهيب الذي حدث بينها وبين «إيفي».

وقالت «مارجريت»:

ـ أنا لم أسمع عن هذه الحكاية.

إن زيارة من «دوللي» كان لها مقابل يعوض ضررها.

ـ ألم تعلمي أنها أعطت «إيفي» هدية في أغسطس الماضي فردتها هذه إليها. ثم، تلت ذلك معركة وأي معركة! إنكِ لم تقرئي قَطُّ خطابًا كالذي كتبته الآنسة «أفري».

ـ ولكن «إيفي» أخطأت في رد الهدية إليها. وإقدامها على مثل هذا العمل القاسي يخالف طبيعتها.

ـ ولكن الهدية كانت باهظة الثمن.

ـ وهل يختلف الأمر لهذا السبب يا «دوللي»؟

ـ على أي حال، إذا زاد ثمنها عن خمسة جنيهات ـ أنا لم أرَها، ولكنها كانت قلادة خزفية جميلة مشتراة من دكان بشارع «بوند». وأنتِ لا تستطيعين قبول هدية من هذا النوع من فلاحة. والآن خبريني، أيمكنكِ ذلك؟

ـ أنتِ نفسكِ قبلت هدية من الآنسة «أفري» عند زواجك.

ـ أوه، هديتي كانت آنية عتيقة من فخار؛ لا تساوي نصف بنس. أما هدية «إيفي» فمختلفة. وإنكِ لن تَجدي مناصًا من دعوة من يهديكِ مثل هذا العقد إلى حفل زواجكِ. وقد أجمع عمي «بيرسي»، و«ألبرت» وأبي و«تشارلز» على أن هذه الدعوة مستحيلة. وماذا تصنع الفتاة أمام إجماع أربعة رجال؟ لم تشأ «إيفي» أن تزعج تلك العجوز، وعلى هذا خطر لها أن من الأفضل أن تكتب لها خطابًا فيه دعابة. وأن ترسل العقد ذا الحلية إلى الدكان مباشرة لتوفر على الآنسة «أفري» أي مشقة.

ـ ولكن الآنسة «أفري» قالت...

وحملقت «دوللي»:

ـ كان خطابًا شنيعًا كل الشناعة. وقال عنه «تشارلز» إنه خطاب شخص مجنون. وقد استرجعت العقد من الدكان في النهاية، وألقت به في بركة البط.

ـ أأبدت لذلك أسبابًا؟

ـ نحن نظن أنها قصدت أن ندعوها إلى «أونيتون»، فتصعد بذلك إلى مصاف سيدات المجتمع.

فقالت «مارجريت» مفكرة:

ـ إنها أكبر سنًّا من أن تفكر في ذلك. ألا يجوز أنها أعطت «إيفي» الهدية لذكرى أمها؟

ـ إنها لَفكرة... أعطت كل إنسان حقه، هيه؟ حسنًا، أظن قد آن الأوان لأنطلق... هيا يا سيد «مف»(*)، إنك تريد معطفًا جديدًا ولكني أجهل بالتأكيد من سيشتريه لك.

وخرجت «دوللي» من الغرفة وهي تخاطب بذلك قفازها في دعابة حزينة.

وتبعتها «مارجريت» لتسألها عما إذا كان نبأ تصَرف الآنسة «أفري» الوقح قد وصل إلى مسامع «هنري».

ـ أوه، نعم.

ـ إني لأعجب لماذا طلب إليَّ إذن أن أسند إليها العناية بأمر المنزل!

وقالت «دوللي»:

ـ ولكنها ليست إلا فلاحة.

واتضح أن تفسيرها هذا صحيح. فإن «هنري» لا يلوم أفراد الطبقة الدنيا إلا حينما يناسبه ذلك. وهو يحتمل الآنسة «أفري» كما يحتمل «كرين»، لأنه يفيد منهما فائدة ذات قيمة. وقد يقول: «إني أصبر على الرجل الذي يعرف أن يؤدي عمله». وهو في الواقع يصبر على العمل لا على الرجل. كان فيه

شيء من طبع الفنان برغم ما يبدو في هذا القول من تناقض، فهو يُؤثِر أن يتغاضى عن إهانة تلحق بابنته على أن يفقد أجيرة نافعة لزوجته.

ورأت «مارجريت» أن من الأفضل لها أن تفضَّ هذه المشكلة الصغيرة بنفسها. فقد كان واضحًا أن الطرفين فقدا هدوءهما. لذلك كتبت رسالة رقيقة إلى الآنسة «أفري»، بعد استئذان «هنري»، طلبت إليها أن تترك الصناديق من دون أن تمسها. ثم انتهزت أول فرصة مناسبة وذهبت إلى هناك بنفسها قاصدة أن تعيد حاجاتها إلى الصناديق، وتخزنها بطريقة صحيحة في المخزن المحلي. وكانت الخطة ناقصة فاشلة، فقد وعدها «تيبي» أن يرافقها، ولكنه رجاها في آخر لحظة أن تعفيه. وعلى ذلك دخلت المنزل بمفردها للمرة الثانية.

## الفصل الثالث والثلاثون

كان نهار زيارتها للمنزل رائعًا. وقد قُدر أن يكون آخر يوم لا تشوب سعادتها فيه شائبة لمدة بضعة أشهر تالية. وكان قلقها على «هيلين» لغيابها غير العادي، لا يزال نائمًا. أما احتمال وقوع احتكاك بينهما وبين الآنسة «أفري» فذلك إنما أضفى على الرحلة لذة. ثم إنها تملصت كذلك من دعوة «دوللي» للغداء. وسارت خارجة من المحطة رأسًا واجتازت مرج البلدة، ودخلت الطريق المزدان بصفين من شجر القسطل، الواصل ما بين البلدة والكنيسة. وكانت الكنيسة تقوم في داخل المدينة فيما مضى، ولكنها كانت في موقعها هذا تجتذب عددًا كبيرًا من المصلين إلى حدِّ أن الشيطان، في غضبة من غضباته، انتزعها من أساسها، وركزها فوق ربوة غير ملائمة تقع على بعد ثلاثة أرباع الميل. وإذا صدقت القصة فلا بد أن يكون طريق شجر القسطل من غرس الملائكة. فلن تتصور طريقًا للكنيسة أشد إغراء من هذا للمسيحي الفاتر. وإذا ظل يرى هذا الطريق طويلًا جدًّا، فإن الشيطان سيُغلب على أمره رغم ذلك، لأن العلم قد شيد كنيسة صغيرة مريحة للثالوث الأقدس بالقرب من منزل «تشارلز»، وجعل لها سقفًا من صفيح.

وتهادت «مارجريت» في خطوها وهي تجتاز ذلك الطريق. وجعلت تتوقف لترقب السماء من خلال الأغصان العليا لشجر القسطل، وتلمس الحدوات المعلقة بالأغصان السفلى. لمَ لا تملك إنجلترا ميثولوجيا عظيمة؟ إن الفولكلور عندنا لم يتعدَّ مرتبة اللطف والتأنق، أما ألحاننا العظمى عن ريفنا فقد صدرت جميعها من مزامير الإغريق. ويبدو أن «الخيال الوطني» قد أخفق هنا برغم عمقه وصدقه، وتوقف عند حدِّ الساحرات والجنيات. وهو لا يستطيع أن يخلع الحياة على جزء بسيط من حقل صيفي، أو يطلق أسماء على بضعة نجوم. إن إنجلترا لا تزال تنتظر اللحظة الكبرى لازدهار آدابها، ولظهور الشاعر العظيم الذي سيعبر عنها، أو قُل ظهور آلاف الشعراء الصغار الذين ينتقل ما يخرج من أفواههم إلى الأحاديث العامة، وهذا أفضل.

وتغير المنظر عند الكنيسة. وانتهى طريق شجر القسطل إلى شارع ممهد، ولكنه ضيق. وهذا الشارع يؤدي إلى خلاء لم يُمسَّ. وسارت «مارجريت» في الشارع مسافة تزيد على ميل. واستمتعت بانحرافاته القصيرة. فإذ لم تكن له غاية عاجلة، فقد أخذ يصعد في التلال ويهبط منها من دون أن يشغل باله بالمنحدرات ولا بالمنظر الذي كان نطاقه يتسع مع ذلك. وكانت الضياع الفخمة التي يكتظ بها جنوب هرتفوردشير أقل تطفلًا هنا. ولم يكن مظهر البقعة أرستقراطيًّا، أو مظهر ضاحية من الضواحي، ولم يكن تحديدها بالأمر

السهل، ولكن «مارجريت» تبينت ما لم تَكُنْه: إنها لم تكن متعاظمة. وبرغم حدودها كانت بسيطة فقد كانت في امتدادها لمسة من الحرية لن تحققها «سوري» أبدًا، وارتفع جبين تلال شيلترن من بعيد حتى بدا كأنه جبل. وخطر لـ«مارجريت» «أن هذه المنطقة الريفية تنتخب حزب الليبراليين لو تركت لنفسها». وهي تَعِد بالزمالة، غير متأججة العاطفة ـ تلك الزمالة التي تُعَد أسمى مواهبنا بحسباننا أمة ـ كما تَعِد بها المزرعة ذات المنازل الواطئة المصنوعة من الآجر والتي قصدتها «مارجريت» لتحضر مفتاح الدار.

ولكن المزرعة من الداخل خيبت أملها. فقد استقبلت «مارجريت» فتاة بدت في خير هندام:

ـ نعم، يا سيدة «ويلكوكس».

لا، يا سيدة «ويلكوكس».

أوه، نعم يا سيدة «ويلكوكس»، لقد تلقت عمتي خطابكِ في حينه. وقد ذهبت الآن إلى داركِ الصغيرة. فهل أرسل خادمًا يقودكِ إلى هناك؟

وأعقبت ذلك بقولها:

ـ وعمتي بالطبع لا تتعهد داركِ عمومًا، ولكنها تقوم بذلك لتؤدي خدمة إلى جار بصفة استثنائية. وهذا يتيح لها عملًا تشغل نفسها به. وهي تقضي جانبًا كبيرًا من وقتها هناك. وزوجي يسألني أحيانًا: «أين العمة؟»، فأقول له: «أهذا السؤال ضروري؟ إنها في «هواردز إند»». نعم، يا سيدة «ويلكوكس». أأستطيع يا سيدة «ويلكوكس» أن أقنعكِ بقبول قطعة من الكعك؟ حتى إذا قطعتها لكِ؟

ورفضت «مارجريت» قبول قطعة الكعك. ومن سوء الحظ أن هذا الرفض أكسبها رقة في عينَي ابنة أخي الآنسة «أفري».

ـ أنا لا أستطيع أن أدَعكِ تذهبين بمفردكِ. والآن، لا تذهبي. يجب في الواقع ألا تذهبي. فإذا كان لا بد من ذهابكِ فسأصحبكِ بنفسي وعليَّ أن أحضر قبعتي. والآن...

واستطردت في خبث:

ـ يا سيدة «ويلكوكس»، إياكِ أن تذهبي أثناء غيابي.

ولم تبرح «مارجريت» المدهوشة أحسن غرف الدار، التي حلت عليها لمسة الفن المحدث. ولكن سائر الغرف بدت معتنًى بها برغم ما فيها من طابع الحزن الذي ينطوي على داخل الدور الريفية. ها هنا عاش جنس أقدم منا، نرتد ببصرنا إليه في جزع. وهذا الريف الذي نزوره في عطلة آخر الأسبوع كان حقًّا دارًا لهم، وجوانب الحياة الأشد خطورة: الموت، والفراق، ولهفات الحب، تجد أعمق إفصاح عنها في سويداء هذه الحقول. ولم تكن الأحزان هي كل ما هناك، فالشمس كانت تسطع خارج الدور. وطائر الدج بنغمه ذي المقطعين فوق الوردة المتفتحة وبعض الصبية يلعبون في صخب بين أكوام التبن الذهبية. لقد كان وجود الحزن إطلاقًا في هذه البقعة هو الذي أدهش «مارجريت»، وانتهى بأن بث فيها شعورًا بالتكامل. في هذه المزارع الإنجليزية يستطيع المرء أن يرى الحياة في ثبات ـ إذا أتيح ذلك في أي مكان ـ وأن يراها كلًّا متكاملًا، يجمع في مشهد واحد بين زوالها وشبابها الأبدي، ويربط، يربط في غير مرارة حتى يصبح الجميع إخوة. ولكن خواطر «مارجريت» هذه قطعتها عودة ابنة أخي الآنسة «أفري»، وكانت مهدئة للبال إلى حدِّ أنها احتملت مقاطعتها بسرور.

كان الخروج من الباب الخلفي أسرع، فخرجتا منه بعد الشرح الواجب. وأخجل ابنة الأخ الآن عدد لا حصر له من الدجاج هجم على قدميها مطالبًا بالطعام، وخنزيرة رؤوم لا تستحي. وقالت الفتاة إنها لا تعرف ماذا ستفعله هذه الحيوانات أكثر من ذلك. ولكن تأنقها زُري على أثر ملامسة النسيم اللطيف لها. وأخذت الريح تشتد وتبعثر القش، وتنفش ذيول البط وهي تسبح أسرابًا فوق عقد «إيفي». لقد هبت على القرية إحدى تلك العواصف المبهجة، التي يبدو خلالها كأن البراعم يحف حفيفها، ثم سكنت فجأة. وغنى طائر الدج «جورجي». وأقبل خلسة من الهضبة المكسوة بشجر الصنوبر صوت يقول: «كوكو» «جورجي، جورجي الجميلة» واشتركت الطيور الأخرى بتغريد لا معنى له. وازدان السياج بصورة غير مكتملة سيتم رسمها في بضعة أيام، وقد نما الخشخاش على جانبيه، والسوسن البري، كما بدت آذان الدب في فجواته المحمية. وكانت أيكات الورود البرية التي لا تزال تحمل بعض أوراقها الذابلة تبدي كذلك قرب ازدهارها. لقد حل الربيع غير مكسو بهندام كلاسيكي، وهو مع ذلك أجمل ربيع، أجمل حتى من تلك التي تتهادى وسط ريحان توسكانيا، تتقدمها الحسان الثلاث ويتبعها نسيم الغرب.

وسارت المرأتان في الدرب وهما تفيضان بتأدب ظاهري. ولكن «مارجريت» كانت تفكر في صعوبة الحديث الجدِّي في مسألة الأثاث في مثل هذا اليوم، وكانت تفكر في القبعات. ووصلتا إلى «هواردز إند» وهما

تفكران في هذا. وشقت الهواء صيحات حادة تردد كلمة «عمتاه!». ولم يُسمع جواب. وكان باب البيت الأمامي مغلقًا.

وسألت «مارجريت»:

ـ أأنتِ متأكدة من أن الآنسة «أفري» موجودة هنا؟

ـ أوه نعم، يا سيدة «ويلكوكس»، أنا متأكدة كل التأكد، فهي تأتي إلى هنا يوميًّا.

وحاولت «مارجريت» أن تنظر داخل البيت من خلال نافذة غرفة الطعام، ولكن ستر النافذة كان مرخى في الداخل بإحكام. وهكذا كانت حال نافذتَي غرفة الاستقبال والردهة. وبرغم أن وجود تلك الستور كان طبيعيًّا فإنها لم تتذكر وجودها في زيارتها السابقة للدار، فقد انطبع في نفسها أن السيد «برايس» حمل معه كل شيء. وراحتا تعالجان ناحية الدار الخلفية، ولم تتلقيا كذلك جوابًا، ولم تتمكنا من رؤية أي شيء. وكان هناك شيش مثبت على نافذة المطبخ أيضًا، وبابَا المخزن والمغسل مغلقين ومدعمين بقطعتَي خشب مثبتتين بهما، فبدا كل منهما رهيبًا كأنه غطاء صندوق من صناديق تخزين الأمتعة. وتذكرت «مارجريت» كتبها، فرفعت صوتها هي أيضًا، ونجحت إثر أول صيحة صاحتها. وأجاب صوت من داخل المنزل:

ـ حسنًا، حسنًا! أليست هذه هي السيدة «ويلكوكس» قد حضرت أخيرًا!

ـ ألديكِ المفتاح يا عمتاه؟

وقالت الآنسة «أفري» وهي لا تزال خافية:

ـ «مادج»، انصرفي.

ـ يا عمتي! إنها السيدة «ويلكوكس».

وعاونتها «مارجريت»:

ـ لقد حضرنا معًا، أنا وابنة أخيكِ...

ـ انصرفي يا «مادج»، فليس هذا وقت الاشتغال بقبعتكِ.

وصبغت الحمرة وجه المسكينة. وقالت في انفعال عصبي:

ـ تزداد عمتي شذوذًا في الأيام الأخيرة.

وصاحت «مارجريت»:

ـ يا آنسة «أفري»! لقد جئت في شأن الأثاث، فهل تسمحين لي بالدخول؟

وقال صوتٌ مجيبًا:

ـ نعم، يا سيدة «ويلكوكس»، بالطبع.

ولكن الصمت خيَّم بعد ذلك. ونادتا من جديد من دون أن يجيب مجيب. ودارتا حول المنزل في كدر.

وتشجعت «مارجريت» وقالت:

ـ أرجو ألا تكون الآنسة «أفري» مريضة.

وقالت «مادج»:

ـ حسنًا. إذا أذنتِ لي فلا بد من ذهابي الآن لأن الخدم في المزرعة يحتاجون إلى من يباشر عملهم. إن عمتي تصبح أحيانًا غريبة الأطوار.

وانسحبت مقهورة وهي تستجمع ما تملك من كياسة. وكأنما أطلق انصرافها زنبركًا مضغوطًا، فقد فُتح الباب الأمامي على الفور.

وقالت الآنسة «أفري» بلطف وهدوء فائقين:

ـ حسنًا. ادخلي رأسًا يا سيدة «ويلكوكس»!

وبدأت «مارجريت» تقول:

ـ شكرًا جزيلًا...

ولكنها أمسكت عن القول إذ رأت حاملًا للمظلات. وكان مما تملكه من أثاث. وقالت الآنسة «أفري»:

ـ تعالَي أولًا إلى الردهة رأسًا.

ورفعت الستار فأطلقت «مارجريت» صرخة يأس. ذلك أن أمرًا مفزعًا كان قد حدث. فالردهة مكتظة بمحتويات مكتبة «ويكهام بليس»، والبساط منشور، والمنضدة الكبيرة مزحزحة إلى جانب النافذة، وصناديق الكتب تملأ الحائط المقابل للمدفأة، وسيف أبيها ـ وهذا ما أثار حيرتها على وجه خاص ـ مجردٌ من غمده، معلق عاري النصل بين المجلدات الوقورة. لا بد أن الآنسة «أفري» ظلت تعمل أيامًا بطولها.

وبدأت تقول:

ـ أخشى أن هذا ليس الذي عنيناه قَطُّ، فنية السيد «ويلكوكس» ونيتي كانت منصرفة إلى عدم مس تلك الصناديق. فهذه الكتب مثلًا هي كتب أخي، وقد خزناها له ولأختي المتغيبة خارج البلاد. وعندما اضطلعت مشكورة بتعهدها لم نتوقع قَطُّ أن تعملي كل هذا.

وقالت العجوز:

ـ لقد ظل المنزل خاليًا مدة طويلة.

ولم تشأ «مارجريت» مجادلتها. وقالت في أدب:

ـ لعلنا لم نشرح الأمر. لقد كان هناك خطأ، وأكبر الظن أنه خطأنا.

ـ يا سيدة «ويلكوكس»، لقد تراكَم خطأ فوق خطأ طوال خمسين عامًا. إن هذا المنزل ملك للسيدة «ويلكوكس»، وهي لم تكن لترغب في بقائه خاليًا مدة أطول من ذلك.

وقالت السيدة «ويلكوكس» مادةً يد العون لذهن العجوز المتداعي:

ـ نعم، منزل السيدة «ويلكوكس»، أُم «تشارلز».

فرددت الآنسة «أفري»:

ـ خطأ فوق خطأ، خطأ فوق خطأ.

وقالت «مارجريت» وهي تجلس في مقعد من مقاعدها:

ـ حسنًا. أنا لا أدري... أنا في الواقع لا أدري ما يمكن عمله.

ولم تتمالك نفسها من الضحك. وقالت الأخرى:

ـ نعم، ينبغي أن يكون المنزل مبهجًا.

ـ لعلي لا أفهم. حسنًا، أشكركِ شكرًا جزيلًا يا آنسة «أفري». نعم، لا بأس. هذا أمر سار.

وقالت الآنسة «أفري»:

ـ لا تزال هناك غرفة الاستقبال.

ودخلت من الباب المقابل ورفعت ستارًا. وغمر النور غرفة الاستقبال وأثاثها المجلوب من «ويكهام بليس».

ـ ولا تزال كذلك غرفة الطعام.

ورفعت أستارًا أخرى، وفتحت نوافذ أظهرت مناظر الربيع.

ـ ثم هنا.

وظلت الآنسة «أفري» تجتاز الردهة وتعيد اجتيازها. ولم تسمع «مارجريت» صوتها، ولكنها سمعتها ترفع شيش المطبخ. وعادت تقول:

ـ أنا لم أنتهِ من هنا بعد، ولا يزال هناك عمل كثير عليَّ أن أؤديه، وسيأتي غلمان المزرعة لينقلوا خزائن ملابسكِ الضخمة إلى الدور العلوي، فليس ثمة ما يدعو إلى زيادة النفقات بتخزينها في هيلتون.

وكررت «مارجريت» القول وهي تشعر بأن عليها أن تتدخل في الأمر بحزم:

ـ هذا كله يقوم على خطأ، على سوء فهم، فأنا والسيد «ويلكوكس» لن نقطن في «هواردز إند».

ـ أوه، حقًّا؟ أذلك بسبب حمى القش التي أصابته؟

ـ لقد استقر رأينا على بناء دار جديدة لنا في سسيكس. وسأنقل بعض هذا الأثاث، وهو نصيبي، إليها قريبًا.

وتطلعت «مارجريت» إلى الآنسة «أفري» وهي تحاول أن تدرك سر هذه النزوة في ذهنها. إنها لم تكن عجوزًا تهذي، فإن أساريرها كانت تنضح بالذكاء والفكاهة، وظهر أنها قادرة على الدعابة اللاذعة، وكذلك على النبل العريق في غير تباهٍ.

ـ أنتِ تظنين يا سيدة «ويلكوكس» أنكما لن تعودا فتقيما هنا، ولكنكما ستفعلان.

وقالت «مارجريت» مبتسمة:

ـ ستُظهر الأيام صدق هذا. ونحن لا ننوي الإقدام على ذلك حاليًّا. فالواقع أننا نحتاج إلى دار أكثر اتساعًا بكثير. والظروف تضطرنا إلى إقامة حفلات كبيرة. ربما في يوم ما، بالطبع. فالإنسان لا يعرف ما يخبئه الغد أبدًا، أليس كذلك؟

وأجابت الآنسة «أفري»:

ـ في يوم ما! «تشا! تشا!»، لا تتحدثي عن يوم ما، فأنتِ تقيمين هنا الآن.

ـ أأنا أقيم هنا؟

ـ أنتِ تقيمين هنا. وإذا سألتِني، قلت لكِ إنكِ أمضيتِ هنا هذه الدقائق العشر الأخيرة.

وكانت هذه ملاحظة لا معنى لها. ولكن «مارجريت» شعرت شعورًا عجيبًا بعدم الوفاء لزوجها، ونهضت من مقعدها. لقد أحست أن «هنري» وجه إليها اللوم من طرف خفي. وذهبتا إلى غرفة الطعام حيث تدفق ضوء الشمس على خزانة ملابس أمها. وصعدتا إلى الدور العلوي حيث أطلت آلهة قديمة عديدة من محاريب جديدة. لقد لاءم الأثاث الغرف ملاءمة عجيبة. وفي الغرفة الوسطى، فوق الردهة، حيث رقدت «هيلين» منذ أربعة أعوام، علقت الآنسة «أفري» على الحائط مهد «تيبي» القديم.

قالت:

ـ غرفة الصغار.

وخرجت «مارجريت» من دون أن تنبس بكلمة.

ورأت كل شيء في النهاية. وكان المطبخ والردهة لا يزالان غاصين بالأثاث المكوم والقش. ولكنها لم تجد فيما استطاعت أن تراه منه شيئًا مكسورًا أو مصدوعًا. كان عرضًا مؤثرًا للبراعة! ثم جالتا جولة صداقة في الحديقة التي استوحشت بعد زيارة «مارجريت» الأخيرة لها، واعشوشبت ممرات الحصباء، ونفرت الحشائش عند حلق الجراج نفسه. وأصبح ركن الحديقة الصخري الخاص بـ«إيفي» مجرد نتوءات في الأرض. لعل «إيفي» هي المسؤولة عن شذوذ الآنسة «أفري». ولكن «مارجريت» كان يساورها الظن بأن سبب الشذوذ أبعد من ذلك غورًا، وليس لخطاب «إيفي» السخيف من أثر إلا إطلاق غيظ ظل عدة سنوات حبيسًا.

قالت:

ـ إنه لمرج بديع!

وكان ضربًا من غرف الاستقبال المكشوفة التي كانت تتألف منذ مئات السنين من الحقول الصغيرة. وكان السياج الذي يحدُّه ينحدر من التل متعرجًا على شكل زوايا قائمة. وظهر في أسفله ملحق أخضر صغير من نوع غرفة تزيين للبقر.

وقالت الآنسة «أفري»:

ـ نعم إن المرج لا بأس به لأولئك الذين لا يكابدون كثرة العطس.

ونقنقت بصوتها مستطردة في خبث:

ـ لقد رأيت «تشارلي ويلكوكس» يخرج إلى صبياني وقت الدريس. أوه! عليهم أن يفعلوا كذا، وألا يفعلوا كذا. كان يريد أن يلقنهم أن يصبحوا صبيانًا مفلحين، وإذا نوبة العطس تصيبه. لقد ورث ذلك فيما ورثه من أبيه. وليس هناك فرد واحد في أسرة «ويلكوكس» يستطيع احتمال الحقل في شهر يونيو ـ وقد انتابتني نوبة ضحك عنيفة في المدة التي كان فيها خطيبًا لـ«روث».

وقالت «مارجريت»:

ـ أخي يصاب بحمى القش أيضًا.

ـ إن هذا المنزل لا يعجب أفراد «ويلكوكس» لتوغله في الريف. وقد يسرهم بالطبع أن يتسللوا إليه في بادئ الأمر. ولكن آل «ويلكوكس» خير من العدم كما تبينت فيما أرى.

وضحكت «مارجريت». واستطردت الآنسة «أفري»:

ـ إنهم يتيحون لمثل هذا البيت الاستمرار. نعم، إنه كذلك لا أكثر.

ـ إنهم يتيحون لإنجلترا الاستمرار، حسبما أرى.

ولكن الآنسة «أفري» أزعجتها بهذه الإجابة:

ـ نعم. إنهم يتناسلون كالأرانب. حسنًا، حسنًا. إنه عالم مضحك. ولكن الذي خلقه يعرف ما يريده فيه على ما أعتقد. وإذا كانت السيدة «تشارلي» تنتظر مولودها الرابع فليس لنا أن نتذمر.

وقالت «مارجريت» وقد فطنت إلى نوع من الدعوة لعدم الوفاء للزوج تردد صداها حتى في هبات النسيم وأغاريد الطيور:

ـ إنهم يتناسلون ويعملون كذلك. وهذا العالم مضحك بالتأكيد. ولكني أظن أنه لن يكون عالمًا سيئًا ما دام رجال مثل زوجي وأولاده يسوسونه، لن يكون سيئًا في واقع أمره.

وقالت الآنسة «أفري»:

ـ نعم، أفضل من لا شيء.

ثم دارت إلى شجرة الغرغار الجبلي.

وتحدثت عن صديقتها القديمة وهما في طريق عودتهما إلى المزرعة، وكان حديثها عنها أوضح كثيرًا من ذي قبل، وكانت «مارجريت»، وهي في الدار، لا تدري هل تفرق هذه المرأة بين زوجة السيد «ويلكوكس» الأولى والثانية. وأما الآن فقد قالت المرأة:

ـ أنا لم أرَ «روث» كثيرًا بعد موت جدتها. ولكن علاقاتنا ظلت علاقات مجاملة. إن أسرتها مهذبة جدًّا. ولم تكن السيدة «هوارد» العجوز تغتاب أحدًا قَطُّ، أو تدَع أحدًا ينصرف من دون أن تطعمه. ثم لم يكن من مبدئهم

قَطّ أن «من يخترقون الضيعة يُقدَّمون للمحاكمة». ولكن رجاء للناس بعدم اختراقها. إن السيدة «هوارد» لم تخلق قَطُّ لتدير ضيعة.

وسألت «مارجريت»:

ـ ألم يكن هناك رجال يعاونون النساء؟

وأجابت الآنسة «أفري»:

ـ كانت الأمور تسير حتى لم يَعُد في الأسرة رجال.

وصححت «مارجريت» هذا القول تواقة إلى إعطاء زوجها حقه:

ـ حتى جاء السيد «ويلكوكس».

ـ أظن ذلك. ولكن كان يجب أن تتزوج «روث» بـ... ليس في قولي هذا قلة احترام لك، فأنا أعتقد أنه كان مقدرًا لكِ أن تظفري بـ«ويلكوكس» سواء أظفرت به «روث» قبلكِ أم لا.

ـ بمن كان يجب أن تتزوج؟

فصاحت المرأة العجوز:

ـ بجندي! بجندي حقيقي.

وصمتت «مارجريت». لقد كان هذا القول نقدًا موجهًا لشخصية «هنري» أشد صرامة من أي نقد توجهه هي إليه. وشعرت بعدم الرضا.

واستطردت العجوز قائلة:

ـ ولكن هذا كله انتهى أمره، ها هو ذا عهد أفضل برغم طول تركككم لي في الانتظار. وسأرى أضواءكم بعد أسبوعين تسطع من وراء السياج في الأمسيات. أأمرتِ بطلب فحم للمدفأة؟

وقالت «مارجريت» في حزم، فقد كانت تحترم الآنسة «أفري» احترامًا منعها عن أن تسايرها في نزوتها:

ـ إننا لن نحضر للإقامة هنا. لا، لن نحضر. لن نحضر أبدًا. إن الأمر كله قام على خطأ، ويجب أن تُحزم الأمتعة من جديد في الحال. أنا آسفة، ولكني أرتب أموري ترتيبًا آخر، ولا بد لي أن أطلب إليكِ إعطائي المفاتيح.

وقالت الآنسة «أفري»:

ـ بالتأكيد يا سيدة «ويلكوكس».

ونزلت عن واجباتها بابتسامة.

وسارت «مارجريت» عائدة أدراجها إلى المحطة. بعد أن فرجت عنها هذه النتيجة، وبعد أن طلبت إبلاغ تحياتها إلى «مادج»، ونوت أن تذهب إلى مخزن حفظ الأثاث، وتصدر تعليماتها بنقل أثاثها، ولكن ظهر أن هذه المسألة المعقدة أكثر تشعبًا مما توقعت فاستقر رأيها على استشارة «هنري». وقد أحسنت بذلك صنعًا. فقد عارض معارضة شديدة في نوط هذه المهمة بصاحب المخزن المحلي الذي سبق أن أوصى به، ونصحها أن تقوم بتخزين أثاثها في لندن.

ولكن أمرًا مكدرًا غير متوقع حل بها قبل أن تستطيع القيام بذلك.

## الفصل الرابع والثلاثون

لم يكن الأمر غير متوقع تمامًا. فقد ظلت صحة الخالة «جولي» متدهورة طوال الشتاء، إذ عانت سلسلة من نوبات البرد والسعال، وحالت مشغولياتها الشديدة من دون العمل على التخلص منها. ولم تكَد تَعِد بنت أختها بأن «تُعنى حقيقة بصدرها المتعب عناية جدية» حتى أصيبت ببرد تحول إلى التهاب رئوي، وذهبت «مارجريت» و«تيبي» إليها في سوانيج. وأرسلت برقية إلى «هيلين» لاستدعائها. ووجدت «جماعة الربيع» هذه ـ التي اجتمعت رغم كل ما حدث في هذا المنزل المضياف ـ كل ما يثير الذكريات الجميلة. وفي يوم رائع بدت فيه السماء كأنها من خزف أزرق، وأخذت موجات الخليج الصغير الحذِر تضرب الشاطئ ضربات بالغة الرقة، في هذا اليوم أسرعت «مارجريت» خلال حديقة شجيرات الدفلى وهي تواجه ثانية جمود الموت. إن حادث موت واحد قد يفسر نفسه، ولكنه لا يلقي أضواء على حادث موت آخر، ولا بد أن يبدأ التجسس من جديد. ويستطيع الوعاظ والعلماء أن يعمموا في أحكامهم، ولكننا نعلم أنه لا تعميم في شأن من نحبهم؛ فليست هناك سماء واحدة تستقبل كلًّا منهم، بل ليس هناك نسيان واحد. إن الخالة «جولي» ـ وهي المرأة التي لا طاقة لها على المأساة ـ أخذت تتسلل خارج الحياة، ضاحكة ضحكات قصيرة غريبة، ومبدية مختلف الاعتذارات لبقائها على قيد الحياة طول هذه المدة. كانت ضعيفة جدًّا، عاجزة عن أن ترتفع إلى مستوى الموقف، أو تدرك السر الكبير الذي أجمع الكل على أنه ينتظرها. ولم يبدُ لها إلا أنها انهارت تمامًا ـ انهارت على نحو أشد من أي وقت مضى ـ وأن بصرها وسمعها وحسها يزداد ضعفًا في كل لحظة، وأنها ستفقد كل شعور عما قريب إذا لم يطرأ عليها تغير. وكرست ما بقي لها من قوة مدخرة لوضع الخطط: ألا يمكن لـ«مارجريت» أن تبحر في سفينة للنزهة؟ هل طُهي سمك «الماكريل» على الطريقة التي يحبها «تيبي»؟ أقلقت بالها بغياب «هيلين»، وكذلك بأنها ستتسبب في عودتها. ويبدو أن ممرضاتها رأين أن هذه الاهتمامات طبيعية جدًّا، وأن اقترابها من الباب الكبير يسير بمعدل عادي. ولكن «مارجريت» رأت الموت مجردًا من أي جمال زائف. ومهما يكن مضمون فكرة الموت، فإن عملية الموت يمكن أن تكون تافهة بشعة.

ـ عزيزتي «مارجريت»! هناك أمر هام. خذي قطار لولورث عند مجيء «هيلين».

ـ لن تستطيع «هيلين» المكث هنا يا خالتي «جولي». فقد أبرقت تقول إنها لن تستطيع السفر إلا لتراكِ. ولا بد من عودتها إلى ألمانيا على أثر شفائكِ.

ـ ما أغرب هذا من «هيلين»! والسيد «ويلكوكس»...

ـ نعم، يا عزيزتي؟

ـ أيستطيع أن يستغني عنكِ؟

كان «هنري» قد أبدى الرغبة في مجيئها، وأظهر عطفًا فائقًا. ومع ذلك كررت «مارجريت» هذا القول ثانية.

ولم تمُت السيدة «منت»، فقد استولت عليها ـ خارجًا عن إرادتها ـ قوة أجل شأنًا أوقفتها وهي تنحدر في المنزلق. فعادت من دون انفعال، متململة كما كانت دائمًا. وفي اليوم الرابع تخطت الخطر.

واستمرت تقول:

ـ «مارجريت». هناك أمر هام. وددت أن تكون لكِ رفيقة تتجول للنزهة معكِ. جربي الآنسة «كوندر».

ـ لقد تمشيت قليلًا مع الآنسة «كوندر».

ـ ولكنها لا تثير الاهتمام في الواقع. لو أن «هيلين» كانت هنا.

ـ لديَّ «تيبي» يا خالتي «جولي».

ـ لا، فهو مشغول بدراسة اللغة الصينية. وإنكِ في حاجة إلى رفيقة حقيقية. إن «هيلين» شاذة الأطوار حقًّا.

ووافقتها «مارجريت» قائلة:

ـ «هيلين» شاذة الأطوار، جدًّا.

ـ إذا كانت رحلتها إلى الخارج لا ترضيها، فلماذا تريد العودة على الفور؟

ـ لا شك أنها ستغير رأيها عندما ترانا، فهي غير متزنة على الإطلاق.

كان هذا هو النقد المألوف الموجه إلى «هيلين». ولكن صوت «مارجريت» كان يرتجف وهي تنقد أختها. وكانت الآن تشعر بألم عميق من سلوك أختها. وقد يدل الهروب من إنجلترا على اختلال في التوازن، ولكن البقاء خارجها مدة ثمانية أشهر يثبت أن القلب أيضًا قد اعوج مع العقل. وقد استطاع فراش المرض أن يدعو «هيلين» إلى العودة، ولكنها ظلت صماء حيال دعوات أخرى أكثر إنسانية. وهي بعد إلقاء نظرة على خالتها قد تعود إلى حياتها المبهمة المتوارية وراء «شباك البريد»، وهي تكاد تكون غير موجودة، فقد أصبحت رسائلها مملة قليلة، ولم تَعُد لها طلبات أو حب استطلاع. وقد أُلقيت مسؤولية هذا كله على عاتق «هنري» المسكين! كان «هنري» لا يزال أبغض إلى قلب أخت زوجته من أن تحييه، برغم أن هذه الأخيرة قد صفحت عنه منذ زمن طويل. إن هذه تصرفات معتلة، وقد تصورت «مارجريت» ـ لشدة رعبها ـ أنها تستطيع تتبع أثر تلك العلة في حياة «هيلين» إلى ما يقرب من أربع سنوات خلت. فرحيلها المفاجئ من «أونيتون»، وحمايتها غير المتزنة لأسرة «باست»، وحزنها الذي انفجر فجأة في هضاب «الداونز». إن هذا كله مرتبط بـ«بول». هذا الغلام التافه الذي قبلت شفتاه شفتيها للحظة من الزمن. وقد سبق أن خشيت كل من «مارجريت» والسيدة «ويلكوكس» أن يعود العاشقان إلى تبادل القبل. سخافة. فالخطر الحقيقي في رد الفعل. إن رد الفعل المنصب على أسرة «ويلكوكس» قد نخر حياتها إلى حدٍّ أنها لم تكد تحتفظ بعقلها. لقد أصيبت بمرض «الفكرة الثابتة» وهي بعدُ في الخامسة والعشرين، فأي أمل لها حين تصبح امرأة عجوزًا؟

وكلما ازدادت «مارجريت» تفكيرًا في ذلك ازدادت رعبًا. وقد نحَّت الموضوع جانبًا مدة أشهر عديدة، ولكنه أصبح الآن أكبر بكثير من أن يستخف به. فهذه التصرفات فيها ما يشبه لوثة الجنون، أمحتوم أن يتحكم في تصرفات «هيلين» بأسرها حدثٌ بسيط قد يحدث لأي رجل أو امرأة؟ أيمكن أن تقام الطبيعة البشرية على أسس تافهة إلى هذا الحد؟ كان اللقاء القصير العاثر في «هواردز إند» مشبوبًا. لقد توغل حيث كان الاتصال الأعمق منه قاحلًا أجرد، كان أقوى من الألفة بين أختين، وأقوى من العقل والكتب. وقد اعترفت «هيلين»، في إحدى نزواتها، بأنها لا تزال «تستمتع به» على نحو معين. لقد تبدد «بول»، ولكن سحر قبلته ظل باقيًا. وحيثما يكون هناك استمتاع بالماضي، فقد يكون هناك أيضًا رد فعل؛ توسُّعٌ في الناحيتين.

حسنًا، إنه لغريب ومحزن أن تكون عقولنا مهادًا لغرس البذور من دون أن تكون لنا قدرة على اختيار تلك البذور. ولكن الإنسان لا يزال مخلوقًا غريبًا محزنًا، إنه مصمم على أن يسلب الأرض غير آبهٍ بالتطورات في داخل

نفسه. إنه لا يرضى أن يضايق نفسه بالبحوث النفسية، فهو يتركها للمتخصص، وهو في ذلك أشبه بمن يدَع الآلة البخارية تلتهم طعامه. إنه لا يستطيع أن يصبر على هضم نفسه. كانت «مارجريت» و«هيلين» أكثر صبرًا، والظاهر أن «مارجريت» نجحت، إلى المدى الذي يكون فيه النجاح ممكنًا. فهي تفهم نفسها. ولها شيء من الرقابة الأولية على باطن نفسها. أما «هيلين» فالمرء لا يستطيع أن يقرر ما إذا كانت أصابت النجاح أم لا.

وصل خطاب «هيلين» في اليوم الذي استعادت فيه السيدة «منت» قواها. وقد أرسلته من ميونخ، وكانت ستصل إلى لندن في اليوم التالي. والخطاب مثير للقلق ولو أن أوله كان ينم عن مودة وسلامة تفكير.

عزيزتي الغالية «ميج»،

بلِّغي الخالة «جولي» حب «هيلين». خبريها أني أحبها، وأني أحببتها طوال المدى الذي أذكره. سأكون في لندن يوم الخميس.

وسيكون عنواني هو عنوان أصحاب المصرف الذي يدير شؤوني المالية. ولم يستقر رأيي على الفندق الذي سأنزل فيه، وعلى ذلك أرجو أن تكتبوا لي أو تبرقوا بالعنوان المذكور، وتمدوني بأنباء مفصلة، وإذا كانت صحة خالتي «جولي» قد تحسنت، أو إذا جد سبب مفزع يجعل حضوري إلى سوانيج غير مُجدٍ، فلا تظنوا عدم حضوري أمرًا غريبًا، فرأسي مليء بمختلف الخطط. أنا أعيش الآن في الخارج، وأريد أن أعود في أقرب وقت ممكن. أتتكرمين فتخبريني عن المكان الذي يوجد فيه أثاثنا، فأنا أريد منه كتابًا أو كتابين، أما سائر الأثاث فهو ملك لكِ.

سامحيني يا «ميج» العزيزة. ولا بد أن يبدو لكِ خطابي هذا مضايقًا بعض الشيء، ولكن هذه حال جميع الخطابات التي ترِد من مُحبتكِ

«هيلين»

كان الخطاب مضايقًا بالفعل لأنه أغرى «مارجريت» بأن تكذب كذبة. فلو أنها كتبت تقول إن خالتها «جولي» لا تزال في خطر فإن أختها ستحضر، ولكن الاعتلال يعدي الآخرين، ونحن لا نستطيع أن نتصل بمن يعانون حالة انحراف من دون أن تنحط حالتنا. فلو أن «مارجريت» كتبت لـ«هيلين» بأن «تتصرف وفق مصلحتها» فقد يفيد ذلك «هيلين»، ولكنها ستضر بنفسها. على أنها ظلت مستمسكة بالصدق لمدة أطول مع ما في ذلك من خطر

وقوع كارثة، وأجابت بأن حالتها أحسن من ذي قبل بكثير، وانتظرت ما يجدَّ في الموقف من تطورات.

وأيد «تيبي» ردها هذا. لقد أخذت عريكته تلين في سرعة، وأصبح رفيقًا ألطف من ذي قبل، فإن «أكسفورد» أفادته كثيرًا. وقد تخلص من طبعه النكِد، واستطاع أن يخفي عدم مبالاته بالناس، واهتمامه بالطعام. ولكنه لم يصبح أكثر إنسانية. إن السنوات الواقعة بين الثامنة عشرة والعشرين، وهي سنوات ساحرة لدى أغلب الناس، أخذت تتخطى به في رفق مرحلة الصبا إلى مرحلة الكهولة. وهو لم يعرف قَطُّ الشباب، تلك الصفة التي تدفئ القلب حتى الموت وتضفي على السيد «ويلكوكس» فتنة لا تنفد. كان «تيبي» بارد العاطفة من دون أن يرجع ذلك إلى خطأ منه، ودون أن تشوب برود عاطفته قسوة. كان يرى «هيلين» على خطأ، و«مارجريت» على صواب، ولكن هذا العناء الذي كانت تكابده الأسرة لديه مثل المشهد المسرحي لدى أغلب الناس. ولم يكن له إلا اقتراح واحد يتقدم به، وهذا الاقتراح يدل على طبيعته:

ـ لماذا لا تُحدثين السيد «ويلكوكس» عن هذا؟

ـ عن «هيلين»؟

ـ لعل له خبرة سابقة في مثل هذا الأمر.

ـ إنه سيبذل قصارى جهده، ولكن...

ـ أوه، أنت أدرى بالأمر. ولكنه عملي.

كان هذا منه إيمان الطلبة بأهل الخبرة. وترددت «مارجريت» لسبب أو سببين. وما لبث رد «هيلين» أن جاء. لقد أبرقت تسأل عن عنوان الأثاث المخزَّن، لأنها ستعود الآن على الفور. وأجابت «مارجريت»:

لا، بالطبع. وقابليني بمكتب أصحاب المصرف في الرابعة.

وذهبت هي و«تيبي» إلى لندن. ولم تكن «هيلين» في مكتب أصحاب المصرف. ورفض هؤلاء إعطاءهما عنوانها. وانتقلت «هيلين» إلى عالم الغموض.

وطوقت «مارجريت» أخاها بذراعها. كان كل ما تبَقى لها في دنياها. ولم يبدُ قَطُّ أقل «مادية» مما بدا الآن.

ـ «تيبي»، حبيبي! ماذا بعد؟

وأجاب:

ـ هذا غير عادي.

ـ إنك ترى الأمور أوضح مما أراها غالبًا. أليست لديك فكرة عما وراء هذا؟

ـ كلا. إلا إذا كانت المسألة عقلية.

وقالت «مارجريت»:

ـ أوه، هذا! إنه مستحيل كل الاستحالة.

ولكنه كان قد نطق بالفكرة. ولم تمضِ دقائق حتى تناولتها هي نفسها. فلا شيء يفسر الأمر غيرها. ووافقت لندن على رأي «تيبي». فقد انحسر القناع عن المدينة، ورأتها «مارجريت» على حقيقتها: صورة هزلية للأبدية. والحواجز المألوفة، والشوارع التي كانت تجتازها، والدور التي كانت تقوم بينها برحلاتها القصيرة سنوات طويلة، أصبحت على حين فجأة كمًّا مهملًا. لقد بدا كأن «هيلين» اندمجت في الأشجار المتسخة، وحركة المرور، وقِطع الطين المتدفقة في بطء. إنها ارتكبت عملًا من أعمال إنكار الذات البشعة، وعادت فاندمجت في «الواحد». كان إيمان «مارجريت» ثابتًا. كانت تعلم أن النفس البشرية ستندمج ـ إذا قدر لها أن تندمج ـ في النجوم والبحار. ولكنها أحست مع ذلك أن أختها ظلت منحرفة سنوات عديدة، وكان رمزيًّا أن تقع هذه الكارثة الآن، في عصر يوم من أيام لندن، بينما المطر يتساقط في بطء.

كان «هنري» معقد الأمل الوحيد، فهو حاسم الرأي، وقد يكون على علم ببعض المسالك المتوارية عنهما في عالم الخواء. وقد قررت أن تأخذ بنصيحة «تيبي»، وتضع الأمر برمته بين يديه. وكان لا بد أن يذهبا إليه في مكتبه، وهو لا يستطيع أن يزيد الأمر سوءًا. وقد مرت لبضع دقائق بكنيسة «سانت بول» التي تبرز قبتها بشجاعة من خلال اللجب المضطرب، فكأنما هي تبشر بإنجيل الشكل. ولكن كنيسة «سانت بول» من الداخل أشبه بما يحيط بها من الخارج: أصداء وهمسات، وتراتيل خافتة، وفسيفساء خافية،

وآثار أقدام مبتلة تذرع الأرض غدوًّا ورواحًا. «إن كنت تبحث عن هذا الأثر فانظر إليه من كل جوانبه» إنها تردنا ثانية إلى لندن. وليس من أمل في «هيلين».

لم يكن موقف «هنري» مرضيًا أول الأمر، وكانت تتوقع منه هذا. وكان شديد الفرح بعودتها من سوانيج، بطيء التسليم بقيام مشكلة جديدة. وعندما حدثاه عن مساعي بحثهما لم يكن منه إلا أن راح يتهكم بـ«تيبي»، وبأسرة «شليجل» عمومًا. وصرح بأن مناورات «هيلين» مع أهلها تطابق خلقها كل المطابقة.

وأجابت «مارجريت»:

ـ هذا ما نقوله نحن جميعًا. ولكن، لماذا يطابق هذا خلق «هيلين» كل المطابقة؟ لماذا يسمح لها أن تكون غريبة الأطوار على هذا النحو، وأن تزداد مع الزمن غرابة؟

ـ لا تسأليني، فأنا رجل أعمال واضح. أنا أعيش وأدَع غيري يعيش. ونصيحتي لكما ألا تُقلقا بالكما. إن خطوطًا سوداء ظهرت تحت جفنيكِ ثانية يا «مارجريت»، وأنتِ تعلمين أن ذلك غير مسموح به بتاتًا. كانت خالتكِ أولًا، ثم جاءت أختكِ. لا، إننا لن نسمح بهذا. أليس كذلك يا «ثيوبولد»؟

ودق الجرس، واستطرد:

ـ سأقدم لكما بعض الشاي، ثم عليكما أن تذهبا رأسًا إلى «شارع دوسي»، فأنا لا أحتمل أن تبدو فتاتي في مثل كبر سن زوجها.

وقال «تيبي»:

ـ أنت لم تدرك، على أي حال، وجهة نظرنا.

وأجاب السيد «ويلكوكس»، وكان في حالة معنوية رضيَّة:

ـ لا أظن أني سأدركها أبدًا.

ومال إلى الوراء ضاحكًا من الأسرة الموهوبة، المضحكة برغم مواهبها، بينما رقصت ألسنة النار فوق خريطة أفريقيا. وأومأت «مارجريت» لأخيها أن يستمر. وأطاعها في شيء من الإحجام، وقال:

ـ وجهة نظر «مارجريت» هي أن أختنا قد تكون مجنونة.

وتلَفت «تشارلز» فيما حوله، وكان يعمل في الغرفة الداخلية، فقالت «مارجريت» في لطف:

ـ ادخل يا «تشارلز»، فهل تستطيع أن تعيننا على نحو ما؟ لقد وقعنا في الضيق ثانية.

ـ أخشى ألا أستطيع شيئًا. ما هي الوقائع؟ إننا جميعًا مجانين في هذه الأيام بقدر متفاوت كما تعلمين.

وأجاب «تيبي» الذي كان في أسلوبه وضوح تشوبه الحذلقة في بعض الأحيان:

ـ الوقائع هي كما يلي: إن لها في إنجلترا ثلاثة أيام، ولا ترضى أن ترانا. وحظرت على الصيارفة أن يدلونا على عنوانها. وهي ترفض الإجابة عن أسئلتنا. وترى «مارجريت» أن رسائلها لا لون لها. وهناك وقائع أخرى، ولكن التي ذكرتها هي أشدها لفتًا للنظر.

وسأل «هنري»:

ـ أهي إذن لم تتصرف من قبل قَطُّ على هذا النحو؟

وقالت زوجته مقطبة:

ـ لا، بالطبع.

ـ حسنًا يا عزيزتي. وكيف لي أن أعلم بذلك؟

وأصيبت بنوبة غيظ حمقاء، وقالت:

ـ أنت تعلم حق العلم أن «هيلين» لا تخطئ في حق المودة، ولا شك أنك لاحظت ذلك القدر من طباعها.

ـ أوه، نعم. لقد كنت أنا وهي دائمًا على تفاهم.

ـ لا، يا «هنري». ألا تستطيع أن ترى؟ أنا لا أقصد ذلك.

واستعادت جأشها، ولكن بعد أن لاحظها «تشارلز». فقد كان يرقب المشهد وهو الغبي المنتبه.

ـ الذي عنيته هو أن المرء كان يستطيع، في حالة جنوحها إلى الشذوذ فيما مضى، أن يرد ذلك الشذوذ في النهاية إلى القلب. لقد كانت تغرب في تصرفاتها لأنها تحب شخصًا ما، أو لأنها تريد مد يد العون إليه. أما الآن فليس لها عذر ممكن القبول. إنها تسبب لنا حزنًا عميقًا، وهذا ما جعلني على ثقة من أنها ليست بخير. إن كلمة «مجنونة» رهيبة جدًّا، ولكن «هيلين» ليست بخير. أنا لن أصدق أبدًا. وما كنت لأناقشك في أمر أختي لو ظننت أنها بخير. أعني أني لم أكن لأزعجك في شأنها.

وبدا الجد على «هنري»، فاعتلال الصحة عنده مسألة محددة كل التحديد. ولما كان في صحة جيدة بوجه عام فقد عجز عن أن يدرك أن الناس ينحدرون إلى اعتلال الصحة بالتدريج البطيء. والمرضى ليست لهم حقوق، فهم خارج السياج. وفي وسع الإنسان أن يكذب عليهم من دون أن يؤنبه ضميره. وقد وعد «هنري» زوجته الأولى، عندما دهمها المرض، أن يذهب بها إلى هرتفوردشير، ولكنه بدلًا من أن ينفذ وعده رتب في هذه الأثناء أمره على نقلها إلى دار للتمريض. و«هيلين» أيضًا كانت مريضة، والخطة التي رسمها ليأسرها بها، رغم ما تميزت به من مهارة وحسن نية، قد استمدت فلسفتها الأخلاقية من قطيع الذئاب.

قال:

ـ أتريدين الوصول إليها؟ هذه هي المشكلة، أليس كذلك؟ لا بد أن تذهب إلى طبيب.

ـ لقد استشارت طبيبًا فيما أعلم.

ـ نعم، نعم. لا تقاطعي.

وهبَّ واقفًا على قدميه، وأنعم الفكر، وتوارى صاحب الدار الأنيس الذي يحاول إرضاء ضيوفه، ورأيا بدلًا منه الرجل الذي اقتطع المال من اليونان وأفريقيا، واشترى الغابات نظير زجاجات معدودة من خمر الجن.

قال في النهاية:

ـ وجدتها. الفكرة سهلة جدًّا. اتركا الأمر بين يديَّ. سنرسلها إلى «هواردز إند».

ـ وكيف تصل إلى هذا؟

ـ ستذهب وراء كتبها. قُولا لها إنه يجب أن تفرغ الكتب في صناديقها بنفسها، ثم تستطيعان مقابلتها هناك.

ـ ولكن هذا يا «هنري» هو بالذات الذي لن تمكِّنني هي من أدائه، فدورها الذي تلعبه الآن ـ أيًّا كان هذا الدور ـ هو ألا تراني أبدًا.

ـ أنتِ لن تخبريها طبعًا بأنكِ ستذهبين. وعندما تكون هي هناك تتفحص صناديق الكتب، تدلفين أنتِ إلى داخل الدار. وإذا كانت الحال على ما تروم فخيرًا. ولكن السيارة ستكون منتظرة وراء الناصية، ونستطيع أن نذهب بها إلى طبيب إخصائي في غمضة عين.

وهزت «مارجريت» رأسها وقالت:

ـ هذا مستحيل كل الاستحالة.

ـ لماذا؟

وقال «تيبي»:

ـ ولكنه لا يبدو مستحيلًا في نظري. فالخطة محكمة من دون مراء.

ـ إنها مستحيلة لأن...

وألقت على زوجها نظرة حزينة واستطردت:

ـ لأن هذه ليست اللغة التي نتحدث بها أنا و«هيلين»، إن كنت تدرك ما أعني. إنها تنجح نجاحًا باهرًا مع أناس آخرين لا ألومهم.

وقال «تيبي»:

ـ ولكن «هيلين» لا تتحدث. وهذه هي كل الصعوبة التي نعانيها. إنها تأبى التحدث بلغتكِ الخاصة، وعلى هذا فأنتِ تظنينها مريضة.

ـ لا، يا «هنري»، هذا لطيف منك، ولكني لا أستطيع.

وقال:

ـ فهمت، فهناك وساوس تساوركِ.

ـ أظن ذلك.

ـ وأنتِ أميل إلى ترك أختكِ تتألم، من أن تتصرفي تصرفًا يعارض هذه الوساوس. لقد كنتِ تستطيعين أن تستدرجيها إلى سوانيج بكلمة منكِ، ولكن كانت لديكِ وساوس. والوساوس لا بأس بها. وأحسبني موسوَسًا كأي مخلوق. ولكن عندما تكون الحالة كهذه، عندما تكون هناك مسألة جنون...

ـ أنا أنكر أنها مسألة جنون.

ـ ولكنكِ قلتِ الآن فقط...

ـ إنها مسألة جنون عندما أقول أنا ذلك، ولكن الأمر يختلف عندما تقوله أنت.

وهز «هنري» كتفيه وقال وهو يئن:

ـ «مارجريت»! «مارجريت»! ليس هناك تعليم يمكن أن يُلقن للمرأة المنطق. والآن فاعلمي يا عزيزتي أن الوقت ثمين. أتريدين أن أعاونكِ أم لا؟

ـ لا أريد المعاونة على هذا النحو.

ـ أجيبي عن سؤالي، سؤال واضح وإجابة واضحة: أأنتِ...

وأدهشهما «تشارلز» بقوله مقاطعًا:

ـ أبي، خير لنا أن تبقى «هواردز إند» خارجًا عن هذا الموضوع.

ـ لماذا يا «تشارلز»؟

وعجز «تشارلز» عن ذكر السبب. ولكن «مارجريت» شعرت بأن تحية تبودلت بينهما على بُعد الشُّقة. وقال الفتى في غضب:

ـ المنزل كله في حالة فوضى، ونحن لا نريد مزيدًا من الارتباك.

وسأله أبوه:

ـ من هم «نحن»؟ يا ولدي، من «نحن» بربك؟

وقال «تشارلز»:

ـ عفوًا كبيرًا، فيبدو أني أتطفل دائمًا.

وتمنت «مارجريت» عند ذاك لو أنها لم تذكر متاعبها لزوجها قَطُّ، إن النكوص على الأعقاب صار مستحيلًا، فقد عقد عزمه على أن يدفع الأمر إلى نهايته المرضية. وتلاشت «هيلين» بينما كان يتكلم، فشعْر رأسها الأشقر المتطاير، وعيناها المتشوفتان، كل هذا لا وزن له، ذلك لأنها مريضة، بلا حقوق، وأي واحد من أصدقائها يصح أن يتصيدها. وانضمت «مارجريت» إلى المطاردة موجَعة القلب. وكتبت رسالة كاذبة إلى أختها أملاها عليها زوجها، وقالت فيها إن الأثاث في «هواردز إند»، ولكنها تستطيع الحضور هناك في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الاثنين الآتي حيث ستجد خادمة أجيرة في خدمتها. كانت الرسالة باردة، ولهذا كانت معقولة أكثر. ستظن «هيلين» أن «مارجريت» مستاءة منها. وفي يوم الاثنين الآتي ستتناول «مارجريت» و«هنري» الغداء مع «دوللي»، ثم يكمنان في الحديقة.

وبعد انصراف «مارجريت» وأخيها قال السيد «ويلكوكس» لابنه:

ـ أنا لا أقبل مثل سلوكك هذا يا ولدي. إن «مارجريت» أشد دماثة من أن تأبه بالأمر، ولكني آبه به.

ولم يُحِر «تشارلز» جوابًا.

ـ هل أصابك شيء بعد ظهر اليوم يا «تشارلز»؟

ـ لا، يا أبي، ولكنك قد تكون مُقدِمًا على أمر أكبر مما تقدِّر.

ـ كيف؟

ـ لا تسألني.

## الفصل الخامس والثلاثون

يتحدث المرء عن أحوال الربيع المتغيرة، ولكن الأيام التي هي ذرية الربيع الصادقة لها حالة واحدة؛ فهي كلها ملأى بالرياح التي تهب وتسكن، وبالعصافير التي تغرد، وقد تتفتح أزهار جديدة، وتتكاثر خضرة السياجات المرصعة، ولكن نفس السماء اللينة الزرقاء تَرْخم كالدجاجة فوق الوجود، ونفس الوجوه المرئية والخفية تحوم في الحراج والمروج. وقد كان الصباح الذي قضته «مارجريت» مع الآنسة «أفري»، والعصر الذي خرجت فيه لتتصيد «هيلين»، مثل كفتَي ميزان واحد. وكأن الزمن لم يتحرك قَطُّ، والمطر لم يهطل قَطُّ، والإنسان وحده، بمشروعاته وآلامه، هو الذي يزعج الطبيعة حتى يراها من خلال ستار من الدموع.

إنها لم تَعُد تحنَج. وسواء أكان «هنري» مصيبًا أم مخطئًا، فقد بلغ غاية العطف، وهي لم تعرف مقياسًا آخر تقيسه به وتحكم له أو عليه. لا بد لها أن تثق فيه ثقة مطلقة. وهو لا يضطلع بمهمة حتى يتبدد كلاله على الأثر. وكان يفيد من أتفه الدلالات، وكانت عملية اصطياد «هيلين» تبشر بأن سيتم تنظيمها بنفس المهارة التي نظم بها عُرس «إيفي».

ذهبا إلى هناك صباحًا حسب الخطة وقد تبين «هنري» أن طريدتهما كانت في هيلتون فعلًا. وقد دار، إثر نزوله بالبلدة، على جميع محلات تأجير الخيل والعربات، وقضى بضع دقائق في تبادل حديث جاد مع أصحابها. ولم تعرف «مارجريت» قَطُّ ما قاله، وقد يكون بعيدًا عن الصدق. ولكن نبأ أتى بعد الغداء بأن سيدة وصلت بقطار لندن، وأنها استقلت عربة إلى «هواردز إند».

وقال «هنري»:

ـ كانت مضطرة إلى الذهاب، فهناك توجد كتبها.

وقالت «مارجريت» للمرة المائة:

ـ لست أستطيع أن أفهم.

ـ أتمنى شرب القهوة. فلا بد لنا من الرواح الآن.

وقالت «دوللي»:

ـ نعم، يا «مارجريت»، فأنتِ تعلمين بأنه لا بد لكِ من شرب الكثيرِ منها.

وحاولت «مارجريت» ذلك. ولكنها رفعت يدها إلى عينيها فجأة. وأرسلت «دوللي» إلى حميها نظرات سريعة لم يردَّ عليها، ودارت السيارة وسط هزات السكون ووقفت أمام الباب.

وقال في قلق:

ـ أنتِ لا تصلحين لهذه المهمة، فدعيني أذهب وحدي، أنا أعلم ما يجب عمله على وجه التحديد.

وقالت «مارجريت» وهي ترفع يدها عن وجهها:

ـ أجل إني صالحة للمهمة، وكل ما في الأمر أني مهمومة إلى حدٍّ مزعج. فأنا لا أستطيع أن أشعر بأن «هيلين» على قيد الحياة فعلًا، وتبدو رسائلها وبرقياتها كأنها مرسَلة من شخص آخر فصوتها لا يسمع فيها. وأنا لا أعتقد أن سائق سيارتك رآها في المحطة حقًّا، وبودي لو أني لم أذكر لك الأمر قَطُّ. وأنا أعلم أن «تشارلز» يتميز غيظًا. نعم، إنه...

وأمسكت بيد «دوللي» وقبلتها قائلة:

ـ إن «دوللي» ستغفر لي. والآن علينا أن نذهب.

وكان «هنري» ينظر إليها بإمعان، ولم يرُق له هذا الانهيار، وسألها:

ـ ألا تريدين أن تسوِّي هندامكِ؟

ـ ألديَّ وقت؟

ـ نعم. متسع منه.

واتجهت إلى المغتسل مخترقة الباب الأمامي، وما كاد المزلاج يرتج الباب حتى قال السيد «ويلكوكس» في هدوء:

ـ «دوللي»! سأذهب من دونها.

واشتعلت عينا «دوللي» بانفعال سوقي. وتبعته على أطراف أصابع قدميها إلى السيارة:

ـ قولي لها إني رأيت ذلك أفضل.

ـ نعم، يا سيد «ويلكوكس». فهمت.

ـ قولي لها ما يروق لكِ. حسنًا.

وبدأت السيارة في التحرك بداية حسنة، وكانت ستنطلق بعيدًا لو أن حظًّا عاديًّا واتاها. ولكن «بورجلي-ووجلز» الذي كان يلعب وقتذاك في الحديقة اختار هذه اللحظة ليجلس في وسط الممر. وصعد «كرين» بإحدى عجلات السيارة فوق أحد أحواض الزهور وهو يحاول أن يتفاداه. وصرخت «دوللي». وخرجت «مارجريت» مندفعة بلا قبعة إذ سمعت الضجيج. وقفزت في آخر لحظة إلى سلم السيارة، ولم تفُه بكلمة. إنه لا يعاملها إلا كما عاملت هي «هيلين». وقد ساعدها غضبها من عدم أمانته على إيضاح ما سوف تحسه «هيلين» من شعور ضدهما. وجال بذهنها هذا الخاطر: «أنا أستحق ذلك. وقد عوقبت لأني تخليت عن مبادئي». وقبلت اعتذارات زوجها بهدوء أدهشه.

وظل يقول:

ـ أنا لا أزال أراكِ غير صالحة لهذه المهمة.

ـ لعلي كنت كذلك وقت الغداء. ولكن المسألة كلها مبسوطة أمامي الآن في وضوح.

ـ كنت أقصد أن أعمل للخير.

ـ أعرني فقط وشاحك، أتسمح لي به فالرياح تعبث بشعري عبثًا شديدًا؟

ـ بالطبع يا فتاتي العزيزة. أأنتِ على ما يرام الآن؟

ـ انظر! إن يديَّ كفتا عن الارتجاف الآن.

ـ وهل صفحتِ عني الآن كل الصفح؟ اسمعي إذن. إن عربتها لا بد وصلت إلى «هواردز إند» الآن. لقد تأخرنا قليلًا، ولكن لا بأس. وستكون أولى خطواتنا أن نرسل العربة لتنتظر في المزرعة، لأننا نريد أن نتحاشى إثارة ضجة على مشهد من الخدم، إن أمكن ذلك. وهناك رجل ما (وأشار إلى ظهر «كرين») لن يقود السيارة داخل فناء المنزل، ولكنه سينتظر قريبًا من البوابة الأمامية، وراء شجر الغار. ألا تزال مفاتيح المنزل معكِ؟

ـ نعم.

ـ حسنًا. نحن في غير حاجة إليها. أتذكرين أوضاع المنزل؟

ـ نعم.

ـ إذا لم تجديها تحت سقيفة الباب، فسندور وندخل الحديقة. إن غايتنا...

وهنا توقفت السيارة لاستصحاب الطبيب.

ـ كنت أقول الآن لزوجتي، يا «مانزبريدج»، إن غايتنا الرئيسية هي ألا نُفزع الآنسة «شليجل». إن المنزل ملكي كما تعلم، وعلى ذلك سيبدو وجودنا هناك طبيعيًّا جدًّا. ومن الواضح أن تعبها عصبي. ألا ترين ذلك يا «مارجريت»؟

وبدأ الطبيب، وهو رجل في شرخ الشباب، يسأل الأسئلة عن «هيلين». أهي طبيعية؟ أيوجد أي عيب خلقي، أو عيب وراثي؟ أوَقع لها أي شيء قمين أن يبعدها عن أسرتها؟

وأجابت «مارجريت»:

ـ لا شيء من هذا القبيل.

وهي تسائل نفسها ماذا كان يحدث لو أضافت قولها: «ولو أن أختي تقززت من فساد خلق زوجي».

وواصل «هنري» حديثه وهو يضطجع إلى وراء في السيارة إذ كانت تمر بالكنيسة مرورًا خاطفًا.

ـ كانت على الدوام في حالة توتر شديد، وبها ميل إلى البحث في الأرواح ومثل هذه الأمور، وإن لم يكن هناك شيء جدي؛ ميل موسيقي وأدبي وفني، ولكن في رأيي إنها طبيعية. فتاة فتانة جدًّا.

وازداد غضب «مارجريت» وفزعها لحظة بعد أخرى. كيف يجرؤ هذان الرجلان على دمغ أختها! أي أهوال تكمن أمامها، أي وقاحات تحتمي في اسم «العلم»! إن قطيع الذئاب يهاجم «هيلين» لإنكار ما لها من حقوق إنسانية، وبدا لـ«مارجريت» أن أمثال آل «شليجل» جميعهم مهددون معها. «أهم طبيعيون؟» يا له من سؤال يطرح! والذين يطرحونه هم دائمًا أولئك الذين لا يعرفون شيئًا عن الطبيعة البشرية، هم الذين يضايقهم علم النفس،

ويصدمهم علم وظائف الأعضاء. ومهما تكن حالة أختها مثيرة للشفقة، فهي تعلم أنها لا بد واقفة في صفها. وستكونان مجنونتين معًا إذا اختار العالم أن يعدَّهما كذلك.

كانت الساعة الآن الثالثة وخمس دقائق. وخففت السيارة من سرعتها عند المزرعة التي كانت الآنسة «أفري» واقفة في حوشها. وسألها «هنري» عما إذا كانت قد مرت عربة من هناك، وأومأت برأسها علامة الإيجاب. ولم تمر لحظة حتى وقع بصرهما عليها في نهاية الزقاق، وانطلقت السيارة في صمت كأنها وحش مفترس، ولم تساور «هيلين» أي ريبة إلى حدٍّ أنها جلست تحت السقيفة مولية ظهرها للطريق. لقد حضرت. ولم يبدُ منها غير رأسها وكتفيها إذ كانت محوطة بتعريشة الكَرْم. وكانت إحدى يديها تداعب براعم الزهور. وعبثت الريح بشعرها، ومجَّدته الشمس؛ لقد كانت كما اعتادت أن تكون دائمًا.

كانت «مارجريت» تجلس إلى جوار باب السيارة، وانسلت منها قبل أن يتمكن زوجها من منعها، وركضت إلى باب الحديقة الذي كان مغلقًا، ومرت منه، ودفعته في وجه زوجها عن عمد. وأزعج الصوت «هيلين». ورأتها «مارجريت» تنهض بحركة غير مألوفة، وأدركت التفسير البسيط لمخاوفهما كلها وهي تندفع إلى سقيفة الباب: كانت أختها حبلى.

ونادى «هنري»:

ـ هل الشاردة بخير؟

وأتيح لها الوقت لتهمس:

ـ أوه، يا حبيبتي...

كانت مفاتيح الدار في يدها، ففتحت باب «هواردز إند» ودفعت «هيلين» إلى داخله وقالت:

ـ نعم، بخير.

ووقفت وظهرها إلى الباب.

## الفصل السادس والثلاثون

قال «هنري»:

ـ «مارجريت»، يبدو عليكِ الاضطراب!

وتبعه «مانزبريدج». وكان «كرين» عند باب الحديقة، وسائق العربة يقف عند مقعده في العربة. وحركت «مارجريت» رأسها لهم، فقد عجزت عن النطق بكلمة أخرى. وظلت متشبثة بالمفاتيح كأن مستقبلهم بأسره متوقف عليها. ووالى «هنري» أسئلته فحركت له رأسها من جديد. وبدا لها كلامه بلا معنى. وسمعته يتساءل لمَ أدخلت «هيلين» إلى المنزل، ثم ملاحظة أخرى أبداها:

ـ كان يمكن أن تصدميني بباب الحديقة.

وعلى أثر ذلك سمعت نفسها تتكلم، قالت، هي أو شخص آخر يقول على لسانها:

ـ انصرف.

وازداد «هنري» اقترابًا، وكرر قوله:

ـ «مارجريت»، يبدو عليكِ الاضطراب من جديد، ناوليني المفاتيح يا عزيزتي. ماذا أنتِ صانعة بـ«هيلين»؟

ـ يا عزيزي أرجو أن تنصرف. أنا سأتولى الأمر كله.

ـ تتولين ماذا؟

ومد يده ليأخذ المفاتيح، وكان يمكن أن تناوله إياها لولا وجود الطبيب. وقالت في حزن:

ـ كُف عن هذا على الأقل.

وكان الطبيب قد دار وذهب إلى سائق عربة «هيلين» يسأله. وتولاها شعور جديد: كانت تقاتل الرجال في سبيل النساء، إنها لم تهتم بالحقوق، ولكن إذا دخل الرجال «هواردز إند» فلن يكون ذلك إلا فوق جثتها.

وقال زوجها:

ـ تعالَي، إن هذه بداية غريبة.

وتقدم إليهما الطبيب الآن، وهمس كلمتين في أذن السيد «ويلكوكس». لقد ذاع سر الفضيحة، ووقف «هنري» يحدق في الأرض وقد فزع فزعًا صادقًا.

وقالت «مارجريت»:

ـ ليست لي حيلة في الأمر. انتظر. الخطأ ليس خطئي. أرجوكم أنتم الأربعة أن تنصرفوا الآن.

وأخذ سائق العربة يهمس الآن في أذن «كرين»، وقال الطبيب الشاب:

ـ نحن نعتمد عليكِ لتعاونينا يا سيدة «ويلكوكس». أيمكن أن تدخلي وتقنعي أختكِ بالخروج إلينا؟

وقالت «مارجريت» فجأة وهي تحدق في عينيه:

ـ على أي أساس؟

وغمغم شيئًا عن الانهيار العصبي، ظنًّا منه أن حكم المهنة يقتضي المراوغة.

ـ أرجو المعذرة، ولكنها لا تشكو شيئًا من هذا القبيل. وأنت غير مؤهل للعناية بحالة أختي. وإذا احتجنا إلى خدماتك يا سيد «مانزبريدج» فسنبلغك ذلك.

وأجاب الطبيب:

ـ أنا أستطيع، إذا شئتِ، أن أشخص الحالة بصراحة أكثر.

ـ يمكنك ذلك، ولكنك لم تفعل. وأنت لذلك غير مؤهل للعناية بأختي.

وقال «هنري» من دون أن يرفع عينيه فتيلًا:

ـ هيا، هيا يا «مارجريت»! إن هذه مسألة مفزعة، مسألة مروعة. إنه أمر الطبيب! افتحي الباب.

ـ معذرة، ولكني لن أفتحه.

ـ أنا لا أوافق على ذلك.

وصمتت «مارجريت». وأضاف الطبيب:

ـ إن هذه المسألة عريضة بقدر ما هي طويلة. ويحسن بنا أن نعمل معًا. أنتِ في حاجة إلينا يا سيدة «ويلكوكس»، ونحن في حاجة إليكِ.

وقال «هنري»:

ـ الأمر كذلك تمامًا.

وقالت «مارجريت»:

ـ أنا في غير حاجة إليك البتة.

ونظر الرجلان كل إلى الآخر في قلق.

ـ وأختي التي لا يزال أمامها بضعة أسابيع لتضع مولودها، ليست أشد حاجة إليك مني.

ـ «مارجريت»! «مارجريت»!

ـ حسنًا يا «هنري». دع طبيبك ينصرف، فأي فائدة يمكن أن تجنى منه الآن؟

وجال السيد «ويلكوكس» ببصره في المنزل. وتولاه شعور غامض بأن عليه أن يكون حازمًا ويؤيد الطبيب. وقد يحتاج هو نفسه إلى تأييد، فهناك متاعب ستواجهه. وقالت «مارجريت»:

ـ الأمر كله يدور حول المحبة... المحبة. ألا ترى؟

وعادت إلى طرقها المعتادة، فكتبت كلمة «محبة» بإصبعها على حائط الدار. واستأنفت قولها:

ـ أنت ترى الأمر من دون شك، فأنا أحب «هيلين» كثيرًا، وأنت لا تحبها مثلي. والسيد «مانزبريدج» لا يعرفها. هذا كل ما في الأمر، والمحبة حين تكون متبادَلة تُخول الحقوق. اكتب هذا في مفكرتك يا سيد «مانزبريدج»، فهو «وصفة» مفيدة.

وطلب إليها «هنري» أن تهدأ.

وقالت «مارجريت» وهي تبسط ذراعيها:

ـ إنكما لا تعرفان أنتما أنفسكما ماذا تريدان. فلو أفصحتما عن رأي واحد معقول لمكنتكما من الدخول، ولكنكما لا تستطيعان ذلك. إنكما ستزعجان أختي لغير ما سبب، وأنا لن أسمح بمثل هذا، وإني لأؤثر عليه أن أقف هنا طوال اليوم.

وقال «هنري» بصوت منخفض:

ـ «مانزبريدج»، لعل الأجدر إرجاء الأمر.

وأخذ قطيع الذئاب يتفرق. وعاد «كرين» كذلك إلى السيارة بإشارة من سيده.

وقالت «مارجريت» لـ«هنري» في رفق، ولم تكن قد وجهت إليه شيئًا من القول اللاذع:

ـ أما أنت يا «هنري» فاذهب الآن يا عزيزي. لا ريب أني سأحتاج إلى نصيحتك فيما بعد. وإذا كنت قد غضبت فمعذرة. ولكن لا بد من انصرافك حقًّا.

وكان شديد الغباء بحيث لم يُرِد أن يتركها. وفي هذه المرة كان السيد «مانزبريدج» هو الذي ناداه بصوت منخفض.

وصاحت وقد تعالى في النهاية صليل باب الحديقة بينهما:

ـ سأراك بعد قليل في بيت «دوللي».

وتحركت العربة من الطريق ورجعت السيارة إلى وراء، ودارت قليلًا ثم عادت إلى وراء ثانية، وعرجت على الطريق الضيق. وأقبل رتلٌ من عربات المزرعة وزحمت الطريق. ولكن «مارجريت» انتظرت حتى مرت جميعًا، فلم يكن هناك داعٍ للعجلة. وبعد أن انتهى كل شيء، وتحركت السيارة من جديد، فتحت البابَ وقالت:

ـ أوه، يا حبيبتي! يا حبيبتي، سامحيني.

وكانت «هيلين» تقف في الردهة.

## الفصل السابع والثلاثون

أرتجت «مارجريت» الباب من الداخل. وكانت ستقبِّل وقتذاك أختها، ولكن «هيلين» قالت بصوت وقور خرج غريبًا من فمها:

ـ يا لها من طريقة مريحة! أنتِ لم تخبريني أن الكتب كانت مفكوكة الرباط. لقد وجدت منها كل ما أردت تقريبًا.

ـ أنا لم أقُل لكِ شيئًا واحدًا حقيقيًّا.

ـ كان الأمر مفاجأة كبيرة بالتأكيد. وهل خالتي «جولي» كانت مريضة حقًّا؟

ـ «هيلين»! إنكِ لا تحسبين أني لفقت ذلك؟

وقالت «هيلين»:

ـ أظن لا.

ودارت مبتعدة. وبكت قليلًا جدًّا وأردفت:

ـ ولكن المرء يفقد الثقة في كل شيء بعد هذا.

ـ ظننا ما بك يرجع إلى المرض، ولكن حتى في هذه الحالة، لم يكن مسلكي شريفًا.

واختارت «هيلين» كتابًا آخر.

ـ لم يكن يجدر بي أن أستشير أحدًا. ماذا كان يرى أبي فيما أتيت؟

ولم تفكر في استجواب أختها، ولا في تقريعها. قد يكون الأمران ضروريين في المستقبل. ولكن كان لا بد لها أولًا من التكفير عن جريرة أكبر من أي جريرة يمكن أن تقترفها «هيلين»: جريرة الافتقار إلى الثقة، وهي من عمل الشيطان.

وأجابت «هيلين»:

ـ نعم، أنا متكدرة إذ كان من الواجب أن تحترم رغباتي. لم أكن أمانع في هذا اللقاء لو كان ضروريًّا، ولكنه لم يَعُد كذلك بعد شفاء خالتي «جولي». إن وضع خطة لحياتي، كما يجب أن أفعل الآن...

وصاحت «مارجريت»:

ـ ابتعدي عن هذه الكتب. بالله تحدثي إليَّ يا «هيلين».

ـ كنت أقول الآن إني وضعت حدًّا للعيش كيفما اتفق، فالإنسان لا يستطيع معاناة العدد العديد من...

وأسقطت الاسم من عبارتها واستطردت:

ـ من دون أن يرسم خطة لأفعاله منذ البداية. إني سأرزق طفلًا في يونيو. فأولًا، الأحاديث والمناقشات والإثارة ضارة بي. وأنا لن أحجم عن خوضها في حالة الضرورة، ولكن في هذه الحالة فقط. وثانيًا، أنا لا يحق لي أن أزعج الناس. أنا لا أستطيع أن ألائم بيني وبين إنجلترا كما أعرفها. وقد ارتكبت عملًا لن يغفره لي الإنجليز أبدًا، ولن يكون صوابًا منهم أن يغفروه. ولهذا يجب أن أعيش حيث لا يعرفني أحد.

ـ ولكن لماذا لم تخبريني بالأمر يا عزيزتي؟

فأجابت «هيلين» بلهجة القاضي يصدر حكمًا:

ـ نعم، لعله كان واجبًا أن أخبركِ، ولكني آثرت الانتظار.

ـ أعتقد أنكِ كنت ستكتمينه عني على الدوام.

ـ لا لا، كنت سأخبركِ، لقد استأجرنا شقة في ميونخ.

وأطلت «مارجريت» من النافذة.

ـ أنا أقصد نفسي و«مونيكا» بعبارة «استأجرنا». وباستثناء «مونيكا»، أنا أعيش وحدي، وقد ظللت أعيش وحدي، وسأظل أريد العيش وحدي أبدًا.

ـ أنا لم أسمع عن «مونيكا» هذه.

ـ لم يكن ذلك يوافقكِ. فهي إيطالية، من حيث المولد على الأقل. وهي تكسب قوتها من العمل في الصحافة. وكان أول لقاء لي بها في جاردا. و«مونيكا» أنسب إنسان يمكن أن يتكفل بي.

ـ أنتِ إذن مولعة بها جدًّا.

ـ لقد كانت متعقلة في تصرفاتها معي إلى حدٍّ غير عادي.

وحزرت «مارجريت» طراز «مونيكا». إنه الطراز الإيطالي الإنجليزي الذي يسمونه «إيطاليانو إنجليزياتو»، داعية صريحة لحرية المرأة، يحترمها المرء، ولكن يتجنبها. وقد ولَّت «هيلين» وجهها صوبها لحاجتها إليها!

قالت «هيلين» في عطف معتدل:

ـ يجب ألا تظني أننا لن نتقابل أبدًا. وسأحتفظ لكِ دائمًا بغرفة عندما تمكنين من المجيء، وكلما أمكنكِ أن تطيلي مكثكِ معي كانت إطالته أفضل. ولكنكِ لم تفهمي بعد يا «ميج»، وفهمُ المسألة صعب عليكِ جدًّا بالطبع، إن هذه صدمة لكِ ولكنها ليست كذلك بالنسبة لي أنا التي ظللت أفكر في مستقبلنا الشهور الطوال، وهذا المستقبل الذي رسمته لن يتغير لعارض كهذا. أنا لن أستطيع الحياة في إنجلترا.

ـ «هيلين»، أنتِ لم تغفري لي خدعتي، فلو أنكِ غفرتِها لي لما استطعتِ أن تخاطبيني على هذا النحو.

ـ أوه، يا عزيزتي «ميج»، ما جدوى الحديث على الإطلاق؟

وأسقطت كتابًا، وتنهدت بملل. ثم قالت بعد أن ثابت إلى نفسها:

ـ خبريني عن سبب وجود الكتب هنا في سفل الدار؟

ـ سلسلة من الأخطاء.

ـ وجانب كبير من الأثاث حُل رباطه.

ـ كل هذا الأثاث.

ـ من يقطن هنا إذن؟

ـ ليس من أحد.

ـ ولكني أظن أنكم تعرضون الدار للإيجار.

وقالت «مارجريت» مقطبة:

ـ الدار ميتة، فلماذا نزعج أنفسنا بها؟

ـ ولكني مهتمة بالأمر. أنتِ تتحدثين كما لو أني فقدت كل اهتمام بالحياة، أنا لا أزال «هيلين» كما أرجو. هذه الدار لا تشعركِ بأنها ميتة، فالردهة تبدو أكثر حياة حتى مما كانت في الأيام القديمة التي كانت تحوي خلالها أثاث أسرة «ويلكوكس».

ـ أأنتِ مهتمة بالأمر؟ حسنًا جدًّا، يخيل إليَّ أنه يجب أن أخبركِ. لقد أعارنا زوجي البيت بشرط أننا... ولكن حدث أن فُك رباط أثاثنا كله بغلطة من الأغلاط، والآنسة «أفري» بدلًا من أن...

وتوقفت عن هذا القول وأردفت:

ـ اسمعي. أنا لا أستطيع أن أواصل هذا. أنا أنبهكِ إلى أنني أرفض أن أواصله. يا «هيلين»، لماذا أنتِ قاسية عليَّ إلى هذا الحد الفظيع لمجرد أنكِ تكرهين «هنري»؟

قالت «هيلين»:

ـ أنا لا أكرهه الآن. أنا لم أعُد تلميذة. وأقول لكِ مرة أخرى يا «ميج» إني لم أكن قاسية. ولكن فيما يتعلق بالتوفيق بيني وبين حياتكم الإنجليزية، فلا... أبعدي ذلك عن ذهنكِ في الحال. تصوري قيامي بزيارة لـ«شارع دوسي»! هذا غير معقول.

ولم تستطع «مارجريت» أن تعارضها. وكان من المفزع لها أن تراها تمضي بهدوء إلى أمام بخططها من دون أن تبدي مرارة أو انفعالًا، ودون أن تؤكد براءتها، أو تُقر بخطئها، راغبة في شيء واحد هو حريتها وصحبة أولئك الذين لن يلوموها. لقد قاست... كم قاست؟! لم تعلم «مارجريت». ولكن ما قاسته كان كافيًا للابتعاد بها عن العادات القديمة وعن الأصدقاء القدماء.

وقالت «هيلين» التي كانت قد فرغت من اختيار كتبها، وتمهلت متفحصة الأثاث:

ـ حدثيني عن نفسكِ.

ـ ليس هناك ما يقال.

ـ ولكن، أكان زواجكِ سعيدًا يا «ميج»؟

ـ نعم. ولكني لا أشعر بميل إلى الكلام.

ـ أنتِ تشعرين بنفس ما أشعر به.

ـ ليس الأمر كذلك. ولكني لا أستطيع الكلام.

ـ وأنا لست أقدرَ عليه منكِ. إنه لشيء مزعج، ولكن لا فائدة من المحاولة.

لقد دخل بينهما شيء، لعله المجتمع الذي سيقصي «هيلين» منذ الآن. ولعله شيء حي ثالث يملك القوة الآن فعلًا بوصفه روحًا. إنهما لم تستطيعا أن تجدا نقطة تلتقيان فيها. لقد تألمت كل منهما ألمًا حادًّا، ولم تجدا أي عزاء في علمهما بأن المحبة ما زالت باقية.

ـ اسمعي يا «ميج»، هل الطريق خالٍ؟

ـ أتعنين أنكِ ترغبين في فراقي؟

ـ أعتقد ذلك يا سيدتي الكبيرة العزيزة! فليس ثمة أي فائدة. لقد علمتِ أنه لن يكون لدينا شيء نقوله. أبلغي حبي للخالة «جولي»، ولـ«تيبي»، وخذي منه لنفسك أكثر مما أستطيع التعبير عنه. عِديني أن تأتي لزيارتي بميونخ فيما بعد.

ـ هذا مؤكد يا عزيزتي.

ـ لأن ذلك هو غاية ما نستطيع عمله.

وبدا أن الأمر كذلك. وكان أبشع ما في هذا كله منطق «هيلين» العملي. إن «مونيكا» في حالتها هذه أنفع رفيق لها.

ـ أنا سعيدة لرؤيتكِ ورؤية هذه الأشياء.

ونظرت إلى صندوق الكتب في محبة وكأنها كانت توَدع الماضي.

وفتحت «مارجريت» قفل الباب، معقبة:

ـ انصرفت السيارة، وعربتكِ هنا.

واتخذت «مارجريت» طريقها إلى العربة وهي ترمق ورق الشجر والسماء. ولم يبدُ الربيع أروع جمالاً مما بدا الآن قَطُّ، وصاح سائق العربة الذي كان يتكئ على باب الحديقة:

ـ عفوًا يا سيدتي، هذه رسالة لكِ.

وناولها من خلال قضبان الباب بطاقة زيارة للسيد «ويلكوكس».

وسألته:

ـ كيف وصلت هذه الرسالة؟

وقال الرجل إن «كرين» عاد بها في نفس اللحظة تقريبًا.

وقرأت البطاقة وهي متضايقة. كانت فيها تعليمات مكتوبة بلغة فرنسية دارجة، فعليها بعد الانتهاء من محادثة أختها أن تعود إلى منزل «دوللي» للمبيت. «ولا بد من التكتم على هذا الموضوع». ولا بد من العثور لـ«هيلين» على «غرفة مريحة في فندق». وقد أسخطتها هذه العبارة الأخيرة سخطًا شديدًا إلى أن تذكرت أن منزل «تشارلز» لا يحتوي إلا على غرفة واحدة تزيد على حاجة من به، ولذلك لم يكن في مقدور السيد «ويلكوكس» أن يدعو شخصًا ثالثًا. وفكرت شارحة السبب: «لم يكن «هنري» ليتأخر عن أي شيء يستطيعه».

لم تَتْبعها «هيلين» إلى الحديقة، فما فُتح لها الباب حتى فقدت الرغبة في الفرار، وظلت في الردهة تنتقل من صندوق الكتب إلى المائدة. وبدأت تزداد شبهًا بـ«هيلين» القديمة، في استخفافها وظرفها.

وسألت:

ـ أهذا منزل السيد «ويلكوكس»؟

ـ أنتِ بالطبع تذكرين «هواردز إند»؟

ـ أذكره؟ أنا التي تذكر كل شيء! ولكنه يبدو الآن كأنه منزلنا.

وقالت «مارجريت» وقد بدأت معنويتها تنتعش قليلًا:

ـ لقد تصرفت الآنسة «أفري» تصرفًا شاذًّا.

وهاجمها من جديد شعور خفيف بعدم الوفاء لزوجها، ولكنه روَّح عنها، فاستسلمت له، واستطردت:

ـ لقد أحبت السيدة «ويلكوكس»، وقد آثرت أن تفرش المنزل بأثاثنا على أن تتركه خاليًا. وعلى ذلك فها هي ذي كتب المكتبة كلها.

ـ هذه ليست كل الكتب، فهي لم تحل رباط كتب الفن التي كانت كفيلة بإظهار حسن ذوقها، ولم تجرِ عادتنا على أن نضع السيف في هذا المكان.

ـ ولكنه يبدو مع ذلك حسنًا.

ـ رائعًا.

ـ نعم، أليس كذلك؟

ـ وأين البيانو يا «ميج»؟

ـ وضعته في مخزن للأثاث في لندن. لماذا؟

ـ لا شيء.

ـ والعجيب أيضًا أن البساط ينسجم مع لون الأرض.

وأفصحت «هيلين» عن رأيها:

ـ وفرش هذا البساط غلط. أنا أعلم أننا كنا نفرشه في لندن، ولكن هذه الأرض يجب أن تظل عارية، فهي في هذه الحالة أجمل بكثير.

ـ أنتِ لا تزالين مصابة بهوس الأثاث الخفيف. أيهمكِ أن تأتي لترَي غرفة الطعام قبل أن تنطلقي؟ فالأرض عارية من البساط هناك.

ودخلتا الغرفة. وصار حديثهما في كل لحظة طبيعيًّا أكثر من ذي قبل. وصاحت «هيلين»:

ـ أوه، يا له من مكان لوضع خزانة ملابس أمنا!

ـ ولكن انظري إلى المقاعد.

ـ أوه، انظري إليها. كانت واجهة «ويكهام بليس» تطل شمالًا، أليس كذلك؟

ـ شمالًا بغرب.

ـ هذه المقاعد، على أي حال، لم تشعر بالشمس منذ ثلاثين عامًا. تحسسيها، إن ظهورها الصغيرة العزيزة دافئة جدًّا.

ـ ولكن لماذا جعلتها الآنسة «أفري» مرتبة لجلوس اثنين اثنين؟ إني فقط سأ...

ـ هنا يا «ميج». ضعي المقعد بحيث يرى الجالس فيه المرجة.

وزحزحت «مارجريت» مقعدًا، وجلست «هيلين» عليه.

ـ نعـ...ـعم. إن النافذة عالية جدًّا.

ـ جربي أحد مقاعد غرفة الاستقبال.

ـ لا، إن غرفة الاستقبال لا تعجبني إلى هذا الحد، فسَقفها مكسو بالخشب ولولا ذلك لكانت رائعة الجمال.

ـ «هيلين»! يا لذاكرتكِ في حفظ بعض الأمور! أنتِ محقة تمامًا، فهي غرفة أفسدها الرجال من حيث أرادوا أن يجعلوها لطيفة في أعين النساء. إن الرجال لا يعرفون ما نريد...

ـ ولن يعرفوه أبدًا.

ـ أنا لا أوافقكِ. فسوف يعرفونه بعد ألفَي عام.

ـ ولكن المقاعد رائعة المظهر هنا. انظري حيث أراق «تيبي» الحساء.

ـ القهوة. إنها كانت قهوة بالتأكيد.

وهزت «هيلين» رأسها:

ـ مستحيل. فقد كان «تيبي» في ذلك الوقت أصغر بكثير من أن تُقدَّم له القهوة.

ـ أكان أبي على قيد الحياة؟

ـ نعم.

ـ أنتِ إذن على صواب. ولا بد أنه كان حساء. لقد انصرف ذهني إلى واقعة متأخرة عن ذلك جدًّا؛ إلى زيارة خالتي «جولي» غير الموفقة حيث لم تدرك أن «تيبي» قد شب عن الطوق. لقد كانت القهوة هي التي قُدمت له عندئذٍ، وأراقها عن عمد. وكان هناك لحن «شاي، قهوة. قهوة، شاي» تغنيه له عند الإفطار كل صباح. انتظري دقيقة؛ كيف كان ذلك اللحن؟

ـ أنا أعرفه... لا، لست أعرفه. كم كان «تيبي» صبيًّا كريهًا وقتذاك!

ـ ولكن اللحن كان شنيعًا. وليس هناك إنسان مهذب يمكن أن يحتمله.

وصاحت «هيلين»، كأنما الحديقة كانت أيضًا جزءًا من مرتع صباهما:

ـ آه، وشجرة البرقوق تلك! لماذا أربطها بـ«الدمبل»؟ وها هي ذي أسراب الدجاج، وهذه الحشائش في حاجة إلى تقضيب. أنا أحب عصافير «اليلوهامر»...

وقاطعتها «مارجريت» قائلة:

ـ تذكرت الأغنية، فهي:

شاي، شاي، قهوة، شاي

أو شوكولاتة «ريتي»

كان «تيبي» يسمع ذلك كل صباح لمدة ثلاثة أسابيع، فلا عجب إذا استوحش.

وقالت «هيلين»:

ـ إنه الآن ظريف إلى حدٍّ معقول.

ـ ها أنتِ ذي؟ كنت أعلم أنكِ ستقولين ذلك في نهاية الأمر. إنه ظريف بالطبع.

ودق أحد الأجراس.

ـ أنصتي! ما هذا!

وقالت «هيلين»:

ـ لعل أسرة «ويلكوكس» تشرع في الحصار.

ـ هراء. أنصتي.

وتبدد الاهتمام بالتوافه من وجهيهما، ولو أنه خلَّف شيئًا وراءه، ذلك هو علمهما بأنهما لن تستطيعا الفراق لأن جذور حبهما متأصلة في أشياء مشتركة بينهما. لقد أخفقت التفسيرات والتوسلات. لقد حاولتا إيجاد ملتقى مشترك بينهما، فكانت النتيجة أن كلًّا منهما أشقت الأخرى. وكان خَلاصهما موجودًا حولهما طوال الوقت: الماضي الذي يقدس الحاضر، والحاضر الذي يعلن بخفقات القلوب العنيفة أنه سيكون هناك برغم كل شيء مستقبلًا مفعمًا بالضحكات وأصوات الأطفال. وأقبلت «هيلين»، وهي لا تزال تبتسم، على أختها، وقالت:

ـ إنها «ميج» دائمًا.

ونظرت كل منهما في عينَي الأخرى. لقد أثمرت الحياة الباطنة ثمراتها.

ودق الباب دقات جادة. ولم يكن هناك أحد بالباب الأمامي. وتوجهت «مارجريت» إلى المطبخ، وجاهدت لتتخطى صناديق الأثاث إلى النافذة. ولم يكن زائرهما إلا غلامًا صغيرًا يحمل علبة من صفيح. وعادت التوافه ثانية.

ـ ماذا تريد أيها الغلام الصغير؟

ـ من فضلكم، أنا اللبان.

وقالت «مارجريت» بلهجة أقرب إلى الحدة:

ـ أأرسلتك الآنسة «أفري»؟

ـ نعم. من فضلكِ.

ـ عُد باللبن إذن، وقل إننا في غير حاجة إليه.

بينما نادت تقول لـ«هيلين»:

ـ لا، ليس هذا الحصار، بل لعله محاولة لتزويدنا بالمؤن لمقاومة الحصار.

وصاحت «هيلين»:

ـ ولكني أحب اللبن. لماذا تصرفين الغلام؟

ـ أتحبينه، أوه، حسنًا. ولكن ليس لدينا وعاء نضعه فيه، والغلام يريد صفيحته.

وقال الغلام:

ـ من فضلكِ. عليَّ أن أحضر صباح غدٍ لآخذ الصفيحة.

ـ سيكون البيت مغلق الأبواب وقتذاك.

ـ أأُحضر معي في الصباح بيضًا أيضًا؟

ـ أأنت الغلام الذي رأيته في الأسبوع الماضي يلعب بين الأكوام؟

ودلَّى الغلام رأسه.

ـ حسنًا. اركض وعُد إلى ذلك اللعب ثانية.

وهمست «هيلين»:

ـ غلام ظريف، خبرني، ما اسمك؟ أنا اسمي «هيلين».

ـ «توم».

كان هذا الحديث يدل على «هيلين» أولًا عن آخر. إن أفراد أسرة «ويلكوكس» أيضًا قد يسألون طفلًا عن اسمه، ولكنهم لا يذكرون له اسمهم مقابل ذلك أبدًا.

ـ يا «توم». هذه «مارجريت». ولدينا آخر في المنزل يُدعى «تيبي».

وأجاب «توم»، وقد ظن «تيبي» أرنبًا.

ـ إن أرانبي ذات آذان متدلية.

ـ أنت غلام صغير طيب جدًّا، وفيك ذكاء ومهارة، احرص على أن تأتي ثانية. أليس ظريفًا؟

وقالت «مارجريت»:

ـ من دون ريب. من المرجح أنه ابن «مادج»، وهي امرأة شنيعة ولكن لهذا المكان قوى مدهشة.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا أدري.

ـ لأني أتفق معكِ على الأرجح.

ـ إنه يقتل كل ما هو شنيع، ويجعل كل ما هو جميل يعيش.

وقالت «هيلين» وهي ترشف اللبن:

ـ أنا أوافقكِ. ولكنكِ قلتِ منذ نصف ساعة فقط إن المنزل مات.

ـ أعني أني كنت أنا الميتة. لقد شعرت بذلك.

ـ نعم، فللمنزل حياة أصدق من حياتنا حتى ولو كان خاليًا. والواقع أني لا أستطيع أن أتخلص من فكرة انقضاء ثلاثين عامًا من دون أن يغمر نور الشمس أثاثنا. إن «ويكهام بليس» كان مع ذلك قبرًا. «مارجريت»! لديَّ فكرة مفزعة.

ـ ما هي؟

ـ اشربي بعض اللبن لتتمالكي جأشكِ.

وأطاعتها «مارجريت».

وقالت «هيلين»:

ـ لا، أنا لن أخبركِ بعدُ لأنكِ إما ستضحكين وإما ستغضبين. دعينا نصعد إلى الدور العلوي أولًا لتهوية الغرف.

وفتحتا نافذة بعد نافذة إلى أن رفَّ المنزل من الداخل أيضًا مستجيبًا للربيع، وتطايرت الستائر، ونقرت إطارات اللوحات حوائط الغرف نقرًا خفيفًا بهيجًا. وأطلقت «هيلين» صيحات الانفعال عندما وجدت هذا السرير موضوعًا في المكان الملائم، وذاك في المكان غير الملائم. وأبدت سخطها لأن الآنسة «أفري» لم تنقل خزائن الملابس إلى الدور العلوي. «فالمرء كان يمكن حقًّا أن يحكم في هذه الحالة». وأعجبت بالمنظر. لقد كانت نفس «هيلين» التي كتبت منذ أربع سنوات تلك الرسائل التي لا تغيب عن الذاكرة. وقالت وقد أطلتا على الخارج، واتجه نظرهما غربًا.

ـ والآن إليكِ فكرتي: ألا نستطيع أن نقضي الليلة أنا وأنتِ في هذا المنزل؟

وقالت «مارجريت»:

ـ لا أظننا نستطيع.

ـ توجد هنا أسِرة وموائد ومناشف...

ـ أعلم ذلك. ولكن ليس المفروض في هذا المنزل أن يبيت الإنسان فيه. ثم إن اقتراح «هنري» كان أن...

ـ أنا لا أحتاج إلى اقتراحات، ولن أُدخل أي تعديل على خططي. ولكن قضاء ليلة معكِ هنا سيُحدث لي سرورًا كبيرًا. وسيكون أمرًا جديرًا أن تستعيده الذاكرة، أو أيتها العزيزة الظريفة، دعينا نفعل ذلك.

وقالت «مارجريت»:

ـ ولكن، يا «هيلين»، يا بنيتي، إننا لن نستطيع ذلك حتى نحصل على إذن من «هنري». ولا شك أنه لن يبخل به، ولكنكِ قلتِ أنتِ نفسكِ إنكِ لن تستطيعي زيارة «شارع دوسي» الآن، وهذا البيت بيته المألوف.

ـ «شارع دوسي» منزله. أما هذا فمنزلنا نحن. فالأثاث أثاثنا، والناس الذين يطرقون بابه ناس على شاكلتنا، دعينا نعسكر فيه، لليلة واحدة فقط،

وسيمدنا «توم» بالبيض واللبن غذاء، لمَ لا؟ إن الليلة مقمرة.

وترددت «مارجريت». وقالت في النهاية:

ـ أشعر بأن «تشارلز» لن يرضى عن هذا. وحتى أثاثنا قد ضايقه، وكنت سأخلي المنزل منه لولا أن مرض خالتي «جولي» حال دون ذلك. وأنا أشارك «تشارلز» في عاطفته، فهو يشعر بأن المنزل منزل أمه، وهو يحبه بطريقة فيها شيء من الغلظة. وأنا أستطيع أن أتحمل المسؤولية قبل «هنري». أما «تشارلز» فلا.

وقالت «هيلين»:

ـ أنا أعلم أنه لن يحب ذلك. ولكني سأخرج من نطاق حياتهما. وأي فرق سيكون هناك على مدى الزمن فيما إذا قالا: «بل إنها قضت ليلتها في «هواردز إند»»؟

ـ وكيف عرفت أنكِ ستخرجين من نطاق حياتهما؟ لقد فكرنا في هذا مرتين من قبل.

ـ لأن خططي...

ـ التي تغيرينها في لحظة.

فقالت «هيلين» وقد اشتعلت:

ـ إذن لأن حياتي كبيرة، وحياتهما صغيرة. فأنا أعلم عن الأمور ما لا يستطيعان عمله، وكذلك أنتِ. فنحن نعلم أن هناك شعرًا، ونعلم أن هناك موتًا. وهما لا يستطيعان الإلمام بهما إلا سماعًا. ونعلم أن هذا المنزل منزلنا لأنه يعطينا هذا الإحساس. أوه، إنهما يستطيعان أخذ حجج الملكية، ومفاتيح الأبواب، ولكننا نشعر أنه منزلنا هذه الليلة الواحدة.

وقالت «مارجريت»:

ـ إنه لحبيب إليَّ أن أنفرد بكِ مرة أخرى. وقد يكون ذلك حظًّا يصدف مرة في الألف.

ـ نعم، ونستطيع أن نتحدث.

وخفضت صوتها:

ـ ولن تكون قصة مجيدة. ولكني أصدقكِ القول بأني أجد تحت شجرة الغرغار الجبلي هذه قليلًا من السعادة ينتظرني. ألا يمكن أن تكون لي هذه الليلة الوحيدة معكِ؟

ـ لست في حاجة إلى أن أؤكد لكِ كم يعني هذا في نظري.

ـ إذن دعينا نحقق ذلك.

ـ لا خير في التردد. أأذهب في العربة إلى هيلتون الآن، وأستأذن في ذلك؟

ـ أوه، لسنا في حاجة إلى استئذان.

ولكن «مارجريت» كانت زوجة وفية. وهي برغم الخيال والشعر ـ أو لعله بسبب الخيال والشعر ـ تستطيع أن تشاطر «هنري» موقفه الرسمي الذي قد يتخذه، وإنها لتنتهج الرسمية أيضًا، إذا كان ذلك ميسورًا. إن مبيت ليلة واحدة ـ وهما لا تطلبان أكثر ـ لا يحتاج إلى إثارة المناقشة في المبادئ العامة.

قالت «هيلين» مدمدمة:

ـ قد يرفض «تشارلز».

ـ نحن لن نستشيره.

ـ اذهبي إذا شئتِ الذهاب. ولو كنت مكانكِ لقضيت الليلة هنا بلا إذن.

كانت هذه لمسة الأنانية التي لم تكفِ لتشويه خلق «هيلين»، بل إنها أضافت إليه جمالًا فوق الجمال. إنها كانت تقضي الليلة من دون إذن، ثم تهرب صباح اليوم التالي إلى ألمانيا. وقبَّلتها «مارجريت»:

ـ انتظري عودتي قبل حلول الظلام، وأنا أتشوف إلى قضاء هذه الليلة تشوقًا شديدًا. وإنه لا يستغرب منكِ أن تفكري في مثل هذا الشيء الجميل.

وقالت «هيلين»، والحزن يغلب عليها:

ـ إنه ليس شيئًا، ولكنه النهاية.

وأطبق الشعور بالمأساة على «مارجريت» من جديد على أثر مغادرة المنزل.

كانت تخشى الآنسة «أفري». إن تحقيق النبوءة ـ ولو تحقيقًا سطحيًّا ـ لممَّا يقلق البال وقد سرها ألا ترى طلعة مترقبة وهي تجتاز الضيعة، باستثناء «توم» الصغير الذي كان يثب منقلبًا فوق كومة التبن.

## الفصل الثامن والثلاثون

بدأت المأساة في هدوء، وبدأ الحديث كغيره من الأحاديث الكثيرة، بتأكيد الرجل لسيادته تأكيدًا بارعًا. لقد سمع «هنري» زوجته تجادل سائق العربة، فخرج إليهما، وحسم الأمر مع الفتى الذي كان يريد إساءة أدبه. ثم قادها إلى بعض الكراسي الموضوعة فوق المرجة. وركضت «دوللي» إلى الخارج، ولم يكن أحد قد «أخبرها» بشيء، وعرضت تقديم الشاي. ولكنه رفض، وأمرهم بإبعاد عربة الطفل لأنهما يريدان أن ينفرد كل منهما بالآخر. فاستعطفته قائلة:

ـ ولكن الطفل لا يستطيع الاستماع. إنه لم يتم شهره التاسع.

وأجاب حموها:

ـ لم أقُل هذا.

ودفعوا الطفل إلى أبعد من مدى السمع فلم يسمع عن تلك الأزمة إلا بعد ذلك بسنين عديدة، وجاء الآن دور «مارجريت» فسألها:

ـ أهو ما كنا نخشاه؟

ـ هو ذلك.

وبدأ يقول:

ـ يا فتاتي العزيزة، إن مشكلة مزعجة تواجهنا، ولن نتغلب عليها إلا بالأمانة المطلقة والقول الصريح.

وأحنت «مارجريت» رأسها.

ـ أنا مضطر إلى سؤالكِ عن موضوعات كنا نُؤثِر نحن الاثنين أن نتركها من دون مساس. وأنا لست، كما تعلمين، كاتبًا من كُتابكم العصريين الذين لا يَعدُّون أي شيء مقدسًا. واضطراري للكلام كما يجب أن أتكلم سيؤلمني، ولكنْ هناك ظروف. نحن زوجان، ولسنا أطفالًا. وأنا رجل دنيا، وأنت امرأة تختلفين كثيرًا عن غيركِ من النساء.

ولم تبقَ لـ«مارجريت» حاسة لم تخذلها. واحمرت خجلًا. وجاوزت زوجها ببصرها إلى «التلال الستة» التي اكتست بأعشاب الربيع، وإذ لاحظ حمرة وجهها ازداد رقة ولطفًا.

ـ أي أنكِ تشعرين بمثل ما شعرت به عندما... يا لزوجتي الصغيرة المسكينة! أوه، تشجعي! إنه سؤال أو سؤالان وأنهي الموضوع معكِ. أكانت أختكِ تضع في إصبعها خاتم زواج؟

وتلعثمت «مارجريت» قائلة:

ـ لا.

وساد صمت مخيف.

ـ «هنري»، لقد جئت في الواقع أسألك معروفًا بشأن «هواردز إند».

ـ نقطة نقطة. أنا مضطر الآن إلى سؤالكِ عن اسم من أغواها.

وهبت واقفة على قدميها، وأمسكت الكرسي بينها وبينه، وغاض لونها، وتحول إلى رمادي. ولم يُقدِّر زوجها أن تقابل سؤاله على هذا النحو. ونصحها قائلًا:

ـ خذي من الوقت ما يكفيكِ للتروي. ولا تنسَي أن هذا الأمر يسوؤني أكثر مما يسوؤك بكثير.

وترنحت. وخشي أن يغمى عليها. ثم جاء الكلام، وقالت في تمهل:

ـ مغويها؟ لا؛ أنا لا أعرف اسم من أغواها.

ـ ألا تريد أن تخبركِ به؟

وقالت «مارجريت»، متريثة في التفكير عند كلمة «مغوي» الكريهة.

ـ أنا حتى لم أسألها قَطُّ عمن أغواها.

ـ هذا فريد من نوعه...

ثم غيَّر رأيه واستطرد:

ـ لعله طبيعي يا فتاتي العزيزة أن تمتنعي عن السؤال. ولكن لا يمكن الإقدام على شيء إلا عند معرفة اسمه. اجلسي، كم هو شنيع أن أراكِ منزعجة إلى هذا الحد! كنت أعرف أنكِ لستِ صالحة لهذه المهمة، ووددت لو أني لم أستصحبكِ.

وأجابت «مارجريت»:

ـ أنا أود الوقوف إذا لم ترَ فيه بأسًا لأنه يتيح لي رؤية منظر جميل «للتلال الستة».

ـ كما تشائين.

ـ ألديك شيء آخر تود أن تسألني عنه يا «هنري»؟

ـ عليكِ بعد ذلك أن تخبريني عما إذا كنت قد استخلصت شيئًا، فإني كثيرًا ما لاحظت يا عزيزتي صدق بصيرتك. وليت لي بصيرة ثاقبة مثلها. ولعلكِ استطعت أن تحزري شيئًا حتى ولو لم تفصح أختكِ عن شيء. فإن أقل إشارة قد تفيدنا.

ـ من تقصد بضمير الجمع؟

ـ ظننت من الأفضل أن نتصل بـ«تشارلز» تلفونيًّا.

وقالت «مارجريت» وقد ازدادت حماسة:

ـ لم يكن هذا ضروريًّا، فالنبأ سيسبب لـ«تشارلز» ألمًا شديدًا.

ـ لقد ذهب على الفور لزيارة أخيكِ.

ـ هذا أيضًا لم يكن ضروريًّا.

ـ دعيني أشرح لكِ يا عزيزتي وضع المسألة. فأنتِ لا تظنين أني أنا وإياني إنسانين غير مهذبين! ففي سبيل مصلحة «هيلين» يعمل كلانا. ولم يتأخر الوقت كثيرًا على إمكان إنقاذ سمعتها.

ووجهت «مارجريت» ضربتها لأول مرة إذ سألت:

ـ أسنضطلع نحن بحمل مغويها على التزوج بها؟

ـ نعم، إذا كان ذلك ممكنًا.

ـ ولكن، افترض يا «هنري» أن ذلك الرجل كان متزوجًا من قبل؟ لقد سمعنا عن مثل هذه الحالات.

ـ يجب في هذه الحالة أن يدفع ثمن سلوكه غاليًا، وأن يضرب حتى لا يبقى بينه وبين الموت إلا إصبع.

وهكذا خابت ضربتها الأولى، وقد رضيت عن ذلك. فما الذي أغراها بأن تعرض حياتيهما للمخاطر؟ إن كلال مشاعر «هنري» أنقذها كما أنقذه هو نفسه. وأنهكها الغضب فعادت إلى الجلوس وهي تفتح عينيها وتغمضهما بينما كان يحدثها بالقدر الذي رآه ملائمًا.

وقالت له في النهاية:

ـ أأستطيع أن أوجه سؤالي الآن؟

ـ بالتأكيد يا عزيزتي.

ـ سترحل «هيلين» غدًا إلى ميونخ...

ـ حسنًا. لعلها على حق.

ـ «هنري»، دع السيدة تُتم حديثها... غدًا سترحل، وتريد الليلة أن تبيت، بعد إذنك، في «هواردز إند».

كانت هذه أزمة حياتها كلها. وللمرة الثانية ودت لو أمكنها أن تسحب كلماتها على أثر نطقها بها، فهي لم تبذل في التمهيد لها عناية كافية، وتاقت إلى تنبيهه إلى أن تلك الكلمات أهم بكثير مما يظن. ورأته يزنها كما لو أنها عرض من عروض الأعمال. وقال آخر الأمر:

ـ لماذا اختارت «هواردز إند»؟ ألن تجد الراحة أوفر في الفندق كما اقترحت؟

وسارعت «مارجريت» إلى تزويده بالأسباب:

ـ إنه طلب غريب، ولكنك تعرف «هيلين»، وتعرف كيف تكون النساء في مثل حالتها.

وقطب، وتحرك في غيظ، واستطردت «مارجريت»:

ـ لقد خطر لها أن قضاء ليلة في منزلك يبهجها وينفعها، وهي في اعتقادي على حق، فوجود كتبنا وأثاثنا سيهدئ ما بها لأنها من أولئك الفتيات الخياليات. هذه حقيقة. إنها نهاية عهدها قبل الأمومة. وقد كان آخر ما أفضت به إليَّ قولها: «إنها نهاية سعيدة».

ـ إنها تُقدِّر الأثاث القديم في الواقع لأسباب عاطفية.

ـ بالضبط. إنك أدركت الأمر تمامًا. وهذا آخر أمل لها في البقاء ليلة مع ذلك الأثاث.

ـ أنا لا أوافق هنا يا عزيزتي! فإن «هيلين» ستنال نصيبها من الأثاث حيثما ذهبت، بل لعلها ستنال أكثر من نصيبها، فأنتِ لن تبخلي عليها بشيء مما يخصك منه قد تتعلق هي به، أليس كذلك؟ وأنا لن أثير اعتراضًا على ذلك. وإني كنت أفهم طلبها إذا كان البيت بيتها القديم، لأن بيت الإنسان... لأن المنزل...

وبدَّل كلمة «منزل» بكلمة «بيت» عن قصد، فإن نقطة قوية الأثر خطرت له:

ـ لأن المنزل الذي عاش فيه الإنسان مرة يكتسب على نحو ما قدسية. ولست أعرف لذلك سببًا. هي الارتباطات وما إلى ذلك. والآن، ليست لـ«هيلين» ارتباطات بـ«هواردز إند»، ولو أني أنا و«تشارلز» و«إيفي» لنا مثل هذه الارتباطات. ولست أدرك السبب الذي يجعلها تريد أن تقضي ليلتها هناك. إنها ستصاب ببرد، وليس هناك شيء غير ذلك.

وصاحت «مارجريت»:

ـ دع ما لا تدركه أنت. ادعُه وهمًا، ولكن اعلم أن الوهم حقيقة علمية، و«هيلين» تتعلق بالأوهام، وهي تريد المبيت هناك.

وهنا فاجأها. إنها مفاجأة نادرة. لقد أطلق سهمًا غير متوقع:

ـ إذا أرادت أن تبيت ليلة واحدة، فقد تريد أن تبيت ليلتين، ولعلنا لن نستطيع أبدًا إخراجها من المنزل.

وقالت «مارجريت»، وقد بدت الهوة أمامها:

ـ حسنًا. ولنفرض أننا لم نخرجها من المنزل، فهل هذا يهم؟ إنها لن تضر بذلك أحدًا.

وتكررت حركة الغيظ التي بدرت منه من قبل. وتراجعت «مارجريت» لاهثة:

ـ لا، يا «هنري». أنا لم أقصد ذلك. ونحن لن نضايق «هواردز إند» إلا بقضاء ليلة واحدة فيه. وسأذهب بها إلى لندن غدًا.

ـ أتنوين المبيت أنتِ أيضًا في منزل رطب؟

ـ لا يمكن تركها وحدها.

ـ هذا مستحيل! إنه جنون. لا بد أن تكوني هنا لمقابلة «تشارلز».

ـ لقد سبق أن قلت لك إن إرسالك في طلب «تشارلز» كان غير ضروري، ثم إني لا أرغب في مقابلته.

ـ «مارجريت»... يا عزيزتي «مارجريت»...

ـ أي علاقة لهذه المسألة بـ«تشارلز»؟ إنها إذا كانت تخصني قليلًا، فهي تخصك أقل مني، ولا تخص «تشارلز» أصلًا.

وقال السيد «ويلكوكس» وهو يُقوس أصابعه:

ـ باعتبار «تشارلز» المالك المقبل لـ«هواردز إند»، أرى أن المسألة تخصه فعلًا.

ـ على أي نحو تخصه؟ أحالة «هيلين» تُنقص من قيمة العقار؟

ـ يا عزيزتي، أنتِ لا تتمالكين نفسكِ.

ـ أظنك أنت نفسك أوصيت بوجوب الصراحة في القول.

ونظر كل منهما إلى الآخر في دهشة. لقد أصبحت الهوة الآن عند أقدامهما. وقال «هنري»:

ـ «هيلين» تقتضي عطفي عليها. وسأبذل ما أستطيع في سبيلها نظرًا لأني زوجكِ، ولست أشك في أنه سيتضح أنها فريسة العدوان أكثر منها معتدية آثمة. ولكني لا أستطيع أن أعاملها كما لو أن شيئًا لم يحدث. ولو فعلت ذلك لخنت مركزي في المجتمع.

وسيطرت على نفسها لآخر مرة، وقالت:

ـ لا، لنَعُد إلى طلب «هيلين». إنه غير معقول، ولكنه طلب فتاة تعسة. وهي سترحل غدًا إلى ألمانيا، ولن تزعج المجتمع بعد ذلك. وتسألك الليلة أن تبيت في منزلك الخالي، وهو منزل لا تهتم أنت به، وقد أمضيت أكثر من عام من دون أن تنزل فيه. فهل تسمح لها أن تبيت الليلة فيه؟ أتأذن لأختي في ذلك؟ أتغفر لها، كما ترجو أنت المغفرة لنفسك، وكما غُفر لك فعلًا؟ امنحها المغفرة لليلة واحدة فقط، وهذا يكفي.

ـ كما غُفر لي أنا...؟

وقالت «مارجريت»:

ـ لا عليك مما أعنيه بذلك الآن، وأجِب عن سؤالي.

ولعل لمحة خفيفة من المعنى الذي قصدته أشرق على ذهنه، وإذا كان هذا ما حدث فقد محا أثرها محوًا، وأجاب من وراء قلعته مباشرة:

ـ أنا أبدو متعبًا بعض الشيء، ولكن لي بعض الخبرة بالحياة. وأنا أعلم كيف يقود الأمر الواحد إلى غيره من الأمور. وأخشى أن يكون خيرًا لأختكِ قضاؤها الليلة في الفندق. وعليَّ أن أضع في التقدير أولادي وذكرى زوجتي العزيزة. أنا آسف، ولكن اعملي على أن تترك أختُكِ المنزل في الحال.

ـ إنك ذكرت السيدة «ويلكوكس».

ـ أستميحكِ عذرًا؟

ـ إنه حدث نادر. وهل أستطيع في معرض الرد أن أذكر السيدة «باست»؟

وقال «هنري» وقد نهض من كرسيه جامد الوجه:

ـ أنتِ لم تكوني على طبيعتكِ طوال النهار.

واندفعت «مارجريت» إليه، وأمسكت بكلتا يديه، وقد تغير وجهها. وصاحت:

ـ لا تَرُد بشيء من هذا! سترى الرابط بين الأمرين ولو قتلك ذلك يا «هنري»! لقد كانت لك عشيقة، فغفرت لك الأمر. ولأختي عاشق، وأنت تطردها من المنزل. أترى الرابط؟ غبي، ومنافق، وقاسٍ. أوه، وحقير! ذلك الرجل الذي يهين زوجته وهي على قيد الحياة، ويعبث بذكراها بعد موتها. الرجل الذي يحطم امرأة في سبيل متعته، ثم ينبذها لتحطم رجالًا آخرين. والذي يسدي نصيحة ضارة متعلقة بالمال ثم يقول إنه غير مسؤول عنها. إن هؤلاء الرجال جميعًا هم أنت. وأنت لا تستطيع التعرف عليهم لأنك لا تربط بين الأمور، لقد نلت الكفاية من عطفك المدخول، لقد دللتك طويلًا. إنك قضيت طوال عمرك مدللًا، والسيدة «ويلكوكس» دللتك، ولم يصارحك أحد قَطُّ بحقيقة أمرك؛ فأنت مختلط التفكير مشوش، مشوش تشويشًا إجراميًّا. وأمثالك يستعملون الندم ستارًا، فلا تندم إذن. واكتفِ بأن تقول لنفسك: «إن ما فعلته «هيلين»، فعلتُه أنا».

وتمتم «هنري» في لجلجة:

ـ الحالتان مختلفتان.

ولم يكن رده الحقيقي قد جهز تمامًا. وكان عقله لا يزال في دوامة، ويحتاج إلى مدة أطول للتفكير.

ـ مختلفتان من أي ناحية؟ إنك خنت السيدة «ويلكوكس»، و«هيلين» لم تخُن إلا نفسها. وأنت بقيت في المجتمع، و«هيلين» لا تستطيع ذلك. وأنت لم تخرج إلا بالمتعة، و«هيلين» قد تموت، ثم تبلغ بك الوقاحة أن تحدثني عن الفروق بين الحالتين يا «هنري»؟

أوه، ما أشد عقم حديثها معه! وجاء رد «هنري»:

ـ ألاحظ أنكِ تحاولين المساومة بالتهديد، وهو ليس سلاحًا ظريفًا تستعمله الزوجة ضد زوجها. والقاعدة التي اتخذتها خلال حياتي هي ألا أعير أدنى اهتمام للتهديد. وأنا لا أستطيع إلا أن أكرر ما قلته لكِ من قبل: أنا لا آذن لكما أنتِ وأختكِ في المبيت بـ«هواردز إند».

وسلَّت «مارجريت» يديها منه. ودخل هو إلى البيت يجفف بمنديله إحدى يديه، ثم يجفف به الأخرى. ووقفت هي قليلًا تنظر إلى «التلال الستة» ـ مقابر المحاربين، وأثداء الربيع. ثم خرجت وقد هبط المساء.

## الفصل التاسع والثلاثون

تقابل «تشارلز» و«تيبي» في «شارع دوسي» حيث يقيم الأخير. وكانت المقابلة بينهما قصيرة وسخيفة. ولم يكن هناك شيء مشترك بينهما إلا اللغة الإنجليزية التي حاول كل منهما التعبير بها عما لا يفهمه. كان «تشارلز» يرى في «هيلين» عدو الأسرة، وقد أفردها من بين آل «شليجل» كأخطرهم. وقد تشوف، رغم ما هو عليه من غضب، إلى أن يخبر زوجته كم كان على حق فيما رأى من قبل. واستقر على رأي في الحال؛ فالفتاة يجب أن تبعد عن طريقهم قبل أن تزيدهم تلوثًا بالعار. وقد يمكن تزويجها بوغد، أو ربما بأحمق، فيما إذا سنحت الفرصة. ولكن ذلك يكون تسامحًا في حق الأخلاق، ولم يدخل في نطاق خطته الرئيسية، لقد كانت كراهية «تشارلز» صادقة وقلبية، وانبسط الماضي أمامه واضحًا كل الوضوح. إن الكراهية حاسم ماهر للخصومات. لقد جرت بذاكرته خلال أحداث حملة آل «شليجل» جميعها وكأنها رؤوس مواضيع مقيدة في مفكرة: محاولة الإضرار بأخيه، ووصية أمه، وزواج أبيه، وتخزين أثاثهم، وتفريغه في صناديق. ولم يسمع «تشارلز» بعد بطلب المبيت في «هواردز إند»، فهذا الطلب سيكون ضربتهم الكبرى، وهو يتيح له أن يضرب كذلك ضربته، ولكنه كان يشعر فعلًا بأن «هواردز إند» هو هدفهم، وبرغم كرهه لهذا المنزل فقد كان مصممًا على الدفاع عنه.

أما «تيبي»، فلم يستقر على رأي. لقد وقف فوق العرف والأوضاع: فلأخته الحق في أن تُقدِم على كل ما تراه حقًّا. وليس من الصعب أن يقف المرء فوق العرف ما دام لم يترك بين العرف رهائن. والرجال دائمًا أقدر من النساء على التحرر من العرف، والعزب الذي يملك إيرادًا خاصًّا لا يصادف من دون ذلك أي عقبات. و«تيبي» يملك مالًا كافيًا على عكس «تشارلز». لقد ربح له أسلافه المال فإذا صدمه جيرانه في مسكنه استطاع أن ينتقل إلى مسكن آخر. إن موقفه موقف الرفاه الذي يفتقر إلى التعاطف، وهو موقف مدمر كموقف العنف، وقد يقام عليه شيء من الثقافة الباردة، أما الفن فلا. لقد رأت أختاه خطر الأسرة، ولم تنسيا قَطُّ أن تُسقطا من حسابهما جزائر الذهب الصغيرة التي رفعتهما عن لجة البحر. أما «تيبي» فقد نسب الفضل كله إلى نفسه، ولهذا احتقر المكافحين، والغارقين في لجة البحر.

ومن ثم كانت سخافة اللقاء بينهما؛ إن الهوة الممتدة بينهما كانت اقتصادية كما كانت روحية. ولكن هناك وقائع عديدة وقعت، وألح «تشارلز» في السؤال عنها بوقاحة لم يستطِع الطالب الجامعي مقاومتها: في أي تاريخ

رحلت «هيلين» إلى الخارج؟ ولمن رحلت؟ (وكان «تشارلز» يتوق إلى أن يلصق الفضيحة بألمانيا). ثم قال في غلظة وقد غيَّر حيله في الكلام:

ـ أظنك تدرك أنك حامي أختك؟

ـ بأي معنى؟

ـ إذا غرر رجل بأختي اخترقت صدره برصاصة، ولكن لعلك لا تعير الأمر أهمية.

واحتج «تيبي» قائلًا:

ـ إني أعيره أهمية كبيرة.

ـ من الذي تشك فيه إذن؟ أفصِح يا رجل. إن الإنسان يشك دائمًا في شخص ما.

ـ ليس هناك من أشك فيه. لا أظن ذلك.

واحمر لونه من دون قصد. فقد تذكر المشهد في مسكنه بأكسفورد.

وقال «تشارلز»:

ـ أنت تخفي شيئًا.

لقد غلب «تشارلز» صاحبه في هذا الحديث على قدر ما تتيح الأحاديث من غلبة:

ـ ألم تذكر أختُك اسم أحد عندما قابلتَها آخر مرة؟ نعم، أم لا!

وكان صوته يجلجل إلى حدٍّ أفزع «تيبي».

ـ ذكرت وهي في مسكني بعض أصدقاء من أسرة تُدعى «باست».

ـ مَن أسرة «باست» هذه؟

ـ أناس. أصدقاء لها حضروا حفل زواج «إيفي».

ـ لست أذكرهم... ولكني يمينًا لقد تذكرتهم! لقد حدثتني عمتي عن بعض السوقة، أكانت مشغولة بهم عندما رأيتَها؟ أبينهم رجل؟ أتحدثت عن الرجل؟ أم أنها... استمع إليَّ: أجَرت بينك وبين ذلك الرجل أي معاملة؟

وصمت «تيبي». لقد أفشى سر أخته عن غير قصد. لم يكن «تيبي» يهتم بالحياة البشرية اهتمامًا كافيًا ليرى ما سوف تؤدي إليه الأمور. كان شديد التقدير للأمانة، وهو إذا ما وعد حافَظ دائمًا على كلمته ـ إلى الآن. وقد تمَلكه غيظ عميق، لا للضرر الذي ألحقه بـ«هيلين» فحسب، ولكن للعيب الذي تبينه في خلقه.

ـ لقد فهمت. أنت مطلع على سره. لقد اجتمعا في مسكنك، أوه، أي أسرة هذه! أي أسرة! كان الله في عون أبي المسكين.

ووجد «تيبي» نفسه وحيدًا.

## الفصل الأربعون

«لينارد» سيظهر في النهاية بين أنباء إحدى الصحف، ولكنه هذا المساء لا يعتدُّ به كثيرًا في ميزان التقدير. لقد قيع جذع الشجرة في الظل إذ كان القمر لا يزال محتجبًا وراء المنزل. بيد أن ضوءه كان يتدفق في الأعالي، وإلى اليمين، وإلى اليسار، وعلى المرج الطويل. إن «لينارد» لم يبدُ رجلًا، ولكن قضية.

لعلها كانت طريقة وقوع «هيلين» في حبائل الحب، وهي طريقة تبدو غريبة في نظر «مارجريت»، التي كان عذابها واحتقارها لـ«هنري» لا يزالان يحملان صورته. أما «هيلين» فكان في طبيعتها أن تنسى الناس، لقد كانوا قشورًا تضم عواطفها. وهي يمكن أن تشفق، أو تضحي بنفسها، أو أن تكون لها غرائز، ولكن هل أحبت قَطُّ على أنبل وجه حبًّا يتوق الرجل والمرأة فيه، وقد فقدا أنفسهما في الجنس، إلى أن يفقدا الجنس نفسه في الزمالة؟

وعجبت «مارجريت»، ولكنها لم تنبس بكلمة لوم، فهذا المساء مِلك لـ«هيلين». كانت هناك متاعب كافية تواجهها في المستقبل: فقدان الأصدقاء والمزايا الاجتماعية؛ واحتمال العذاب، عذاب الأمومة الأكبر الذي ليس مسألة يعرفها الجميع. فليشرق القمر الآن ساطعًا إذن، ولتهُبَّ نسمات الربيع في رفق وقد انبعثت متهافتة من نوء النهار، ولتهِب الأرضُ ـ التي تهِب النماءَ الغلةَ ـ السلامَ. ولم تجرؤ على لوم «هيلين» حتى بينها وبين نفسها. فهي لا تستطيع أن تقيس خطيئتها بمقياس أي قانون أخلاقي. فالأمر لا يقاس، فهو إما كل شيء وإما لا شيء. إن الأخلاق تستطيع أن تدلنا على أن القتل أقبح من السرقة، وأن تُبوِّب أكثر الخطايا في ترتيب يجب أن يؤيده الجميع، ولكنها لا تستطيع أن تنظم «هيلين» في هذا السلك. وكلما ازدادت أحكام الأخلاق في هذه النقطة جزمًا، جاز لنا أن نقول مطمئنين إن الأخلاق ليست هي الناطقة بهذه الأحكام. لقد تحاشى المسيح الجواب عندما استجوبوه عن الزانية. إن الذين يسارعون إلى الرجم بأول حجر هم أولئك الذين يعجزون عن الربط بين الأشياء.

كان هذا مساء «هيلين». كسبته بثمنٍ أيًّا كان، ولا ينبغي تعكير صفوه بأحزان الآخرين. ولم تفُه «مارجريت» بكلمةً قَطُّ عن مأساتها هي.

وقالت «هيلين» في بطء:

ـ إن الإنسان يعزل الأمور. وقد عزلت أنا السيد «ويلكوكس» عن سائر القوى التي كانت تجذب «لينارد» إلى أسفل، وعلى ذلك امتلأت شفقة، وكدت أمتلئ رغبة في الثأر. وقضيت أسابيع أحصر اللوم في السيد «ويلكوكس» وحده، فعندما وردت رسالتاكِ...

وتنهدت «مارجريت»:

ـ لم يكن يجدر بي أن أكتبهما قَطُّ، فهما لم تحميا «هنري» بحال. كم هي محاولة ميؤوس منها أن نصلح أمر الماضي، حتى للآخرين!

ـ لم أكن أعلم أن فكرة إبعاد أسرة «باست» كانت فكرتكِ.

ـ عندما أنظر إلى وراء أجد أن ذلك كان خطأ مني.

ـ وعندما أنظر أنا إلى وراء يا عزيزتي أعلم أن ذلك كان صوابًا. فإنقاذ الرجل الذي يحبه الإنسان صواب. وأنا الآن أقل حماسة للعدالة. ولكننا ظننا كلتانا أن رسالتيكِ كُتبتا بإملائه، وبدا الأمر كأنه آخر لمسة من تحجر حسه. فقد كانت أعصابي قد بلغت غاية توترها. وكانت السيدة «باست» في الدور العلوي. ولم أكن لقيتها، وظللت أحادث «لينارد» مدة طويلة. وعنفته لغير ما سبب، وكان ذلك جديرًا أن ينبهني إلى أني كنت في خطر. وعلى ذلك أردت لدى وصول رسالتيكِ أن نذهب إليكِ للاستفسار عما بهما. وقال لي إنه حزر التفسير. إنه يعرفه ويجب ألا تعرفيه أنتِ. وألححت عليه في طلب إخباري به، وقال إنه يجب ألا يعرفه أحد، كان أمرًا يتعلق بزوجته. وظللنا إلى النهاية هو السيد «باست»، وأنا الآنسة «شليجل». وكنت على وشك مطالبته بأن يكون صريحًا معي حين رأيت عينيه، وحزرت أن السيد «ويلكوكس» دمره من ناحيتين لا من ناحية واحدة. وجذبته إليَّ، وحملته على الإدلاء لي بالأمر. وشعرت أنا نفسي بأني وحيدة جدًّا. وهو لا يلام، فلو أني تركته وشأنه لمضى في عبادته لي. وأنا لا أرغب في لقائه أبدًا برغم أن ذلك يبدو مروعًا. وأردت أن أنفحه نقودًا، وأشعر بأني انتهيت من الأمر. أوه، يا «ميج»، ما أقل ما نعرف عن هذه الأمور!

وألصقت وجهها بالشجرة.

ـ وما أقل ما نعرف كذلك عن النمو! في المرتين كانت الوحدة، والليل، وبعد ذلك كان الفزع. هل نما «لينارد» متولدًا من «بول»؟

أما «مارجريت» فقد أمسكت عن الكلام هنيهة. وكانت متعبة إلى حدٍّ أن انتباهها سرح إلى الأسنان، الأسنان التي غرست في لحاء الشجرة لتجعلها صالحة للتطبيب. وكانت تستطيع أن تراها تلمع من حيثما تجلس، وحاولت أن تحصي عددها. وقالت:

ـ تولدِ «لينارد» أفضل من الجنون. لقد خشيت أن تسخطي على «بول» سخطًا يدفعكِ إلى الهاوية.

ـ لقد سخطت فعلًا حتى وجدت «لينارد» المسكين. وأنا متزنة الآن. إنني لن أميل أبدًا إلى زوجكِ «هنري» يا عزيزتي «ميج»، وحتى لن أذكره بكلمة طيبة. ولكن كل ذلك الضغن الذي يعمي البصر قد انقضى، ولن أهذي كالمجانين في حق أسرة «ويلكوكس» بعد الآن أبدًا، وأنا أفهم كيف تزوجت به، وستكونين منذ الآن سعيدة جدًّا.

ولم تُجِب «مارجريت».

وكررت «هيلين» القول وقد زاد صوتها رقة:

ـ نعم. حقًّا لقد فهمت أخيرًا.

ـ لا أحد يفهم حركاتنا الصغيرة عدا السيدة «ويلكوكس» يا عزيزتي.

ـ لأنه في الموت... أنا متفقة معكِ.

ـ ليس كل الاتفاق. أشعر أنكِ أنتِ وأنا والسيد «ويلكوكس» لسنا إلا شظايا من عقل تلك المرأة. فهي تعرف كل شيء. هي كل شيء. هي البيت، والشجرة التي تنحني عليه. إن للناس ميتاتهم كما أن لهم حياتهم. وحتى لو أنه ليس وراء الموت إلا العدم، فسيختلف كل منا في عدمه. ولست أستطيع أن أؤمن بأن معرفة كمعرفتها تهلك مع معرفة كمعرفتي. كانت على علم بالحقائق. كانت على علم إذا وقع الناس في الحب حتى وهي ليست معهم في الغرفة. ولست أشك في أنها علمت بالأمر عندما خانها «هنري».

وترامى صوت ينادي:

ـ مساء الخير يا سيدة «ويلكوكس».

ـ أوه، مساء الخير يا آنسة «أفري».

وغمغمت «هيلين»:

ـ ماذا يدعو الآنسة «أفري» إلى خدمتنا؟

ـ ماذا يدعوها فعلًا؟

واجتازت الآنسة «أفري» المرجة، ودخلت وسط السياج الذي يفصل المرجة عن المزرعة. وظهرت في السياج من جديد فجوة قديمة كان السيد «ويلكوكس» قد سدها. وبدا منها أثرًا قدمَي الآنسة «أفري» وهي تتبع الممر المبلل بالندى، الذي كساه السيد «ويلكوكس» بالخضرة عندما أصلح الحديقة، وجعلها صالحة للألعاب.

قالت «هيلين»:

ـ إنه لم يصبح بيتنا تمامًا بعد، فقد شعرتُ عندما نادت الآنسة «أفري» بأننا سائحتان.

ـ سنكون كذلك في كل مكان، وعلى الدوام.

ـ ولكنْ سائحتان متحابتان...

ـ ولكن سائحتان تدَّعيان أن كل فندق بيتهما.

قالت «هيلين»:

ـ ولكني لا أستطيع أن أستمر في الادعاء طويلًا. وإن الإنسان ينسى وهو جالس تحت هذه الشجرة، ولكني أعلم أني سأرى القمر غدًا يشرق من أرض ألمانيا. وكل ما تملكين من طيبة نفس لا يستطيع أن يبدل وقائع الحال، اللهم إلا إذا أتيتِ معي.

وفكرت «مارجريت» هنيهة. لقد ازدادت في غضون هذا العام الأخير تعلقًا بإنجلترا حتى أصبح الابتعاد عنها محزنًا حقًّا. ومع ذلك فأي شيء يعوقها عن السفر؟ لا شك أن «هنري» سيغفر لها سَورة غضبها، ثم يمضي في صخبه وتخبطه إلى أن يبلغ سن الشيخوخة الكاملة. ولكن ما الفائدة؟ إن الأوفق أن تبادر فتغرب عن خاطره.

ـ أأنتِ جادة فيما تطلبين مني يا «هيلين»؟ أيمكن أن أتفق أنا وصاحبتكِ «مونيكا»؟

ـ أنتِ لن تتفقي معها، ولكني جادة فيما طلبته منكِ.

ـ ومع هذا فلنكفَّ الآن عن حديث الخطط، وحديث الذكريات.

وصمتنا بعض الوقت. لقد كان ذلك مساء «هيلين».

وتدفق الحاضر أمامها كالجدول. وحف حفيف الشجرة. لقد كانت تنبعث منها الموسيقى قبل ميلادهما، وستظل تنبعث منها بعد موتهما. ولكن لحنها الآن لحن هذه الهنيهة. وقد مرت الهنيهة، وعادت الشجرة إلى الحفيف. وأصبحت حواسهما مرهفة، وبدتا قابضتين على الحياة. ومرت الحياة، وعادت الشجرة إلى الحفيف.

وقالت «مارجريت»:

ـ نامي الآن.

وكان سلام الريف يتغلغل إلى نفسها. إن هذا السلام ليس له صلة بالذاكرة، وصِلته بالأمل قليلة. وأقل من القليل تعلُّقه بآمال الدقائق الخمس التالية. إنه سلام الحاضر، السلام الذي يعوق الفهم. لقد تردد خرير كلمة «الآن». و«الآن» ترددت مرة أخرى وهما تسلكان الأرض الرملية. و«الآن» ترددت أيضًا بينما ضوء القمر يتساقط على سيف أبيهما. وصعدتا إلى الدور العلوي، وقبَّلت كل منهما الأخرى، واستسلمتا للنوم وسط التكرار الذي لا نهاية له. وكان المنزل يلقي بظله على الشجرة بادئ الأمر، ولكنهما انفصلا إذ ارتفع القمر في السماء، ووضحا لبضع دقائق عند منتصف الليل. واستيقظت «مارجريت» ونظرت إلى الحديقة. عجبت حقًّا أن يستطيع «لينارد باست» أن يظفر لها بليلة السلام هذه! أكان هو أيضًا قطعة من عقل السيدة «ويلكوكس»؟

## الفصل الحادي والأربعون

أما التطور الذي مر به «لينارد» فكان مختلفًا اختلافًا بعيدًا. فالشهور التي تلت ذهابه إلى أونيتون ـ مهما كانت المتاعب الصغيرة التي سببتها له ـ كانت كلها غارقة في ظلال تأنيب الضمير. إن «هيلين»، حين تنظر إلى وراء، تستطيع أن تفلسف الأمور، أو أن تنظر إلى المستقبل، وتضع الترتيبات لولادة طفلها. ولكن الأب لم يرَ شيئًا وراء خطيئته هو. فكان بعد انقضاء أسابيع كثيرة، وسط زحمة شواغل أخرى، يصيح فجأة: «وحش... أنت يا وحش، ما كنت أستطيع أن...» ثم ينشق إلى شخصين يحادث كل منهما الآخر. قد يذرف الدمع الرمادي الذي يلوث الوجوه وصفحة السماء. وحتى «جاكي» لاحظت ما طرأ عليه من تغير. وأبشع ما كان يعانيه، آلامه حين يصحو من نومه، كان في البداية سعيدًا في بعض الأحيان، ولكنه ازداد بعد ذلك شعورًا بحِمل يجثم عليه، وبثقل خواطره حين تحاول التحرك. أو قد يحس كأن حديدًا محميًّا يحرق بدنه، أو طعنة سيف تخترقه. وقد يجلس على حافة فراشه، ويضع يده على قلبه، ويقول مولولًا: «أوه، ماذا أصنع، أي شيء أصنع؟». لم يكن هناك ما يجلب الراحة. وقد يستطيع أن يضع مسافة بينه وبين خطيئته، ولكنها كانت تنمو داخل نفسه.

ليس تبكيت الضمير من بين الحقائق الخالدة. وكان الإغريق على حق حين خلعوا آلهة التبكيت عن العرش. فهي متقلبة في تصرفاتها، وكأن «الإرينييس»، آلهة التأنيب، اخترن رجالًا معينين، وخطايا معينة لتوقيع العقاب. وتبكيت الضمير أشد وسائل الإصلاح إتلافًا. إنه يمزق الأنسجة السليمة مع الأنسجة المسمومة، إنه سكين تصل إلى أعمق مما يصل إليه الشر، وقد دُفع «لينارد» إلى عذابه دفعًا، وخرج منه طاهرًا، ولكنْ موهنًا. خرج رجلًا أفضل، لا يفقد سيطرته على نفسه مرة أخرى، ولكنه خرج كذلك رجلًا أصغر، ليس له إلا الأقل ليسيطر عليه. لا، ولا يعني الطهر هدوء النفس. واستعمال السكين يمكن أن يصبح عادة يصعب التخلص منها صعوبة التخلص من عاطفة الحب نفسها، وقد ظل «لينارد» يفزع وسط أحلامه، مطلِقًا صرخاته.

وقد هيأ له ضميره وضعًا يختلف اختلافًا كبيرًا عن الحقيقة، فلم يخطر بباله قَطُّ أن «هيلين» ملومة عليه. لقد نسي حرارة حديثهما، والفتنة التي خلعها عليه الإخلاص، وسحر أونيتون وهي تحت أستار الظلام، وسحر النهر الهامس. لقد أحبت «هيلين» «المطلق»، وكان «لينارد» قد دُمر تدميرًا «مطلقًا»، فبدا لها رجلًا ليس كغيره من الرجال، منعزلًا عن العالم، رجلًا

حقيقيًّا يحب المغامرة والجمال، ويرغب في أن يحيا كريمًا، ولا يعتمد إلا على نفسه، رجلًا كان يمكن أن يسلك طريق الحياة في عظمة تفوق عظمة عربة الجاجرنوت(**) التي كانت تسحقه. وكانت «هيلين» قد النَّوت من ذكريات عُرس «إيفي»: الخدم المُنشَّى، والموائد الممتلئة بالطعام الذي لم يؤكل، وحفيف أثواب النساء الفاخرة، والسيارات التي تنثر الشحم على الطريق الرملي، وهراء جماعة من الأدعياء، لقد ذاقت عكارة ذلك على أثر وصولها إلى هناك فأثملتها في جنح الظلام، بعد إخفاقها، وبدا كأنها هي والضحية وحيدان في عالم من الأوهام، فأحبته حبًّا مطلقًا، ربما نصف ساعة.

وفي الصباح كانت قد انصرفت، وقد أحدثت الرسالة التي تركتها ألمًا مبرحًا في نفس عاشقها، تلك الرسالة الرقيقة والهستيرية التي قصدت أن تضمنها عطفًا شديدًا. وكأنما قد حطم بفعلته تحفة فنية، أو فصل لوحة في المتحف الوطني من إطارها. وعندما ذكر مواهبها ومركزها الاجتماعي شعر بأن من حق أول من يمر به أن يرميه بالرصاص، لقد خشي خادمة المطعم والحمالين في محطة السكة الحديد. وخشي زوجته في بادئ الأمر، ولو أنه بعد ذلك رعاها رعاية جديدة غريبة، وأن يفكر في أنه «لم يَعُد هناك بعدما يدعو إلى تفضيل أحدنا عن الآخر».

إن رحلته هو وزوجته إلى شروبشير أعجزتهما إعجازًا مستديمًا. لقد نسيت «هيلين»، عند هروبها، أن تسدد قائمة حساب الفندق، وأخذت معها تذكرتَي عودتهما في القطار. واضطرا إلى رهن سوار «جاكي» ليعودا إلى بيتهما، ووقعت الضربة القاصمة بعد ذلك ببضعة أيام. صحيح أن «هيلين» عرضت عليه خمسة آلاف جنيه، ولكن هذا المبلغ لم يكن يعني في نظره شيئًا. إنه لم يستطِع أن يرى أن الفتاة كانت تحاول تصحيح خطئها في تهور، وأن تنقذ من الكارثة شيئًا، ولو خمسة آلاف من الجنيهات. ولكنه كان لا بد أن يعيش على نحو ما، فيمَّم شطر أسرته، وانحدر إلى درك شحاذ محترف، إذ لم يكن هناك عمل آخر يقوم به.

قالت أخته «بلانش» لنفسها: «خطاب من «لينارد». وبعد كل هذه المدة». وأخفت الخطاب حتى لا يراه زوجها. وقرأته بشيء من الانفعال بعد ذهاب زوجها إلى عمله، وأرسلت إلى الأخ الضال قليلًا من المال اقتطعته من نفقة ملبسها.

وقالت أخته الأخرى «لورا» بعد بضعة أيام: «خطاب من «لينارد»!» وأطلعت زوجها عليه. فأرسل الزوج ردًّا قاسيًا مهينًا، ولكنه أرسل مبلغًا من المال أكبر من مبلغ «بلانش»، ولذا لم يلبث «لينارد» أن كتب إليه ثانية.

واتسع هذا المنهج خلال الشتاء. وتحقق «ليناردِ» من أنه ليس هناك ما يضطره هو وزوجته لأن يموتا جوعًا لأن ذلك سيكون مؤلمًا جدًّا لأقاربه. إن المجتمع قائم على الأسرة، ويستطيع الشخص المسرف الذكي أن يستغل ذلك استغلالًا لا حد له. وانتقلت إليه الجنيهات بعد الجنيهات من دون أن تخطر فكرة كريمة لأي من الطرفين. كان الواهبون يكرهون «ليناردِ»، وأخذ يكرههم هو كراهية شديدة. وقد قال لنفسه في مرارة عندما انتقدت «لورا» زواجه الفاجر: «إنها تمانع في هذا! وماذا كانت تقول لو أنها علمت بالحقيقة؟». وعندما عرض عليه زوج «بلانش» وظيفة انتحل بعض العذر ليتجنب العمل. كان في أونيتون يتلهف رغبة في العمل، ولكن القلق الشديد حطمه، وهو الآن بسبيل الانضمام إلى فئة غير الصالحين للعمل. وعندما لم يَرُد أخوه المرتِّل على خطاب منه، كتب ثانية إليه يقول إنه سيحضر إليه في قريته هو و«جاكي» سيرًا على الأقدام. وهو لم يقصد بذلك ابتزاز المال منه عن طريق التهديد، وبرغم ذلك أرسل إليه أخوه إذنَ بريد، وأصبح هذا التصرف جزءًا من منهجه، وعلى هذا النحو انسلخ شتاؤه وربيعه.

وكانت هناك وسط هذا الهول نقطتان لامعتان. أولاهما أنه لم يشوش الماضي قَطُّ، فقد ظل واعيًا متنبهًا؛ وسعداء أولئك الذين يتنبهون، ولو للإحساس بالإثم. ولم يمس شفتيه ذلك الدواءُ المهدئ، دواء «الخلط» الذي يخلط أكثر الناس به أخطاءهم ويطمسونها.

إذا شربتُ النسيان يومًا

قصرتُ من قامة روحي

إن هذا قول عنيف. وقد كتبه رجل عنيف، ولكنه يكمن في أساس كل الأخلاق كلها.

والنقطة اللامعة الأخرى كانت حنانه على «جاكي». فهو يشفق عليها الآن في نبل. لا إشفاق الاحتقار الذي يحسه الرجل الذي يلتصق بامرأة في السراء والضراء. وقد بذل جهده ليكون أقل انفعالًا عليها. وعجب لما تريده عيناها الجائعتان. فليس هناك ما تستطيع التعبير عنه، أو ما يستطيع هو أو أي رجل آخر منحه إياها. فهل تفوز يومًا بالإنصاف الذي هو الرحمة؛ الإنصاف للمحصولات الثانوية التي ينشغل العالم كل المشغولية عن أن يبذله؟ كانت مغرمة بالزهور، كريمة اليد، غير ميالة للأخذ بالثأر. ولو أنها جاءته بمولود فلعله كان يحبها. ولو لم يكن «ليناردِ» متزوجًا لما مد يده للسؤال قَطُّ. بل لخفتت شعلته ومات. ولكن الحياة كلها خليط. كان لا بد له من تزويد

«جاكي» بحاجاتها، فسار في الممرات القذرة ليتيح لها الحصول على قليل من الملابس والأطعمة التي تلائمها.

ووقع بصره ذات يوم على «مارجريت» وأخيها. كان في كنيسة «سانت بول»، وقد دخلها لتفادي المطر من ناحية، وليتطلع، من ناحية أخرى، إلى لوحة كانت قد ثقفته في السنين الماضية. ولكن النور كان ضئيلًا، واللوحة سيئة الوضع. وكان الزمن والدينونة في داخله الآن. إن المنية وحدها ـ بحجرها المصنوع من أزهار أبي النوم، والذي سيرقد عليه جميع الناس ـ هي التي لا تزال تفتنه. ألقى نظرة واحدة، ودار مبتعدًا بلا هدف إلى أحد المقاعد. ثم رأى الآنسة «شليجل» وأخاها في صحن الكنيسة، وكانا يقفان في ممر العابرين ووجهاهما واجمان كل الوجوم، فأيقن كل الإيقان أنهما في هَم بشأن أختهما.

وما أصبح خارج الكنيسة ـ وكان قد هرب على الفور ـ حتى ود لو أنه حادثهما. فما هي حياته؟ وما هو قليل من كلمات السخط، أو حتى السجن؟ لقد ارتكب خطأ؛ ذلك هو الهول الحق. ومهما يكن من أمر ما يمكن أن يعلماه، فإنه سيفضي إليهما بكل ما يعرفه هو. ودخل كنيسة «سانت بول» ثانية. ولكنهما كانا قد غادرا مكانهما أثناء غيابه، وذهبا ليعرضا متاعبهما على السيد «ويلكوكس» و«تشارلز».

إن رؤيته لـ«مارجريت» حولت تبكيت الضمير إلى مجريات جديدة. لقد رغب في أن يعترف. وبرغم أن رغبته هذه دليلٌ على طبيعة موهنة توشك أن تفقد روح الصلات الإنسانية، فإنها لم تتخذ شكلًا حقيرًا. فهو لم يتوقع أن الاعتراف سيورثه السعادة. وأصح من ذلك أن يقال إنه كان يتلهف على الخلاص من ورطته. كذلك يتلهف المنتحر. إن الدافعَين متشابهان، وأكثر ما في الانتحار إجرامًا هو عدم اهتمامه بأولئك الذين نتركهم وراءنا بيد أن الاعتراف لا يتطلب الإضرار بأحد. وهو يستطيع اجتياز هذا الامتحان. وبرغم أن الاعتراف كان تقليدًا غير إنجليزي، وكنيستنا الإنجلكانية تتجاهله، فقد كان لـ«لينارد» الحق في أن يبت في أمره بنفسه.

وقد وثق فوق ذلك في «مارجريت». وهو في حاجة إلى شدتها الآن، فطبيعتها المفكرة الباردة ستكون عادلة، وإن كانت غير عطوفة. وهو لن يحجم عن أي عمل تطلب إليه أداءه، حتى ولو طلبت إليه مقابلة «هيلين»، وهذا يكون أقصى عقاب تفرضه عليه. ولعلها تخبره بحال «هيلين»، وهذا يكون أقصى مكافأة.

على أنه لم يكن يعلم شيئًا عن «مارجريت». لم يعلم حتى لو كانت متزوجة بالسيد «ويلكوكس». وقد استغرق اقتفاؤه أثرها بضعة أيام. وتجشم في ذلك المساء عناء السير في الجو الممطر إلى «ويكهام بليس» حيث ظهرت المباني السكنية الجديدة الآن فوق سطح الأرض، أكان هو المتسبب أيضًا في انتقالهم من منزلهم؟ ألفِظهم المجتمع بسببه؟ ومن ثم ذهب إلى مكتبة عمومية، ولكنه لم يجد في الدليل اسم «شليجل» المطلوب. وأعاد البحث في صباح اليوم التالي. وظل يتسكع خارج مكتب السيد «ويلكوكس» وقت الغداء، وقال للكتبة وهم خارجون من محل عملهم:

ـ عفوًا يا سيدي، ولكن، هل مديركم متزوج؟

وحملق أغلبهم فيه، وقال بعضهم:

ـ وما شأنك أنت بهذا؟

ولكن واحدًا منهم، لم يكن قد اكتسب بعدُ صفة ضبط اللسان، أنبأه بما أراد. ولم يستطِع «لينارد» أن يقف على عنوان السيد «ويلكوكس» الخاص، واحتاج هذا إلى بذل عناء أكبر في بحث المراجع وركوب المترو. ولم يقف على مكان بيت شارع «دوسي» إلا يوم الاثنين، وهو اليوم الذي خرجت فيه «مارجريت» مع زوجها ليتصيدا «هيلين» في «هواردز إند».

وطرق باب «شارع دوسي» زهاء الساعة الرابعة. وكان الجو قد تغير، وسطعت الشمس في مرح فوق درج سلم الدار المزخرفة. رخام أسود وأبيض على شكل مثلثات. وخفض «لينارد» بصره إليها وهو يدق الجرس. وشعر بحالة صحية غريبة، كأن أبوابًا تفتح وتغلق داخل جسده، وكان يضطر إلى النوم جالسًا في سريره، وظهره مستند إلى الحائط. ولم يستطِع رؤية وجه خادمة الضيوف عندما حضرت، فقد هطل المطر الداكن على خديه فجأة. وسأل:

ـ أتقيم السيدة «ويلكوكس» هنا؟

وكان الجواب:

ـ إنها خرجت.

ـ متى تعود؟

وقالت الخادمة:

ـ سأسأل.

وكانت «مارجريت» قد أصدرت تعليماتها بألا يُرَد أبدًا من يذكر اسمها. وأرتجت الخادمة الباب بسلسلته الحديدية ـ لأن مظهر «لينارد» كان يتطلب ذلك ـ واخترقت الردهة إلى غرفة التدخين التي يحتلها «تيبي»، وكان وقتذاك نائمًا. كان «تيبي» قد تناول غداء طيبًا، ولم يكن «تشارلز ويلكوكس» قد كلمه بعدُ تلفونيًّا ليرتب معه تلك المقابلة التي أذهلته. وقال «تيبي» والنعاس يغالبه:

ـ لا أدري. هيلتون، «هواردز إند». من يسأل؟

ـ سأسأل يا سيدي.

ـ لا، لا تزعجي نفسك.

وقالت الخادمة لـ«لينارد»:

ـ لقد رحلا بالسيارة إلى «هواردز إند».

وشكرها، وسألها أين يكون هذا المكان، فلاحظت عليه كثرة السؤال قائلة:

ـ يبدو أنك تريد أن تعرف الشيء الكثير.

ولكن «مارجريت» كانت قد حظرت عليها أن تتكلم في غموض، فقالت له، على كرهٍ منها، إن «هواردز إند» في هرتفوردشير.

ـ أهي قرية، من فضلكِ؟

ـ قرية! إنها دار السيد «ويلكوكس» الخاصة، أو إحدى دوره على الأقل. والسيدة «ويلكوكس» تحتفظ بأثاثها هناك. وهيلتون هو اسم القرية.

ـ نعم. ومتى سيعودان؟

ـ السيد «شليجل» يجهل ذلك. نحن لا نستطيع معرفة كل شيء، أليس كذلك؟

وتركته وأقفلت الباب، وذهبت إلى التلفون الذي كان يدق بعنف.

ومضى يتسكع ليلة عذاب أخرى، وازداد الاعتراف صعوبة. وأوى إلى فراشه بأسرع ما أمكنه. وأخذ يرقب بقعة من ضوء القمر وهي تجتاز أرض الحجرة، وحدث له ما يحدث أحيانًا عندما يكون الذهن مثقلًا، فقد نام بالنسبة لسائر أجزاء الغرفة، وظل متيقظًا بالنسبة لبقعة ضوء القمر. فظيع! ثم بدأ حوارٌ من ذلك النوع الذي يفكك النفس الإنسانية. قال بعضه لبعضه الآخر: «فظيع لماذا؟ إنها بقعة عادية من الضوء المتساقط من القمر». «ولكنها تتحرك». «كذلك القمر يتحرك». «ولكنها قبضة يد مشدودة». «ولماذا لا تكون كذلك». «ولكنها ستمسني». «دعها». وبدا كأن بقعة الضوء استجمعت حركتها، فصعدت إلى غطاء فراشه. ثم ظهرت أفعى زرقاء. ثم أخرى موازية لها. «أتوجد حياة في القمر؟». «لا شك في ذلك». «ولكني ظننته خاليًا من الناس». «ولكنه غير خالٍ من الزمن والموت والدينونة، والأفاعي الصغرى». وقال «لينارد» ساخطًا، وفي صوت مرتفع: «الأفاعي الصغرى!». «يا له من خاطر!». وبجهد عنيف من إرادته أيقظ سائر الغرفة. وتسربت «جاكي»، والفراش، وطعامهما، وملابسهما الموضوعة فوق المقعد، إلى وعيه شيئًا فشيئًا، وتبدد الخوف إلى الخارج كما تنداح دائرة خلال الماء.

ـ اسمعي يا «جاكي»، سأخرج لمدة قصيرة.

كانت تتنفس بانتظام. وانجلت بقعة الضوء عن غطاء الفراش المخطط، وبدأت تغطي الدثار الموضوع على قدميها. لماذا اعتراه الخوف؟ اتجه إلى النافذة، ورأى القمر يهبط خلال سماء صافية. رأى براكينه، والمساحات الساطعة التي دعاها الخطأ اللطيف بحارًا. لقد شحبت لأن الشمس التي أضاءتها كانت قادمة إلى الأرض لتضيئها. فـ«بحر الصفاء»، و«بحر الهدوء»، و«أوقيانوس العواصف القمرية»، اندمجت كلها في قطرة واحدة صافية عليها أن تنزلق هي نفسها إلى الفجر الأبدي. وعجب كيف كان خائفًا من القمر!

وارتدى ملابسه خلال الأنوار المصطرعة، وعدَّ نقوده، وكان مبلغها قد عاد إلى التضاؤل، ولكنه يكفي لشراء تذكرة ذهاب وإياب إلى هيلتون ومنها. وإذ رن رنينها فتحت «جاكي» عينيها.

ـ هالو يا «لين»! ماذا يا «لين»!

ـ ماذا يا «جاكي»! إلى اللقاء بعد قليل.

وتقلبت على جنبها الآخر ونامت.

ولم يكن باب الدار مغلقًا بالرتاج لأن مالكه يعمل بائعًا في «كوفنت جاردن». وخرج «لينارد» إلى الشارع واتخذ طريقه إلى المحطة. وكان القطار قد سبق إلى آخر الرصيف برغم أنه لم يبارح المحطة إلا بعد ساعة، ورقد فيه «لينارد» ونام.

وإذ استيقظ لأول رجة كان الصبح قد انبثق، وكانوا قد تجاوزوا أبواب «كينجز كروس»، وأصبحوا تحت قبة السماء الزرقاء. ثم تعاقبت الأنفاق، وكانت السماء تزداد زرقة بعد تجاوز كل نفق منها. ورأى الشمس لأول مرة من الجسر المقام في «فينزبري بارك». ودارت وهي تنطلق وراء الأدخنة الشرقية ـ عجلة قرينها هو القمر المنحدر ـ وكانت تبدو إلى الآن خادمًا لا سيدًا للسماء الزرقاء. وعاد إلى التهويم ثانية. وحل النهار بعد المرور بنفق «تيوين ووتر»، وسقطت إلى الشمال ظلال الجسر وأقواسه. وإلى اليمين مد «لينارد» بصره إلى قلب غابات تيوين، وتجاه الكنيسة بما شاع عنها من أسطورة خلودها العجيبة؛ وقد نمت من لحد من لحود مقبرة تيوين ست شجرات من أشجار الغابة ـ وهذه واقعة حقيقية ـ والدفينة في هذا اللحد كانت كافرة بالخالق ـ وهذه هي الأسطورة ـ وقد جاهرت بأنه لو كان الخالق موجودًا فعلًا لنبتت ست شجرات من أشجار الغابات من لحدها. هذه الأشياء كانت في هرتفوردشير. وعلى بُعد منها قام وسط الحقول بيت ناسك ـ كانت السيدة «ويلكوكس» قد عرفته ـ ناسك حبس نفسه فيه، وكتب تنبؤات، ومنح الفقراء ما ملكت يده. وانتشرت فيما بين ذلك دور رجال أعمال ممن يرون الحياة بثبات أكثر، وإن كان ثبات العين نصف المغمضة. وكانت أشعة الشمس تنسكب على هذه الموجودات جميعًا، والعصافير تغني لها جميعًا، وزهور الربيع تبدي اصفرارها للجميع، واللبلاب يبدي لهم زرقته، والريف ـ أيًّا كان تفسيرهم له ـ يصيح صيحته «الآن». إن إلهة تبكيت الضمير لم تطلق سراح «لينارد» بعد، وتغلغلت السكين في قلبه أعمق وأعمق إذ كان القطار يدنو من هيلتون. ولكن تأنيب الضمير أصبح جميلًا.

كانت هيلتون نائمة، أو تتناول الإفطار في أكثر بيوتها بكورًا. ولاحظ «لينارد» الفارق بينها وبين الريف عندما خرج منها إليه. فالناس فيه كانوا مستيقظين منذ مطلع الفجر. وساعات يومهم محكومة، لا بمكتب من مكاتب لندن، ولكن بحركة المحصولات والشمس. والرجل العاطفي وحده هو الذي يقول عنهم إنهم من أفضل طراز من الناس ولكنهم يحيون حياة النهار. إنهم أمل إنجلترا. وهم يسيرون إلى الأمام يحملون مشعل الشمس في تعثر، حتى يحين الوقت الذي تراه الأمة مناسبًا لأن تأخذه فيه منهم. ورغم أنهم خليط

من خلق الفلاحين الأجلاف، والأدعياء من طلبة المدارس الداخلية، فهم لا يزالون يستطيعون أن يرتدوا إلى سجايا سلالة أنبل، وينتجوا زُراعًا أحرارًا.

ومرت به سيارة عند منجم الجير. وكانت تمثل طرازًا آخر تحابيه الطبيعة: الطراز الإمبريالي. فهذا الطراز الذي يستمتع بالصحة، ولا يكفُّ عن الحركة، يأمل أن يرث الأرض. وهو يتكاثر في سرعة كسرعة تكاثر الزراع، وفي صلابةٍ كصلابتهم. وإنه لمِمَّا يغري إغراء قويًّا أن نهلل له لأنه المواطن المثالي الذي يحمل فضائل بلاده إلى ما وراء البحار. ولكن الإمبريالي ليس في حقيقته كما يظن نفسه، أو كما يبدو للناس. إنه مدمِّر. إنه يمهد الطريق للجنسية العالمية. وبرغم أن مطامحه قد تتحقق، فإن الأرض التي سيرثها ستكون قاتمة اللون.

وأشرق على «لينارد» ـ الذي كان مستغرقًا في خطيئته الخاصة ـ إيمان بوجود طيبة فطرية في غير مكان آخر غير هذه الأرض. لم يكن ذلك التفاؤل الذي لقنوه إياه في المدرسة، فيجب أن تدق الطبول مرارًا وتكرارًا، وأن تخطو الشياطين فوق أديم هذه الأرض قبل أن يتطهر الفرح من العناصر السطحية. كانت الفكرة أقرب إلى التناقض، وقد نبعت من معين أحزانه. «إن الموت يدمر الإنسان، ولكن فكرة الموت تنقذه»: هذا هو خير ما وُصف به الموت إلى الآن. إن القذارة والمأساة تستطيعان أن تدعوَا وتحفزا كل ما هو عظيم كامن فينا، وأن تمدا أجنحة الحب بالقوة. إنهما تستطيعان ذلك، ولكن ليس من المؤكد أنهما سيقفلان، لأنهما ليستا خادمتين للحب. ولكنهما تستطيعان أن تدعوَا وتحفزا، وقد وجد «لينارد» في معرفة هذه الحقيقة غير المصدقة عزاء له.

وتوقفت خواطره جميعها بينما كان يقترب من المنزل. وقامت الأفكار المتناقضة جنبًا إلى جنب في ذهنه. كان فزعًا، ولكن سعيدًا. وكان يشعر بالخزي، ولكنه لم يرتكب إثمًا. وكان يعرف الاعتراف الذي سيدلي به: «يا سيدة «ويلكوكس»، لقد ارتكبت خطأ». ولكن شروق الشمس سلب هذا الاعتراف معناه. وشعر «لينارد» بأنه أشبه بمن يُقدِم على مغامرة كبرى.

ودخل حديقة، واستند إلى سيارة وجدها فيها. ورأى بابًا مفتوحًا، ودخل بيتًا. نعم، إن الأمر سيكون سهلًا جدًّا. وسمع أصواتًا صادرة من غرفة تقع على شماله، وكان صوت «مارجريت» من بينها. وتردد اسمه بصوت عالٍ. وسمع رجلًا لم يرَه قبل ذلك يقول:

ـ أوه، أهو هناك؟ إن ذلك لا يدهشني. سأضربه الآن حتى يصبح على شفا الهلاك.

وقال «لينارد»:

ـ يا سيدة «ويلكوكس»، لقد ارتكبت خطأ.

وأمسك به الرجل من ياقته وصاح:

ـ ائتوني بعصا.

وتعالت صيحات نسائية. وهوت عليه عصا ـ عصا لامعة جدًّا. وآلمته، لا حيث أصابته، ولكن في قلبه. وتساقط عليه وابل من الكتب وانطمس كل شيء أمامه.

وأصدر «تشارلز» أمره قائلًا:

ـ أحضروا ماء.

وكان يحتفظ طوال الوقت بهدوئه التام. وأردف:

ـ إنه يتظاهر. أنا لم أستعمل بالطبع إلا بطن السيف لا حده. والآن، احملوه إلى الخارج حيث الهواء الطلق.

وأطاعته «مارجريت»، ظنًّا منها أنه يفهم هذه الأمور. ووضعوا «لينارد» على الحصباء، وكان جثة هامدة. وصبت «هيلين» عليه الماء.

وقال «تشارلز»:

ـ في هذا الكفاية.

وقالت الآنسة «أفري»، وهي تخرج من المنزل والسيف في يدها:

ـ نعم. في القتل الكفاية.

## الفصل الثاني والأربعون

عندما غادر «تشارلز» «شارع دوسي» استقل أول قطار للعودة إلى بيته. ولكنه لم يكن لديه أي فكرة عن آخر التطورات حتى ساعة متأخرة من الليل. ثم أرسل أبوه في طلبه، وقد تناول عشاءه وحده. وسأله عن «مارجريت» في نبرات جدية للغاية.

وقال «تشارلز»:

ـ أنا لا أعرف أين هي يا أبي. وقد أخرت «دوللي» العشاء مدة تقرب من ساعة من أجلها.

ـ أنبِئني بعودتها حينما تعود.

ومرت ساعة أخرى. وأوى الخدم إلى فراشهم. وعاد «تشارلز» إلى أبيه ليتلقى تعليمات أخرى. ولم تكن السيدة «ويلكوكس» قد عادت بعد.

ـ سأسهر في انتظارها ما شئت، ولكن من غير المحتمل أن تحضر. ألا تبيت في الفندق مع أختها؟

وقال السيد «ويلكوكس» مفكرًا:

ـ ربما... ربما.

ـ أأستطيع أن أقوم لك بأي خدمة يا سيدي؟

ـ ليس الليلة يا ولدي.

وكان السيد «ويلكوكس» يميل إلى أن ينادى بكلمة «سيدي». ورفع عينيه، ونظر إلى ابنه بنظرة حنان أصرح مما كان يجرؤ عليه عادة. ورأى «تشارلز» الصبي، و«تشارلز» الرجل، مجتمعين في واحد. إذا كانت زوجته قد أبدت تقلبًا، فإن أولاده ما زالوا أوفياء له.

وقام فنقر على باب «تشارلز» بعد منتصف الليل وقال:

ـ لا أستطيع النوم. ويحسن أن أحدثك في الأمر وأنتهي منه.

وشكا الحر. وخرج به «تشارلز» إلى الحديقة، وأخذا يذرعانها وهما في روبيهما، وأصبح «تشارلز» شديد الهدوء إذ تكشفت له الحكاية؛ لقد كان يعلم طوال الوقت أن «مارجريت» رديئة كأختها.

وقال السيد «ويلكوكس» الذي لم يذكر بالطبع كلمة واحدة عن السيدة «باست»:

ـ سيختلف شعورها في الصباح، ولكني لا أستطيع أن أدع مثل هذا يستمر من دون أن أعلق عليه. أنا واثق، منطقيًّا، بأنها مع أختها في «هواردز إند». إن هذا المنزل ملك لي، وستؤول ملكيته إليك يا «تشارلز». وإذا قلت إنه ينبغي ألا يقطن هناك أحد، فأنا أعني ألا يقطن هناك أحد. إني لن أقبل غير هذا.

وتطلع إلى القمر في غضب:

ـ في رأيي أن هذه مسألة تتصل بأمر أشد خطورة بكثير: بحقوق الملكية نفسها.

وقال «تشارلز»:

ـ لا شك في هذا.

وتأبط السيد «ويلكوكس» ذراع ابنه. ولكن ميله إليه يقل على نحو ما كلما أوغل في الكلام:

ـ لا أريدك أن تستنتج أن بيني وبين زوجتي شيئًا له طبيعة العراك. كل ما في الأمر أنها كانت متوترة الأعصاب، ومن ذا الذي لا تتوتر أعصابه إذا تعرض لما تعرضت له؟ إني سأبذل ما أستطيع في سبيل «هيلين»، ولكن على أن يكون مفهومًا أنه يجب عليهما إخلاء المنزل على الفور. أترى؟ هذا شرط لا بد منه.

ـ أأذهب إذن في السيارة غدًا في الثامنة صباحًا؟

ـ في الثامنة أو قبل ذلك. وقل إنك تتصرف بصفتك ممثلي. ولا تستعمل بالطبع أي عنف يا «تشارلز».

وفي الصباح التالي، عندما عاد «تشارلز» تاركًا «ليناردِ» جثة هامدة فوق الحصباء، لم يخيل إليه أنه استعمل العنف. فالموت نتج عن داء في القلب. وقد قالت زوجة أبيه نفسها ذلك. وأقرت الآنسة «أفري» بأنه لم يستعمل إلا عرض السيف. وأخبر الشرطة بما حدث وهو في طريق عودته من وسط البلدة، فشكروه وقالوا إنه لا بد من إجراء تحقيق. ووجد أباه يجلس في الحديقة، ويظلل عينيه من أشعة الشمس.

قال «تشارلز» في جد:

ـ كان الأمر فظيعًا جدًّا. كانتا هناك، وجاءتا بالرجل معهما إلى هناك أيضًا.

ـ ماذا؟ أي رجل؟

ـ لقد أخبرتك عنه أمس. إن اسمه «باست».

وقال السيد «ويلكوكس»:

ـ يا إلهي! أهذا ممكن؟ وفي منزل أمك! في منزل أمك يا «تشارلز»!

ـ أعلم يا أبي. هذا ما شعرت به. ولا داعي في الواقع للاهتمام بأمر الرجل. فقد بلغ داء قلبه مرحلته الأخيرة. وقبيل أن أريه رأيي فيه، انهار. والشرطة تنظر في الأمر الآن.

وأصغى السيد «ويلكوكس» في انتباه.

ـ وصلت إلى هناك، أوه، ولا يمكن أن تكون الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف وقتذاك. وكانت المرأة «أفري» تشعل لهما النار، وهما لا تزالان في الطابق العلوي. وانتظرتهما في غرفة الاستقبال. والتزمنا نحن الثلاثة حدود المجاملة المعتدلة، وتمالكنا أعصابنا، ولو أني احتفظت بشكوكي. وأبلغتهما رسالتك، وقالت السيدة «ويلكوكس»: «أوه، نعم. فهمت. نعم». قالت هذا بطريقتها.

ـ وليس هناك شيء عدا ذلك؟

ـ وعدتها أن أنبئك أنها «مع إهداء محبتها إليك» سترحل هذا المساء مع أختها إلى ألمانيا. وهذا كل ما اتسع له الوقت.

وبدا كأنِ السيد «ويلكوكس» استراح.

ـ لأني أحسب أن الرجل تعب عند ذاك من التخفي، فقد هتفت السيدة «ويلكوكس» باسمه فجأة. وتبينت أنا ذلك، وهجمت عليه في الردهة. ألم أكن على صواب يا أبي؟ لقد رأيت أن الأمور تجاوزت الحد كثيرًا.

ـ على صواب يا ولدي العزيز؟ لست أدري. ولو أنك ما فعلت ذلك لما كنت ولدي. ثم أهو قد «تكوم» فقط... فقط، كما قلت؟

وأجفل من مجرد الكلمة.

ـ لقد أمسك بصندوق الكتب الذي انقلب عليه. ولم يكن مني بعد ذلك إلا أن وضعت السيف جانبًا، وحملت الرجل إلى الحديقة. وقد ظننا نحن جميعًا أنه يتظاهر. على أي حال مات ولا ريب. إنه لأمر فظيع!

وصاح أبوه بصوت ينم عن جزع:

ـ سيف؟ أي سيف؟ سيف من؟

ـ سيف يملكونه.

ـ ماذا كنت تصنع به؟

ـ ألم تفهم يا أبي أني كنت مضطرًّا إلى اختطاف أول شيء يقع في متناول يدي، فلم يكن معي سوط ركوب أو عصا. فضربت كتفيه مرة أو مرتين بعرض سيفهم الألماني القديم.

ـ ثم ماذا؟

وقال «تشارلز» ضاحكًا وهو يُحدث نفسه بأنه ليس من الممتع قضاء المهام لرجل كأبيه، إرضاؤه عسير كل العسر:

ـ سحب صندوق الكتب على نفسه كما قلت، وسقط.

ـ ولكن أكان السبب الحقيقي لموته هو مرض القلب؟ أأنت واثق من ذلك؟

ـ هو مرض القلب، أو نوبة طارئة، على أي حال سنسمع عند التحقيق الكثير عن هذه الموضوعات التي لا يلذ سماعها.

ثم دخلا لتناول الإفطار. وكان «تشارلز» يشكو صداعًا أليمًا نتيجة لقيادته السيارة قبل أن يأكل شيئًا. وكان قلقًا كذلك بشأن المستقبل، مشتغل الذهن بفكرة أن الشرطة لا بد ستحتجز «هيلين» و«مارجريت» بسبب التحقيق، وتكشف المسألة بأسرها. ورأى نفسه مضطرًّا إلى الانتقال من هيلتون، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش بالقرب من مسرح فضيحة، فليس في هذا إنصاف لزوجته. ووجد «تشارلز» عزاءه في أن عينَي أبيه تفتحتا في النهاية. سيحدث صدام خطير، وافتراق عن «مارجريت» على الأغلب. ثم يستأنفون جميعًا من جديد حياة أقرب شبهًا بما كانوا يحيون أيام أمهم.

وقال أبوه بعد الانتهاء من الإفطار:

ـ أرى أن أذهب إلى مركز البوليس.

وصاحت «دوللي» التي لم تخبر بالأمر بعد:

ـ لماذا؟

ـ حسنًا جدًّا يا سيدي، وأي سيارة ستستقلها؟

ـ أظن أني سأتمشى.

وقال «تشارلز» وهو يخطو إلى الحديقة:

ـ المسافة نصف ميل على الأقل، والشمس شديدة الحرارة بالنسبة لشهر أبريل. ألا ترى أن أذهب بك في السيارة، ولعلنا ندور بعد ذلك دورة قصيرة حول تيوين؟

وقال السيد «ويلكوكس» في غيظ:

ـ أنت تتكلم كما لو كنت لا أعرف ما استقر عليه رأيي.

وأطبق «تشارلز» فمه. واستطرد أبوه:

ـ إن فكرتكم الوحيدة أيها الشبان الصغار أن تستقلوا السيارة. قلت لك إني أريد أن أتمشى. أنا مغرم جدًّا بالتمشي.

ـ أوه حسنًا. ستجدني في المنزل فيما إذا أردتني لسبب ما. وقد فكرت في عدم ذهابي إلى مكتب العمل اليوم، إذا كانت هذه رغبتك.

وقال السيد «ويلكوكس» وقد وضع يده على كمِّ ابنه:

ـ إنها رغبتي بالتأكيد يا ولدي.

ولم يرضَ «تشارلز» عن ذلك، وكان قلقًا على أبيه الذي كان يبدو على غير حالته الطبيعية هذا الصباح. كانت به إثارة من حدة الطبع، أشبه بما يعتري النساء. أيمكن أن يكون مرجع ذلك إلى أنه يتقدم في السن؟ إن عاطفة المحبة لم تكن تنقص أفراد أسرة «ويلكوكس». كان لهم منها نصيب موفور، ولكنهم لم يعرفوا كيف يستعملونها. كانت كالموهبة المهملة. ولم يكن «تشارلز» يبث فيمن حوله إلا قدرًا قليلًا جدًّا من السرور بالنسبة لرجل حارِّ العاطفة مثله. وتولاه أسف غامض وهو يرقب أباه حينما كان يدلف في الطريق. تولته رغبة (ولو أنه لم يحدد التعبير عنها على هذا النحو) في أن يكون قد عُلِّم في صباه أن يقول «أنا». لقد قصد أن يعوض أباه عن ترك «مارجريت» له، ولكنه كان يعلم أن أباه وجد في حياته معها سعادة كبيرة حتى أمس. فكيف أمكنها تحقيق ذلك؟ لا شك أنها استعانت بحيلة غير شريفة. ولكن كيف؟

وظهر السيد «ويلكوكس» من جديد في الحادية عشرة وقد بدا عليه تعب شديد. لقد تقرر التحقيق على ضوء تشريح جثة «لينارد» غدًا. وطلبت الشرطة حضور ابنه وقتذاك.

وقال «تشارلز»:

ـ كنت أتوقع ذلك، ومن الطبيعي أني سأكون أهم شاهد هناك.

## الفصل الثالث والأربعون

بدا من المستحيل لـ«مارجريت» أن تنبثق الحياة السليمة من جديد من بين هذا الاضطراب والهول اللذين بدآ بمرض «جولي»، ولم يُقدَّر لهما الانتهاء حتى بموت «لينارد». وتوالت الأحداث في تسلسل منطقي، ولكن لا حسَّ فيه. لقد فقدَ الناس إنسانيتهم، واتخذوا لهم قيمًا فيها من التعسف ما في رزمة من ورق اللعب. كان من الطبيعي أن يفعل «هنري» هذا، ويتسبب في أن تفعل «هيلين» ذاك، ثم يراها مخطئة لأنها فعلته؛ ومن الطبيعي أن تظنه هي نفسها مخطئًا؛ ومن الطبيعي أن يرغب «لينارد» في الوقوف على حال «هيلين»، وأن يحضر، وأن يغضب عليه «تشارلز» لمجيئه؛ هذا كله طبيعي، ولكنه زائف. وماذا جرى لنفوسهم الصميمة وسط صخب الأسباب والنتائج هذه؟ هنا في الحديقة يرقد «لينارد» ميتًا نتيجة لأسباب طبيعية. بيد أن الحياة مع ذلك نهر عميق جدًّا، والموت سماء زرقاء. إن الحياة منزل، والموت حزمة من القش، زهرة، قلعة. إن الحياة والموت هما أي شيء، وكل شيء، إلا ذلك الجنون المرتب الذي تكسب به ورقة الملك ورقة الملكة، ويكسب الآس الملك. آه، لا. فهناك جمال ومغامرة وراء ذلك، جمال ومغامرة كاللذين تاق إليهما الرجل الراقد الآن تحت قدمَيها. هناك أمل في هذا الجانب من القبر. هناك علاقات أصدق وراء الحدود التي تقيدنا الآن. وكما يرفع السجين عينيه ويرى النجوم تومئ إليه، كذلك لمحت «مارجريت» طرفًا من العجلات الأكثر قدسية من وسط اضطراب هذه الأيام وهولها.

وقد أذكرتها «هيلين» التي أخرسها الخوف، ولكنها حاولت الاحتفاظ بهدوئها في سبيل جنينها. وأذكرتها الآنسة «أفري» التي ظلت هادئة، ولكنها كانت تغمغم قائلة في رقة: «لم يقُل أحد قَطُّ للفتى أنه سيُرزق طفلًا». أذكرتاها هما أيضًا أن هذا الهول ليس هو النهاية. إنها لم تدرك التناسق النهائي الذي تتجه إليه، ولكن بدا لها أن هناك احتمالًا كبيرًا في أن يولد طفل في هذه الحياة، وينال حظه الأكبر مما تتيحه الحياة من جمال ومغامرة. ومشت خلال الحديقة السابحة في أشعة الشمس وهي تجمع النرجس القرمزي والأبيض. ولم يكن هناك شيء آخر تقوم به. لقد مضى عهد الغضب وإرسال البرقيات، وبدا لها أن أحكم ما تستطيع فعله أن تضم يدي «لينارد» فوق صدره، وتغمره بالزهور. فهنا يرقد أبو الجنين، وليترك الأمر عند هذا الحد، ولندَع القذارة تتحول إلى مأساةٍ عيونها هي النجوم، ويداها تمسكان بالغروب والفجر.

ولم يزعزع إيمانها بخلود الجمال حتى تدفّق الموظفين الرسميين، وحتى عودة الطبيب بما فيه من سوقية وحِدة. إن العلم يفسر الناس، ولكنه لا يستطيع فهمهم. ولعله يستطيع، بعد قرون طويلة قضاها بين العظام والعضلات، أن يتقدم صوب معرفة الأعصاب، ولكن هذا لن يحقق له فهم الإنسان أبدًا. وقد يفتح المرء للسيد «مانزبريدج» وأمثاله من دون أن يكشف لهم أسراره، فهم يريدون كل شيء مكتوبًا على الورق ـ أبيض وأسود، والأبيض والأسود هما بالضبط حصيلة أولئك القوم.

لقد استجوبوها بدقة عن «تشارلز»، ولم يدُر بخاطرها قَطُّ سبب ذلك. لقد حان الأجل، ووافق الطبيب على أن الموت نتج عن مرض القلب. وطلبوا إليها أن يروا سيف أبيها. وشرحت لهم كيف أن غضب «تشارلز» طبيعي، ولكنه خطأ. وأعقبت ذلك أسئلة تعسة عن «ليناردز»، وأجابت عنها جميعًا من دون تلعثم. ثم عادت الأسئلة عن «تشارلز» من جديد. وقالت:

ـ لا شك أن السيد «ويلكوكس» قد يكون المتسبب في الموت. ولكن إذا لم يقع ذلك، فغيره كان سيقع كما تعلمون أنتم أنفسكم.

وشكروها في النهاية، وحملوا معهم السيف والجثة إلى هيلتون، وبدأت تلتقط الكتب من الأرض.

وكانت «هيلين» قد ذهبت إلى الضيعة. ولم يكن هناك مكان أنسب منها لإقامتها ما دامت مضطرة إلى انتظار التحقيق. هذا بالرغم من أن «مادج» وزوجها أثارا المتاعب، وكأنما الأمور كانت في حاجة إلى مزيد من التعسير. إنهما لم يريا سببًا يدعوهما إلى قبول نفايات «هواردز إند»، ولا شك أنهما كانا على صواب فيما رأيا، فالعالم كله سيصبح على صواب، وسيتأثر من قائل أي عبارة جريئة ضد التقاليد. كان أفراد أسرة «شليجل» يقولون فيما مضى: «لا شيء يهم غير شعور الإنسان بكرامته، وكرامة أصدقائه». ولكن عندما آن الأوان جدت أمور تهم أهمية خطيرة. على أن «مادج» أذعنت، واستوثقت «هيلين» من أنها ستستمتع بالسلام يومًا وليلة، وستعود بعد ذلك إلى ألمانيا.

أما فيما يتعلق بـ«مارجريت» فقد عقدت العزم على الرحيل هي أيضًا. ولم ترد رسالة من «هنري»، ولعله كان ينتظر منها أن تعتذر. وهي الآن غير نادمة بعد أن أتيحت لها مندوحة من الوقت للتفكير في مأساتها. إنها لم تغفر له سلوكه، ولا هي ترغب في الصفح عنه. وبدا لها حديثها معه خاليًا من العيب، ولو خيرت لما بدلت فيه كلمة. كان لا بد من الإدلاء به ولو مرة

واحدة في حياة الإنسان لتعديل انحرافات المجتمع. إن ذلك الحديث لم يوجَّه إلى زوجها وحده ولكن إلى آلاف الرجال الذين هم من صنفه ـ وهو احتجاج على الظلام الباطني في الطبقة العليا، ذلك الظلام الذي يجيء به عصر مادي. إنها لن تستطيع أن تعتذر ولو أقدم على بناء صرح حياته من دونها. لقد أبى أن يربط بين الأشياء في أوضح موضوع يمكن أن يُطرح على رجل، ولا بد أن يتحمل حبهما نتائج ذلك.

أجل، ليس هناك شيء آخر يمكن القيام به. لقد حاولا أن يتجنبا الهاوية، ولكن لعل سقوطهما كان لا مفر منه. وقد وجدت عزاء فيما خطر لها من أن المستقبل لا مفر منه من دون مراء. فالسبب والمسبب يتقدمان متصارعين، ولا شك، صوب هدف ما، ولكنه هدف لا تستطيع أن تتصوره. وفي مثل هذه اللحظات ترتد الروح إلى داخل الإنسان لتطفو فوق صدر نهر أعمق، وتتصل بالموتى، وترى مجد العالم غير منقوص، ولكنْ مختلفًا في نوعه عما افترضت. إنها تعدل بؤرتها حتى تتوارى التفاهات. وكانت «مارجريت» تجنح إلى ذلك الاتجاه طوال الشتاء. وقد أوصلها موت «ليونارد» إلى الهدف. أسفًا على أن يتبدد «هنري» عندما تبزغ الحقيقة، ولا يظل واضحًا إلا حبها له المختوم بصورته كالصور التي نستنفذها من أحلامنا.

وتتبعت مستقبله بعين لا تتردد. فهو لن يلبث أن يواجه العالم من جديد بعقل سليم، وماذا يهمه أو يهم العالم بعد ذلك أن يكون له باطن متعفن؟ وسيصير شيخًا مرحًا غنيًّا، وقد يكون أحيانًا عاطفيًّا مع النساء، ولكنه يفرغ كأسه مع أي واحدة. وهو سيستبقي «تشارلز»، والباقين، تابعين له، تشبثًا منه بالسلطة، ثم يعتزل الأعمال على مضض بعد بلوغه سنًّا متقدمة. سيستقر، ولو أنها لم تستطِع أن تتصور حدوث ذلك. فـ«هنري» في نظرها لا يكفُّ عن الحركة، وهو يدفع إليها الآخرين حتى يلتقي طرفا العالم. ولكنه في الوقت المعين لا بد أن يبلغ به التعب حدًّا يمنعه من أن يتحرك، وعندئذٍ سيستقر. وماذا بعد ذلك؟ الكلمة التي لا مفر منها: انطلاق الروح إلى سمائها الملائمة.

وهل سيتقابلان فيها؟ إن «مارجريت» تؤمن بالخلود لنفسها، وقد بدت لها الحياة المستقبلة الأبدية طبيعية على الدوام. و«هنري» يؤمن بالخلود لنفسه. ولكن، هل سيلتقيان مع ذلك مرة أخرى؟ أليس هناك، على الأرجح، مستويات لا حصر لها وراء القبر، وفقًا لما تلقنه النظرية التي يطعن هو فيها؟ وهل من الممكن أن يكون مستواه، سواء أكان أعلى من مستواها أم أقصر، هل من الممكن أن يكون مطابقًا لمستواها تمامًا؟

وقد أرسل في استدعائها بينما كانت تسترسل في التأمل الخطير على ذلك النحو. بعث إليها «كرين» بالسيارة. إن الخدم الآخرين يتسربون من خدمته كالماء، ولكن سائق السيارة بقي برغم أنه وقح وغير وفيٍّ. وكانت «مارجريت» تكره «كرين»، ولم يجهل هو ذلك. وسألته:

ـ أهي المفاتيح التي يريدها السيد «ويلكوكس»؟

ـ لم يذكر ذلك يا سيدتي.

ـ ألا تحمل أي رسالة إليَّ؟

ـ لم يقُل لي شيئًا يا سيدتي.

وبعد لحظة تفكير أرتجت باب «هواردز إند». وكان مما يثير الإشفاق أن يرى المرء فيه جَيَشان الدفء الذي سينطفئ إلى الأبد. وقلبت النار التي كانت مشتعلة في المطبخ، ونثرت الجمر فوق فناء الدار المغطى بالرمل، وأغلقت النوافذ، وأرخت الأستار. وأغلب الظن أن «هنري» سيبيع المنزل الآن.

كانت مصممة على ألا تعفيه، فإنه لم يجدَّ جديد فيما يتعلق بهما، ولعل حالتها النفسية لم تتغير قَطُّ عما كانت عليه مساء أمس. وكان «هنري» يقف في الخارج على بعد قليل من باب حديقة «تشارلز». وأشار للسيارة بالوقوف. وقال في صوت مبحوح عندما خرجت زوجته:

ـ أؤثر أن أناقش الأمر معك خارج الدار.

فعقَّبت زوجته:

ـ أخشى أن يكون من الأنسب القيام بذلك في الشارع. أتسلمت رسالتي؟

ـ رسالة عمَّ؟

ـ سأرحل إلى ألمانيا مع أختي. ولا بد أن أقول لك الآن إني سأجعل من ألمانيا موطني الدائم. وحديثنا أمسِ كان أكثر أهمية مما تقدر. وأنا غير قادرة على العفو عنك وسأهجرك.

وقال «هنري» في نبرات مَن أوذي:

ـ أنا متعب إلى درجة قصوى، فقد قضيت الصباح بطوله سائرًا على قدميَّ، وبودي أن أجلس.

ـ بالتأكيد، إذا رضيت بالجلوس فوق الحشائش.

وكان طريق «جريت نورث» يمكن أن يكون ممتلئ الجانبين بالتربة المزروعة، ولكن أمثال «هنري» سرقوا أغلبها. وانتقلت «مارجريت» إلى البقعة المقابلة حيث تقوم «التلال الستة». وجلسا على الجانب البعيد حتى لا يراهما «تشارلز» و«دوللي».

وقالت «مارجريت»:

ـ ها هي ذي مفاتيحك.

وألقت بها تجاهه فوقعت على المنحدر المكسو بالحشائش، المغمور بأشعة الشمس، ولم يلتقطها، وقال في رقة:

ـ لديَّ أمر أود أن أخبركِ به.

وكانت تعرف هذا اللطف السطحي، والإقرار بالطيش والتسرع؛ هذه الوسائل التي لا ترمي إلا إلى زيادة إعجابها بالرجل. وأجابت:

ـ لا أريد أن أسمعه، فأختي ستصبح عليلة، وسأعيش معها الآن. ولا بد من أن ندبر أمرنا لنقوم بعمل مُجدٍ، هي وأنا وطفلها.

ـ إلى أين تزمعون الرحيل؟

ـ ميونخ. وسنبدأ رحلتنا عقب انتهاء التحقيق، هذا إذا لم تسُؤ حالتها الصحية.

ـ بعد التحقيق؟

ـ نعم.

ـ هل عرفت ماذا سيكون الحكم بعد التحقيق؟

ـ نعم، الموت بمرض القلب.

ـ لا يا عزيزتي، القتل الخطأ.

ومرت «مارجريت» بأصابعها خلال الحشائش، وتحرك التل تحتها كما لو كان حيًّا. وكرر السيد «ويلكوكس» قوله:

ـ القتل الخطأ. وقد يزج بـ«تشارلز» في السجن. أنا لا أجرؤ على إخباره، ولا أعرف ماذا أصنع... ماذا أصنع. أنا تحطمت، أنا انتهيت.

ولم تنبعث فيها حرارة مفاجئة. لم يكن من رأيها أن تحطيمه هو أملها الوحيد. ولم تضم المعذب بين ذراعيها. ولكن حياة جديدة بدأت تدب خلال ذلك اليوم بطوله، وفي اليوم التالي. وأعلن الحكم: لقد أحيل «تشارلز» للمحاكمة. وكان إمكان عقابه يتنافى مع كل تفكير سليم. ولكن القانون، وقد وضع على صورته، قضى عليه بسجنه ثلاث سنوات. هنالك انهار حصن «هنري»، ولم يَعُد يستطيع احتمال أحد غير زوجته، وقد دلف إليها بعد ذلك وسألها أن تصنع به ما تقدر عليه. وصنعت ما بدا لها أسهل من غيره: ذهبت به لاسترداد قواه في «هواردز إند».

## الفصل الرابع والأربعون

كان أبو «توم» يقطع الحشائش في المرج الكبير. وقد كرَّ مرة بعد مرة بين حفيف النبات ورائحة الحشائش اللطيفة، مطوقًا وسط الحقل المحرم بدوائر من الحشائش المقطوعة تضيق شيئًا فشيئًا. وكان «توم» الصغير يفاوض «هيلين» التي أجابته:

ـ ليست لديَّ أي فكرة. أتظنين الطفل يستطيع ذلك يا «ميج»؟

ووضعت «مارجريت» شغلها جانبًا، ونظرت إليهما شاردة الذهن وسألت:

ـ ما هذا الذي قلته؟

ـ يريد «توم» أن يعرف هل سن الطفل تسمح له باللعب بالدريس؟

وأجابت «مارجريت» وقد تناولت شغلها من جديد:

ـ ليس لديَّ عن ذلك أقل فكرة.

ـ اسمع يا «توم». ينبغي ألا يقف الطفل، وألا يرقد على وجهه، وينبغي ألا يرقد على نحو يهتز معه رأسه، وألا يعاكس أو يدغدغ. وألا يشطر شطرين أو أكثر بالقطاعة. فهل أنت حريص إلى حد العناية بذلك كله؟

ومد «توم» ذراعيه. ولاحظت «مارجريت»:

ـ هذا الصبي عبارة عن مربية مدهشة.

وكان رد «هيلين»:

ـ إنه مغرم بالطفل، وهذا ما يحمله على القيام بذلك! إنهما سيصبحان أصدقاء العمر.

ـ بادئين صداقتهما وأحدهما في السادسة والثاني في العام الأول من عمره؟

ـ بالطبع. وسيكون هذا أمرًا عظيمًا بالنسبة لـ«توم».

ـ وقد يكون أمرًا أعظم بالنسبة للطفل.

ومرت أربعة عشر شهرًا، ولكن «مارجريت» ظلت باقية في «هواردز إند»، إذ لم تخطر لها خطة أفضل. وقد أعيد قطع حشائش المرج، وأخذت زهور الخشخاش الحمر الكبيرة تتفتح في الحديقة من جديد. وسيقبل شهر يوليو بزهوره الصغيرة بين أعواد القمح، وستحصد تلك الأعواد في أغسطس. وستصبح تلك الأحداث الصغيرة جزءًا من حياتها عامًا بعد عام. ستخشى كل صيف أن تنضب البئر، وكل شتاء أن يتجمد الماء في الأنابيب. كل زوبعة غريبة قد تقتلع شجرة الغرغار الجبلي، ونقضي بذلك على كل شيء، ولهذا لم تكن تستطيع القراءة أثناء هبوب زوبعة غريبة. وسكن الهواء الآن، وكانت هي وأختها جالستين على بقايا ركن الحديقة الصخري الخاص بـ«إيفي» حيث تتصل المرجة بالحقل.

وقالت «هيلين»:

ـ شدَّ ما تأخروا جميعًا! ترى ماذا يفعلون داخل البيت؟

ولم تُجِب «مارجريت» التي أخذ يَقِل كلامها باطراد. وكان صوت قطاعة الحشائش يترامى إليهما مترددًا كصوت الأمواج المتكسرة. وبدا على مقربة منهما رجل يستعد لقطع حشائش أجمة في الوادي.

وقالت «هيلين»:

ـ وددت لو خرج «هنري» ليستمتع بهذا. أيكون الجو على هذا الجمال ويحبس نفسه في الدار! هذا أمر عصيب.

وقالت «مارجريت»:

ـ هذا لا بد منه. إن حمى القش هي السبب الرئيسي لاعتراضه على الإقامة هنا، ولكنه يرى تلك الإقامة تستحق المجازفة.

ـ أهو مريض أم غير مريض يا «ميج»؟ أنا لا أستطيع تبين الأمر.

ـ غير مريض. ولكنه يحس تعبًا لا ينتهي. لقد أضنى نفسه بالعمل طوال حياته ولم يلاحظ شيئًا. وهؤلاء هم الناس الذين ينهارون عندما يلاحظون شيئًا.

ـ أظنه منزعجًا أشد الانزعاج بسبب دوره في المشكلة.

ـ أشد الانزعاج. ولهذا وددت لو أن «دوللي» لم تحضر اليوم هي أيضًا. ومع ذلك فقد أراد حضورهم جميعًا. كان هذا لا بد منه.

ـ لماذا يريدهم؟

ولم تُجِب «مارجريت».

ـ «ميج»، أأستطيع أن أنبئك بشيء؟ إني أميل إلى «هنري».

وقالت «مارجريت»:

ـ لو لم تميلي إليه لكنتِ غريبة.

ـ اعتدت ألا أميل إليه.

ـ ألَّا تميلي إليه!

وخفضت «مارجريت» بصرها هنيهة إلى هوة الماضي السوداء. لقد اجتازوها، دائمًا باستثناء «ليناردِ» و«تشارلز». وهم يبنون اليوم حياة جديدة، حياة مغمورة، ولكنها موشاة بالهدوء. لقد مات «ليناردِ». وبقيت سنتان يقضيهما «تشارلز» في السجن. إنها لم تعتَد أن ترى الأشياء دائمًا في وضوح قبل ذلك الوقت، والأمر يختلف الآن:

ـ أنا أميل إلى «هنري» لأنه يحمل الهمَّ.

ـ وهو يميل إليكِ لأنكِ لا تفعلين.

وتنهدت «هيلين». وبدا كأنها أذلت، ودفنت وجهها في يديها.

وقالت بعد فترة من الوقت:

ـ بشأن الحب.

وهذا تحوُّل كانت مباغتته أخف مما بدت.

ولم تتوقف «مارجريت» قَطُّ عن شغلها.

ـ أقصد حب المرأة للرجل وقد ظننت مرة من المرات أنه يجب أن أقف حياتي على هذا، وكنت مسوقة إلى أعلى، وإلى أسفل، وإلى مختلف النواحي، وكأن شيئًا داخل نفسي يتملكه القلق. ولكن كل شيء هادئ الآن، ويبدو أني شفيت. ولا بد أن يكون السيد «فورستمايستر» هذا الذي تُواصل «فريدا» الكتابة عنه، شخصًا نبيلًا، ولكنه لا يدرك أني لن أتزوج به أبدًا، أو بأي رجل آخر. وليس هذا لأني أخجل من نفسي أو لا أثق فيها، ولكن لمجرد أني لا أستطيع. فأنا انتهيت. لقد اعتدت وأنا فتاة أن أكون حالمة جدًّا بشأن حب الرجل، وأن أظنه على كل حال الغاية التي ليست وراءها غاية. ولكنه لم يكن كذلك. بل كان هو نفسه حلمًا، أتتفقين معي؟

ـ أنا لا أتفق معكِ. أنا لا أتفق.

وقالت «هيلين» وهي تخطو تجاه الحقل:

ـ ينبغي أن أتذكر «لينارد» على أنه حبيبي. لقد أغريته، وقتلته. وهذا التذكر بالتأكيد أقل ما أستطيع عمله. وددت في عصر يوم كهذا أن أنصرف بقلبي كله إلى «لينارد»، ولكني لا أستطيع ولا خير في التظاهر. فأنا بسبيل نسيانه.

وامتلأت عيناها دموعًا.

ـ ما أقل التناسب بين الأشياء، ما أقله يا حبيبي الغالي...

وأمسكت عن القول، ونادت:

ـ «تومي»!

ـ نعم، من فضلكِ.

ـ يجب ألا يحاول الطفل الوقوف.

إن هناك شيئًا ينقصني. أنا أراكِ تحبين «هنري»، وتزدادين فهمًا له يومًا بعد يوم، وأعلم أن الموت لن يفرق بينكما أبدًا. ولكن أنا، أبيَ عيبٌ مفزع شنيع، عيب إجرامي؟

وأسكتتها «مارجريت»، وقالت:

ـ كل ما في الأمر أن الناس يختلفون كثيرًا عما يتظاهرون به. والرجال والنساء في أنحاء العالم بأسره قلقون مهمومون لأنهم لا يستطيعون أن

يتطوروا حسبما هو مفروض أن يتطوروا. وهنا وهناك يبوحون بدخيلة نفوسهم بالأمر ويجدون في ذلك عزاء. فلا تتحسري يا «هيلين»، ونمِّي ما لديكِ، أحبي طفلكِ. أنا لا أحب الأطفال، وأشكر الله على أني لم أرزق واحدًا منهم. إنني أستطيع أن ألهو بجمالهم وظرفهم، ولكن لا أكثر لا شيء حقيقيًّا، ولا ذرة مما ينبغي أن يكون. وهناك آخرون، آخرون يذهبون حتى إلى أبعد من ذلك، وينتقلون إلى خارج الإنسانية كلية. فقد يفتنهم المكان، كما يفتن غيرهم الأشخاص. ألا ترين أن هذا كله يقودنا آخر الأمر إلى العزاء؟ إنه جزء من المعركة الناشبة ضد تجانس الأشياء. الاختلافات، الاختلافات الأزلية التي يغرسها الله في الأسرة الواحدة ليظل هناك لون على الدوام؛ وقد يكون لون الحزن، ولكنه يلون قوام الحياة اليومي. ثم إني لا أستطيع أن أدَعكِ تعذبين نفسكِ بسبب «لينارد». لا تقحمي العامل الشخصي ما دام مستحيلًا. انسيه.

ـ نعم، نعم. ولكن ماذا أفاد «لينارد» من الحياة؟

ـ لعله أفاد مغامرة.

ـ وهل هذا يكفي؟

ـ لا يكفينا نحن، ولكن يكفيه هو.

وتناولت «هيلين» حزمة من الحشائش. ونظرت فيها إلى البرسيم الأحمر والأبيض والأصفر، وأعشاب «الكويكر»، وزهور الأقحوان والسيقان التي تتألف منها. ورفعتها إلى وجهها.

وسألتها «مارجريت»:

ـ أبَدأ يفوح أريجها؟

ـ لا، لقد ذبلت فقط.

ـ سيفوح أريجها غدًا.

وابتسمت «هيلين» وقالت:

ـ أوه يا «ميج». أنتِ إنسانة. انظري ما كان من ضجة وعذاب في مثل هذا الوقت من العام الماضي. ولكني لا أستطيع أن أصبح الآن غير سعيدة، ولو

حاولت ذلك. يا له من تغيُّر! والفضل فيه كله لكِ!

ـ أوه. إننا استقررنا فقط. وقد تعلمتِ أنتِ و«هنري»، أن يفهم كل منكما الآخر، وأن يتسامح، والفضل في هذا كله للخريف والشتاء.

ـ ولكن من الذي جعلنا نستقر؟

ولم تُجِب «مارجريت». لقد بدأ حش العشب، فرفعت عويناتها لترقب ما يجري. وصاحت «هيلين»:

ـ أنتِ! أنتِ فعلتِ كل شيء يا أرق الناس، ولو أنكِ أغبى من أن ترَي ذلك. فالإقامة هنا كانت خطتكِ؛ فأنا كنت في حاجة إليكِ، وكان هو كذلك، وقال الجميع إن الأمر مستحيل، ولكنكِ كنتِ أدرى. فكِّري فقط في حياتنا من دونكِ يا «ميج»: أنا والطفل مع «مونيكا»، أمرٍ مقزز بالمبدأ، وهو تتناقله «دوللي» و«إيفي». ولكنكِ التقطتِ الحطام وأقمتِ لنا بيتًا. ألا يمكن أن يخطر لكِ، حتى لهنيهة، أن حياتكِ كانت بطولية؟ ألا تستطيعين أن تتذكري الشهرين اللذين أعقبا القبض على «تشارلز»، عندما بدأتِ العمل، وصنعتِ كل شيء؟

وقالت «مارجريت»:

ـ كنتما مريضين كلاكما، فقمت أنا بالواجبات الواضحة. كان لديَّ مريضان يجب أن أقوم بتمريضهما. وكان هنا منزل خالٍ مجهز بالأثاث. فالأمر واضح. ولم أكن أعلم أنا نفسي أن هذا البيت سيصبح بيتنا الدائم. ولا شك أني قمت بجهد قليل في سبيل فك العقدة، ولكن أشياء أخرى لا أستطيع التعبير عنها قد عاونتني.

وقالت «هيلين»، سابحة في أفكار أخرى:

ـ أرجو أن يظل بيتًا دائمًا لنا.

ـ أظن ذلك. وهناك لحظات أشعر فيها بأن «هواردز إند» ملك لنا خاصة.

ـ ومع ذلك فإن لندن تزحف علينا.

وأشارت إلى ما وراء المرج، إلى ما وراء ثمانية أو تسعة مروج، ولكن بدا في نهايتها ما يشبه الصدأ الأحمر.

واستطردت قائلة:

ـ وأنتِ ترَين ذلك في سارِّي الآن، وحتى في هامبشير. وأستطيع أن أراه من هضاب «بوربيك داونز». وأخشى ألا تكون لندن إلا جزءًا من شيء آخر. إن الحياة ستنصهر في أنحاء العالم بأسره.

ولم تجهل «مارجريت» أن أختها صدقت في القول، فـ«هواردز إند» وأونيتون، و«بوربيك داونز»، وأودربرجي كلها مخلفات ظلت على قيد الحياة بعد غيرها، ولكن البوتقة كانت مُعدة لها جميعًا. وهي من الناحية المنطقية لا حق لها في الحياة، ولكن أمل المرء في ضعف المنطق. أيمكن أن تكون هذه الأصقاع هي الأرض التي تحدد مسافات الزمن؟

وقالت:

ـ لا يستدعي الأمر أن يظل شيء ما قويًّا إلى الأبد لأنه قوي الآن. إن هذا الهوس بالحركة لم يظهر في الوجود إلا خلال السنوات المائة الأخيرة. وقد تعقبه حضارة لا تقوم على الحركة لأنها ستستقر فوق تربة الأرض. وجميع الدلائل تشير إلى عكس ذلك الآن، ولكني لا أستطيع إلا أن آمل. وفي البكور من كل صباح أشعر وأنا في الحديقة بأن منزلنا هو المستقبل كما هو الماضي.

ودارتا ونظرتا إليه، وقد لونته ذكرياتهما الآن، فإن طفل «هيلين» وُلد في الغرفة الرئيسية من غرفه التسع. وعندها قالت «مارجريت»:

ـ أوه، انتبهي!

ذلك أن شيئًا تحرك وراء شباك الردهة، وفتح الباب.

ـ انتهى «مجمع الكرادلة» آخر الأمر. أنا منصرف.

وكان القادم «بول».

وانسحبت «هيلين»، ومعها الطفلان، موغلة في الحقل. وقابلتها أصوات صديقة بالتحية. وقامت «مارجريت» لتستقبل رجلًا ذا شارب أسود كث.

قال في لهجة معادية:

ـ أبي يطلب لقاءكِ.

وحملت شغلها وتبعته. وأردف:

ـ كنا نتحدث حديث عمل، ولكن لعلكِ كنتِ تعرفين كل ما يتعلق به من قبل.

ـ نعم، كنت أعرف.

وإذ كانت حركته ثقيلة، لأنه قضى حياته بأسرها فوق صهوة جواد، فقد صدمت قدمه طلاء الباب الخارجي، وأطلقت «مارجريت» نأمة تدل على المضايقة. فهي لم تكن تطيق أي خدش يصيب الدار. ووقفت في الردهة لتلتقط لفاعًا من الفرو وقفازًا مملوكين لـ«دوللي» كانا موضوعين في زهرية.

كان زوجها يضطجع في كرسي كبير مكسو بالجلد في غرفة الطعام. وبدت «إيفي» إلى جانبه وهي تمسك بيده في شيء من الزهو. وجلست «دوللي» في ثوب أرجواني بالقرب من النافذة. وكانت الغرفة مظلمة بعض الشيء، ومحتبسة الهواء. وكانوا مضطرين إلى إبقائها على تلك الحال حتى يتم نقل الدريس. وانضمت «مارجريت» إلى الأسرة صامتة. وكانوا قد اجتمعوا هم الخمسة من قبل عند تناول الشاي، وعلمت «مارجريت» مقدمًا بما سوف يقال، وبدلًا من تضييع وقتها مضت في خياطتها. ودقت الساعة معلنة السادسة.

وقال «هنري» في صوت مجهد:

ـ أهذا يرضي الجميع؟

لقد استعمل عباراته القديمة، ولكن تأثيرها كان مبهمًا غير متوقع.

وقال مستطردًا:

ـ ذلك أني لا أريد أن تأتوا جميعكم إلى هنا فيما بعد شاكين من أني كنت غير منصف.

وقال «بول»:

ـ يبدو أنه يجب أن يكون مرضيًا لنا.

ـ أسألك المعذرة يا ولدي. فما عليك إلا أن تطلب، وأنا أورثك الدار بدلًا من الاقتراح المعروض.

وقطب «بول» جبينه في عصبية، وأخذ يحك ذراعه. ثم قال في نهاية الأمر:

ـ بما أني تركت حياة الخلاء التي كانت تناسبني، وجئت إلى بلدي لأتولى العمل، فلن تُجدي إقامتي هنا. إن هذا المكان ليس ريفًا بمعنى الكلمة، وليس مدينة.

ـ حسنًا جدًّا، وهل تلائمكِ تسويتي للأمر يا «إيفي»؟

ـ بالطبع يا أبي.

ـ وأنتِ يا «دوللي»؟

ورفعت «دوللي» وجهها الصغير الشاحب الذي استطاع الحزن أن يذبله، ولكنه لم يستطِع أن يكسبه الثبات والهدوء، وقالت:

ـ إنها تلائمني ملاءمة تامة. فقد حسبت أن «تشارلز» يريد المنزل للأولاد، ولكنه قال لي في زيارتي الأخيرة له إنه لا يريده لأننا لن نستطيع بحال أن نعيش في هذا المكان من إنجلترا ثانية. ويقول «تشارلز» إنه ينبغي أن نغير اسمنا، ولكني لا أجد الاسم الذي نستبدله به، لأن اسم «ويلكوكس» يلائمني تمامًا كما يلائم «تشارلز»، ولست أستطيع التفكير في اسم آخر.

وساد صمت عام. وتلفتت «دوللي» حولها في عصبية خشية أن يكون كلامها هذا غير لائق. وواصل «بول» حك ذراعه.

وقال «هنري»:

ـ أنا أترك إذن «هواردز إند» لزوجتي بلا تحفظ، وليعلم الجميع ذلك. ولا تكن هناك غيرة أو مفاجأة بعد موتي.

ولم تُجِب «مارجريت». وقد كان هناك شيء من الغرابة والغموض في انتصارها. فهي، التي لم تتوقع أن تقهر أحدًا، قد حملت على قلب آل «ويلكوكس» هؤلاء، وفككت حياتهم.

وقال «هنري»:

ـ وبناء على ذلك لن أترك لزوجتي مالًا من بعدي. وهذه هي رغبتها. وسيوزع عليكم المال الذي كان سيؤول إليها. ثم إني سأمنحكم كذلك قدرًا كبيرًا منه أثناء حياتي حتى يمكن أن تحيوا مستقلين عني. وهذه هي رغبتها أيضًا.

وستتنازل هي كذلك عن قدر كبير من مالها. إنها تعتزم أن تنقص دخلها إلى النصف خلال السنوات العشر القادمة. وهي تنوي أن تورِّث المنزل عند موتها لابن أختها الذي في الحقل. أهذا كله واضح؟ أكل منكم فاهم؟

ونهض «بول» منتصبًا. وكان قد اعتاد معاملة الأهالي الأفريقيين، والقليل جدًّا هو الذي يخرجه عن طور الرجل الإنجليزي. وقال وهو يشعر برجولته وكلبيته:

ـ في الحقل؟ أوه، مهلًا! أظن أنه كان أولى أن نستحوذ على الضيعة كلها بما فيها الأطفال الزنوج.

وهمست السيدة «كاهل» في أذنه:

ـ كُف عن هذا يا «بول»، فقد وعدت أن تكون حذرًا في كلامك.

ونهضت وهي تشعر بأنها امرأة عملية، واستعدت للاستئذان في الانصراف.

وقبلها أبوها وقال:

ـ مع السلامة يا فتاتي العزيزة. لا تقلقي عليَّ.

ـ في حفظ الله يا أبي.

ثم جاء دور «دوللي». وكانت تتوق إلى المشاركة فيما يقال.

وضحكت في عصبية وقالت:

ـ في حفظ الله يا سيد «ويلكوكس». إنه ليبدو غريبًا أن تكون السيدة «ويلكوكس» قد رغبت في توريث «مارجريت» «هواردز إند»، فإذا هي تفوز به رغم كل شيء.

وتنفست «إيفي» نفَسًا قويًّا وقالت لـ«مارجريت»:

ـ في حفظ الله.

وقبلتها.

وانحسرت الحياة ثانية، ثم انحسرت ثانية، كالجَزر في بحرٍ يحتضر.

ـ في حفظ الله.

ـ في حفظ الله يا «دوللي».

ـ إلى اللقاء يا أبي.

ـ في حفظ الله يا ولدي، حافِظ على نفسك دائمًا.

ـ في حفظ الله يا سيدة «ويلكوكس».

ـ في حفظ الله.

وشيعت «مارجريت» الزائرين حتى باب الحديقة، ثم عادت إلى زوجها ووضعت رأسها بين يديه، وكان مجهدًا إلى حدٍّ يستثير الشفقة. ولكن ملاحظة «دوللي» استثارت اهتمامها. وقالت آخر الأمر:

ـ هلا أخبرتني يا «هنري» ما هذا الحديث عن إيصاء السيدة «ويلكوكس» لي بـ«هواردز إند»؟

فأجاب في هدوء:

ـ نعم لقد فعلت ذلك. ولكن هذه حكاية قديمة جدًّا. فإنكِ إذ غمرتِها بعطفكِ بينما كانت مريضة، أرادت أن ترد لكِ جميلكِ بشيء ما، فكتبت لكِ «هواردز إند» متعجلة على قطعة ورق. ولم تكن عندئذٍ في حالتها الطبيعية. وقد درستُ المسألة بأكملها، وإذ وضح لي أنها قائمة على وهمٍ فقد صرفت النظر عنها من دون أن أعلم ماذا ستكون «مارجريت» بالنسبة لي في المستقبل.

وصمتت «مارجريت». وزلزل شيء حياتها إلى أبعد أغوارها، وانتفضت.

وسألها وهو يطأطئ رأسه:

ـ أنا لم أرتكب خطأ، أليس كذلك؟

ـ لا يا عزيزي. ليس ثمة خطأ ارتُكب.

وترامت الضحكات من الحديقة. وصاح «هنري» وهو يبعد عنها رأسه بابتسامة:

ـ ها هم أولاء أخيرًا!

واقتحمت «هيلين» المكان المظلم، ممسكة «توم» بإحدى يديها، وحاملة طفلها بالأخرى، وكانت هناك صيحات طرب مدوية. وقالت «هيلين» في حماسة:

ـ تم حصاد الحقل! المرج الكبير. راقبنا قَطْع الحشائش حتى النهاية. وسيكون هناك محصول من الدريس لم يسبق له مثيل!

ويبريدج ١٩٠٨-١٩١٠

## الكاتب

وُلِد «إدوارد مورجان فورستر» (١٨٧٩-١٩٧٠) في لندن. كتب ست روايات، ومجموعتين قصصيتين، ونصًّا أوبراليًّا، وسيرة ذاتية، وعددًا من الكتب الفكرية وأدب الرحلات، منها كتابان عن الإسكندرية، حيث عمل في الصليب الأحمر في أثناء الحرب العالمية الأولى. وترشح «فورستر» لجائزة نوبل في الأدب في ١٦ سنة مختلفة.

اشتهر برواياته الساخرة والمركَّبة التي تبحث في الاختلاف الطبقي والنفاق في المجتمع البريطاني في أوائل القرن العشرين، ويمكن تلخيص اندفاعه الإنساني نحو التفاهم والتعاطف بشكل مناسب في الجملة الافتتاحية لروايته «المنزل الريفي»: «ما عليك إلا أن تربط بين الأشياء».

## المترجم

محمد مفيد الشوباشي (١٨٩٩-١٩٧٢) أديب وناقد ومترجم مصري، تخرج في كلية الحقوق في عام ١٩٢٦. من مؤلفاته: «ألمع ساعات الحرج في تاريخ الإنسانية»، و«الأدب الثوري عبر التاريخ»، ورواية «الخيط الأبيض». ترجم أعمالًا لـ«جون جالزورذي» و«توماس هاردي» و«تورجينيف» و«راسين» و«سارتر».

## ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.

٢. سالباتييرَّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.

٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.

٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.

٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.

١٠. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.

١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.

١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.

١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.

١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.

١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

٢٥ . مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.

٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.

٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.

٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.

٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٣٢. الحرب والتربنتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.

٣٣. سولاريس - ستانيسواف لَم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.

٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.

٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.

## هوامش

1:نوع من القفاز مصنوع من الفرو تضع المرأة فيه يديها معًا للتدفئة. (المترجم).

2:معبود هندوسي من بين ما يقام له من احتفالات، المسير به في عربة طولها ٣٥ قدمًاوارتفاعها ٤٣.٥ قدمًا، ويجرُّها حشد هائل من المؤمنين به. (المترجم).